فهم القرآن الحكيم

التفسير
الواضح
حسب
ترتيب
النزول

القسم
الثالث

محمد عابد الجابري

فهم القرآن الحكيم
التفسير الواضح

حسب ترتيب النزول

القسم الثالث

فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الثالث

محمد عابد الجابري

الايداع القانوني رقم : 2009 MO 0505
ردمك : 3-3088-0-9954-978
طبع بدار النشر المغربية - عين السبع - الدار البيضاء - المغرب
الطبعة الأولى : **2009**
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مقدمة القسم الثالث

الرسول في المدينة

تنبه، بداية، إلى أننا سنسترجع هنا في هذه المقدمة بعض المادة التي سبق لنا أن نشرناها في كتابنا "العقل السياسي العربي" الذي صدرت الطبعة الأولى منه في فبراير 1990 (مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت). وقد اعتمدنا فيها كتب التفسير والسيرة وكتب المؤرخين مع اعتبار ترتيب النزول ومسار السيرة بشكل عام. ومع ذلك فإن قراءتها كما نشرت في "العقل السياسي العربي" لا يعفي القارئ مهما كان من قراءتها هنا، ليس فقط لما قد ندخله من إضافات وتعليقات بل أيضا لمتابعة تطبيق المنهج الذي سرنا عليه في القسمين السابقين من هذا الكتاب، أعني اعتبار المساوقة والمطابقة بين مسار التنزيل ومسير الدعوة، وهو منهج لن يكون في الإمكان تطبيقه بدون مقدمة عامة تعرض المطابقة بين هذه المسيرة وذاك المسار قبل الدخل في رحاب سور القرآن المدني. لقد كان الخطاب في القرآن المكي متجها إما إلى النبي عليه السلام، وإما إلى المشركين –وكان هذان هما الطرفان الرئيسيان فيه، وإما إلى المسلمين القدماء منهم والجدد. وكان من الممكن جدا التمييز فيه –كما فعلنا– بين ست مراحل.

أما القرآن المدني فهو يشكل مرحلة واحدة، تتداخل فيها المراحل و"اللحظات" سواء على مستوى مسار التنزيل، أو مسيرة الدعوة التي صارت ترافقها وتتداخل معها مسيرة تشييد الدولة. أما المخاطبون فقد تضاعف عددهم: فإلى جانب الخطاب الموجه إلى النبي، والخطاب الموجه إلى المشركين، هناك الخطاب الموجه إلى اليهود والنصارى، والخطاب الموجه إلى الفئة الجديدة التي أطلق القرآن عليهم اسم "المنافقين"، والخطاب الموجه إلى

الأعراب، والخطاب الموجه إلى المؤمنين الصادقين، والخطاب المحرض على القتال، والخطاب الداعي إلى العفو والتسامح، والخطاب الموجه إلى "المسلمين" الآخرين ("القاعدين" والمتخلفين" وأفراد آخرين)، وهناك الخطاب الخاص بالنساء، والخطاب الموجه إلى زوجات النبي الخ.

هذا على مستوى الخطاب.

أما على مستوى مسيرة الدعوة (وبناء الدولة) فالتعقيد والتداخل كان أكبر وأوسع. كان الرسول في مكة –حيث قضى ثلاث عشرة سنة بعد النبوة وقبل الهجرة– إما واحدا من قومه حرا طليقا، وإما مضطرا إلى السرية حين الدعوة والعبادة (دار ابن الرقم)، وإما يتحرك تحت حماية عمه أبي طالب، وإما محاصرا هو وعشيرته في شعب هذا الأخير بالجبل المطل على مكة، وإما يعرض نفسه على القبائل في المواسم والأسواق ... أما في المدينة التي قضى فيها عشر سنوات قبل وفاته فقد كانت مليئة بالأحداث من كل نوع وذلك إلى درجة يصعب معها إقامة التساوق بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة وبين ترتيب السور: فبعض السور في القرآن المدني تضم آيات يقال إنها نزلت في أوقات مختلفة ولكن متزاحمة. ويؤكد ابن عباس فيما روي عنه أن النبي كان إذا نزلت آية قال لكتاب الوحي ضعوا هذه الآية في سورة كذا، أو سورة كذا! وبناء عليه قال بعض المفسرين (ابن عاشور خاصة) إن سور القرآن، أو الطويلة منها على الأقل، كانت تبقى مفتوحة، تضاف إليها من حين لآخر آيات بأمر من الرسول، وقد يحدث أن تغلق سورة وتبقى التي قبلها مفتوحة أو العكس. وهذا القول يحاول به أصحابه إضفاء المعقولية على الاختلاف بين ما تقرره آيات في سورة وأخرى في سورة، بعيدة منها أو قريبة. أما القائلون بـ النسخ" فقد وجدوا في هذه الظاهرة مجالا خصبا لتوزيع الوصفين "ناسخ" و"منسوخ" على آيات أو أجزاء منها، وبالغوا في ذلك متجاهلين وحدة السياق والترابط بين الجمل العبارات ...

من أجل تسهيل فهم هذه التداخلات والتعقيدات التي ضخمتها الروايات، التي يظهر منها بوضوح أنها تعتمد التخمين لا إقرار حقائق تاريخية، رأينا أنه من الضروري رسم صورة إجمالية عن العهد المدني للنبوة، مسيرة وتنزيلا، قبل الشروع في التعامل مع النص المنزل.

* * *

1- الرسول في المدينة: مسألة العيش؛ أول قضية، أول خطبة.

تركنا الرسول عليه السلام في القسم الثاني من هذا الكتاب (التعليق الذي أنهينا به سورة الحج وهي آخر سورة نزلت في مكة حسب ترتيبنا)، أقول تركناه وقد دخل يثرب (المدينة) وسط ترحاب كبير من أهلها، أنصارا ومهاجرين؛ أما اليهود الذين كانوا يشكلون قسما كبيرا من سكانها فلم يرد فيما اطلعنا عليه من مصادر ومراجع ما يعرفنا بموقفهم إزاء هذا الدخول. ومهما كان الأمر فقد كانت القضية الأولى التي كان لا بد أن تواجه الرسول (ص) في المدينة هي تنظيم "عيش" المهاجرين الذين غادروا مكة، قبل هجرته هو وبعدها مباشرة، تاركين ديارهم وممتلكاتهم. وقد أظهر اهتمامَه بهذه القضية في أول خطبة ألقاها بعد وصوله إلى المدينة، إذ خصصها كلها لهذا الموضوع. قال، بعد أن حمد الله: "أما بعد... أيها الناس، فقدموا لأنفسكم (=في الدنيا ما ينفعكم في الآخرة)، تعلمُنَّ والله ليصعَقن أحدُكم (يموت)، ثم ليدَعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربُّه، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك؟ وآتيتك مالا وأفْضَلْتُ عليك، فما قدمت لنفسك؟ فلَينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم لَينظر قدامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"[1].

دعوة واضحة إلى التضامن والتكافل بين جميع المسلمين، بين الأنصار والمهاجرين. وكان المهاجرون قد نزلوا عند إخوانهم في الدين، الأنصار، في دورهم ومنازلهم. ولكي يجسم الرسول (ص) هذه الدعوة إلى واقع اجتماعي ملموس سَنَّ نظام "المؤاخاة" : فآخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، وبينهم وبين الأنصار، وكانت المؤاخاة على "الحق والمساواة"[2] بما في ذلك حق التوارث. فالرجل يرث صاحبه الذي تآخى معه حتى ولو لم يكن من أقاربه. إن

---

1 - السيرة لابن إسحاق. ج1 ص 500-501

2 - ابن سعد. طبقا ابن سعد ج1 ص 238

"الأخوّة في الدين" تقوم هنا مقام الأخوة في النسب، وبذلك حلت "الأمةُ" و"الملة" محل القبيلة والعشيرة.

ومع ذلك، فإن تجاوز "القبيلة" بصورة كاملة ونهائية لم يكن ممكنا. فالدعوة إلى "الأمة" مازالت في بدايتها. ولذلك كان لا بد من أن يبقى شيء ما من "القبيلة": لقد نزل المهاجرون أبناء القبائل على أبناء القبائل من الأنصار، أصدقاء أو أقارب الخ. أما الفقراء من المهاجرين الذين لم تكن لهم قبائل، وهم "المستضعفون" الذين تحدثنا عنهم في المرحلة المكية (ومعظمهم كانوا موالي وعبيدا لقريش) فقد أذن لهم الرسول (ص) بأن يأوون إلى صفة المسجد -أي المكان المسقوف منه- وتكفل هو والقادرون من أصحابه بإطعامهم، فعرفوا بـ"أهل الصفة"، وكان من بينهم أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر والمقداد وأبو حذيفة بن اليمان الخ[3].

<u>2- مسألة التعايش : عقد اجتماعي جديد...</u>

هذا عن مسألة "العيش"، أما المسألة الثانية التي كان لابد أن تطرح نفسها، على النبي عليه السلام في أول مقامه في المدينة، فهي مسألة "التعايش" بين مختلف الفئات التي أصبحت تقطن "يثرب"، إذ بدون نظام يضمن التعايش السلمي، بل التعاون فيما بينها، لن يصبح في الإمكان القيام بالمهمة التي كانت من أجلها الهجرة إلى المدينة. في هذا الإطار ومن هذا المنظور يجب أن نقرأ "الصحيفة"/المعاهدة التي كتبها الرسول (ص) بين المهاجرين والأنصار واليهود حتى لا نخرج بها من مجال "المفكر فيه" يوم كتابتها، كما يفعل كثير من الباحثين والكتاب المعاصرين، عربا ومستشرقين. إن أصدق تعريف لهذه "الصحيفة" هو ما قاله عنها ابن إسحاق، قال: "وكتب رسول الله (ص) كتابا بين المهاجرين والأنصار وادَع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم"[4]. فـ "الصحيفة"، إذن، هي من الناحية السياسية معاهدة بين الرسول واليهود، ولكنها من حيث مضمونها العام "عقد اجتماعي" لسكان المدينة كافة. وفيما يلي نصها، وقد رتبنا فقراتها حسب موضوعاتها:

---

3 - ابن سعد نفس المرجع ج1 ص 255-256

4 - ابن إسحاق ج1 ص 501

1- تبدأ "الصحيفة" بتحديد هوية الطرف الأول في المعاهدة فتقول: "بسم الله الرحمان الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي (ص) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس". وهكذا فالطرف الأول في المعاهدة فئتان : مؤمنون... ومسلمون (من قريش ويثرب ومن لحق بهم). وهذا التمييز بين "المؤمن" و"المسلم"، في ذلك الوقت كان له معنى خاص، توضحه الآية التي نزلت فيما بعد ونصها: "قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا يَلِتْكُم (= لا ينقصكم) من أعمالكم شيئا؛ إن الله غفور رحيم". وتأتي الآية التي بعدها لتحدد هوية المؤمن : "إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل لله أولئك هم الصادقون" (الحجرات 49/14-15). أما مجرد "المسلم" فهو من أعلن الخضوع للإسلام، ويجوز أن يكون ما يظهر غير ما يبطن. وبعبارة عصرنا يمكن القول إن "المؤمن" هو من كان إسلامه عقائديا، أي هو مسلم عن عقيدة، وبالتالي فهو "مواطن" في "الأمة" التي تقوم على العقيدة. وأما مجرد "المسلم" فإسلامه "سياسي" (الاعتراف بالدين الجديد وسلطة دولته). وكان هناك في المدينة ما يبرر هذا التمييز: كان هناك المؤمنون الصادقون وهم المهاجرون والأنصار، وكان هناك "المنافقون" وهم جماعة من أهل يثرب أظهروا إسلامهم ولكنهم كانوا يبطنون العداوة والحقد لمحمد وأصحابه. وبما أنهم قد أعلنوا إسلامهم فلقد كان اسم "الإسلام" يجمعهم في "أمة"، -أي ملة - واحدة مع المهاجرين والأنصار، وذلك في مقابل "الآخر" الذي كان يتألف كما سنرى من مشركين ويهود.

2 - بعد تحديد هوية الطرف الأول في المعاهدة تعمد "الصحيفة" إلى بيان "النظام الداخلي" الذي تسير عليه الفئات التي يتكون منها المجتمع الجديد. وهكذا فكل فئة من فئات المؤمنين والمسلمين، المهاجرين والأنصار والمسلمين الجدد من أهل يثرب، تواصل العمل بـ "العرف" الذي كانت تعمل به قبل الإسلام، في مجال أخذ الديات وإعطائها، مع التزام المعاملة الحسنة للأسرى والعمل بالعدل في افتدائهم : "المهاجرون من قريش على رباعتهم يتعاقلون"[5]

5 - رباعتهم : حالتهم السابقة. يتعاقلون : يعطون ديات قتلاهم.

بينهم، وهم يفدون عانيهم[6] بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو ساعدة" الخ. وهكذا تذكر الصحيفة أهل يثرب طائفة طائفة.

ثم تنص الصحيفة على التضامن والتكافل بين المؤمنين بعضهم مع بعض. "إن المؤمنين لا يتركون مُفرّحا (المغلوب المحتاج، الفقير) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل (دية)، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين (هم جميعا) على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم (عظيمَ ظلم) أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن. وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم (إذا أجار الضعيف منهم أحدا فإن ذلك يلزم الجميع". وإن المؤمنين بعضهم موالي (أولياء) بعض دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود (أسلم) فإن له النصير والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سِلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم (لا يصالح أحد منهم العدو بمفرده فالصلح يعقده المسلمون جميعا : هو من اختصاص الجماعة وليس من اختصاص الأفراد)، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا (الخروج للغزو والقتال يكون بالتناوب بين القبائل)، وإن المؤمنين يفيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله (دماؤهم في الجهاد متكافئة، القوي كالضعيف)، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه". "وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا (قتله بدون جناية) عن بينة، فإنه قود به (يقتل في محله) إلا أن يرضى ولي المقتول. وإن المؤمنين عليه (ضده) كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه (استنكار فعلته)، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا (جانيا أي يحول دون القصاص منه) ولا يأويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل (لا يطالب بأكثر من قيمة الظلم الذي قام به الجاني الذي دخل في حمايته).

3 – ذلك عن الطرف الأول ونظامه الداخلي. أما الطرف الثاني، وهم اليهود، فتقرر الصحيفة في شأنه ما يلي: "وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين" (= يتحملون نصيبهم من نفقات الحرب التي يشاركون فيها مع

---

6 – عانيهم : أسيرهم

المؤمنين) وإنهم بجميع طوائفهم يشكلون في هذا المجال، مجال الحرب، "أمة" (=جماعة) واحدة مع المؤمنين. وهكذا فـ "إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (= لا يضر) إلا نفسه وأهل بيته. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف" الخ. وهكذا بالنسبة لجميع طوائف اليهود. وتضيف الصحيفة: "إنه لا يخرج منهم –من اليهود– أحد إلا بإذن محمد (ص)، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح[7]، وإنه من فتك، فبنفسه فتك وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا (= على الرضا به)، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم (= في الحرب)، وإن بينهم (= بين المسلمين واليهود) النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين".

4 – ثم تقرر الصحيفة تحريم القتال في يثرب وتنص على الدفاع المشترك عنها. فمن جهة : "إن يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصحيفة، لأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها" (أهل يثرب). ومن جهة أخرى : "إن بينهم (=المتعاقدين بهذه الصحيفة) النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين: على كل الناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم".

5 – وتقرر الصحيفة أنه لا يجوز لمشرك ولا لليهود من أهل يثرب أن يُجير أي شيء لقريش، وبمعنى آخر: إن الطرف الأول (المؤمنون) يعلن للطرف الثاني أنه في حالة حرب مع قريش، فيجب الامتناع عن مساعدتها بأي شكل كان. وهكذا تؤكد الصحيفة : "أنه لا يجير مشرك (= من أهلِ يثرب) مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مزمن"، وأيضا : "وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها" (والكلام هنا مع اليهود).

6 – وتقرر الصحيفة أن المرجع في الخلاف هو محمد (ص) سواء كان الخلاف بين المؤمنين والمسلمين بعضهم مع بعض أو بينهم وبين اليهود. وهكذا توجه الخطاب للمؤمنين : "وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده

7– أي يَكُفوا عن القَوَد؛ وكل من ترك شيئاً، فقد انـحَجَزَ عنه.

إلى الله عز وجل وإلى محمد". ثم تؤكد، والخطاب لليهود : "إنه ما كان بين هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله (ص) وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره".

7 – وتختم الصحيفة بالتأكيد على أن العلاقات في يثرب يجب أن تبنى على البر وحسن المعاملة والحرص على الأمن فتقول : "وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جارٌ (بمعنى حام ومجير) لمن بر واتقى ومحمد رسول الله (ص)" (جارٌ له كذلكِ).

تلك هي "الصحيفة" الشهيرة التي هي بمثابة "نظام داخلي" لجماعة المؤمنين والمسلمين، في شؤون الجنايات والحرب خاصة، من جهة، ومعاهدة بين الرسول وبين اليهود مز جهة ثانية، "معاهدة حربية" بالأحرى. ولا بد من استحضار هذا الجانب الثاني لفهم المآل الذي سينتهي إليه يهود المدينة، كما سنرى. وما ينبغي التأكيد عليه هنا، الآن، هو أن "العقد الاجتماعي" الذي تأسس عليه كيان الدعوة المحمدية في المدينة هو "عقد" حربي. وهذا أمر طبيعي، فما دامت الهجرة إنما كانت من أجل تنظيم الحرب ضد مشركي قريش الذين رفضوا الدعوة السلمية وحاربوها وأخرجوا أهلها من ديارهم، وما دام الإذن الإلهي بالقتال قد اقترن بالإذن بالهجرة، كما بينا في القسم الثاني من الكتاب، فإن تبليغ الرسالة أصبح يتوقف على تحقيق النصر على قريش. ولذلك كان العمل من أجل هذا الهدف على رأس الأولويات.

<u>3- إستراتيجية ضرب مصالح قريش التجارية...</u>

رأينا في القسم السابق كيف أن النبي (ص) لم يهاجر إلى المدينة إلا بعد أن أبرم مع ممثليها معاهدة "الدفاع المشترك" المعبر عنها بـ "بيعة العقبة" التي نصت على: "الهدم بالهدم والدم بالدم"، وأبرزنا كيف أن إبرام هذه المعاهدة قد تزامن مع نزول آية القتال التي تأذن للمسلمين بخوض الحرب مع قريش بعد أن كانت الآيات القرآنية من قبل توصي بالصبر (نحو سبعين آية). ولم يكن القتال هدفا في ذاته، بل كان من أجل الارتفاع بالدعوة المحمدية إلى المستوى الذي تشعر معه قريش بأن مصالحها الاقتصادية ستدمر تدميرا إذا هي لم تُسلم؛

وإسلام قريش ضروري لإسلام باقي القبائل العربية، فلقد كانت لها الزعامة عليها.

بالفعل، كان "القتال" ضد قريش يستهدف منذ البداية ضرب مصالحها التجارية. لقد كان النبي وصحبه يدركون أن قريشا لا تهمها آلهتها ولا دياناتها وإنما تهمها تجارتها، ولذلك مارسوا ضدها السياسة الصريحة بوسائل الحرب الصريحة : اعتراض قوافلها التجارية القادمة من الشام. والمدينة تقع كما هو معروف بين مكة والشام، وبالتالي فقد كان تحكّم المدينة في طريق تلك القوافل أمرا تفرضه الجغرافيا فضلا عن "التاريخ"، تاريخ التجارة العالمية وطرقها في العالم القديم. وهكذا فما أن استقر المقام بالنبي وصحبه المهاجرين بالمدينة حتى بادر إلى تنظيم سرايا [8]، يقودها من يعينه النبي، أو غزوات يتولى قيادتها بنفسه، والهدف : اعتراض القوافل التجارية القرشية القادمة من الشام.

وإنه لمما يثير الانتباه حقا أن يبادر الرسول (ص)، في الشهر السابع -فقط- من وصوله المدينة مهاجرا، إلى تنظيم سرية أسند قيادتها إلى عمه حمزة مكلفة بمهمة اعتراض قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام كان يقودها أبو جهل ومعه ثلاثمائة رجل، وكانت لقبيلته القيادة في قريش يومئذ. غير أن حليفا للفريقين تدخل بينهما وحال دون وقوع القتال، فتابع أبو جهل طريقه إلى مكة. وبعد شهر فقط نظم الرسول (ص) سرية أخرى بقيادة عبيد بن الحارث فتوجهت إلى "رابغ" لاعتراض قافلة من مائتي رجل كان يقودها أبو سفيان، زعيم بني أمية، وقد جرت بين الفريقين مناوشات وتراشق بالسهام ثم افترقا. وبعد شهر أيضا، أي في الشهر التاسع للهجرة جهز الرسول سرية ثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص كانت مهمتها القيام بعملية استطلاعية، فقامت بالمهمة ولكن صادف أن القافلة المستهدفة كانت قد مرت قبل بيومين[9]. وفي الشهر الثالث من السنة الثانية غزا الرسول بنفسه غزوة الأبواء (أو: ودان) حيث أقام خمس عشرة ليلة ينتظر قريشا ثم عاد إلى المدينة، ليخرج في الشهر نفسه في مائتين من أصحابه بقصد اعتراض قافلة قرشية في بواط كان على رأسها أمية بن خلف في مائة رجل وألفين وخمسمائة بعير، ولكن الاصطدام لم يحدث. ثم

---

8 - جمع سرية، وهي جماعة من المقاتلين يذهبون بسرية (ليلا في الغالب) لاعتراض العدو وضربه وانتزاع متاعه الخ.

9 - أبو عبد الله عمد بن عمر الواقدي، كتاب المغازي. طبعة أكسفورد. ج1 ص 10-12.

غزا في الشهر نفسه غزوة "ذات العشيرة" بهدف اعتراض قافلة قرشية أخرى قادمة من الشام... فهذه سبع سرايا وغزوات نظمها الرسول (ص) في مدى ثلاثة عشر شهرا من مقدمه مهاجرا إلى المدينة، وكانت جميعها بهدف اعتراض القوافل التجارية القرشية.

إن هذه الحملات تدل، من جهة، على مدى النشاط التجاري الواسع الذي كانت تقوم به قريش والذي يرجع في جملته، كما بينا، إلى أهمية مكة كمركز تجاري وديني، وتدل من جهة أخرى على أن الرسول (ص) كان يدرك تماما أن أنجع إستراتيجية قتالية ضد قريش هي تلك التي تشعرها بأن مصالحها التجارية أصبحت مهددة.

ولكي يجعل الرسول قريشا تدرك بأن هذا التهديد الذي تتعرض له قوافلها يمكن أن يتحول إلى خطر حقيقي، يصيبها في عقر دارها، بعث عبد الله بن جحش في رجب من السنة الثانية من الهجرة على رأس جماعة صغيرة من المهاجرين كلفت باستطلاع أخبار القوافل المتنقلة بين مكة والطائف. إن هذا يعني أن الرسول قد عقد العزم على إشعار قريش بأنه يستطيع ضرب تجارتها ليس فقط على الطريق بين مكة والشام ولكن أيضا على الطريق بين مكة والطائف. وهما القريتان المتحالفتان المتجاورتان. قامت البعثة بمهمتها وأغارت على قافلة تجارية وساقتها مع رجلين منها إلى الرسول بالمدينة. وقد حدث ذلك في شهر رجب، وهو من الأشهر الحرم، ولم يكن الرسول قد أمرها بالقتال فيه، فحصل نقاش بين أصحابه هل يجوز القتال في الشهر الحرام أم لا يجوز[10]، وخافوا أن تعيرهم قريش بذلك فنزل قوله تعالى : "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ؟ قُلْ : قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ، أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ. وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ". (البقرة 217).

4- تحويل القبلة... وغزوة بدر الكبرى

وبعد ذلك بشهر واحد وقع حادثان تاريخيان يدخلان في الإطار نفسه : أولهما تحويل القبلة إلى مكة، والثاني غزوة بدر الكبرى. كان النبي (ص) يصلي إلى بيت المقدس، قبل الهجرة إلى المدينة (ضدا على قريش وأصنامها)،

10 – الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص17،وابن هشام، السيرة ، ج1 ص601

وقد بقي كذلك إلى الشهر الثاني من الهجرة، حين أخذ يفكر في مسألة القبلة. ولا بد أنه كان يوازن بين أن يستمر في الصلاة إلى القدس تاركا الكعبة لقريش، التي كانت دعايتها ضده تقوم على جملة أمور منها أنه "ترك قبلة آبائه واتبع قبلة اليهود"، وبين أن ينقل القبلة إلى الكعبة وسيكون ذلك نوعا من "القطيعة" مع اليهود الذين كان يحرص أشد الحرص على تجنب الاصطدام معهم رغم ما كانوا يقومون به من تحريك التناقضات داخل يثرب. ولا شك أن اتخاذ الكعبة قبلة للمسلمين كان أهم كثيرا من ردود فعل اليهود، ليس فقط لأن المسلمين والعرب عموما كانوا ينظرون إلى الكعبة كتراث "قومي" من جدهم إبراهيم عليه السلام، بل أيضا لأن قريشا يمكن أن تقرأ ذلك بمنطقها التجاري قراءتين مختلفتين، كلتاهما في صالح المسلمين. يمكن أن تقرأه، من جهة، على أنه دليل على أن النبي لن يقف عند مجرد اعتراض قوافلها التجارية والإغارة عليها بل هو يخطط لما هو أبعد وهو الاستيلاء على مكة نفسها، قبلة الصلاة التي لا يجوز أن تبقى في يد المشركين. ومن الممكن أن تفسر قريش تحويل القبلة إلى مكة تفسيرا آخر فترى فيه "رسالة" مفادها أن الإسلام يمكن أن يحتفظ لمكة بوضعيتها كمركز ديني وبالتالي على أهميتها التجارية، مما يعني أن أهلها سيحافظون على مصالحهم الاقتصادية إذا هم أسلموا وأسلم العرب وصار الجميع يعبد الله وحده ويتجه بصلاته إلى الكعبة كقبلة، وبالتالي يحج إليها... مثل هذه الخواطر لا بد أن يثيرها في مخايل قريش التجارية تحويل قبلة المسلمين إلى الكعبة فيكون منهم من يزداد تخوفه من محمد (ص) إذا أخذوا بالقراءة الأولى، ويكون منهم من يطمع في حدوث تحول في مجرى الأحداث لصالح تجارتهم إذا أخذوا بالقراءة الثانية.

ويأتي الوحي ليفصل فيما كان يفكر فيه النبي حينما كان يقلب نظره في السماء يبحث عن الاتجاه المناسب كقبلة للمسلمين. قال تعالى:" سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[11]. (البقرة 142). واضح إذن أن

11- في السيرة الحلبية: "وعن كعب بن مالك قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا ... فلما خرجنا من المدينة قال البراء لنا: إني قد= رأيت رأيا ما أدري أتوافقوني عليه أم لا، قال: قلنا وما ذاك؟ قال: رأيت أن لا أدع هذه البنية ... يعني الكعبة مني بظهر، وأن أصلي إليها. قلنا : والله ما بلغنا أن نبينا يصلي إلا إلى الشام: يعنون بيت المقدس ... وما نريد أن نخالفه. فقال: إني أصلي إليها، فقلنا له: لكنا=

الأمر كان يتعلق فعلا بقرار تاريخي ينطوي على أكثر من مغزى. إن التوجه إلى الكعبة حين الصلاة يتبعه حتما تأكيد التوجه إليها للحج والعمرة أيضا، وذلك ما حصل كما سنرى.

5- غزوة بدر – وانتقال الزعامة إلى بني أمية أولاد عم بني هاشم

وتأتي غزوة بدر الكبرى بعد شهر واحد فقط من قرار تحويل القبلة إلى مكة لتعطي لهذا القرار بعده التاريخي. لقد كسر المسلمون في هذه الغزوة شوكة قريش إلى الأبد. ذلك "أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في قريب من سبعين راكبا من قبائل قريش كلها، كانوا في تجارة بالشام، فأقبلوا جميعا معهم أموالهم وتجارتهم، فذكر ذلك لرسول الله (ص) وأصحابه... فلما سمع بهم رسول الله (ص) ندب أصحابه وحدثهم بما معهم من الأموال وبقلة عددهم، فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه، ولا يرونها إلا غنيمة لهم"[(12)]. ولما علم أبو سفيان بالأمر أرسل إلى قريش يطلب النجدة، فبادرت قريش

لا نفعل. قال الراوي: فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام (يعني بيت المقدس) واستدبرنا الكعبة، وصلى (البراء) إلى الكعبة أي مستدبرا للشام حتى قدمنا مكة وقد كنا عبنا عليه ذلك وأبى إلا الإقامة على ذلك. فلما قدمنا مكة قال لي: يا بن أخي انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا، فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء، لما رأيت من خلافكم إياي فيه. فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا لا نعرفه، لأنا لم نره قبل ذلك، فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: تعرفانه؟ قلنا لا، قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قلنا نعم، وكنا نعرف العباس، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً، قال: فإذا دخلتما المسجد، فإذا هو الرجل الجالس مع العباس، فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله صلى الله عليه وسلم معه، فسلمنا حين جلسنا إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب ابن مالك، قال كعب: فوالله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الشاعر"؟ قال: نعم، فقال له البراء بن معرور: يا رسول الله إني خرجت في سفري هذا وقد هداني الله بالإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر: يعني الكعبة، فصليت إليها، وخالفني أصحابي في ذلك حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال قد كنت على قبلة لو صبرت عليها، فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بيت المقدس: أي ولم يأمره بإعادة ما صلاه مع أنه كان مسلما؛ وبين له أنه كان الواجب عليه استقبال بيت المقدس". (السيرة الحلبية: باب عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل من العرب".

12 – الطبري، نفس المرجع، ج2، ص20. من رسالة عروة إلى عبد الملك بن مروان حول وقعة بدر.

وجهزت جيشا قوامه 950 رجلا على رأسه أبو جهل بن هشام، رجل بني مخزوم القوي. غير أن أبا سفيان استطاع أن يتلافى طريق المسلمين، إذ عرج بالقافلة نحو البحر، ودخل مكة مسرعا، وأرسل إلى أبي جهل وجيشه يخبره بنجاة القافلة، فرغب فريق من رجاله في العودة إلى مكة وتجنب الصدام مع المسلمين بينما أصر هو على الذهاب إلى "بدر"، وكانت من مواسم العرب، يقيمون فيها سوقا كل سنة للاحتفال وإظهار الفرح حتى تسمع العرب بذلك وتحتفظ قريش بهيبتها. وجرى نقاش في صفوف المسلمين الذين كان عددهم 314 رجلا بقيادة النبي نفسه، ثم أجمعوا على التصدي لجيش أبي جهل الذي دخله الانقسام، إذ انسحب منه بنو زهرة لما علموا بنجاة القافلة. كانت المواجهة إذن بين المسلمين وبني مخزوم أساسا، وقد انتصر فيها المسلمون وقتل أبو جهل وقتل معه 23 رجلا من خيرة مقاتلي هذه القبيلة، من أصل 70 قتيلا في صفوف قريش مقابل استشهاد 14 من المسلمين، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار[13].

كانت لهذه الوقعة نتائج بالغة الأهمية قررت مصير الصراع بين الدعوة المحمدية وقريش. لقد انكسرت شوكة بني مخزوم وانتقلت الرئاسة في مكة إلى أبي سفيان، وهو من بني أمية أولاد عم بني هاشم، الشيء الذي فتح الباب لإمكانية توظيف "مفعول القبيلة" الإيجابي، بالدفع بالصراع نحو نهاية مرضية مع أقل ما يمكن من الخسارة كما يحدث بين أبناء العم دائما. ويمكن أن نلمس هذا في موقعة "أُحُد" التي أرادت فيها قريش أن تأخذ الثأر لقتلاها في بدر، وكان جيشها بقيادة أبي سفيان الذي "قنع" بأخذ الثأر ورفع شعار "الحرب سجال، يوم بيوم"، مع أنه كان بإمكانه أن يطمع في جعل هزيمة المسلمين أكثر فداحة. لقد قفل أبو سفيان راجعا إلى مكة مخاطبا المسلمين: "إن موعدكم ببدر للعام القادم" [14].

ومن نتائج غزوة بدر حصول المسلمين على غنائم هامة مكنتهم من التغلب على الضيق الذي كان فيه المهاجرون بالمدينة. لقد تركوا ديارهم وممتلكاتهم بمكة وهاجروا فارغي الأيدي تقريبا. ومع أن الرسول قد خفف من المشكلة بنظام "المؤاخاة" كما أشرنا إلى ذلك من قبل، فإن المشكلة بقيت مع

13 – ابن إسحاق، نفس المرجع، ج1 ص 708-715

14 – نفس المرجع، ج2 ص 93-49

ذلك قائمة من بعض الوجوه. وهكذا جاءت غنائم بدر لتزيل الحاجة إلى نظام المؤاخاة، فجاء الوحي بإبطال الإرث بالمؤاخاة وإعادته إلى النسب فقط : "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا؛ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ؛ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (الأنفال 74-75). ولا بد من الإشارة هنا إلى أن سورة "الأنفال" قد نزلت بعد بدر مباشرة لتشرع لكيفية توزيع غنائم الحرب. لقد تنازع المسلمون حول غنائم بدر فقسمها الرسول "على السواء" بين من حضر المعركة من المسلمين، ثم نزلت سورة الأنفال تشرع لذلك. كما سنرى. ...

6- الدور المزدوج للغنائم ...

لم يكن اعتراض النبي (ص) لقوافل قريش التجارية بدافع الحصول على غنائم، وإنما كان ذلك من أجل حمل قريش على الرضوخ والدخول في الإسلام. لقد رفض الرسول ما عرضه عليه زعماء قريش بمكة من إغراءات مادية كثيرة، ولا شك أنه كان سيرفض أية عروض مادية تقدمها له قريش وهو بالمدينة مقابل عدم التعرض لقوافلها. لقد كان الرسول (ص) صاحب رسالة لا صاحب مطامع ومطامح، وقد عقد العزم على مواجهة جميع الضغوط والإغراءات والمضي قدما بالدعوة إلى الأمام. غير أن طبيعة الحياة البشرية تقتضي أنه لابد للنجاح من وسائل، وأولى الوسائل التي يتطلبها تجهيز السرايا والجيوش هو المال. لقد كان لا بد إذن من أن تدخل "الغنيمة" كجزء أساسي في الكيان المادي جماعة المسلمين.

غير أن دخول "الغنيمة" في كيان الجماعة، ولو في إطار خدمة الدعوة ورسالتها، كان لا بد أن يؤدي أيضا إلى دخولها في "عقل" الأفراد -السياسي والاقتصادي- ومن ثمة تصبح "الغنيمة" من جملة الحوافز التي تحرك البعض على الأقل -خصوصا والمسلمون الجدد لم يكونوا قد تشبعوا بعد بروح الرسالة- بل قد تدفع إلى نوع من الشطط في بعض الأحيان كما حدث عندما نزل نفر من الصحابة برجل من بني سليم وهو يسوق غنما، فسلم عليهم فقالوا: ما سلم علينا إلا تقية، فقتلوه واستاقوا غنمه. وفي ذلك نزل قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ

كَثِيرَةٌ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا؛ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (النساء، 94).

وعندما قرر النبي الذهاب إلى مكة معتمرا لأول مرة بعد هجرته إلى المدينة استنفر الأعراب للخروج معه، حذرا من أن تعمد قريش إلى الهجوم عليه أو منعه من دخول مكة، والقيام أيضا بنوع من "استعراض القوة" أمامها، فاعتذر أولئك الأعراب باتشغالهم بأهليهم وأموالهم. وعندما عاد النبي (ص) سالما منتصرا، انتصارا معنويا، بعد أن أبرم مع قريش "صلح الحديبية"، وكان قد وعد أصحابه حين إبرام الصلح "أن يعوضهم من مغانم مكة مغانم خيبر"، جاء أولئك الأعراب يطلبون الذهاب معه إلى خيبر طمعا في الغنيمة. وفي ذلك جاء في سورة الفتح : "سيقول لك المخلفون من الأعراب (أي الذين تخلفوا عن الذهاب مع النبي إلى مكة) شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا (...) سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم (مغانم خيبر) لتأخذوها ذرونا نتبعكم (...) قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي باس شديد تقاتلونهم أو يسلمون، فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما". وتثني السورة على المؤمنين الذين بايعوا النبي على القتال حتى الموت في الحديبية (قبل عقد الصلح) وتعدهم بأن الله سيعوض لهم رجوعهم بدون قتال، وبالتالي بدون غنيمة، بغنائم أخرى كثيرة : "لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة (بيعة الرضوان بالحديبية) فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم (وعدهم ثوابا لهم) فتحا قريبا ومغانم كثيرة (مغانم خيبر) يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما. (الفتح 11، 15...21).

هكذا صارت "الغنيمة" حاضرة في غزوات النبي (ص) وسراياه، يأخذها المسلمون ويوظفونها ليس فقط في تجهيز الجيوش بل أيضا في تحفيز النفوس على الجهاد، خصوصا وإستراتيجية اعتراض القوافل والاستنزاف تقتضي عملا متواصلا، سرايا وغزوات متتالية. وذلك ما حصل بالفعل، فلم يمكث النبي في المدينة بعد عودته إليها من غزوة بدر سوى سبعة أيام حتى خرج يريد بني سليم وغطفان لأنه سمع أنهم تجمعوا قريبا من المدينة، ربما للهجوم عليها؟ غير أنه لما وصل إلى المكان وجدهم قد غادروه فأرسل سرية تتعقبهم فتمكنت من مصادرة إبلهم وجاءت بها غنيمة فأخذ خمسها ووزع الباقي على من خرج معه فكان نصيب الواحد منهم سبعة أبعرة.

7- الصداع مع اليهود

وبعد غزوات ثانوية لم يكن فيها قتال ولا غنيمة قام بعد شهر أو أشهر من وقعة بدر بضرب حصار على يهود بني قَيْنقَاع لما ظهر منهم من إساءة للمسلمين، الشيء الذي أعتبر خرقا من جانبهم لبنود الصحيفة/المعاهدة. وبعد خمسة عشر يوما من الحصار استسلموا فأجلاهم عن المدينة إلى الشام "وغنّم الله عز وجل رسوله والمسلمين ما كان لهم من مال، ولم تكن لهم أرضون وإنما كانوا صاغة فأخذ رسول الله (ص) لهم سلاحا كثيرا وآلة صياغتهم... - وقيل- فيها كان أول خمس خمسه رسول الله (ص) في الإسلام، فأخذ رسول الله (ص) صفيه[15] والخمس وسهمه وفض أربعة أخماس على أصحابه"[16]. وبعد بدر بستة أشهر كانت غزوة "القردة". ذلك "أن قريشا قالت : لقد عوّر علينا محمد متجرنا (= تجارتنا) وهو على طريقنا. وقال أبو سفيان وصفوان بن أمية : إن أقمنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا" فاقترح عليهم أحد الخبراء بالطرق الصحراوية سلوك طريق العراق ففعلوا وسارت القافلة بقيادة أبي سفيان "وفيها مال كثير وآنية من فضة". ويبدو أن استعلامات النبي (ص) بمكة كانت نشطة إذ ما لبث أن سمع بالخبر فأرسل لاعتراضها سرية بقيادة زيد بن حارثة "فظفرت بالعير"، وأفلت أعيان القوم، وجاءت بالغنيمة إلى المدينة "فكان الخمس عشرين ألفا فأخذه رسول الله (ص) وقسم الأربعة الأخماس على السرية"[17].

وبعد موقعة أحُد التي انهزم فيها المسلمون قام الرسول (ص) بتنظيم عدة حملات على الأعراب خارج المدينة دفعا لطمعهم في النيل من المسلمين بعد هزيمتهم تلك ولم يحصل اصطدام، ولكن حصل المسلمون على غنائم فضلا عن الفوائد المعنوية. ثم حدثت حادثة إجلاء يهود بني النضير، وذلك عندما هموا على الغدر بالنبي (ص) حينما ذهب إليهم يطلب منهم، طبقا للصحيفة/المعاهدة، المساهمة في دفع دية رجلين كان قد أعطاهما الأمان

---

15 - الصفي، والجمع. الصوافي، ما يختاره الرئيس لنفسه من الغنائم قبل قسمتها وهي في الغالب شيء واحد : فرس أو أمَة أو سيف وما أشبه. وكان العمل جاريا بذلك عند العرب من قبل.

16 - الطبري، التاريخ، ج 2، ص 49

17 - نفس المرجع، ج 2، ص 55.

وقتلهما أحد المسلمين دون أن يعرف بذلك، فاظهر اليهود الموافقة ثم تـآمروا على اغتياله فعلم الرسول بذلك وعاد إلى المدينة وقـرر الاسـتعداد "لحـربهم والسير إليهم فحاصرهم ست ليال فتحصنوا منه في الحصون فأمر رسـول الله (ص) بقطع النخيل والتحريق فيها... وقذف الله في قلوبهم الرعـب وسـألوا رسول الله (ص) أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل مـن أموالهم إلا الحلقة (= السلاح) ففعل، فاحتملوا من أموالهم مـا اسـتقلت بـه الإبل... فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام"[18] تاركين ممتلكاتهم وما تبقى من أموالهم "فكانت لرسول الخاصة، يضعها حيث يشاء، فقسمها رسـول الله (ص) على المهاجرين الأولين دون الأنصار... ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها"، وفيها يحدد القرآن حكم توزيع الفيء أي ما يحـصل عليـه المسلمون بغير حرب، كأموال بني النضير. وهكذا قسم الرسول (ص) ما تركه بنو النضير على أساس أنه فيء، فجعل المجموع خمسة أخماس: الخمـس لله وللرسول ولذي القربى الخ، والأربعة أخماس الباقية خـص بهـا المهـاجرين للاعتبارات المذكورة في الآية السابقة (فقراء خرجوا من ديارهم).

وحاول يهود بني النضير وبني قينقاع الانتقام، فسعوا في عقد حلـف ضد المسلمين ضم قريشا وغطفان وبني سليمان، فجاءت جموع هذا التحـالف إلى المدينة وفيهم أبو سفيان الذي حاول ضم يهود بني قريظة إلـى التحـالف المذكور، الذي سمي بـ "الأحزاب"، فانضم بنو قريظة، وكانوا يسكنون ضاحية المدينة. لجأ المسلمون إلى حفر خندق حول المدينة وتحصنوا به (وقد سـميت هذه الغزوة باسمين: غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق). وأخيرا تمكن المسلمون من زرع الخلاف والشقاق في "الأحزاب"، ثم جـاءت ريـح شـديدة فزرعـت الفوضى والاضطراب في صفوفهم، فاضطروا إلى فك الحصار ومغادرة المدينة بعد أن كادت الهزيمة تنزل على المسلمين بسبب الموقف المتخاذل الذي وقفته فئة من المنافقين. وقد نزلت سورة الأحزاب تفضح هؤلاء المنافقين وتثني على المؤمنين الصادقين: "هنالك ابتلي (= اختبر) المؤمنون وزلزلوا زلزالا شـديدا. وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق مـنهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، إن يريدون إلا فرارا، ولو دخلت

18 - ابن هشام ج2 ص 191

عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبّثوا بها إلا يسيرا. ثم تعطف السورة على المؤمنين وتثني على موقفهم : "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا... من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا" (الأحزاب 9 ...27).

وبما أن يهود بني قريظة قد نقضوا الصحيفة/المعاهدة بانضمامهم إلى "الأحزاب، كما ذكرنا، فقد اتجه الرسول إليهم وحاصرهم فأصابهم خوف شديد وقبلوا تحكيم أحد الخبراء العرب من حلفائهم القدامى فحكم فيهم: "أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، كانوا ما بين 600 و900 رجل فنفذ الرسول الحكم فيهم. "ثم إن رسول الله (ص) قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين... فكان للفارس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان ولفارسه سهم وللراجل، من ليس له فرس: سهم"[19].

6- هزيمة الأحزاب وصلح الحديبية : والطريق إلى استسلام أهل مكة

بانهزام التحالف المذكور أخذ رجال قريش في مراجعة حساباتهم. وفي هذا الصدد حكى عمرو بن العاص، وكان يوم الخندق في صفوف قريش، أنه بعد عودته إلى مكة جمع رجالا من قريش وقال لهم : "تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا وإني قد رأيت... أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي... وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير"، فوافقوا وذهبوا إلى النجاشي يحملون الهدايا، غير أن هذا الأخير أقنع عمرو بن العاص بالإسلام -فيما يحكي هذا عن نفسه- فعاد قاصدا رسول الله (ص) في المدينة والتقى في الطريق خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي فسأله إلى أين فأجابه خالد: "والله قد استقام المنسم" (تبين الطريق). لقد قرر هو الآخر الدخول في الإسلام، فذهبا معا إلى النبي (ص) للمدينة وأعلنا إسلامهما.

والواقع أن فشل تحالف "الأحزاب" (قريش وغطفان وبني سليم ...) الذي كان يضم عشرة آلاف مقاتل كان انتصارا للمسلمين لا يعدله إلا انتصارهم يوم بدر. لقد تبين لقريش بعد فشل "الأحزاب" أن القضاء على محمد وأصحابه

19 - نفس المرجع، ج 2، ص 4

صار من شبه المستحيل. لقد أصبحت لهم اليوم دولة، وقوتهم المادية، رجال وأموال، في تزايد مستمر، وسمعتهم وسط القبائل العربية في ارتفاع وانتشار، ونفوذهم خارج المدينة يقوى يوما بعد يوم... وإذن فالتجارة، تجارة قريش إلى الشام، ستختنق بإحكام المسلمين السيطرة على الطرق، وهم جادون في ذلك، وقد سبق للرسول (ص) قبل حصار "الأحزاب" بنحو نصف سنة (السنة الخامسة للهجرة) أن قاد غزوة على دومة الجندل، على نحو 500 ميل شمال المدينة ليعترض تجمعا لقضاعة وغسان كان يقصد الحجاز، وربما السيطرة على خطوط المواصلات بين المدينة والشام. وإذن فلم يعد المسلمون يقطعون الطريق على تجارة قريش وحسب، مستفيدين من موقع المدينة، بل إنهم أصبحوا قادرين كذلك على التوغل شمالا والسيطرة على الطرق الأخرى، بما في ذلك تلك التي تمر عبر العراق والتي كان أبو سفيان قد حاول استعمالها، كما أشرنا قبل. وأمام هذه التطورات لم يكن أمام قريش إلا أن تراجع حساباتها، خصوصا وزعيمها أبو سفيان يتقن المزج بين الحسابات التجارية والحسابات السياسية.

أما المسلمون فقد كان طبيعيا أن يشعروا بقوتهم ويعملوا على تكثيف الضغط على قريش بكل الوسائل، بما في ذلك الوسائل السلمية. وكان الوحي قد نزل عقب انتصار المسلمين في بدر يوصيهم باستعمال السلاحين معا : سلاح الحرب وسلاح السلم : "أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل... وإن جنحوا للسلم فاجنح لها... " (الأنفال 60-61). بالفعل جمع النبي (ص) في خطته بين الأمرين في صلح الحديبية الذي عقده مع قريش في السنة الموالية : السنة السادسة للهجرة. فقد خرج قاصدا مكة "يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا، وساق معه الهدايا: سبعين بدنة (ناقة) للكعبة، وكان الناس سبعمائة رجل". وسمعت قريش بالخبر فأخذت تستعد لمنعه من دخول مكة، فلما سمع بذلك قال: "ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم أعل قاتلوا وبهم قوة"[20]. ولا شك أن هذه كانت "رسالة" إلى قريش، ولا شك أنها قد تلقتها. إن الاتجاه الآن ليس إلى الملأ من قريش فقد انتهى أمرهم أو كاد، بل الاتجاه إلى المستقبل، إلى "سائر العرب". فلماذا لا

20 - نفس المرجع، ج2، ص 309.

ينضم إلى الإسلام من بقي من قريش للعمل جميعا على دخول "العرب" في الإسلام، وتحت قيادتهم ؟

لم يكن من المنتظر أن تستجيب قريش لمضمون هذه "الرسالة" بين عشية وضحاها، فالحلول السياسية تمر دوما عبر مراحل ووسائط : بدأت الوساطة أولا. رجال من خزاعة، (وخزاعة من اليمن وهم حلفاء تاريخيون لبني هاشم)، جاءوا النبي "فكلموه وسألوه ما الذي جاء به؟ فاخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته"، وهل كانت قريش تدافع عن شيء آخر غير "حرمة البيت"، من منظورها التجاري طبعا؟ ألا يعني حج المسلمين، ثم العرب جميعا عندما يسلمون، إلى مكة، أن عائدات قريش من الحج والتجارة لن ينالها مكروه بل ربما تزداد..؟ خواطر لا بد أن تكون قد جالت في ذهن أبي سفيان. ولكن الاستسلام بدون مقدمات غير ممكن، إذ لا بد من إنقاذ ماء الوجه. وهكذا كان : لقد جاء رجال خزاعة الوسطاء إلى مكة وخاطبوا أهلها قائلين : "يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد. إن محمدا لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا هذا البيت". فكان مما جاء في جواب قريش : "إن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا، ولا تحدَّثُ بذلك عنا العرب". ومعنى ذلك أنه لا بد من المفاوضة والصلح.

أرسلت قريش مبعوثِيها وأرسل النبي من جانبه مبعوثا إلى قريش هو عثمان بن عفان (وهو من بني أمية)، ثم انتدب أهل مكة وسيطا آخر وقالوا له: "ائت محمدا فصالحه ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا". وكذلك كان! فقد أبرم باسم قريش صلحا مع النبي (ص)، بمكان قريب من مكة يسمى "الحديبية" فسمي الصلح باسمه. ينص هذا الصلح على "أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه... وإنك -يا محمد- ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فاقمت ثلاثا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها" [21].

إنه اعتراف من قريش بمحمد (ص) وجنوح إلى التعايش السلمي، والبقية تأتي : يقوم النبي (ص)، بعد صلح الحديبية مباشرة، بمبادرة ذات دلالة سياسية، على صعيد "القبيلة" فبعث إلى الحبشة من يخطب له أم حبيبة بنت أبي

---

21 - نفس المرجع، ج 2، ص 317-318

سفيان، وكانت قد هاجرت إليها مع زوجها الذي توفي عنها هناك. ويبارك القرآن هذه البادرة بقوله تعالى : "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة... " (الممتحنة 7). وهكذا. "تزوج رسول الله (ص) أم حبيبة فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة"، وقال عن النبي (ص) عندما علم بالأمر: "ذلك الفحل لا يقدع أنفه"[22]. ثم يأتي الوحي والمسلمون في طريق عودتهم من الحديبية إلى المدينة، فتنزل سورة الفتح تبشر النبي بفتح مكة، في المستقبل بصيغة الماضي، إشارة إلى أن المسألة هي كما نقول اليوم : "مسألة وقت فقط". قال تعالى : "إنا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصرا عزيزا" (الفتح 1-3).

مرت سنتان بين صلح الحديبية وفتح مكة قام النبي خلالهما (في السنة السابعة للهجرة) بـ "عمرة القضاء"، العمرة التي نص عليها الصلح، فأقام في مكة ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة. وخلال الفترة نفسها جهز النبي (ص) ما لا يقل عن 17 غزوة وسرية. وباستثناء غزوة خيبر فإن جميع هذه الحملات كانت موجهة ضد القبائل البدوية، إما تأديبا لها أو من أجل حملها على الإسلام، أو من أجل ضمان الأمن في الطريق التجارية من المدينة والشام، مما وسع من نفوذ الإسلام. أما "خيبر" فكانت عبارة عن تجمع سكني محصن لليهود يقع خارج المدينة. وبما أن علاقاتهم مع المسلمين لم تكن مستقرة ولا خالصة فقد رأى النبي (ص) أن ينهي المشكلة معهم. فخرج في محرم من السنة السابعة للهجرة -بعد رجوعه من الحديبية- إلى حصون خيبر ففتحها واحدا بعد الآخر بعد حصار، فطلب أهلها من الرسول "أن يسيرهم (= ينفيهم) وأن يحقن دماءهم ففعل. وكان رسول الله (ص) قد حاز أموالهم كلها من جميع الحصون. فلما سمع بهم يهود "فدك" قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله (ص) يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ويخلّوا له الأموال ففعل. فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله (ص) أن يعاملهم في الأموال (الأرض) على النصف وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها (=زرعها ورعاية نخلها)، فصالحهم رسول الله (ص) على النصف، "على أنا (نحن المسلمين) إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، فصالحه أهل "فدك"، على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئا للمسلمين

---

22 - الزمخشري، الكشاف. ج4، ص 91.

وكانت فدك خالصة لرسول الله (ص)، لأنهم (المسلمون) لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب"[23]. "وكانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله (ص) ألف سهم وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم. ثم قسم رسول الله (ص) الكتيبة، وهي "واد خلَص"، بين قرابته وبين نسائه وبين رجال المسلمين ونساء أعطاهم منها"، لكل منهم عدد معين من الأوساق من "قمح وشعير وتمر وغير ذلك، قسمه على قدر حاجتهم، وكانت الحاجة في بني عبد المطلب أكثر، ولهذا أعطاهم أكثر"[24].

7- الطريق إلى مكة...

وحدث في هذه الأثناء (بعد صلح الحديبية) أن اعتدت قبيلة بني بكر على قبيلة خزاعة، وكانت الأولى حليفة لقريش والثانية حليفة للمسلمين، وقد تم هذا التحالف على هامش اجتماع الحديبية، فاستنجدت خزاعة بالمسلمين بعد أن أيدت قريش حليفتها بني بكر. وخافت قريش أن يعتبر النبي (ص) ذلك خرقا لمعاهدة الحديبية فيهاجم مكة، فانتدبت أبا سفيان -وقد أصبح الآن صهرا للنبي- ليعتذر له باسم قريش، فجاء المدينة وقصد بيت ابنته أم حبيبة زوجة النبي (ص). ثم اتصل بأبي بكر ثم بعمر وعلي يطلب التدخل لدى الرسول (ص). وأخيرا رجع إلى مكة بينما أمر رسول الله (ص) بالاستعداد للسير إلى مكة. ولما استكمل التجهيز مضى في عشرة آلاف من المسلمين. وعندما بدأ يقترب منها خرج للقائه عمه العباس الذي لم يغادر مكة قط إلا عندما خرج مع قريش إلى بدر فأسِر وأفدى نفسه بالمال وعاد إلى تجارته بمكة دون أن يعلن عن إسلامه. خرج العباس إذن ليلتقي برسول الله (ص) وجيشه في الطريق. أما زعيم قريش، أبو سفيان، فقد خرج هو الآخر إلى ضواحي مكة مع رفقة له "يتحسسون الأخبار وإذا به يلتقي بالعباس الذي كان عائدا على بغلة رسول الله (ص) في اتجاه مكة وكأنه كان معه على موعد. [25] ركب أبو سفيان مع

---

23 - ابن إسحاق ، نفس المرجع، ج2 ص337

24 - نفس المرجع، ج 2، ص 352

25- من المحتمل جدا أن يكون لقاء أبي سفيان والعباس نتيجة لاتفاق سابق وليس مصادفة، وأن تكون عودة العباس على بغلة رسول الله رمزا لموافقة النبي على نتيجة المفاوضات التي خاضها العباس -نيابة عن النبي- مع أبي سفيان، وقد ظهرت نتيجة هذه المفاوضات عند دخول النبي عليه السلام مكة مستسلمة، وقد أمر النبي (ص) أن ينادي المنادي : "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" الخ.

العباس على بغلة رسول الله (ص) قاصدا النبي ليعلن له عن إسلامه. ويتم ذلك بالفعل، ويقول العباس للنبي : "يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحِّب هذا الفخر فاجعل له شيئا. قال : نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن".

ثم أمر الرسول (ص) بتنظيم استعراض لجيوش المسلمين أمام أبي سفيان فأخذت الكتائب تمر أمامه الواحدة بعد الأخرى. وعندما انتهى الاستعراض التفت أبو سفيان إلى العباس وقال له : "والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما"، فرد عليه العباس. "يا أبا سفيان : إنها النبوة". فقال أبو سفيان : "نعم إذن!". ثم قال له العباس أسرع إلى قومك وأخبرهم بما حصل، فأسرع أبو سفيان إلى قومه بمكة "حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة –وكان أبوها قد قتل يوم بدر– فأخذت بشاربه فقالت : "اقتلوا الحِمِّيت الدسم الأحمس (= السمين الغليظ)، قبح من طليعة القوم". قال أبو سفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك! قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهر آمن. فتفرق الناس إلى دورهم والى المسجد"[26]. ودخل النبي وجيشه مكة وكان "يوم الفتح". واجتمع أهل مكة حوله وخطب فيهم وقال: "ما ترون أني فاعل بكم"؟ قالوا : "أخ كريم وابن أخ كريم". قال : "اذهبوا فانتم الطلقاء". وأمر النبي بتكسير الأصنام فكسرت. وبما أنه منع استباحة مكة وسبي أموالها، الشيء الذي يحرم جيشه من الغنيمة، فقد عمد إلى اقتراض مبالغ من أصحاب الأموال من تجار مكة ووزعها على الفقراء من جيشه تعويضا لهم عن الغنيمة.

8- يوم حنين ... وجوانب من الضعف تظهر!

ثم بعث النبي السرايا إلى ما حول مكة تدعو إلى الإسلام. وكانت قبائل هوازن وثقيف (سكان الطائف) تحشدان الحشود غير بعيد من مكة لشن الهجوم عليها بعد أن فتحها الرسول (ص). وكانت هاتان القبيلتان تنافسان قريشا في

---

26 – نفس المرجع، ج2، ص 405-389

التجارة فطمعنا في الحلول محلها. وهكذا خرج النبي بجيشه، بعد أن ضم إليه ألفين من القرشيين "الطلقاء" بمن فيهم أبو سفيان، وعسكر بمكان بين مكة والطائف يقال له حنين (في السنة الثامنة للهجرة) واشتبك مع حشود هوازن وثقيف، ومالت الكفة لصالح هؤلاء في أول الأمر، ثم عادت لتنتهي المعركة بانتصار المسلمين، فأمر الرسول (ص) بجمع الغنائم وأرجأ توزيعها إلى حين الانتهاء من تعقب الفارين. كانت الغنائم كثيرة : عدد كبير من النساء والذراري وستة آلاف بعير وما لا يحصى من الغنم. فخير الرسول المنهزمين بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم، فاختاروا الأبناء والنساء فأطلقهم، ووزع الأموال على المهاجرين والمسلمين الجدد دون الأنصار، فكان نصيب الواحد أربعة من الإبل وأربعين شاة، ومن كان فارسا أخذ سهم فرسه أيضا. كل ذلك من الأخماس الأربعة المخصصة للمقاتلين[27].

ولا بد من الإشارة هنا إلى بعض جوانب الضعف التي بدأت تظهر في صفوف المسلمين نتيجة هذه التطورات، خصوصا منها كثرة الغنائم ودخول الناس في الإسلام جملة ولم يكن ثمة متسع من الوقت يسمح بالارتفاع بإسلامهم السياسي الحربي إلى مستوى إسلام العقيدة والإيمان. من نقاط الضعف تلك ما يحكى من أنه لما فرغ رسول الله (ص) من رد سبايا حنين إلى أهلها ركب واتبعه الناس يقولون : "يا رسول الله أقسم علينا فيئنا، الإبل والغنم، حتى ألجأوه إلى شجرة، فاختطفت الشجرة عنه رداءه. فقال : ردوا علي ردائي أيها الناس، فالله لو كان لي عدد شجر تهامة نَعَما لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا"[28]. وعندما وزع الرسول (ص) الغنائم وأعطى للمسلمين الجدد "المؤلفة قلوبهم"، وكان نصيب "عباس بن مرداس السلمي أباعر، فتسخطها وعاب فيها رسول الله -في أبيات من الشعر- فقال رسول الله (ص) أذهبوا فاقطعوا عني لسانه، فزادوه حتى رضي فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به"[29]. ثم أخذ الرسول من الخمس المقرر لله والرسول الخ، هدايا خص بها "أشراف العرب" من المسلمين الجدد فأعطى أبا سفيان

27 – الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 173

28 – نفس المرجع، ج 2، ص 175، والبخاري صحيح البخاري، ج4 ص 204. عالم الكتب. بيروت د–ت

29 – الطبري ج2 ص175

مائة بعير (وقيل ثلاثمائة)، وأعطى يزيد ابنه مائة وأعطى لمعاوية بن يزيد كذلك مائة وهكذا، فبلغ ما وزعه على "المؤلفة قلوبهم" أزيد من ألفي بعير.

ومن ذلك أيضا ما يحكى من أن رجلا من بني تميم يقال له ذو الخويصرة (واسمه حرقوص بن زهير السعدي التميمي الذي يجعله المؤرخون والمحدثون أول الخوارج؟) وقف على الرسول وهو يعطي الناس فقال : "يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم. فقال الرسول (ص): أجل، فكيف رأيت؟ فقال : لم أرك عدلت. فغضب النبي (ص) ثم قال: ويحك، إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله، ألا أقتله؟ فأجابه الرسول : لا، دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية"[30]. وفي هذا الإطار يحكى أيضا أنه : "لما أعطى رسول الله (ص) ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار شيء منها، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة (= الكلام السيئ)، حتى قال قائلهم : لقد لقي رسول الله (ص) قومه. فدخل سعد بن عبادة (زعيم الأنصار) على الرسول فقال : يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال : أين أنت من ذلك يا سعد؟ قال يا رسول الله : ما أنا إلا من قومي. قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة"، فجمعهم وخطب فيهم رسول الله (ص) فذكرهم بسابقتهم وفضلهم وقال: "أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (نعيم) من الدنيا فألّفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم... قالوا : رضينا رسول الله قسما وحظا. ثم انصرف رسول الله (ص) وتفرقوا"[31]. وعاد الرسول إلى المدينة وسكت الأنصار راضين. ولكن "شيئا ما" في صدورهم سيفصح عن نفسه بمجرد ما يعلن عن وفاة النبي عندما سيجتمعون في سقيفة بني ساعدة

---

30 - ابن إسحاق ج2 ص 496. الطبري ج2 ص 175، البخاري، ج4 ص189

31 - ابن إسحاق ، نفس المرجع، ج 2، ص،449- 500، والبخاري، نفس المرجع، ج 4، ص203.

لاختيار سعد بن عبادة زعيمهم خليفة للنبي (ص) الشيء الذي لم ينجحوا فيه إذ وقع الاتفاق على أبي بكر.

<u>9- انتكاسة وغزوة تبوك ... وسورة براءة "الفاضحة"...</u>

تلك مظاهر من الضعف البشري ظهرت بمناسبة غنائم "حنين"، وهو شيء طبيعي تماما، في مجتمع لم يمر عليه بعدُ من الوقت ما يكفي لامتصاص سلبيات الحرب -ولكل حرب سلبياتها حتى في حال النصر- ولا ما يكفي ليتحول أولئك الذين أسلموا بالسيف أو بالخوف إلى "مؤمنين صادقين" وتحقيق الاندماج الاجتماعي والانسجام في الرؤية بين أعضاء مشروع "الأمة" التي كانت ما تزال في طور التكون : أمة "العقيدة" التي يراد منها أن تتجاوز "القبيلة" و"الغنيمة" وتعلو عليهما. إن أمة "العقيدة" التي تشكلت من "السابقين الأولين" في مكة، ثم من "المهاجرين والأنصار" بعد ذلك في المدينة، قد انفتحت بفعل "الفتح"، فتح مكة خاصة، فصارت تضم إضافة إلى "المنافقين" من أهل يثرب، جموعا غفيرة من المسلمين الجدد، فيهم المنافق والمتردد والمنبهر، هذا فضلا عن "الأعراب" الذين أسلموا ولم يتجاوز إسلامهم مرتبة الولاء السياسي السطحي. كان لا بد إذن من ظهور جوانب الضعف، فلم يعد الغزو بدافع "العقيدة" وحدها، بل لقد غدا لدى كثير من المسلمين الجدد، إن لم نقل عند جلهم، يخضع لاعتبارات "القبيلة" و"الغنيمة" كما حدث في غزوة "الخندق" وشهدت به سورة "الأحزاب" وشجبته ونددت به، وكما حصل أيضا يوم حنين كما رأينا.

وتأتي غزوة "تبوك" لتكون هي الأخرى مناسبة لظهور جوانب الضعف البشري بصورة أقوى مما حدث من قبل. إن الأمر يتعلق هذه المرة، لا بغزو داخلي، غزو قبيلة أو قبائل أو فتح مدينة أو حصار حصن، بل يتعلق الأمر هذه المرة بمواجهة دولة كبرى، دولة الروم البيزنطيين. ذلك أن فتح مكة لم يكن من الأحداث العادية التي كانت تجري في جزيرة العرب بين القبائل، بل كانت حدثا دوليا: فمكة، كما بينا قبل، مركز ديني وتجاري دولي، والدعوة المحمدية لم تعد مجرد دعوة بل لقد أصبحت دولة، وإذن فالطرق التجارية الدولية أصبحت مهددة في إحدى محطاتها الرئيسية، فكان من الطبيعي أن يأتي رد فعل الروم الذين تهمهم مكة كمحطة تجارية ضرورية. لقد جهز هرقل جيشا ضم

إليه جموعا من القبائل العربية النازلة بالشام وفلسطين يريد اقتحام المدينة والقضاء على الدولة الجديدة في المهد.

ولما علم النبي (ص) بالخبر، ولم يكن قد مضى على رجوع المسلمين من حنين سوى بضة أشهر، قرر أن يأخذ المبادرة فيهاجم الروم قبل أن يهاجموه، فاستثقل الناس ذلك، وكان الوقت وقت صيف وجني الثمار "والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه"[32]. أضف إلى ذلك أن العرب كانت تخاف الروم والفرس وتتجنب الاصطدام معهما، خصوصا وذكرى غزوة "مؤتة" كانت ما تزال حية في النفوس (كان النبي قد بعث رسولا إلى هرقل فاعترضه أحد شيوخ القبائل في الشام وقتله، فجهز النبي جيشا من ثلاثة آلاف للثأر له، فكان من سوء حظ المسلمين أن وجدوا هرقل ينتظرهم في جيش كبير فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة وقتل منهم عدد كبير، منهم قادته الثلاثة على التوالي، زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، ولم ينقذ البقية الباقية من المسلمين إلا تدبير حربي قام به خالد بن الوليد مكنهم من الانسحاب إلى الصحراء والرجوع إلى المدينة).

كانت هذه الانتكاسة حية في النفوس عندما أمر الرسول (ص) بالاستعداد لحرب الروم، فكان ذلك مما حمل الكثيرين منهم على التقاعس والتماس الأعذار للتخلف عن الخروج. ولكن الرسول مضى في تجهيز الجيش وطلب من أصحابه "السابقين الأولين" المساهمة في النفقة عليه، وكانوا قد كسبوا أموالا بالغنائم والتجارة : ساهم أبو بكر بأربعة آلاف درهم، وقدم عمر بن الخطاب نصف أمواله، وتكفل عثمان بثلث نفقة الجيش كله، ويقال إنه أنفق ألف دينار (أزيد من عشرة آلاف درهم)[33]. ومضى الرسول (ص) على رأس هذا الجيش الذي عانى كثيرا في تجهيزه حتى سمي بـ "جيش العسرة". ويقال إنه كان يضم ثلاثين ألف مقاتل وعشرة آلاف فرس[34]. ولكنه ما إن أخذ يتقدم نحو تبوك، على مشارف الشام، حتى بدأ بعض رجاله يتملصون وينسحبون تحت تأثير ما كان يروج في صفوفهم من كلام حول صعوبة مواجهة الروم وما

---

32 – ابن إسحاق، نفس المرجع، ج 2، ص516

33 – نفس المرجع، ج 2، ص 518، والواقدي: كتاب المغازي، ج 3، ص 1 99.

34 – الواقدي، نفس المرجع، ج 2، ص 102.

تنطوي عليه العملية من خطورة. وعندما وصل النبي إلى تبوك وجد أن هرقل قد غادرها إلى حمص، فجاءه أهل بعض تلك النواحي وصالحوه على الجزيـــة، وبعث خالد بن الوليد في سرية إلى بعض المناطق المجاورة فـصالحوه علـــى الجزية أيضا، ثم عاد الرسول (ص) إلى المدينة وكان هذا آخــر خــروج لــه للحرب (السنة التاسعة للهجرة).

ولا بد لمن يريد معرفة ما عاناه الرسول (ص) في تجهيز جيش تبـوك وما حصل خلال ذلك وأثناء الرحلة من أنواع السلوك والتصرفات التـــي تمـيط اللثام عن بعض جوانب الوضعية التي أصبح عليها واقع مجتمع الدعوة/الدولة الجديد، لا بد من الرجوع إلى سورة التوبة (= براءة). فقد نزلت كلها -ويقال مرة واحدة- عند عودة النبي (ص) من تبوك إلى المدينة، لتضع السنقط علـــى الحروف حسب تعبيرنا المعاصر. والحق أن سورة "التوبة" التـــي نزلـت قبـل شهور من وفاة الرسول (ص) -وتفيد روايات معتبرة أنها آخر سورة نزلـت من القرآن[35]- قد جاءت بمثابة تقرير نقدي، قوي وشديد، للوضعية الداخليـة في دولة الدعوة. لقد نددت بجوانب الضعف وأوضحت المسؤوليات، ولكن من موقف القوة والشدة لا من موقف اللين والضعف. ولعل مما لــه دلالــة أنهـا السورة الوحيدة التي لا تبدأ بـ "بسم الله الرحمان الرحيم"، بـل دخلـت فـي الموضوع مباشرة. ونظرا لما في عباراتها من قوة وشدة سـماها المفـسرون بأسماء عديدة. يقول الزمخشري : سورة التوبة "لها عـدة أسـماء: بـراءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحـافزة، المنكلة، المدمدمة، سورة العذاب. ذلك لأن فيها التوبة على المـؤمنين، وهـي تقشقش من النفاق أي تتبرأ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحـث عنهـا، وتثيرها، وتحفر عنها وتفضحهم، وتنكلهم، وتشرد بهم، وتخـزيهم، وتدمـدم عليهم. وعن حذيفة رضي الله عنه : إنكم تسمونها سورة التوبة وإنمـا هـي سورة العذاب. والله ما تركت أحدا إلا نالت منه. فإن قلت : هلا صـدرت بآيـة التسمية (=بسم الله الرحمان الرحيم) كما في سائر السور؟ سئل ابـن عيينـة رضي الله عنه فقـال : اسـم الله سـلام وأمـان فـلا يكتـب فـي النبـذ...

35 - السيوطي، الإتقان ، ص 10-87، البخاري، ج 6، ص123، الزمخشري، ج 2، ص 723

والمحاربة"[36]. وسنأتي على تفصيل ذلك في التقديم والتفسير والتعليق عندما ننتقل إليها.

* * *

وبعد فقد أتينا هنا بهذا العرض السريع لمسار السيرة وأحداثها، في مرحلة المدينة، لنكون على بينة من المسار العام الذي سيتطابق معه التنزيل بصورة شبه تامة. وإنما قلنا "شبه تامة" -ولم نقل تامة- لأن ما وصلنا من معلومات وأخبار عن هذه المرحلة، سواء على مستوى السيرة أو مستوى التنزيل، مليء بالثغرات، هذا فضلا عن المبالغات والتحزبات التي رافقتها منذ بداية روايتها وتدوينها إلى اليوم. ومن هنا كان من الضروري التعامل مع جميع تفاسير القرآن المدني بيقظة وحيطة وروح نقدية لا تكل. ذلك أن جميع المرويات والآراء والتأويلات التي رافقت مسار "فهم القرآن"، منذ وفاة النبي إلى اليوم، لا تخلو من تدخل عناصر كثيرا ما تبدو غريبة دخيلة أو، على الأقل، ينطبق عليها المثل القائل "الزيادة في الشيء نقصان"، كما ينطبق عليها عكسه، لأن الإنقاص من الشيء لا يكون في الغالب، إلا في جوانب منه، مما يؤدي إلى الزيادة في جوانب أخرى، بصورة مباشر أو غير مباشرة. لقد أوضحت لنا الصفحات الماضية كم كانت المرحلة المدنية من النبوة غنية بأحداث متداخلة متزاحمة متقلبة، ومع أن التنزيل لم يتتبعها كلها بتموجاتها فإنه يكاد يغطيها كلها بخطاب مباشر تارة وغير مباشر تارة، غير غافل عن الإجابة عن الأسئلة التي يمليها تطور الدعوة وتساؤلات الناس. وفي مثل هذه الحالة كان لابد أن تأتي الأجوبة ذات علاقة بالوضع المعيش، وبالتالي فليست ما يعبر عنها عادة بـ "أسباب النزول" هي وحدها التي يجب الأخذ بها عند محاولة فهم هذا "الجواب" أو ذلك (حكما كان أو أمرا أو خبرا أو مثلا الخ)، بل لابد من مراعاة الظرفية التي كانت سائدة... ومراعاة الظرفية بهذه الصورة تتطلب إدخال كثير من المرونة على القوالب الفكرية الأصولية وغيرها، الموجّهة لعملية فهم القرآن، خصوصا منذ تقنين وترسيم هذه القوالب في عصر التدوين. لابد إذن من التحرر من المفاهيم المقولبة، التي تتعامل مع الذكر الحكيم كنص جامد يجب تطويع معطياته معها بينما أن الواجب هو العكس، أعني تطويعها هي مع غنى النص وحركيته، وإن اقتضى الحال التحرر منها تماما لأنها تقضي على

36 - الزمخشري، نفس المرجع، ج 2، 171

الحكمة من تنجيم آي الذكر الحكيم، كما هو حال مفهوم "النسخ". وسيكون لنـــا رأي في مثل هذه المفاهيم كلما اقتضى السياق ذلك.

أملي أن يكون الفهم الذي نقترحه هنا لمنطوق الذكر الحكيم أقل زيـــادة وأقل نقصانا. وما توفيقي إلا بالله.

الدار البيضاء. ديسمبر 2008

استهلال

القرآن المدني يشمل السور التي نزلت بعد الهجرة، سواء نزلت في المدينة بالذات أو خارجها. كما أن القرآن المكي هو ما نزل قبل الهجرة. أما عدد السور التي اشتمل عليها القرآن بصنفيه، المكي والمدني، فهو 114 سورة. وهناك اختلافات واسعة حول تحديد أي منها مكي وأي منها مدني، بالمعنى المذكور، وحول ترتيب نزولها: فكم من سورة اعتبرها بعضهم مكية وهي في رأي آخرين مدنية. وكم من سورة قال عنها بعضهم إنها مدنية بينما ارتأى آخرون أنها مكية. ومن هنا كان الاختلاف في عدد السور النازلة بمكة وعدد النازلة في المدينة. وقد يكفي أن نشير إلى أنه روي عن ابن عباس أنه قال: سألت أبيّ بن كعب (أحد كتاب الوحي البارزين المكلفين بجمع القرآن بعد وفاة النبي) عما نزل في القرآن بالمدينة فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة وسائرها بمكة". هذا في حين يؤكد غيره أن "المدني باتفاق عشرون سورة والمختلف فيها اثنتا عشر سورة؛ وما عدا ذلك مكي باتفاق". وقد تتبع السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" ما قيل في هذا الموضوع فجمع حشدا من الآراء والروايات يصعب الخروج منها بنتيجة واحدة، سوى القول بوجود ما لا يقل عن ثلاث لوائح لترتيب النزول، بعضها كامل وبعضها ناقص: ترتيب منسوب إلى جابر بن زيد، وترتيب نسبه البيهقي إلى عكرمة والحسين بن أبي الحسن، وآخر نسبه ابن الضريس إلى ابن عباس. أما الزركشي صاحب "البرهان في علوم القرآن" الذي اعتمد عليه السيوطي فقد ذكر ترتيبا كاملا نسبه إلى "الثقات". والترتيب المعتمد عند المتأخرين بما في ذلك الأزهريين هو المذكور في كتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي. والاختلاف بين هذه اللوائح ليس كبيرا إذا نحن استثنينا الاختلاف حول بعض السورة التي اعتبرها بعضهم مكية بينما نسبها آخرون إلى ما نزل بالمدينة، أو العكس. والغالب أن هذا الاختلاف يرجع إلى تقدير صاحب هذا الرأي أو ذاك لقرب هذه السورة أو تلك لما يطبع السور المكية ويميزها عن السور المدينة على مستوى الأسلوب أو المضمون الخ.

وفي ترتيبنا راعينا جميع هذه الأمور، مستعينين أيضا بالربط بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة، حريصين على الاحتفاظ بوحدة السورة، متحررين مما ترسخ من تصنيفات لا شيء يؤسسها سوى الظن والتخمين، مثل القول بآيات مدنية داخل سور مكية أو العكس، والبحث لكل آية أو سورة عن ما اعتقد هذا الراوي أو ذاك أنه "سبب" لنزولها، والتوسع بغير ضوابط في استعمال مفاهيم وردت ألفاظها في القرآن مثل مفهوم "النسخ" ومفهوم "المحكم والمتشابه" الخ. إلى غير ذلك من التصنيفات و"الأطر" التي يمكن أن تقوم بدورين مختلفين تماما: دور المعين على الفهم، ودور المعيق للفهم (عوائق معرفية).

وهكذا حصرنا السور التي نزلت في مكة في تسعين سورة جعلناها موضوعا للقسم الأول والثاني من هذا الكتاب، وقد قدمنا لكل واحدة منها بما ورد عنها في التفاسير وغيرها من المؤلفات المهتمة بالموضوع، خصوصا ما يتعلق برتبتها وأسباب نزولها الخ.

أما باقي السور وهي عشرون سورة فقد صنفناها كلها ضمن القرآن المدني. وهي تختلف طولا وقصرا، تتناول موضوعات مختلفة ظرفية في الغالب، بمعنى أنها تتحدث عن "موضوعات الساعة" – بتعبيرنا المعاصر. ومن هنا كان ترتيبها يخضع في الغالب لتواريخ الأحداث التي تتحدث عنها. ومع أن تواريخ حوادث السيرة في المدينة تختلف في بعض الأحيان عند هذا المرجع أو ذاك، فإنها في جملتها تساعد كثيرا على ضبط تاريخ النزول ومناسبته. وهذا يفسح المجال لفهم أفضل لما اصطلح عليه بـ "العموم والخصوص". فالعام سيكون ليس هو ما ورد لفظه في الصيغة اللغوية التي تفيد العموم مثل "يا أيها الذين آمنوا"، إذ كثيرا ما ترد هذه الصيغة والخطاب فيها موجه إلى البعض دون الكل، وكذلك الشأن في عبارات أخرى من قبيل "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ، و"فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" الخ، والتي تخاطب المسلمين زمن الرسول وقت إعلان الحرب مع مشركي مكة، فالعموم في مثل هذه الآيات مقيد بخصوص زمن نزولها ومناسبته. وبالتالي فليس من المعقول جعلها ناسخة لعبارات سابقة تخاطب المسلمين في وضعية غير وضعية إعلان الحرب.

وهذه مسألة سنفصل القول فيها في حينها. وإنما أردنا بذكرها هنا التنبيه إلى ما سبق أن نبهنا إليه مرارا، وهو ضرورة جعل المقروء معاصرا لنفسه، ومعاصرا لنا في الوقت نفسه :

- معاصرا لنفسه بمحاولة فهمه في إطار زمانه ومعهود المخاطبين به، الشيء الذي يعني بالنسبة لـ "فهم القرآن" ضرورة استحضار المرويات التي تساعد عليه وتحمل الحد الأدنى من المصداقية، مع تحري المساوقة بين مسار التنزيل ومسير الدعوة.

- ومعاصرا لنا بمحاولة تطبيق ذلك الفهم، في مجال العقيدة والشريعة، بالتمييز فيه بين "العام المطلق" و"العام المقيد"، والتزام الأول كخطاب معاصر لنا لتطبيقه، والتزام الثاني كخطاب أخلاقي لأخذ العبرة واستلهام الحلول. [1]

1 - سبق أن حددنا ما نقصده بهذه العبارة في "المدخل العام" الذي صدرنا به كتابنا "نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي"، حيث كتبنا نقول: . فمن جهة تحرص هذه القراءات على جعل المقروء معاصرا لنفسه على صعيد الإشكالية والمحتوى المعرفي والمضمون الإيديولوجي، ومن هنا معناه بالنسبة لمحيطه الخاص. ومن جهة أخرى تحاول هذه القراءة أن تجعل المقروء معاصرا لنا، ولكن فقط على صعيد الفهم والمعقولية، ومن هنا معناه بالنسبة لنا نحن. إن إضفاء المعقولية على المقروء من طرف القارئ معناه نقل المقروء إلى مجال اهتمام القارئ، الشيء الذي قد يسمح بتوظيفه من طرف هذا الأخير في إغناء ذاته أو حتى في إعادة بنائها"... وواضح أن "النص الديني" يختلف عن النص الفلسفي، وبالتالي فمسألة المعقولية، وتوظيف المقروء، يجب أن يفهم منهما، عندما يتعلق الأمر بمجال الدين، ما يشمل العقيدة والشريعة، كما هو مبين أعلاه..

92- سورة البقرة

تقديم

هذه السورة مدنية باتفاق. والشائع أنها أول ما نزل بالمدينة من السور. وهناك من يجعل سورة المطففين أول ما نزل بها، وقد ناقشنا هذا الرأي في القسم الثاني من هذا الكتاب حيث رتبنا هذه الأخير في الرتبة 89، قبل سورة الحج التي اعتبرناها آخرا ما نزل بمكة (قد جعلناها في رتبة 90). وهناك رأي يقول إن أول سورة نزلت في المدينة هي سورة "القَدر"، وهي مصنفة مع القرآن المكي في لوائح ترتيب النزول. أما نحن فقد رجحنا قول القائلين إنها مدنية وسنشرح مبررات ذلك لاحقا.

وهكذا فإذا كان الاتفاق حاصلا على أن البقرة سورة مدنية فإن الاختلاف كبير وواسع حول سنة نزولها. وحسب القرطبي فقد نزلت سورة البقرة في مدد مختلفة : ابتداء من أواخر السنة الثانية للهجرة. وحسب كثير من المفسرين فإن فيها آخر آية نزلت من القرآن كله وهي قوله "وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (البقرة -281، بينما آخر آيات هذه السورة رقمها 286).

وقد حاول ابن عاشور تحديد وقت -أو أوقات- نزول هذه السورة فقال: إن فيها فُرض صوم عاشوراء، في السنة الأولى من الهجرة، ثم فرض صيام رمضان في السنة الثانية، معللا ذلك بكون النبي (ص) صام سبع رمضانات، أولها رمضان من العام الثاني من الهجرة، "فتكون سورة البقرة نزلت في السنة الأولى من الهجرة في أواخرها أو في الثانية". وفي البخاري عن عائشة "ما نزلت سورة البقرة إلا وأنا عنده" (تعني النبي صلى الله عليه وسلم) وكان بناء رسول الله على عائشة في شوال من السنة الأولى للهجرة، وقيل في أول السنة الثانية. وقد روى عنها أنها مكثت عنده تسع سنين، وأن توفي عليه السلام وهي بنت ثمان عشرة سنة، وكان قد بنى بها وهي بنت تسع سنين (في قول، وفي قول آخر خطبها في مكة وعمرها تسع سنين وبنى عليه في المدينة وعمرها بين العاشرة والثانية عشرة).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقول ابن عاشور إن اشتمال سورة البقرة على أحكام الحج والعمرة، وعلى أحكام القتال مع المشركين في الشهر الحرام والبلد الحرام، ينبئ بأنها استمر نزولها إلى سنة خمس وسنة ست للهجرة" ويضيف: "وقد يكون (نزولها) ممتداً إلى ما بعد سنة ثمان، كما يقتضيه قوله: "ٱلْحَجِّ ..." (البقرة: 197ـ203). وقد فسر ابن عاشور ذلك كله بكون السورة الواحدة في القرآن قد تبقى مفتوحة فيستمر نزول آياتها، وخلال ذلك تنزل سور أخرى بعضها يبقى مفتوحا وبعضها الآخر قد يقفل قبل تمام جميع السور. وهذه النظرية تذكرنا بما نسب لابن عباس من أن الرسول عليه السلام كانت تنزل عليه الآيات فيطلب من كتاب الوحي كتابتها وإضافتها إلى هذه السورة أو تلك، الشيء الذي يعني أن بعض السور قد تبقى مفتوحة بعد أن تقفل سورة أو سور نزلت بعدها.

هذه الآراء تطرح مسألة وحدة السورة في القرآن المدني. وقد رأينا أن القرآن المكي مبني كله على وحدة السورة وأن النبي كان يراجع القرآن مع جبريل الخ. وهذه مسألة سنعود إليها في خاتمة هذا القسم الأخير من الكتاب. أما الآن فيمكن التأكيد، بناء على تواريخ ما أشارت إليه هذه اسورة من أحداث في آياتها، على أن نزولها قد يكون قد امتد ما بين أواخر السنة الأولى للهجرة إلى أواخر السنة الثانية. أما عن موضوعاتها فمتعددة كما سنرى. وقد شغل فيها الجدل مع اليهود والمنافقين نحو 120 آية من أصل 286. والباقي أغلبه تشريعات في القتال والأحوال الشخصية.

– نص السورة

<u>1– مقدمة: القرآن هدى للمؤمنين بالغيب، أما الكافرون فهم لا يؤمنون به.</u>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم[1]. ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ: (هو) هُدًى لِلْمُتَّقِينَ[2] الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ[(1)] وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[3]، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ

---

1 - يؤمنون بالغيب: يصدقون ما جاء به القرآن من الأمور التي ليست موضوعا لإدراك العقل أو الحواس، مثل الإلوهية والجنة والنار وأخبار الأمم الماضية الخ.

إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ[4]، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[5]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ[6]؟! خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (2) وَعَلَى سَمْعِهِمْ؛ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[7].

2- المنافقون: يقولون آمنا وما هم بمؤمنين!

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ[8] (وهم المنافقون). يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا (يظهرون عكس ما يبطنون)، وَمَا يَخْدَعُونَ (وما يضرون) إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَمَا يَشْعُرُونَ[9] (وما يدرون). فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (ضعف، شك يمنعهم من التصريح بالكفر أو بالإيمان)، فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ[10]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ! قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ[11]! أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ[12]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ، قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ (يقصدون الموالي والعبيد ومن لا رأي له يعتد به)؟ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ، وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ[13] (أنهم سفهاء). وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ[14]! اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (يتيهون في ضلالهم)[15]. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ[16]. مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا (كناية عن تصديقهم باللسان) فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ (فعادوا إلى حالة الشك والحيرة) وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ[17]: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ[18] (من الظلمات إلى النور)، أَوْ (مثلهم) كَصَيِّبٍ (كأناس إزاء مطر شديد نزل) مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آَذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ[19] (لا يفلتون من الموت)؛ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ، وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا (وقفوا، والمعنى: كلما سمعوا شيئاً مما يُحبّون صدّقوا، وإذا سمعوا ما يكرهون وقفوا". وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[20].

2- سبق أن بينا معنى قوله تعالى "ختم (أو طبع) الله على قلوبهم" الخ: أنهم قد اعترضوا من أول مرة على نبوة محمد ورفضوا دعوته بصفة جماعية، وأنهم أصبحوا بذلك سجناء هذا الموقف، وبالتالي لم يعد في إمكانهم أن يؤمنوا سواء أنذرتهم أم لم تنذرهم...

3- المشركون: الترهيب ووعيد : عصيانهم من عصيان إبليس..!

يَا أَيُّهَا النَّاسُ[3] اعْبُدُوا رَبَّكُمُ، الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[21]: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[22]. وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[23]، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا، وَلَنْ تَفْعَلُوا، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ،[4] أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ[24]. وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، كُلَّمَا رُزِقُوا (أطعموا) مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا (من النوع) الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا (في الشكل واللون، مع أن طعمه واحد)[5]. وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ (زوجات) مُطَهَّرَةٌ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[25]. إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا [6]: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا؟ (وهكذا فالمثل في القرآن بمثابة اختبار) يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا

3- الخطاب إلى المشركين، كما جرت بذلك العادة في القرآن المكي، حيث يستعمل أيها الناس، وتخصيص "الناس هنا" بـ"المشركين" يفهم من تحديهم أن يأتوا "بسورة من مثله" الخ.

4- قال بعضهم: المقصود حجرة الكبريت لأنها أشد اشتعالا.

5 - بعض المفسرين يجعلون التشابه بمعنى المماثلة في اللون والشكل دون الطعم. أما نحن فنرى أن التشابه هنا بمعنى الاختلاف : والمعنى اختلاف المظاهر (أو الأعراض) وثبات الجوهر : الطعم هو هو، ثابت غير متغير، وبعبارة القرآن "محكم"، أما اللون والشكل الخ فهي متغيرات أي "متشابهات".

6- وجه الصلة بين هذه الآية وما قبلها أن ما ذكر من قبل من طعام أهل الجنة وزوجاتهم هو من جملة الأمثلة التي يضربها الله للناس على سبيل الحجة والبيان، وأن هذه الأمثلة متساوية على مستوى القيمة الدلالية، سواء كانت مادة المثال صغيرة كالبعوض أو الذباب أو العنكبوت او كانت كبيرة كالجبال والنجوم ونظام الكون ومشاهد القيامة وأوصاف الجنة والنار، وحوار أهلهما وطعامهم وشرابهم ومتعهم وآلامهم الخ. والآية موضوع التعليق تحيل إلى ما بينته سابقتها بمثال من طعام أهل الجنة وأصحاب النار الخ. والمثل لا يؤخذ على حقيقته بل بما يرمز إليه. والمقصود من أمثال القرآن في جميع الأحوال هو العبرة، هو الترغيب أو الترهيب.

وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ[26] (7)، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ؛ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[27]. كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا (عدما) فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[28]؟ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[29]. وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً(8)؛ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ[30]. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (أسماء المخلوقات التي خلقها الله بعد خلق آدم) (9). ثُمَّ عَرَضَهُمْ

---

7 – الفسق: قال بعض اللغويين: "لم يُسْمَع الفاسِقُ في وصف الإنسان في كلام العَرب وإنما قالُوا فَسَقَتِ الرُطَبَةُ عَنْ قِشْرِهَا". والمعنى: خرجت التمرة (أو الثمرة على العموم) عن قشرها. "وأكثَرُ ما يقالُ الفاسِقُ لمَنْ التزَمَ حُكمَ الشرْعِ وأقرَّ به ثمَّ أخلَّ بجميعِ أحكامِهِ أو ببَعْضِها، وإذا قيلَ للكافِرِ الأصْلِيّ: "فاسِقٌ" فَلأنَّهُ أخَلَّ بحُكمِ ما ألْزمَهُ العقلُ واقتَضَتْهُ الفِطْرَةُ، وهذا هو المقصود هنا، ومن علامات هذا الفسق ما ورد في الآيات الموالية (الذين ينقضون...).

8 – اختلف المفسرون في المقصود بـ "الخليفة" (خليفة من؟) بعضهم قالوا : "جعل الله آدم خليفةً عن الملائكة الذين كانوا سكّان الأرض بعد الجن. وقال آخرون : "آدم وذريته" جعلهم الله خليفة عنه في الأرض للسكنى فيها وإعمارها الخ. وتساءل بعضهم : "وكيف قالت الملائكة لربها إذ أخبرها أنه جاعل في الأرض خليفة: أتجعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدّماءَ ولم يكن آدم بعد مخلوقا ولا ذريته، فيعلموا ما يفعلون عيانا"؟ قلت: هذا كله لا موجب له، لأن قصص القرآن في حكم الأمثال، هي حقائق قرآنية باعتبار المقصود مما هي رمز له.

9– ما ذكره المفسرون يختلف عما ورد في التوراة. وما ورد فيها لا يتناقض مع ما في القرآن ولكنه يختلف عن أقوال المفسرين وهي كثيرة متضاربة متناقضة مأخوذة من الإسرائيليات التي هي فكر العامة من اليهود (أنظر تفصيل القول فيها في : الطبري). أما ما ورد في التوراة فهو: "4هَذَا وَصْفُ مَبْدَئِيٌّ لِلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَوْمَ خَلَقَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ. 5وَلَمْ يَكُنْ قَدْ نَبَتَ بَعْدُ فِي الأَرْضِ شَجَرٌ بَرِّيٌّ وَلاَ عُشْبٌ بَرِّيٌّ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلَهَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَرْسَلَ مَطَراً عَلَى الأَرْضِ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِنْسَانٌ لِيَفْلَحَهَا، 6إِلاَّ أَنَّ ضَبَاباً كَانَ يَتَصَاعَدُ مِنَ الأَرْضِ فَيَسْقِي سَطْحَهَا كُلَّهُ. 7ثُمَّ جَبَلَ (خلق) الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ مِنْ تُرَابِ الأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ، فَصَارَ آدَمُ نَفْساً حَيَّةً. 8وَأَقَامَ الرَّبُّ الإِلَهُ جَنَّةً فِي شَرْقِيِّ عَدْنٍ (باليمن) وَوَضَعَ فِيهَا آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. 9وَاسْتَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلَهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ بَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ، وَلَذِيذَةٍ لِلأَكْلِ، وَغَرَسَ أَيْضاً شَجَرَةَ الْحَيَاةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ. 10وَكَانَ نَهْرٌ يَجْرِي فِي عَدْنٍ=

(أي تلك المخلوقات) عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ: أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[31]! قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ[32]. قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ؛ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ (الله): أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ[33]. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ[34]. وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ[35]. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ، وَقُلْنَا: اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ (الشيطان من جهة وآدم وزوجه من جهة أخرى)(10)، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ[36]. فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ

لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْقَسِمَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَرْبَعَةِ أَنْهُرٍ: 11الأَوَّلُ مِنْهَا يُدْعَى فِيشُونَ، الَّذِي يَلْتَفُّ حَوْلَ كُلِّ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ يُوْجَدُ الذَّهَبُ. 12وَذَهَبُ تِلْكَ الأَرْضِ جَيِّدٌ، وَفِيهَا أَيْضاً الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزْعِ. 13وَالنَّهْرُ الثَّانِي يُدْعَى جِيحُونَ الَّذِي يُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. 14وَالنَّهْرُ الثَّالِثُ يُدْعَى حِدَّاقِلَ وَهُوَ الْجَارِي فِي شَرْقِيِّ أَشُورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابِعُ هُوَ الْفُرَاتُ. 15وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ (بستانها) لِيَفْلَحَهَا وَيَعْتَنِيَ بِهَا. 16وَأَمَرَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ قَائِلاً: «كُلْ مَا تَشَاءُ مِنْ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، 17وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ= تَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لأَنَّكَ حِينَ تَأْكُلُ مِنْهَا حَتْماً تَمُوت. 18ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: «لَيْسَ مُسْتَحْسَناً أَنْ يَبْقَى آدَمُ وَحِيداً. سَأَصْنَعُ لَهُ مُعِيناً مُشَابِهاً لَهُ، 19وَكَانَ الرَّبُّ الإِلَهُ قَدْ جَبَلَ (خلق) مِنَ التُّرَابِ كُلَّ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ وَطُيُورِ الْفَضَاءِ وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى= بِأَيِّ أَسْمَاءٍ يَدْعُوهَا، فَصَارَ كُلُّ اسْمٍ أَطْلَقَهُ آدَمُ عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ اسْماً لَهُ" (سفر التكوين -2).

10 - ليس في القرآن ذكر لكيفية خلق حواء، زوج آدم، ولكن المفسرين مجمعون تقريبا على ان المرأة خلقت من ضلع الرجل، وهذا مأخوذ من الإسرائيليات. وقد ورد في التوراة بعد العبارة الأخيرة في الهامش السابق ما يلي: "20وَهَكَذَا أَطْلَقَ آدَمُ أَسْمَاءً عَلَى كُلِّ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْبَهَائِمِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ مُعِيناً مُشَابِهاً لَهُ. 21فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، ثُمَّ تَنَاوَلَ ضِلْعاً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَسَدَّ مَكَانَهَا بِاللَّحْمِ، 22وَعَمِلَ مِنْ هَذِهِ الضِّلْعِ امْرَأَةً أَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. 23فَقَالَ آدَمُ: «هَذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. فَهِيَ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِىءٍ أُخِذَتْ». 24لِهَذَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَتْرُكُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَصِيرَانِ جَسَداً وَاحِداً. 25وَكَانَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ عُرْيَانَيْنِ، وَلَمْ يَعْتَرِهِمَا الْخَجَلُ". هذا من جهة ومن جهة أخرى ليس في القرآن ما يفهم منه أن آدم هو الذي بادر إلى الأكل من الشجرة، بينما تشرح التوراة بتفصيل كيف أن زوجة آدم هي المسؤولة، فقد ورد فيها مباشرة بعد النص السابق: "وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَمْكَرَ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي صَنَعَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ، فَسَأَلَتِ الْمَرْأَةَ: «أَحَقّاً أَمَرَكُمَا اللهُ أَلاَّ تَأْكُلاَ مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» 2فَأَجَابَتِ الْمَرْأَةُ: «يُمْكِنُنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا، 3مَاعَدَا ثَمَرَ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِهَا، فَقَدْ قَالَ اللهُ : لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَلْمُسَاهُ=

كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[37] (11). قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا (=فإن) يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[38]، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[39].

4- تقريع يهود المدينة

أ- تذكير بنعم الله على أسلافهم ودعوتهم إلى الإسلام (12).

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ، وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ[40] (خافوا)، وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ (القرآن) مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا (بتحريف التوراة حفاظا على رئاستكم)، وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ[41]. وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ (أي التبشير بمحمد في التوراة) وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[42] (أنه حقا رسول الله)؛ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ[43] (أسلموا وقوموا بأركان الإسلام) . أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ (فلا تأمروها بالبر، وهو هنا الإسلام) وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ (خصوصا وأنتم تتلون التوراة) ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[44]! وَاسْتَعِينُوا

لِكَيْ لاَ تَمُوتَا». 4فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا، 5بَلْ إِنَّ اللهَ يَعْرِفُ أَنَّهُ حِينَ تَأْكُلاَنِ مِنْ ثَمَرِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا فَتَصِيرَانِ مِثْلَهُ، قَادِرَيْنِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ». 6وَعِنْدَمَا شَاهَدَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ لَذِيذَةٌ لِلْمَأْكَلِ وَشَهِيَّةٌ لِلْعُيُونِ، وَمُثِيرَةٌ لِلنَّظَرِ قَطَفَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، ثُمَّ أَعْطَتْ زَوْجَهَا أَيْضاً فَأَكَلَ مَعَهَا، 7فَانْفَتَحَتْ لِلْحَالِ أَعْيُنُهُمَا، وَأَدْرَكَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ، فَخَاطَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ مِنْ أَوْرَاقِ التِّينِ. (سفر التكوين 3).

11- نص القرآن على توبة آدم تأكيدا على أنه هو المسؤول. وهذه التوبة ألهمها الله له، فتاب، وغفر الله له خطيئته تلك، بينما بقيت في اليهودية والمسيحية تلاحق بني آدم جميعا وهي المسماة عندهم بالخطيئة الأصلية. أما في القرآن فليس هناك خطيئة أصلية فـ"لا تزر وازرة وزر أخرى".

12- خطاب القرآن هنا إلى يهود المدينة منسجم مع الخطاب الذي وجهه لهم من مكة قبل الهجرة. هو خطاب مسالمة وتعايش ودعوة إلى تكوين أمة واحدة أساسها أن لا تناقض بين القرآن والتوراة كما نزلت. وهذا يدل على أن الفقرات السابقة نزلت قبل نشوب النزاع بينهم وبين المسلمين، يفهم ذلك من الآيات 41-46 أعلاه. أما بعد ذلك فتنتقل السورة في الفقرات التالية إلى تذكيرهم بما اقترفه أسلافهم من مخالفات لأوامر الله وبتمردهم على نبيهم موسى عليه السلام، مرة بعد مرة. وهذا التقريع لأسلاف اليهود عامة يدل على أن يهود المدينة لم يستجيبوا لدعوة القرآن، وأن العلاقات بينهم وبين المسلمين بدأت تتأزم.

بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، وَإِنَّهَا (الاستعانة بالصبر والصلاة) لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ[45] الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ[46]. يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ[47]، وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ (عوض)، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[48].

ب- متاعب موسى مع قومه في الرحلة من مصر إلى فلسطين...

وَ(تذكروا) إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ (يعني أسلافهم) مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ[(13)] (بإرسالنا موسى إليهم وكانوا) يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ (يبقين عليهن حيات ليلدن الخدم)، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ[49]؛ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ (شققناه لإحداث ممر يابس) فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ (وجنده) وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ[50]. وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى (ضربنا له موعدا لمدة) أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (ذهب بعدها للقاء الله وأخذ الوحي)، ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ (أي تمثالا من ذهب، صنما تعبدونه) مِنْ بَعْدِهِ (من بعد أن أرسل الله إليكم موسى) وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ[51]، ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[52]. وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ (والقدرة على التفرقة بين الحق والباطل بما منحناه من معجزات) لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[53]؛ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ (خالقكم) فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ (حكموا النفس اللوامة وتوبوا)، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ. (وعندما فعلوا ذلك خاطبهم) فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[54]، وَإِذْ قُلْتُمْ (بعد سماع كلام الله، أنتم يا من جئتم إلى جبل الطور تعتذرون باسم قومكم) : يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ (لن نصدقك) حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً (رؤية حسية) فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ (لما تجلى لكم وأغمي عليكم) وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ[55] (ولكن لا تبصرون شيئا)، ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ (بعد الإغماء) لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[56]، وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى[(14)] : كُلُوا

13- للوقوف على تفاصيل وقائع سيرة بني إسرائيل التي يذكر بها التقريع أعلاه يحسن الرجوع إلى "المدخل إلى القرآن الكريم" قسم القصص في القرآن المدني : 5- المرحلة الثالثة، فقرة 3: تقريع بني إسرائيل..

14- ورد في التوراة عن المن: "7وَكَانَ الْمَنُّ فِي حَجْمِ بُذُورِ الْكُزْبَرَةِ، وَشَكْلُهُ مُمَاثِلاً لِلْمُقْلِ. 8وَكَانَ الشَّعْبُ يَطُوفُونَ لِيَجْمَعُوهُ ثُمَّ يَطْحَنُونَهُ بِالرَّحَى أَوْ يَدُقُّونَهُ فِي الْهَاوَنِ وَيَطْبُخُونَهُ فِي الْقُدُورِ أَوْ يَخْبِزُونَهُ عَلَى حِجَارَةٍ مُحْمَاةٍ. وَكَانَ طَعْمُهُ كَطَعْمِ قَطَائِفَ بِزَيْتٍ. 9وَكَانَ الْمَنُّ يَنْزِلُ=

مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ؛ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[57]. وَإِذْ قُلْنَا (لكم) ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ (إحدى القرى على صحراء سينا) فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا، وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ (أي اسقط عنا ذنوبنا) نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ[58]، فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ (لم يطلبوا إسقاط ذنوبهم)، فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا (عذابا) مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ[59]. وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ (كل فريق) مَشْرَبَهُمْ : كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ[60]. وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ (هو المن والسلوى) فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا! قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى (أقل قيمة وجودة كالبصل) بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ (وهوالمن والسلوى) ؟ اهْبِطُوا مِصْرًا (أي توقفوا في أحدى المدن في طريقكم من مصر إلى فلسطين) فَإِنَّ لَكُمْ (فيها) مَا سَأَلْتُمْ (من الخضر التي سألتم والتي لا تكون في الصحراء التي تجتازونها). وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ (في المدينة التي نزلوا فيها) وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ (يتولون الذين فعلوا ذلك)[(15)]، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[61]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا (بالقرآن) وَالَّذِينَ هَادُوا (اليهود) وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ (عبدة الكواكب يتخذونها وسائط إلى الله)[(16)]، (وبالإجمال: كل) مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"[62].

بِنُزُولِ النَّدَى عَلَى الْمُخَيَّمِ فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ." هذا عن المن، أما عن السلوى فقد ورد عنها : "31فَهَبَّتْ رِيحٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ سَاقَتِ السُّمَانَيَ مِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ وَأَسْقَطَتْهَا عَلَى الْمُخَيَّمِ، نَحْوَ مَسِيرَةِ يَوْمٍ، مِنْ كِلاَ جِهَتَيْهِ وَحَوَالَيْهِ، وَتَرَاكَمَ حَتَّى بَلَغَ ارْتِفَاعُهُ ذِرَاعَيْنِ (نَحْوَ مِتْرٍ) فَوْقَ وَجْهِ الأَرْضِ. 32فَهَبَّ الشَّعْبُ طَوَالَ ذَلِكَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَكُلَّ نَهَارِ الْيَوْمِ التَّالِي يَلْتَقِطُونَ السُّمَانَيَ. فَكَانَتْ أَقَلُّ كَمِّيَّةٍ جُمِعَتْ حَوَالَيْ عَشْرَةِ حَوَامِرَ (نَحْوَ أَلْفَيْنِ وَأَرْبَعِ مِئَةِ لِتْرٍ)، ثُمَّ نَشَرُوهَا حَوْلَ الْمُخَيَّمِ لِتَجِفَّ".

15- اختلف المفسرون في معنى هذه الآية: منهم من فهم منها أنهم قتلوا فعلا أنبياء وذكروا أسماءهم، ومنهم من قال لم يقتلوهم بالحقيقة بل بالمعنى المجازي أي أنهم ظلموا الأنبياء وهذا الظلم شنعة في مرتبة القتل. وقد اخترنا بأوسط الأقوال أعلاه.

16 - قيل هم صابئة العراق لأنهم موحدون، وقيل هم كل من لديهم بقايا من صحف إبراهيم.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ (جبل سينا الذي غطاه السحاب والبرق الخ، حين لقاء موسى مع ربه)[17] خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ[18] وَاذْكُرُوا مَا

17- ورد في التوراة حول هذا الموضوع ما يلي: "9فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «هَا أَنَا مُقْبِلٌ عَلَيْكَ فِي هَيْئَةِ سَحَابٍ مُظْلِمٍ، فَيَسْمَعُنِي الشَّعْبُ حِينَمَا أُخَاطِبُكَ، فَيَثِقُونَ أَيْضاً بِكَ دَائِماً». وَنَقَلَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ كَلاَمَ الشَّعْبِ. 10وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «انْزِلْ إِلَى الشَّعْبِ وَقَدِّسْهُمُ الْيَوْمَ وَغَداً، وَدَعْهُمْ يَغْسِلُونَ ثِيَابَهُمْ، 11لِيَكُونُوا مُتَأَهِّبِينَ لِلْيَوْمِ الثَّالِثِ، لأَنَّهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أَنْزِلُ أَمَامَ جَمِيعِ الشَّعْبِ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ. 12وَأَقِمْ حُدُوداً حَوْلَ الْجَبَلِ لاَ يَتَخَطَّاهَا الشَّعْبُ. وَقُلْ لَهُمْ: حَذَارِ مِنْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى الْجَبَلِ، أَوْ تَمَسُّوا طَرَفَهُ، فَكُلُّ مَنْ يَمَسُّ الْجَبَلَ حَتْماً يُقْتَلُ13 .لاَ تَمَسَّهُ يَدٌ، بَلْ يُرْجَمُ رَجْماً أَوْ يُرْمَى بِالسِّهَامِ، سَوَاءٌ أَكَانَ بَهِيمَةً أَمْ إِنْسَاناً. لاَ يُبْقَى عَلَيْهِ. أَمَّا عِنْدَمَا يَتَرَدَّدُ صَوْتُ بُوقٍ طَوِيلٍ، فَعِنْدَئِذٍ فَقَطْ يَصْعَدُونَ إِلَى الْجَبَلِ». 14وَبَعْدَ أَنِ انْحَدَرَ مُوسَى مِنَ الْجَبَلِ إِلَى الشَّعْبِ قَدَّسَهُمْ وَغَسَلُوا ثِيَابَهُمْ. 15وَقَالَ لِلشَّعْبِ: «كُونُوا مُتَأَهِّبِينَ لِلْيَوْمِ الثَّالِثِ، وَامْتَنِعُوا عَنْ مُعَاشَرَةِ نِسَائِكُمْ». 16وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَدَثَتْ رُعُودٌ وَبُرُوقٌ، وَخَيَّمَ سَحَابٌ كَثِيفٌ عَلَى الْجَبَلِ، وَدَوَّى صَوْتُ بُوقٍ قَوِيٌّ جِدّاً، فَارْتَعَدَ كُلُّ الشَّعْبِ الَّذِي فِي الْمُخَيَّمِ، 17فَأَخْرَجَ مُوسَى الشَّعْبَ مِنَ الْمُخَيَّمِ لِلِقَاءِ اللهِ، فَوَقَفُوا عِنْدَ سَفْحِ الْجَبَلِ. 18وَكَانَ جَبَلُ سِينَاءَ كُلُّهُ مُغَطًّى بِدُخَانٍ، لأَنَّ الرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ فِي هَيْئَةِ نَارٍ. وَتَصَاعَدَ دُخَانُهُ كَدُخَانِ الأَتُونِ، وَاهْتَزَّ الْجَبَلُ كُلُّهُ بِعُنْفٍ. 19وَازْدَادَ دَوِيُّ الْبُوقِ أَكْثَرَ فِيمَا كَانَ مُوسَى يَتَكَلَّمُ، وَالرَّبُّ يُجِيبُهُ بِرَعْدٍ. 20وَنَزَلَ الرَّبُّ عَلَى قِمَّةِ جَبَلِ سِينَاءَ، وَنَادَى مُوسَى لِيَصْعَدَ إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ، فَصَعِدَ إِلَيْهِ.= 21فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «انْزِلْ= وَحَذِّرِ الشَّعْبَ لِئَلاَّ يَقْتَحِمُوا الْجَبَلَ لِيَرَوْنِي فَيَهْلِكَ مِنْهُمْ كَثِيرُونَ. 22وَلْيَتَقَدَّسْ أَيْضاً الْكَهَنَةُ الَّذِينَ يَقْتَرِبُونَ إِلَيَّ لِئَلاَّ أَبْطُشَ بِهِمْ». 23فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «لاَ يَقْدِرُ الشَّعْبُ أَنْ يَصْعَدَ إِلَى جَبَلِ سِينَاءَ، لأَنَّكَ أَنْتَ قَدْ حَذَّرْتَنَا قَائِلاً: أَقِمْ حُدُوداً حَوْلَ الْجَبَلِ وَقَدِّسْهُ». 24فَأَجَابَ الرَّبُّ: «انْزِلْ وَاصْعَدْ بِأَخِيكَ هَرُونَ مَعَكَ، أَمَّا الْكَهَنَةُ وَالشَّعْبُ فَلاَ يَقْتَحِمُوا طَرِيقَهُمْ لِيَصْعَدُوا إِلَيَّ لِئَلاَّ أَبْطُشَ بِهِمْ». 25فَانْحَدَرَ مُوسَى إِلَى الشَّعْبِ وَأَنْذَرَهُمْ"(سفر الخروج 19).

18- المعنى: تمسكوا بالوصايا العشر التي أعطينا موسى حين اللقاء. وقد ورد نصها في الفصل 20 مباشرة بعد الفصل 19 أعلاه، وهي كما يلي: "ثُمَّ نَطَقَ اللهُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الأَقْوَالِ: 2«أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ دِيَارِ عُبُودِيَّتِكَ. 3لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى سِوَايَ. 4لاَ تَنْحَتْ لَكَ تِمْثَالاً، وَلاَ تَصْنَعْ صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ أَسْفَلِ الأَرْضِ. 5لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهَكَ، إِلَهٌ غَيُورٌ. أَفْتَقِدُ آثَامَ الآبَاءِ فِي الْبَنِينَ حَتَّى الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ، 6وَأُبْدِي إِحْسَاناً نَحْوَ أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ الَّذِينَ يُطِيعُونَ وَصَايَايَ. 7لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِكَ بَاطِلاً، لأَنَّ الرَّبَّ يُعَاقِبُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً. 8اذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ، 9سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَقُومُ بِجَمِيعِ=

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[63]؛ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ (انحرفتم) مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ! فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ[64]. وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ[65] (19)، فَجَعَلْنَاهَا (هذه العقوبة) نَكَالًا (عقابا شديدا لهم) لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا (على ما قاموا به من المعاصي في حاضرهم وماضيهم)، وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ[66] (كما جعلناها عبرة للمتقين). وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً (20). قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ[67]. قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟ قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ (لا مسنة) وَلَا بِكْرٌ (ولا صغيرة) عَوَانٌ (هي وسط) بَيْنَ ذَلِكَ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ[68]. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا؟ قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ[69]. قَالُوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ[70]. قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا (21). قَالُوا: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ! فَذَبَحُوهَا، وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ[71] (كادوا أن لا يفعلوا). وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا (اختلفتم في تعيين قاتلها)، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ[72]، فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا (ببعض أجزاء البقرة المذبوحة)، كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى،

مَشَاغِلِكَ، 10أَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَتَجْعَلُهُ سَبْتاً لِلرَّبِّ إِلَهِكَ، فَلاَ تَقُمْ فِيهِ بِأَيِّ عَمَلٍ أَنْتَ أَوِ ابْنُكَ أَوْ ابْنَتُكَ أَوْ عَبْدُكَ أَوْ أَمَتُكَ أَوْ بَهِيمَتُكَ أَوِ النَّزِيلُ الْمُقِيمُ دَاخِلَ أَبْوَابِكَ. 11لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ صَنَعَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ. لِهَذَا بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَجَعَلَهُ مُقَدَّساً. 12أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ يَطُولَ عُمْرُكَ فِي الأَرْضِ الَّتِي يَهَبُكَ إِيَّاهَا الرَّبُّ إِلَهُكَ. 13لاَ تَقْتُلْ. 14لاَ تَزْنِ. 15لاَ تَسْرِقْ. 16لاَ تَشْهَدْ زُوراً عَلَى جَارِكَ. 17لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ جَارِكَ، وَلاَ زَوْجَتَهُ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئاً مِمَّا لَهُ».

19- قيل إن جماعة من يهود مدينة أيلة على البحر الأحمر احتالوا على يوم السبت -الذي يمنع عليهم فيه الصيد وغيره- واتخذوا وسيلة لاصطياد السمك فيه بوضع نوع من الشباك يوم الجمعة على شاطئ البحر يتجمع فيها السمك يوم السبت ويأخذونه يوم الأحد. قيل كان ذلك في زمن سليمان. انظر قصة يحكيها بعض المفسرين حول هذا الموضوع وكيف تحولوا إلى قردة الخ، في القسم الأول من هذا الكتاب، سورة الأعراف هامش 24.

20- ذبح بقرة من أجل التكفير عن خطيئة قتلهم نفسا كما سيرد لاحقا.

21- "إنها بقرة غير مذللة للعمل في حراثة الأرض للزراعة، وغير معدة للسقي من الساقية، وخالية من العيوب جميعها، وليس فيها علامة من لون غير لون جلدها".

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[73] [(22)]. ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، (أشد قسوة من الحجارة) : وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ (من أعلى الجبال) مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، (ولكن قلوبكم لا تلين)، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[74].

د- ... أميون أدعياء ... لا يعلمون الكتاب...

أَفَتَطْمَعُونَ (خطاب للرسول والمسلمين) [(23)] أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ (أن يصدقوا القرآن) وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ (من اليهود) يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ (القرآن) ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ (عرفوه وفهموه) وَهُمْ يَعْلَمُونَ[75]؟ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا (المسلمين)، قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا: أَتُحَدِّثُونَهُمْ (أتحدثون المسلمين في ردودكم عليهم) بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ (بما في التوراة) لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ. أَفَلَا تَعْقِلُونَ[76]!؟ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ[77]. وَمِنْهُمْ (من يهود المدينة) أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ (إدعاء)، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ[78]. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ (يفترون على التوراة ويحرفونها) بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا (يفتون حسب رغبة السائل ليأخذوا الرشوة منه)، فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ[79] (بالرشوة). وَقَالُوا (يهود المدينة) لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً! [(24)] قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ (أخذتم منه) عَهْدًا! فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ؟ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[80]؟ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[81]. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[82].

22- في الفقرة تقديم وتأخير: والمعنى: قتلتم نفسا فاختلفتم فيها كل يتبرأ من التهمة، فأخرجكم الله من هذه المشكلة بأن طلب منكم أن تذبحوا بقرة وتضربوا المقتول ببعض أجزائها ليعود حيا ويخبركم بقاتله.

23- قيل: "كان للأنصار حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم".

24 - عن ابن عباس قال : "قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تقول إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الله الناس في النار بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب".

هـ- لا يحترمون الميثاق: "أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ"؟

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ؛ (25) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ، وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ[83]. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ : لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ[84]، ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ (تقتلون فريقا منكم)(26)، وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ (تتحالفون ضدهم) بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ! وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ (في التوراة) إِخْرَاجُهُمْ! أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[85]. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[86].

و- أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ...!

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ، فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ[87] ؟ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ[88]! وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (القرآن) مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا(27)، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا

25- انظر الوصايا العشر، الهامش السابق رقم 16

26- هنا تذكرهم السورة بما حدث من اقتتال بين يهود المدينة عندما تحالف فريق منهم (قريظة والنضير) مع الأوس، وتحالف آخرون (بني قينقاع) مع الخزرج، في "يوم بُعاث" قبل الهجرة بخمس سنين، وهو اليوم الذي تقاتلت فيه الأوس والخزرج. وخلال الحرب كان اليهود المنتصرون يجلون اليهود المنهزمين من ديارهم ويأسرونهم. وعندما انتهت الحرب جمعوا من المال ما يفدون به اليهود الواقعين أسرى لدى كل من الأوس والخزرج، وقد أثار ذلك دهشة العرب فقالوا لهم: قاتلتموهم بالأمس ثم تفدونهم اليوم؟ فأجاب اليهود قد حرم علينا قتالهم ولكنا نستحي أن نخذل حلفاءنا وقد أمرنا الله أن نفدي الأسرى. وقد رد عليهم القرآن: "أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ (تفدون أسراكم) وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ" (تتقاتلون، وهذا محرم عليكم)؟

27- كانوا يهددون خصومهم من العرب قبل قيام الدعوة المحمدية بأن نبيا على وشك الظهور وأنهم سيتحالفون معه ضدهم. والاستفتاح: طلب الفتح والنصر.

عَرَفُوا[28] كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ[89]. بِئْسَمَا اشْتَرَوْا (باعوا) بِهِ أَنْفُسَهُمْ (وهو) أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا (حسدا منهم) أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (على النبي محمد)، فَبَاءُوا (فجازاهم الله) بِغَضَبٍ (بسبب إنكارهم لنبوة محمد) عَلَى غَضَبٍ (سابق كإنكارهم نبوة عيسى أو عبادتهم العجل) وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ[90]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ (جاء بعده: القرآن) وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[91]. وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ[92]. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ[29] خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا، قَالُوا سَمِعْنَا (قولك) وَعَصَيْنَا (أمرك)! وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ (حب) الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ (اعتقادكم)، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[93]. قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[94]! وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا، بِمَا (بسبب ما) قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (من ذنوب)، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ[95]. وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا (أكثر حرصا عليها من المشركين)! يَوَدُّ أَحَدُهُمْ (اليهود) لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ (=طول العمر لا ينجيه من عذاب القيامة)، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ[96]. قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ[30] فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ (يا محمد) بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ[97]، مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ[98] (ومنهم هؤلاء اليهود). وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ[99]. أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ! بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[100]. وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ! (والحال أن) كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[101]. وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ! وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ

28- ما عرفوا: أي النبي الذي كانوا يعرفون ظهوره وكانوا يستفتحون به.

29- انظر أعلاه الفقرة 5 الآية 63:

30- في التوراة أن النبي دانيال قد رأى رؤيا فعبرها له جبريل بكون أورشليم سيكون مصيرها الخراب قريبا. ولهذا رأى اليهود في جبريل الذي يأتي بالوحي للنبي محمد عليه السلام، نذير شؤم، رأوا فيه عدوهم. (التوراة. سفر دانيال الإصحاحان 8 و9)

كَفَرُوا، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ[31] وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَقَدْ عَلِمُوا (أن) لَمَنِ اشْتَرَاهُ (آمن بالسحر) مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ. وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ (باعوها به) لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[102]. وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ (لنالوا ثوابا) مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، (وذلك) خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[103].

ز- وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا[32]، وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ[104]. مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ (نبوة وكتاب) مِنْ رَبِّكُمْ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[105]. مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[106] [33]. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

31- اختلف المفسرون في معنى هاروت وماروت وانساقوا في ذلك مع الإسرائيليات فذكروا قصصا خرافية. وقد ندد ابن عاشور بذلك وقال: وهاروت وماروت، بدل من الملكين، وهما اسمان كلدانيان دخلهما تغيير التعريف لإجرائهما على خفة الأوزان العربية، والظاهر أن هاروت معرب هاروكا وهو اسم القمر عند الكلدانيين وأن ماروت معرب مارودا خ وهو اسم المشتري عندهم، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة وهي من المعبودات المقدسة التي هي دون الآلهة، لاسيما القمر فإنه أشد الكواكب تأثيرا عندهم في هذا العالم وهو رمز الأنثى، وكذلك المشتري فهو أشرف الكواكب السبعة عندهم، ولعله كان رمز الذكر عندهم كما كان بعل عند الكنعانيين الفينيقيين. ومن المعلوم أن إسناد هذا التقديس للكواكب ناشئ عن اعتقادهم أنهم كانوا من الصالحين المقدسين، وأنهم بعد موتهم رُفعوا للسماء في صورة الكواكب فيكون هاروكا ومارودا خ قد كانا من قدماء علمائهم وصالحيهم والحاكمين في البلاد، وهما اللذان وضعا السحر (تفسير ابن عاشور).

32- قيل إن سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا إذا ألقى النبي عليهم القرآن طلبوا منه أن يراعيهم فلا يسرع في إلقائه حتى يعوه، فيقولون: راعنا يا رسول الله، راعي وضعنا ولا تعجل. وهذه الكلمة "راعنا" كان يقولها اليهود للنبي وهي عندهم تحمل معنى الشتم والسب. فجاءت الآية تطلب من المسلمين عدم استعمال تلك الكلمة في مخاطبة الرسول.

33- نحن نعتقد أن المقصود بالآية هنا، ليس الوحدة الخطابية من القرآن المسماة بهذا الاسم، بل المقصود : العلامات والحجج الدالة على وحدانية الله والكتب المنزلة على=

وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[107]. أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ[108]. وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[109]. وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[110]. وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى! تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[111]. بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[112]. وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ (بمعنى أن اعتقادهم وعبادتهم لم تعد لها المصداقية)، وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ! (كل منهم يقول ذاك في صاحبه، وهم معا يقرؤون التوراة، مرجعهم جميعا!) كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[113]. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ

رسله المثبتة لذلك الخ، بما فيها معجزات الأنبياء، وهكذا فبعد إخباره تعالى المسلمين بأن اليهود يحسدونهم، وفي نفس الوقت يستعملون كلمات لشتم الرسول، والمسلمون في غفلة عن معانيها، وبعد قوله "مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ (نبوة وكتاب) مِنْ رَبِّكُمْ"، يؤكد : ما من علامات ومعجزات ودلائل نبوة يمحوها ويمسحها أو يجعل الناس ينسونها، إلا ويـي بمثلها أو أحسن منها. وهكذا خص موسى، مثلا، بالعصا الخ، ولكنه تركها وخص عيسى بأحسن منها مثل أحياء الموتى، ثم خص محمد بالقرآن الذي فيه خير كل ذلك وأكثر! وتؤكد الآية هذا المعنى بقوله تعالى "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"؟ بمعنى : لا نحتاج إلى مزيد بيان في هذا الموضوع فأنت تعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنت تعلم أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وهذا مبين في القرآن... وتأتي الآية اللاحقة لتخاطب المسلمين الذين كانوا يقولون للنبي "راعنا" تقليدا لليهود لتخاطبهم مع عتاب: "أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ"؟، وبالتالي فهذه الآية لا علاقة لها بالتشريع بل هي تندرج في مجال العقيدة. وهكذا يتضح من خلال اعتبار السياق ووحدة الخطاب أن تلك الآية التي يسميها المفسرون والفقهاء بـ "آية النسخ" والتي يتعاملون معها مقطوعة عما قبلها وما بعدها، هي في الحقيقة تقع في مركز السياق الخاص، سياق الجدل من اليهود... كما في مركز السياق العام، الإيمان بقدرة الله وما يظهره من علامات ومعجزات هي آيات أي دلائل. انظر مزيدا من التفاصيل في موضوع "النسخ" باصطلاح الفقهاء في الاستطراد الذي ننهي به الكلام في هذه السورة.

مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا[34]، أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا (مساجد الله) إِلَّا خَائِفِينَ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"114. وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ[35]، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"115. وَقَالُوا (اليهود والنصارى) اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ"116. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"117. وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (من اليهود والنصارى) لَوْلَا (هلا يا محمد) يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ (منه حتى نصدقك)! كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (لرسلهم) مِثْلَ قَوْلِهِمْ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ! قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ"118. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ"119. وَلَنْ تَرْضَى

34- اختلف المفسرون في تعيين المشار إليهم في هذه الآية، وقد رجح الطبري التفسير التالي، قال: هم "النصارى، وذلك أنهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس، وأعانوا بختنصر على ذلك، ومنعوا مؤمني بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده". أما ابن عاشور فقد رجح ما ورد في رواية عن ابن عباس من أن "الآية نازلة في مشركي العرب ... وهي تشير إلى منع أهل مكة المسلمين سكان المدينة من الدخول لمكة كما جاء في حديث سعد بن معاذ حين دخل مكة خفية وقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بالبيت آمناً وقد أويتم الصُّبَّاء (جمع صاب، وهو المائل عن دين أهله) كان ذلك قبل الحديبية". وتأويل ابن عاشور معتمد على أن قوله تعالى "مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ" (البقرة: 105) عطف بيان ما تفرع عن عدم ودادة المشركين نزول القرآن فبين أن ظلمهم في ذلك لم يبلغه أحد ممن قبلهم إذ منعوا مساجد الله وسدوا طريق الهدى"... هذا في حين أن هذه الآية تتحدث أيضا وبالقصد الأول عن "الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ". والسياق كله سياق الجدل مع أهل الكتاب وبين تصرفاتهم المخالفة لتعاليم التوراة. ولذلك فالتأويل الذي أختاره الطبري أقرب إلى السياق وأنسب للحفاظ على وحدته.

35- قيل: "نزلت في قوم من الصَّحابة سافروا فأصابهم الضَّباب فتحرَّوا القِبلة وصلّوا إلى أنحاءٍ مختلفةٍ، فلمّا ذهب الضَّباب استبان أنّهم لم يصيبوا، فلمّا قدموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزلت"، وقوله تعالى: "فأينما تولوا" أيْ: تصرفوا وجوهكم "فثَمَّ وجه اللهط أيْ: فهناك قِبلة الله وجهته التي تعبّدكم الله بالتوجُّه إليها"،(الواحدي). قلت: وهذا لابد أن يكون قبل تبديل القبلة. لكن السياق لا يحتاج إلى هذه الرواية، مرتبطة بما قبلها، والخطاب للنصارى الذين منعوا (من منعوا) من دخول المسجد بالقدس، فجاءت هذه الآية ترد عليهم بأن الله ليس في مكان واحد معين؛ بل هو في كل مكان : "فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ".

عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[120]. الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ (بعض علماء اليهود) يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ (من اليهود والنصارى) فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[121]. يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ[122]. وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ (عوض)، وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[123] (36).

5- الرجوع إلى إبراهيم جدا العرب وأصل الدين

وَإِذِ (اذكر يا محمد حين) ابْتَلَى (اختبر) إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، (هذه الكلمات هي) قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، قَالَ (إبراهيم) وَمِنْ ذُرِّيَّتِي! قَالَ (الله) لَا يَنَالُ عَهْدِي (هذا إليك بالإمامة) الظَّالِمِينَ[124] (منهم). وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ (الكعبة) مَثَابَةً (مقصدا لهم يحجون إليه) لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، وَ(قلنا لهم) اتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى(37)، وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ[125]. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا، وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ: (خصوصا) مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[126]. وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ

36- إلى هنا كان الجدل مع اليهود في مستوى اللوم والتقريع. والرد على ألاعيبهم وتحدياتهم، لكن الآيات الأخير تشعر بأن ذلك لم يعد مجديا وأنهم مصرون على عدم الانضمام إلى الإسلام بل هم طامعون في انضمام الرسول والمسلمين إليهم. ويتأتي في الفقرة التالية.

37- مقام إبراهيم: المكان الذي وضع عليه قدميه ...وهذه الآية تزكي الرواية السابقة هامش 32 أعلاه. هذا وكنا كتبنا في "المدخل إلى القرآن" (القصص في القرآن. المرحلة الثالثة فقرة 6) حول آيات هذه الفقرة ما يلي، نعيده هنا للتذكير: "كانت قصة إبراهيم بمختلف صيغها في المرحلة المكية تندرج في إطار القصص المكي الذي كان في جملته يدعو قريشا إلى استخلاص العبرة مما لحق بالأقوام الذين كذبوا أنبياءهم من هلاك وتدمير، وما خص الله به أنبياءه من معجزات جعلتهم ينتصرون ويفلتون من مؤامرات خصومهم. أما هنا في المدينة، حيث أخذ الصراع مع اليهود يشتد، فالأمر يختلف. ولذلك كان لا بد من العودة إلى شيخ الأنبياء جد العرب واليهود، لإعادة ترتيب العلاقة بين الجد وحفدته، بما يؤسس لعملية تحويل القبلة ويعطيها السند التاريخ".

الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ (قائلين): رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[127]. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا (العرب: ذرية إبراهيم من ابنه إسماعيل) أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[128]. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ (في العرب ذريتنا) رَسُولًا مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[129] (38). وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ (يدين بغير الحنيفية، أي الإسلام) إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ؟! (من سَفِهت نفسُه، يقصد اليهود)، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ[130]. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[131]. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ (حفيده وصى بها كذلك بنيه فقال): يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[132]. أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ (أيها اليهود) إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[133]. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ[134]. وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا، قُلْ (يا محمد لليهود) بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[135]. قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[136]، فَإِنْ آمَنُوا (اليهود) بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ (عصيان لله)، فَسَيَكْفِيكَهُمُ

38- في التوراة قصة أخرى شبيهة ورد فيها: "وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ عندما ارتحل مع أبيه وأهله من بلده أور بأرض الكلدانيين واستقر في "حاران": «اتْرُكْ أَرْضَكَ وَعَشِيرَتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ (في حاران) وَاذْهَبْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. 2فَأَجْعَلَ مِنْكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً (للكثيرين). 3وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَأَلْعَنُ لاعِنِيكَ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ». 4فَارْتَحَلَ (وأهله) أَبْرَامُ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ (...)، وَانْطَلَقُوا جَمِيعاً إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ (فلسطين) إِلَى أَنْ وَصَلُوهَا. 6فَشَرَعَ أَبْرَامُ يَتَنَقَّلُ فِي الأَرْضِ إِلَى أَنْ بَلَغَ مَوْضِعَ شَكِيمَ، إِلَى سَهْلِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ آنَئِذٍ يَقْطُنُونَ تِلْكَ الأَرْضَ. 7وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «سَأُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ لِذُرِّيَّتِكَ». فَبَنَى أَبْرَامُ هُنَاكَ مَذْبَحاً (مكانا للعبادة) لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. 8وَانْتَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيلَ (ومعناها بيت الله، و تسمى اليوم: بيتين شمال= شرق القدس) حَيْثُ نَصَبَ خِيَامَهُ مَا بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ غَرْباً وَعَايَ شَرْقاً وَشَيَّدَ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِهِ. 9ثُمَّ تَابَعَ أَبْرَامُ ارْتِحَالَهُ نَحْوَ الْجَنُوبِ (إلى مصر) لِيَتَغَرَّبَ فِيهَا لأَنَّ الْمَجَاعَةَ كَانَتْ شَدِيدَةً فِي الأَرْضِ. (التوراة. سفر التكوين 9).

اللَّهُ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[137]. (ألزموا جميعا) صِبْغَةَ اللَّهِ (فطرة الله المقصود: دين إبراهيم، دين الفطرة، دين الحنيفية)، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ[138]؟. قُلْ (يا محمد) أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ[139]. أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى (وقد عاشوا قبل نزول التوراة والإنجيل)؟ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ (الذي أخبر في القرآن أنهم كانوا مسلمين)؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ (كما تكتمون ما في التوراة والإنجيل من البشارة بالنبي محمد)؟ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[140]. تِلْكَ أُمَّةٌ (من أسلافكم أيها اليهود) قَدْ خَلَتْ (مضت) لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ[141].

أ- تحويل القبلة والقطيعة مع اليهود...

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ (اليهود وحلفاؤهم المنافقون) مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا (=بيت المقدس) [(39)]؟ قُلْ (يا محمد) لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[142]. وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ (أيها المؤمنون برسالة محمد) أُمَّةً وَسَطًا (بتحويل القبلة إلى مكة) [(40)] لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى

39- اختلفوا في تاريخ تحويل القبلة على أقوال: بعضهم قال بعد ستة عشر شهرا بعد الهجرة وبعضهم بعد ثمانية عشر شهرا. وقال آخرون إن تحويلها كان قبل غزوة بدر بشهرين، وذلك في رجب من سنة اثنتين. وقال غيرهم صلّى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا وثلاثة أيام سواء؛ وذلك أن قدوم الرسول المدينة كان يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وأمره الله عز وجل باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان (القرطبي). وقد ذكر ابن إسحاق أنه : "لما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة؛ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض كبار اليهود فقالوا : "يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك، وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه فأنزل الله تعالى فيهم الآيات أعلاه.

40- مكة وسط جغرافي: اليهود يصلون إلى بيت المقدس في الشمال الغربي لمكة، والنصارى يصلون إلى الشرق، والمسلمون إلى مكة. فلكل قبلته. وعلى هذا يكون معنى الوسط هنا : الوسط الجغرافي. وهذا يزكيه قوله تعالى : " لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" لكون أن مكة، قبلتكم ، تقع في الوسط تراقب اليهود المتجهين شمالا والنصارى المتجهين شرقا.

النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (رقيبا). وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا (أي بيت المقدس) إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ (41)، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ143. قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (اليهود والنصارى) لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ144. وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ (علامة ودليل تثبت أن الكعبة بناها إبراهيم وهي أجدر بأن تكون قبلة لذريته) مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ، وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ145. الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ (=محمدا على أنه النبي المبشر به في التوراة) كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ146. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ147 (الشاكين في نبوتك وما يوحى إليك). وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا (لكل أهل دين قبلة يستقبلونها)، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (سارعوا إلى التوجه إلى القبلة وإلى ما سيترتب عن ذلك من خيرات). أَيْنَ مَا تَكُونُوا (أيها المسلمون) يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا (42) (يجمعكم بالتوجه إلى الكعبة حين الصلاة والحج)، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ148. وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ149. وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي (43)،

41- المعنى: تحويل القبلة أمر كبير الشأن وصعب على النفوس إلا على الذين هدى الله. وقد روي: "أنه لما حولت القبلة ارتد من المسلمين قوم ونافق قوم". هذا بينما كان هناك من أهل يثرب من أبدى انزعاجه من الصلاة إلى بيت المقدس وصلى إلى الكعبة قبل هجرة الرسول إلى المدينة، فسكت عنه ولم يأمره بإعادة الصلاة. انظر مقدمة الكتاب هامش 10.

42- يميل معظم المفسرين إلى القول "يجمعكم الله يوم الحساب". ونحن نرى أن السياق ليس سياق الكلام عن المعاد والقيامة الخ، بل السياق هو التوجه إلى الكعبة وبالتالي فالأولى أن يكون المعنى كما أثبتنا.

43- قيل : "كان اليهود يقولون: ما درى محمدٌ أين قبلته حتى هديناه؟ ويقولون: يخالفنا محمدٌ في ديننا ويتبع قبلتنا، فهذا كان حجتهم التي كانوا يحتجون بها تمويها على الجُهّال،=

وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ (بتوجهكم شطر المسجد الحرام) وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[150] (إلى الدين الحقيقي دين إبراهيم) كَمَا (أتممت عليكم نعمتي بأن) أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ[151]، فَاذْكُرُونِي (قدروا نعمتي هذه حق قدرها) أَذْكُرْكُمْ (أزيد لكم). وَاشْكُرُوا لِي (اعترفوا بذلك) وَلَا تَكْفُرُونِ[152] (لا تجحدون نعمتي عليكم)(44). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[153] وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ (45)، وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ[154]. وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ

فلمّا صُرِفت القِبلة إلى الكعبة بطلت هذه الحجّة، ثمّ قال تعالى: "إلاّ الذين ظلموا منهم" من النّاس، وهم المشركون فإنّهم قالوا: توجّه محمدٌ إلى قِبلتنا، وعلم أنّا أهدى سبيلاً منه، فهؤلاء يحتجُّون بالباطل، ثمّ قال: "فلا تخشوهم" يعني: المشركين في تظاهرهم عليكم في المُحاجّة والمحاربة"، واتبعوا ما أمرتكم به: التوجه إلى القبلة.

44- للكفر معنيان: الشرك بالله وتكذيب الرسول من جهة، وجحد وإنكار نعم الله (كفر نعمة)، وهو المقصود هنا، فالخطاب للمؤمنين لا للكفار.

45 – عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في قتلى غزوة بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. وقيل إنها نزلت ردا على خصوم المسلمين من اليهود والمنافقين الذين كانوا يقولون: إن الناس يقتلون أنفسهم طلباً لمرضاة محمد من غير فائدة... ونحن نرجح هذا الرأي الأخير لأن السياق يقتضيه كما سنبين في الهامش التالي. أما معنى كونهم ليسوا بأموات بل أحياء فقد اختلف المفسرون فيه اختلافا كبيرا. أما نحن فنرى أن مبدأ "القرآن يفسر بعضه بعضا" يقتضي فهم هذه الآية على ضوء آيات مماثلة تستعمل صيغة الماضي والحاضر بمعنى المستقبل مثل قوله تعالى: "إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ" (الانفطار: 13-14) وقوله: "أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا" (الكهف: 29) وقوله: "إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ الأسفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ" (النساء: 145) وقوله: "فَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ" (الحج: 56) ... كل ذلك بمعنى أنهم سيصيرون كذلك في الآخرة. وكذلك الشأن في الآية أعلاه بمعنى أن الذين قتلوا في سبيل الله هم شهداء سيحيون فيثابون وينعمون في الجنة. وبعض المفسرين يتخذون هذه الآية دليلا على "عذاب القبر". ذلك أنه لما كان القرآن خاليا من ذكر "عذاب القبر" مع أنه أطال في ذكر ما يجري بعد الموت وقيام القيامة من بعث وحساب وثواب وعقاب وكرر ذلك مرارا ، كما بينا سابقا، فإنهم يحاولون دعم فكرة "عذاب القبر" –الغريبة عن القرآن- بتأويل آيات بطريقة من يريد أن يستخرج منها ما يريد هو، وليس ما تقوله وتقرره هي. وهكذا يقولون بخصوص الآية أعلاه، إن المقصود بكونهم "أحياء" هو كونهم كذلك في "الحاضر"، أي هم أحياء قبل البعث وقيام القيام، ومن هنا قالوا : "وإذا كان الله تعالى يحييهم بعد الموت ليرزقهم على ما يأتي، فيجوز أن يحيي الكفار ليعذبهم، ويكون فيه دليل على عذاب القبر". هذا كله على أساس=

بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ[155] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ[156]، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ[157].(46)

ب- ... شعائر الحج ...

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا، فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ[158] (47). إِنَّ الَّذِينَ

"يجوز" و"يجوز"... في حين أن القرآن محكم كله، والمتشابهات فيه تسرد إلى المحكمات، وليس هاهنا متشابه فاستعمال الماضي والمضارع في معنى المستقبل لوصف ما سيكون في الجنة أو في النار، استعمال جار بكثرة كاثرة في القرآن، والهدف تأكيد وقوع ما يخبر به أنه سيقع. أما فكرة "عذاب القبر" وما يتصل بها من القول بـ "نكير ومنكور" فليس لها أصل في القرآن إطلاقا. إنها من الموروث القديم السابق على الإسلام. أما الأحاديث المروية في الموضوع فالغالب أنها من نوع أحاديث "الترغيب والترهيب" التي يتساهل نقاد السند في شأنها من أجل الهدف منها : أعني: الترهيب والتخويف بهدف تجنب ما فيه حساب في الآخرة.

46- السياق متصل في هذه الآيات، من آية 149 إلى الآية 157 وهو امتداد لموضوع تغيير القبلة، وبالتالي فهو لا يتحمل أن يكون قوله تعالى "وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ" (154) قد نزل في قتلى بدر كما روي عن ابن عباس، بل الأولى أن يقال نزل في الذين قتلوا لأسباب مختلفة حين الهجرة وبعدها (في إحدى السرايا) التي كان الرسول ينظمها قبل غزوة بدر(راجع مقدمة الكتاب) وفي هذه الحالة تكون الرواية الثانية (الهامش السابق) أقرب إلى السياق. إن الجمع بين الدعوة إلى الصبر، والاختبار بالجوع، و"الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ" الخ، لا يستقيم مع الانتصار الذي حققه المسلمون في غزو بدر والفرحة الكبرى التي أحدثها في نفوسهم. ولذلك فنحن نميل إلى القول بأن هذه الآيات نزلت قبل غزوة بدر وفي وقت كان يعاني فيه الرسول والمسلمون ضيقا شديدا على مستوى المعاش، وكان ذلك في أول مقامهم بالمدينة، وفي هذا الإطار روي: أنه عليه السلام كان يشد الحجر على بطنه، وأنه لما خرج من بيته التقى مع أبي بكر قال: ما أخرجك؟ قال: الجوع! قال: أخرجني ما أخرجك"؟

47- الصفا والمروة جبلان معروفان بهذين الاسمين، كان يطوف عليهما العرب قبل الإسلام وعليهما صنمان من أصنامهم، وهذا الطواف (أو السعي بينهما) كغيره من شعائر الحج ومناسكه يرجع إلى إبراهيم عليه السلام، وقد أمر الله بنيه أن يتبعوا ملة إبراهيم. ولذلك قال "فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا". والمعنى من جاء الكعبة حاجا – وهو يتردد عليها مرارا– أو معتمرا، أي للزيارة والانصراف، فلا إثم عليه إن هو طاف=

يَكْتُمُونَ(أي اليهود) مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى (48) مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ (في التوراة)، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ[159]، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا (ما كتموا) فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[160]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[161]، خَالِدِينَ فِيهَا (في جهنم)، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ[162] (يُمهلون). وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ[163]. إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ، وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[164]. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا (له تعالى، مثل الأحبار والرهبان) يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ (49)، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ. وَلَوْ يَرَى

بهما. أي فلا يعتقد أنه في السعي بينهما إثم لكون مشركي مكة كانوا يفعلون ذلك، يطوفون على أصنامهم التي وضعوها في الصفا والمروة. ذلك لأن الطواف عليهما هو من مناسك الحج التي سنها إبراهيم. وقد اختلف المفسرون والفقهاء في حكم هذا الطواف: هل هو تطوع كما قد يفهم من الآية؟ أم أنه واجب بناء على أن النبي عليه السلام قد قام به.

48- كثير من المفسرين أولوا الآية كما يلي: "يكتمون ما في التوراة والإنجيل من التبشير بالنبي محمد عليه السلام والدعوة إلى أتباعه". ونحن نرى أن هذا بعيد عن سياق الآيات السابقة والتالية، وإذن فلا بد أن يكون موضوع الكتمان متعلقا بالآية السابقة (الصفا والمروة)، وبالتالي يكون الكتمان المقصود هو كتمان اليهود أن "الصفا والمروة من شعائر الله" وأن السعي بينهما منسك من مناسك إبراهيم وأن هذا عندهم في التوراة، وبالتالي فكون العرب كانت تطوف عليهما قبل الإسلام تقليد منحدر إليهم من جدهم إبراهيم وأنهم هم الذين وضعوا فيهما الأصنام. اليهود يكتمون هذه الحقيقة ليعيروا المسلمين بكونهم يتجهون بقبلتهم إلى مكان فيه أصنام قريش (اللات والعزى) يوغرون بذلك قلوب الأنصار الذين كانوا يتجهون نحو صنمهم "مناة" الخ. هذا الفهم يزكيه ما روي عن ابن عباس من أن بعض الصحابة من الأنصار سألوا نفرا من أحبار يهود عن بعض ما في التوراة فكتموهم إياه، وأبوا أن يخبروهم" فنزلت هذه الآية. وإذن فليس من المستبعد أن يكون السؤال حول الطواف بالكعبة والسعي بين الصفا والمروة. هذا ومن المفيد الرجوع هنا إلى النص الذي اقتبسناه سابقا من التوراة حول رحلة إبراهيم وبنائه البيت الخ. انظر أعلاه هامش 35.

49- كثير من المفسرين يشرحون "الأنداد" هنا بمعنى الأصنام، وهذا لا يستقيم فالأصنام كانت تعبد، بوصفها رموزا، ولا معنى للقول إنهم كانوا يحبونها كما يحب المؤمنون الله. ثم إن وصف العلاقة بين الأصنام ومن يعبدها بكونها علاقة متبوع بتابع لا يستقيم! من=

الَّذِينَ ظَلَمُوا (الرهبان والأحبار، لو يعلمون)(50)، إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ، أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ[165]، إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ[166]، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا؛ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ[167].

ج- رفض لمبدأ... "نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا".

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ[168] (51). إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[169]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ[170]! وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ[171] (52). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ[172]. إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ (إلى أكل هذه)، غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ (ليس تحديا ولا اعتداء على الدين) فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[173]. إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ(53) وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا (رئاسة دينية، أحبار) أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي

الواضح إذن أن المتبوع هم الرهبان والأحبار والتابع هم أشياعهم. وستتأكد مصداقية هذا النوع من الفهم في الآيات التالية...

50- يحيلنا هذا المقطع من هذه الآية إلى الآية (الوصية) التي في سورة العنكبوت، آية 46 : "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ".

51- القرطبي: "قيل: إنها نزلت في ثقيف وخزاعة وبني مُدْلِج فيما حرّموه على أنفسهم من الأنعام".

52- قالوا: "شبّه تعالى واعظ الكفار وداعيهم وهو محمد صلى الله عليه وسلّم بالراعي الذي يَنْعِق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه، ولا تفهم ما يقول". والنّعيق: زجر الغنم والصياح بها.

53- جل المفسرين على أن المقصود: "أحبار اليهود الذين كتموا الناس أمر محمد (ص) ونبوّته، وهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة، يكتمون ذلك مقابل رُشا كانوا أعطوها على ذلك". وهذا في نظرنا لا ينسجم مع السياق. فالآية السابقة تحدثت عن تحريم مأكولات (الميتة، لحم الخنزير الخ) والآية القادمة تتحدث عن "أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ=

بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[174]. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى، وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ، فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ[175] (فما أجرأهم على عذابهت؟) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ (التوراة) بِالْحَقِّ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ (التوراة) لَفِي شِقَاقٍ (ابتعاد عن الحق) بَعِيدٍ[176].

6- التدين الحق : عقيدة وسلوك

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ (ليس البر هو التزام قبلة معنية) ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ[177]. (54)

1- القصاص ... وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حياة ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ (فرض) عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ (العقاب) فِي الْقَتْلَى(55) (أي بسبب القتلى) : الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى، فَمَنْ

إِلَّا النَّارَ"، وما بين الآيتين آية "الكتمان". وبالتالي فموضوع الكتمان لابد أن يكون له علاقة بالمأكولات، وليس بموقف اليهود "من أمر محمد المذكور عندهم في التوراة". والأقرب إلى السياق ما ورد حول آية سابقة، (هي قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا") من أنها نزلت "في ثقيف وخزاعة وبني مُدلج فيما حرّموه على أنفسهم من الأنعام" (هامش 48). ولنا أن نتخيل أن رجالا من هذه القبائل سألوا اليهود عما حرم الله في التوراة، وعما إذا كان ما تحرمه هذه القبائل من الأنعام حلال أم حرام"؟ وأن اليهود لم يجيبوهم. ومعلوم أن التوراة قد حرمت على اليهود كثيرا من اللحوم والمأكولات الخ. (انظر مثلا سورة الأنعام آية 142 وما بعدها.

54- البر اسم عام لجميع أعمال الخير. وأصله من الاتساع ومنه البَرّ : الذي هو خلاف البحر لاتساعه".

55- قيل: إن الآية نزلت في واقعة قتل حمزة عم النبي عليه السلام. وقيل نزلت بالعلاقة مع قبيلتي قريظة والنضير اليهوديتين اللتين كانتا تسلكان طريقة العرب في التعدي، لا ما هو منصوص عليه في التوراة. وقد لخص الرازي طريقة العرب تلك فيما يلي، قال: "إن اليهود كانوا يوجبون القتل وحده في القصاص، والنصارى كانوا يوجبون العفو فقط، وأما العرب فتارة كانوا يوجبون القتل، وأخرى يوجبون الدية، لكنهم كانوا يظهرون التعدي في كل=

(يعني القاتل) عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ (=المقتول) شَيْءٌ (الدم المتنازل عنه، مقابل الدية) فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ(56)، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ(57) فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ (ظلم بقتل القاتل بعد أخذ الدية) فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ[178]. وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[179] (58).

واحد من هذين الحكمين: أما في القتل : فلأنه إذا وقع القتل بين قبيلتين إحداهما أشرف من الأخرى، فالأشراف كانوا يقولون: لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم، وبالرجل منا الرجلين منهم، وكانوا يجعلون جراحاتهم ضعف جراحات خصومهم ... وأما الظلم في أمر الدية فهو أنهم ربما جعلوا دية الشريف أضعاف دية الرجل الخسيس، فلما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أوجب رعاية العدل وسوى بين عباده في حكم القصاص وأنزل هذه الآية. وفي هذا الإطار ذكر ما رواه الطبري عن أناس نسبوا إلى كل من علي بن أبي طالب والحسن البصري أن المقصود من هذه الآية بيان : أن بين الحرين، والعبدين، والذكرين، والأنثيين، يقع القصاص ويكفي ذلك فقط. فأما إذا كان القاتل للعبد حراً، أو للحر عبداً، فإنه يجب مع القصاص التراجع: فأما إن قتل حر عبداً فهو قوده، فإن شاء موالي العبد أن يقتلوا الحر قتلوه بشرط أن يسقطوا ثمن العبد من دية الحر، ويسردوا إلى أولياء الحر بقية ديته. وإن قتل عبدٌ حراً فهو به قود، فإن شاء أولياء الحر قتلوا العبد وأسقطوا قيمة العبد من دية الحر، وأدوا بعد ذلك إلى أولياء الحر بقية ديته، وإن شاؤوا أخذوا كل الدية وتركوا قتل العبد. وإن قتل رجلٌ امرأة فهو بها قود، فإن شاء أولياء المرأة قتلوه وأدوا نصف الدية، وإن قتلت المرأة رجلاً فهي به قود، فإن شاء أولياء الرجل قتلوها وأخذوا نصف الدية، وإن شاؤوا أعطوا كل الدية وتركوها، قالوا فالله تعالى أنزل هذه الآية لبيان أن الاكتفاء بالقصاص مشروع بين الحرين والعبدين والأنثيين والذكرين فأما عند اختلاف الجنس فالاكتفاء بالقصاص غير مشروع فيه". قلت (الجابري): "غير مشروع" بالنظر إلى عادة العرب (قبل الإسلام) المذكورة أعلاه، وليس بالنظر إلى الآية نفسها.

56- «مَن» يراد بها القاتل، و«عُفِيَ» تتضمن عافياً هو وليّ الدم، والأخ هو المقتول، و«شَيْءٌ» هو الدّم الذي يُعْفَى عنه ويرجع إلى أخذ الدّية. والمعنى: أنه إذا عفا وليّ المقتول عن دم مقتوله وأسقط القصاص فإنه يأخذ الدّية ويتبع بالمعروف فلا يغالي، ويؤدّي إليه القاتل الدية بإحسان فلا يماطل... انظر آراء المذاهب الفقهية في الموضوع في (القرطبي).

57- قالوا: معنى التخفيف هنا : "أن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك، وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قَوَدٌ ولا دِيَة؛ فجعل الله تعالى ذلك تخفيفاً لهذه الأمة؛ فمن شاء قَتل، ومن شاء أخذ الدية، ومن شاء عفَا".

58- وذلك أن مبدأ "قتل القاتل" فيه حياة لمن يفكر في القتل، وحياة في الذي كان القاتل يريد قتله. فالمقصود : يا أصحاب العقول امتنعوا عن إراقة الدماء مخافة القصاص.

2- الوصية

كُتِبَ عَلَيْكُمْ، إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا، الْوَصِيَّةُ (59) لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ 180 (60)، فَمَنْ بَدَّلَهُ (بدل نص الوصية) بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ (هذا البديل) عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ (يقومون به)؛ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ 181، فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا (ميلا إلى خطأ كأن يوصي للغني وفي عائلته فقراء) أَوْ إِثْمًا (خروجا عن الحق والعدل) فَأَصْلَحَ (أعاد الأمر إلى نطاق الحق والعدل) بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ (61)، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ 182.

3- فرض الصيام، وواجبات أخرى...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ (الأمم التي جاءها رسل من الله) لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ 183 (62): أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ (=الصيام

59- الوصية فاعل كُتِب، وقد جاء مؤنثا لجواز ذلك عندما يفصل الفعل عن فاعله كقولهم "جاء القاضي، اليوم، امرأة". اختلف الفقهاء هل الوصية واجبة على ظاهر القرآن أم أنها واجبة فقط على من لديه ودائع غيره أو عليه دَين. وقال بعضهم : "ليست الوصية واجبة إلا على رجل عليه دين أو عنده مال لقوم؛ فواجب عليه أن يكتب وصيته ويخبر بما عليه. فأمّا مَن لا دَين عليه ولا وديعة عنده فليست بواجبة عليه إلا أن يشاء". "ذهب الجمهور من العلماء إلى أنه لا يجوز لأحد أن يوصي بأكثر من الثلث إلا أبا حنيفة وأصحابه فإنهم قالوا: إن لم يترك الموصي ورثة جاز له أن يوصي بماله كلّه. وقالوا: إن الاقتصار على الثلث في الوصية إنما كان من أجل أن يدع ورثته أغنياء".

60- قيل: كان أهل الجاهليّة يُوصون بمالهم للبعداء رياءً وسُمعةً، ويتركون الفقراء من أقاربهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قالوا نزلت هذه الآية قبل نزول الفرائض والمواريث. قالوا وهذه الآية مرتبطة بالتي قبلها من جهة أن المقصود هو الشخص القاتل الذي يقتص منه بقتله فإن له أن يوصي قبل تنفيذ القتل فيه

61- "المراد أن هذا المصلح، إذا شاهد الموصي يوصي فظهرت منه أمارات الجنف الذي هو الميل عن طريقة الحق مع ضرب من الجهالة، أو مع التأويل، أو شاهد منه تعمداً بأن يزيد غير المستحق، أو ينقص المستحق حقه، أو يعدل عن المستحق، فعند ظهور أمارات ذلك وقبل تحقيق الوصية يأخذ في الإصلاح، لأن إصلاح الأمر عند ظهور أمارت فساده وقبل تقرير فساده يكون أسهل".

62 - الصيام في اللغة الإمساك عن الشيء وتركه، مثل الإمساك عن الكلام. وفي الاصطلاح الفقهي "الإمساك عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس".

في عدد من الأيام)(63). **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ** (من المرضى والمسافرين فقط) **فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ** (إن هم أفطروا)، **فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا** (أطعم أكثر من مسكين واحد) **فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا** (أيها المرضى والمسافرون إن كنتم تطيقونه) **خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**-184 (64). (ذلك : أي تلك الأيام المعدودات هي) **شَهْرُ رَمَضَانَ، الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى** (إلى طريق الصواب) **وَالْفُرْقَانِ** (الذي

63- اختلفوا في معنى "أيام معدودات": هل هي رمضان أم أنها أيام أخرى؟ فريق قال إنها غير رمضان واختلفوا في عددها : بعضهم قال ثلاثة أيام من كل شهر، وقيل: يضاف إليها صوم يوم عاشوراء. ثم اختلفوا أيضاً فقال بعضهم: إنه كان تطوعاً ثم فرض، وقيل: بل كان واجباً. واتفق هؤلاء على أنه منسوخ بصوم رمضان، وفريق آخر وهو الأغلبية قالوا: إن "الأيام المعدودات" هي شهر رمضان نفسه واعتبروا أن قوله تعالى في الآية التالية "شهر رمضان..." بيان لتلك الأيام، وعلى هذا فلا صوم كتب على المؤمنين كفريضة غير رمضان. أما تمسك الفريق الأول بقوله عليه السلام: "إن صوم رمضان نسخ كل صوم". فقد رُدَّ عليه بأن المقصود هو أنه نسخ كل صوم واجب في الشرائع المتقدمة، وهذا على رأي من يسري أن الشريعة المحمدية يصح أن تكون ناسخةً لشرائع أخرى، لا أن ينسخ بعضها بعضا.

64 - كثيرة جدا هي أنواع الفهم والتأويلات المقترحة لهذه الآية وقد أورد الطبري القسم الأوفر منها وهي كلها لا تخلو من اللبس. أما نحن فسنقتصر هنا على شرح ما تبين لنا أنه المفهوم من الآية فنقول: إن اللبس كله يرجع إلى قوله "يُطِيقونه" أي يستطيعون الصيام، وهذا اللبس ناشئ في نظرنا من اعتبار اسم الموصول "الذين" لفظا مطلقا، بمعنى أنه "جميع الناس" (كقولك : أيها الذين آمنوا : أيا كانوا...)، أما نحن فنرى أنه غير مطلق بل يعود على معين وهو "من كان مريضا أو على سفر" وعلى هذا يكون معنى الآية "فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ"، (وهذا واضح)، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ (أي على المرضى والمسافرين الذين يتحملون الصيام بدون مشقة فيها ضرر بهم) فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ (إذا هم أفطروا)، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا (أي أطعم أكثر من مسكين واحد) فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا (أيها المرضى والمسافرون الذين يتحملون الصيام) خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ-184 (أنكم بذلك تكفون عن استعمال رخصة لستم في حاجة إليها". والمعنى: إن إفطار المريض والمسافر رخصة لمن هو محتاج إليها، أما غير المحتاج إليها فالأصل هو أن يصوم. ولكن بما أنه من الصعب تحديد درجة المشقة التي يسمح معها بالإفطار للمريض والمسافر فإنه يرخص له الإفطار حتى ولو كان قادرا على الصيام ولكن لابد في هذه الحالة من فدية ("تعويض") وهو إطعام مسكين، فهو بالكفارة أشبه. هذا وجمهور المفسرين مع الرأي القائل إن معنى "يطيقونه" هو: "لا يطيقونه" وبعضهم تكلف فقال: "يطوَّقونه". وهذه تأويلات لا ضرورة لها. فالمعنى كما قررناه أعلاه لا لبس فيه.

يفرق بين الحق والباطل). فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ (من كان حاضرا في بلده حين حلول) الشَّهْرَ (شهر رمضان) فَلْيَصُمْهُ (كله في بلده)، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ (حين حلول شهر رمضان) فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ (فيمكن أن يفطر ويقضي فيما بعد عدد الأيام التي فطر فيها) (65): يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ، وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ (تكملوا صيام الشهر بقضائكم الأيام التي أفطرتم فيها حين السفر أو المرض) وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ (تعظموه) عَلَى مَا هَدَاكُمْ (إليه من اليسر) وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 185 (له ذلك). وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ 186 (66). أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ (الجماع) إِلَى نِسَائِكُمْ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ. عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ (تخونون، تضرون) أَنْفُسَكُمْ (لا تباشرون زوجاتكم ليلة الصيام)، فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ، فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ (زوجاتكم) وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ (من الحمل في زوجاتكم)، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ، وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي

65- علينا أن نستحضر في أذهاننا أن الناس كانوا في الماضي يقضون في طريق السفر أياما بل شهورا. كما أن المرض كان يطول بالإنسان فلم تكن هنا أدوية معالجة أو مسكنة للألم كما هو الحال اليوم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لاحظ بعض المفسرين أنه لم يرد هنا ذكر لقوله "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ" كما في الآية السابقة، واستنتجوا من ذلك أن هذه الآية نسخت الأولى. وهذا في نظرنا ينم عن الغفلة عن تراكيب العبارة اللغوية وعن سيطرة مفهوم النسخ على العقول حتى أصبح عائقا للفهم والمعرفة. ذلك أننا لو فرضنا أن عبارة "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ" الخ قد تكررت هنا (بعد "شهر رمضان") فالسؤال الذي سيطرح نفسه هو التالي: على من يعود الضمير في "يطيقونه" (أقصد المفعول به)؟ واضح أنه في الآية الأولى يعود إلى الصيام. أما هنا فأقرب مذكور يمكن ربطه به هو "شهر رمضان". وفي هذه الحالة فأي معنى سيكون لمن "يطيقون شهر رمضان"؟ نحن نرى أنه لا ناسخ ولا منسوخ هنا. فالآيتان واضحتان محكمتان.

66- أورد المفسرون أخبارا عن سبب نزول هذه الآية. ونحن نرى أن الآية جزء من السياق ولا تحتاج إلى سبب نزول كقولهم: "سأل رجل النبي عليه السلام : يا محمد أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله الآية. فالسياق يفيد أن الله قريب من المريض، وقريب من المسافر، وكل منهما يواجه أخطارا، وعلى كل منهما أن يدعو الله ويستعين به، والله قريب من الضعفاء والمعانين ويستجيب لهم... أما إقحام "سبب نزول داخل السياق" فهو يعزل الآيات السابقة عن التاليات وهي كلها متصلة وفي موضوع واحد هو الصيام وما يتصل به الخ.

الْمَسَاجِد[67]. تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا [68]، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ[187]. وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[188] [69]. يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ (جمع هلال) قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ. وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[189].

4- *القتال في الشَّهْرُ الْحَرَامُ: سرية ابن جحش وغزوة بدر*

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا (بأن تقتلوا من لا يقاتلكم من غير مشركي قريش الذين أخرجوكم من دياركم) إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ[190] [70]. وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (وجدتموهم)[71] وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ

67- عاكفون، ملازمون المسجد للعبادة. ويعرف الاعتكاف الفقهاء بأنه: "ملازمةُ طاعة مخصوصة، في وقت مخصوص، على شرط مخصوص، في موضع مخصوص". وأجمعوا على أنه ليس بواجب، وأنه قُربة من القُرَب ونافلة من النوافل عمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأصحابه وأزواجه، ويلزمُه (يلزم المعتكف) إن ألزمه نفسه، ويكره الدخول فيه لمن يُخاف عليه العجز عن الوفاء بحقوقه. والاعتكاف لا يكون إلا في المسجد" (القرطبي).

68- أي الأحكام السابقة. "وَسمِيّت حدود الله لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج منها ما هو منها؛ ومنها سُمّيت الحدود في المعاصي؛ لأنها تمنع أصحابها من العَوْد إلى أمثالها" (القرطبي).

69- قالوا: أن "الرجل يكون عليه مال لغيره، وليس لصاحب المال عليه فيه بينة، فيجحد المال ويخاصمه إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وأنه آثم آكل حراما".

70- قال بعض المفسرين "هذه الآية أول آية نزلت في القتال، فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقاتِل من قاتله، ويكف عن قتال من تركه، وبقي على هذه الحالة إلى أن نزل قوله تعالى: "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ" (التوبة: 5) : قلت: هذا حسب ترتيب المصحف. أما حسب ترتيب النزول الذي اعتمدناه فقد نزل في سورة الحج قوله تعالى : "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ (أن يقاتِلوا) بِأَنَّهُمْ (بسبب أنهم) ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ" (الآية 39). وسورة الحج آخر ما نزل في مكة، وذلك قبيل هجرة النبي عليه السلام، وعلى هذا تكون آية سورة البقرة أعلاه مندرجة في نفس السياق. ونحن نعلم أنه عليه السلام جهز عددا من السرايا منها، ما ترأسه بنفسه، للتعرض لقوافل المشركين عند عودتها إلى مكة من الشام. كما بعث عبد الله بن جحش في رجب من السنة الثانية من الهجرة على رأس جماعة صغيرة من المهاجرين كلفت باستطلاع أخبار القوافل المتنقلة بين مكة والطائف. وقد قامت البعثة=

أَخْرَجُوكُمْ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ (72)، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ191. فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ192. وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ (منهم) فِتْنَةٌ (تفتن المؤمنين)، وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ193. الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ (73): (وهكذا) فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ194. وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ

بمهمتها وقامت بإغارة وساقت غنيمة مع رجلين منها إلى الرسول بالمدينة. وقد حدث ذلك في شهر رجب، وهو من الأشهر الحرم، ولم يكن الرسول قد أمرها بالقتال فيه، فحصل نقاش بين أصحابه هل يجوز القتال في الشهر الحرام أم لا يجوز، وخافوا أن تعيرهم قريش بذلك فنزل قوله تعالى في هذه السورة (البقرة 217-218) "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ؟ قُلْ: قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ! وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ، أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ. وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ" الخ. وهكذا فالآية التي نحن بصددها أعلاه (رقم 190) تشكل، هي والآيات والتي بعدها إلى الآية 218، سياقا واحدا متصلا. وهي تتحدث عن ظروف القتال، ظروف سرية ابن جحش ووقعة بدر الكبرى وهما متزامنتان لم يكن يفصل بينهما إلا شهر أو شهرين . وإذن فلا معنى لربط تلك الآيات بصلح الحديبية الذي جرى في السنة السادسة للهجرية كما فعل بعض المفسرين. نحن ما زلنا في السنة الثانية للهجرة والواجب الحفاظ للسورة على وحدتها، وإلا فكيف نفهم هذه التجزئة وقد عرفنا أن النبي عليه السلام كان "يراجع مع جبريل القرآن كل رمضان" الخ. أما كون هذه الآيات قد نسختها آية سورة براءة (التوبة) فذلك ما سنناقشه في حينه.

71 - بعض الناس ستشهدون بهذه الآية على وجه العموم، في حين أنها نزلت في ظرف خاص يؤكد خصوصيته قوله تعالى بعدها مباشرة "وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ" أي من مكة والمسجد الحرام...والآيات التاليات تؤكد هذا الخصوص. وفي نظري: لا يجوز اتخاذ خصوص معين، في زمن سابق، مرجعية لزمن لاحق إلا في خصوص يماثل ذلك السابق ويطابقه على صعيد قصد الشارع.

72- معنى الآية أن ما فعل مشركوا مكة بالمسلمين من الفتنة حين اضطروهم إلى الخروج من ديارهم والهجرة إلى الحبشة أو يثرب أو غيرهما، هو أكبر من القتل ... ولذلك فقتال سرية عبد الله ابن جحش لهم لم يكن ابتداء بل رد على الفتنة التي أوقعوا فيها المسلمين (انظر تفاصيل الحادثة في مقدمة هذا الكتاب).

73- الحرمات جمع حرمة، والحرمة ما منع انتهاكه. والقصاص : المساواة. المعنى: احترام الشهر الحرام واجب عند المسلمين بالشرع وواجب عند مشركي مكة بالعادة : ولكن لما لم تمنعهم حرمة هذا الشهر من إيذاء المسلمين وطردهم وملاحقتهم في مكة فلماذا يريدون أن يمنعنا من قتالهم، ردا لظلمهم...

اللَّهِ[74] وَلَا تُلْقُوا (أنفسكم) بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [75]، وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[195].

5- الحج والعمرة ومناسكهما ...

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ (بمناسكهما) [76]، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ (حُبستم بسبب مطر أو غيره ومُنعتم دون إتمامهما) فَمَا اسْتَيْسَرَ (فواجبٌ عليكم ما) تيسَّر مِنَ الْهَدْيِ (وهو ما يُهدى إلى بيت الله، من الإبل أو البقر أو الغنم)، وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ (لا تَحِلُّوا من إحرامكم) حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ (حتى يُنحر الهدي بمكة في قول، أو حيث وقع الحصر في قول)، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ (ولم يستطع إتمام المطلوب) فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ (ثلاثة أيام) أَوْ صَدَقَةٍ (إطعام ستة مساكن) أَوْ نُسُكٍ (ذبيحة)، فَإِذَا أَمِنْتُمْ (من العدو، أو كان حجّكم ليس فيه خوفٌ من عدو) فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ [77] فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ (ثمن الهدي) فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ. ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (لِمَنْ لم يكن من أهل مكة)؛ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[196]. الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ (أي

74- قيل لما نزلت الآيات السابقة قال بعضهم للرسول: "والله يا رسول الله ما لنا زاد وليس أحد يطعمنا" فنزلت هذه الآية تحث المسلمين الميسورين على النفقة لتجهيز المقاتلين للسرايا والغزوات.

75- لا تسرفوا في النفقة إلى الدرجة التي تجعل منكم فقراء عاجزين عن النفقة مرة أخرى للدفاع عن أنفسكم فتتعرضون للهلاك.

76- أي: لا تجاوزوا البيت بمناسك الحج والعمرة. وفي قراءة أخرى: "وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت"، وأنه قد ذكرت هذه القراءة لابن عباس فأقرها.

77- "وصورة المُستَمْتِع بالعمرة إلى الحجّ : أنْ يُحْرِمَ بالعمرة في أشهر الحج فإذا أحرم بالعمرة بعد إهلاله شوّالا فقد صار متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وسمي متمتعاً بالعمرة إلى الحج لأنه إذا قدم مكة وطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمَرْوَةِ حلّ من عمرته وحلق رأسه وذبح نُسُكَه الواجب عليه لتمتعه، وحلّ له كل شيء كان حَرُمَ عليه في إحْرامه من النساء والطيب، ثم يُنْشِيء بعد ذلك إحراماً جديداً للحجّ وقت نهوضه إلى مِنًى أو قبل ذلك من غير أن يجب عليه الرجوع إلى الميقات الذي أنشأ منه عمرته، فذلك تمتعه بالعمرة إلى الحج ... فيكون قد تمتع بالعمرة في أيام الحج أي انتفع لأن العرب لم يكونوا يقومون العمرة في أشهر الحج فأجازها الإسلام".

شوال وذو القعدة وتسعُ من ذي الحجّة) فَمَنْ فَرَضَ (أوجب على نفسه) فِيهِنَّ الْحَجَّ (بالإحرام والتّلبية) فَلَا رَفَثَ (لا جماع) وَلَا فُسُوقَ (لا معاصي) وَلَا جِدَالَ (ولا مماحكة) فِي الْحَجِّ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا (78)، فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ[197]. لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ (بالتجارة في الحج)، فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ (انصرفتم) فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ[198]، ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ، (79) وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[199]. فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ[200] (80). وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ[201]، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ[202]. وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، فَمَنْ تَعَجَّلَ (نفر من منى) فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ (إلى اليوم الثالث) فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى (في حجه تضييع أي شيء من مناسكه)، وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[203].

6- ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ (الإسلام) كَافَّةً (بجميع تعاليمه)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ (كأن يدَّعي المحبة للنبي)، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (شديد الخصومة له)[204]. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ[205]. وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ

78- قيل المقصود بها أناس كانوا يحجُّون بلا زادٍ ويقولون: "نحن متوكِّلون"، ثمَّ كانوا يسألون النّاس وربّما ظلموهم وغصبوهم، فأمرهم الله أنْ يتزوَّدوا حتى لا يخلوا بالتقوى...

79- أي: "من حيث أفاض العرب وعامّة النّاس إلاّ قريشاً، وذلك أنّهم كانوا لا يقفون بعرفات وإنّما يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل حرم الله، فلا نخرج منه. فأمر الله المسلمين أن يقفوا بعرفاتٍ، كما يقف سائر النّاس حتى تكون الإفاضة معهم منها".

80- ومعنى الآية: إذا فرغتم من عباداتكم التي أمرتم بها في الحجّ "فاذكروا الله كذكركم آباءكم"، وكانت العرب إذا فرغوا من حجّهم ذكروا مفاخر آبائهم، فأمر الله المسلمين بذكره أشدَّ ذكراً من ذلك. وكان المشركون يسألون المال والإبل والغنم، ولا يسألون حظّاً في الآخرة؛ لأنّهم لم يكونوا مؤمنين بها، فأمر المسلمين أن يسألوا الحظّ والنصيب في الدُّنيا والآخرة.

الْمِهَادُ[206]. وَمِنَ النَّاس مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ (يبيعها) ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ[207]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ (الإسلام) كَافَّةً (بجميع تعاليمه : قيل نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه، وهم يهود أسلموا وبقوا يعظمون يوم السبت ويكرهون لحم الإبل) وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ[208]. فَإِنْ زَلَلْتُمْ (بقيتم على ما كنتم عليه) مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ (من حلال وحرام في القرآن)، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[209]. هَلْ يَنْظُرُونَ (ينتظرون) إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ (كما فعل بنو إسرائيل حين قالوا لموسى ن لا نومن لك حتى نرى الله: الآية 63 أعلاه)، وَقُضِيَ الْأَمْرُ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ[210]. سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ؟ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[211]. زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا (رؤساء اليهود) الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا (فقراء المهاجرين)، وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[212]. كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (على الكفر)، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (من معتقدات وأعمال)، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ (= الكتاب) مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ (بسبب حسد بعضهم بعضا)، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[213]. أَمْ حَسِبْتُمْ (أنتم أيها المهاجرون الفقراء الذين تحسون بالضيق والمرض والجوع لأنكم هاجرتم بلا مال) أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ (محنة) الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ: مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟ [81] أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ"[214].

<u>7- يسألونك... قل ...</u>

<u>أ- ماذا ينفقون</u> - "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ"[215] [82].

81- قارن هذا بأول سورة العنكبوت والتعليق عليها (القسم الثاني من الكتاب هامش رقم 88) وقد نزلت أثناء بداية الهجرة من مكة.

82- قيل نزلت في أحد أغنياء المدينة سأل النبيْ: "ماذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعُها؟

ب- كتب عليكم القتال - "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ (فرض عليكم) وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ (لما فيه من مشقة ومخاطرة بالنفس والمال) وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ (الجهاد فيه الوعد بالجنة في الآخرة فضلا عن الغنائم في الدنيا)، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا (القعود وعدم الخروج للقتال) وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ (قد يتغلب عليكم عدوكم فيستعبدكم ويسلب أموالكم)، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ 216.

ج- القتال في الشهر الحرام - "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ (شهر رجب، وعن) قِتَالٍ فِيهِ [83]؟ قُلْ : قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ (استحلاله عند الله). و (كذلك) صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَ(صد عن) الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ، أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؛ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ. وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ (استجابة لهم وتأثرا بضغوطهم وإغراءاتهم) فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ 217 [84]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ (=رجال سرية ابن جحش) أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ 218 [85].

د- الخمر والميسر - "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ (القمار)! قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا [86].

هـ- العفو... - "وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ [87]؟ قُلِ الْعَفْوَ! (ما فضل من المال) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ 219 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

---

83 - نزلت في سرية عبد الله بن جحش التي قتل بعض أفرادها رجلا من قريش مع حلول شهر رجب، وقد تقدم الكلام عنه قبل، وفي مقدمة الكتاب.

84 - واضح أن هذه الآية لا تنص على أية عقوبة دنيوية لمن ارتدوا عن الإسلام، وإنما تؤكد على أن ما قاموا به من أعمال صالحة حين إسلامهم ستصبح باطلة بعد كفرهم ولا يكون عليها ثواب في الدنيا ولا في الآخرة، وأن مصيرهم جهنم يوم القيامة.

85- كان رجال سرية عبد الله بن جحش يتخوفون من أن يكون فعلهم غير مشروع وأنهم سيحرمون من نصيبهم من الغنيمة التي جاؤوا بها فنزلت هذه الآية.

86 - قالوا: "فإثم الخمر أن الرجل يشرب فيسكر فيؤذي الناس. وإثم الميسر أن يقامر الرجل فيمنع الحق ويظلم"، "أما منافعهما فإن منفعة الخمر في لذته وثمنه، ومنفعة الميسر فيما يصاب من القمار".

87- قيل نزلت جوابا عن السائل السابق (رقم 1) حين عاد فسأل عن مقدار ما ينفق؟

و- اليتامى- "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ (كيفية التعامل مع) الْيَتَامَى (في أموالهم)؟ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ (الإصلاح لأموالهم من غير أجرةٍ خيرٌ وأعظم أجـراً)، وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ (تشاركوهم في أموالهم وتخلطوها بأموالكم فتصيبوا من أموالهم عوضاً عن قيامكم بأمورهم) فَإِخْوَانُكُمْ (فهم إخوانكم، والإخوانُ يُعين بعضهم بعضاً، ويُصيب بعضهم من مال بعض)؛ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ (لضيّق عليكم) (88) إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[220]".

ز- الزواج بالمشركات والمشركين- "وَلَا تَنْكِحُوا (تتزوجوا) الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ، وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ. وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ. أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ، وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[221]".

ح- المحيض- "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ؟ قُلْ هُوَ أَذًى (دم قذر)؛ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ (لا تجامعوهن) حَتَّى يَطْهُرْنَ (ينقضي الحيض ويغتسلن)، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ (تجنّبهن حين الحيض: أي آتوهن في فروجهن)، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ[222]. نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ (مزرعٌ ومنبتٌ للولد)، فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ (كيف شئتم في موضع الحرث : الفرج) (89). وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ (التزموا العمل بما

88- قالوا: "كانت العرب في الجاهليّة يُشدّدون في أمر اليتيم ولا يُؤاكلونه، وكانوا يتشاءمون بملابسة أموالهم، فلمّا جاء الإسلام سألوا الرسول عن ذلك؟ فنزلت هذه الآية...

89- قيل "نزلت تكذيباً لليهود، وذلك أنّ المسلمين قالوا: إنّا نأتي النّساء باركاتٍ وقائماتٍ ومستلقياتٍ، ومن بين أيديهنّ، ومن خلفهنّ بعد أن يكون المأتي واحداً، فقالت اليهود: ما أنتم إلاّ أمثال البهائم، لكنّا نأتيهنّ على هيئةٍ واحدةٍ، وإنّا لنجد في التّوراة أنّ كلّ إتيانٍ يؤتى النّساء غير الاستلقاء دنسٌ عند الله"! وري عن ابن عباس أنه قال: إن هذا الحيّ من قريش، كانوا يشرحون النساء بمكة، ويتلذّذون بهنّ مقبلات ومدبرات. فلما قدموا المدينة تزوّجوا في الأنصار، فذهبوا ليفعلوا بهنّ كما كانوا يفعلون بالنساء بمكة، فأنكرن ذلك وقلن: هذا شيء لم نكن نؤتى عليه فانتشر الحديث حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فأنزل الله تعالى ذكره في ذلك: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ، إن شئت فمقبلة وإن شئت فمدبرة وإن شئت فباركة وإنما يعني بذلك موضع الولد للحرث، يقول: ائت الحرث من حيث شئت". هذا وقد نسب كثير من الرواة إلى عبد الله ابن عمر أنه كان يقول بجواز إتيان الزوجات في دبرهن (الشرج)، بناء على معنى "أنى شئتم" في الآية هو: في أي مكان منها، وأن المقصود هو الدبر (انظر الطبري).

أجبناكم به على استفساراتكم السابقة من 1 إلى 8)، **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ** (وعيد لمن خالف ذلك) **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**[223] (وبشرى لما التزم).

8- اليمين، الطلاق، الرضاعة، حقوق الأرملة

"**وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً** (حائلا ومانعا) **لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**"[224] (لا تجعلوا اليمين بالله ذريعة تتخذونها سببا يمنعكم من البر والإصلاح، فكفروا عن يمينكم وقوموا بما حرمتموه على أنفسكم من الصلاح). **لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ** (في القسم الذي يجري علي اللسان بغير قصد) **وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ** (بما قصدتم وعزمتم)، **وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**"[225]. (من ذلك) : "**لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ** (يحلفون أن لا يطؤوهنّ) **تَرَبُّصُ** (انتظار) **أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ** (فإن مضت تلك المدة فلهم أن يطلقوا أو يرجعوا فيجامعوهن)، **فَإِنْ فَاءُوا** (رجعوا عما حلفوا عليه) **فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**"[226]. **وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ** (اختاروا الطلاق) **فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**"[227]. **وَالْمُطَلَّقَاتُ** (المدخول بهنّ غير الحوامل) **يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ** (انتهاء مدة) **ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ** (ثلاث حيضات، قبل الزواج من جديد)، **وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ** (لا يجوز لهن إخفاء الحمل ليبطلن حقّ الزوج من الرَّجعة) **إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبُعُولَتُهُنَّ** (أزواجهن) **أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ** (بمراجعتهن) **فِي ذَلِكَ** (الأجل الذي أمرن أن يتربصن فيه) **إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** (بما دفعوا من المهر والأموال)، **وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**"[228].

- **الطَّلَاقُ** (الذي يمكن فيه الرجعة) **مَرَّتَانِ ، فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ** (إذا راجعها بعد الطلقتين فعليه إمساكٌ بما أمر الله تعالى) **أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** (وهو أَنْ يتركها حتى تَبِينَ بانقضاء العِدَّة، ولا يراجعها ضرارا). **وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا** (لا يجوز للزّوج أن يأخذ من امرأته شيئاً ممّا أعطاها من المهر ليطلّقها، إلاّ في الخلع) **إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ** (إنّ المرأة إذا خافت أن تعصي الله في أمر زوجها بُغضاً له، وخاف الزّوج إذا لم تطعه امرأته أن يعتدي عليها، حلّ له أن يأخذ الفدية منها إذا دعت إلى ذلك)، **فَإِنْ خِفْتُمْ** (أيها القائمون بتنفيذ شرع الله) **أن لا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ** (لا جُناح عليها فيما أعطته المرأة، ولا على الرّجل فيما أخذ). **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ** (ما حدده الله من شرائع) **فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**"[229].

فَإِنْ طَلَّقَهَا (الزوج المطلق مرتين) فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ (هذه الزوجة التي صارت الآن مطلقة ثلاثا) حَتَّى تَنْكِحَ (تتزوج) زَوْجًا غَيْرَهُ (ويجامعها)، فَإِنْ طَلَّقَهَا (الزوج الثاني) فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا (هي والزوج الأول) أَنْ يَتَرَاجَعَا (يتزوجا من جديد) إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[230]، وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ (انقضاء عدتهنّ) فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ (راجعوهنّ بإشهادٍ على الرَّجعة وعقد لها) أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ (اتركوهنّ حتى تنقضي عدتهنّ ويكنّ أملك بأنفسهنّ)، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا (لا تراجعوهنّ مضارةً وأنتم لا حاجة بكم إليهنّ) لِتَعْتَدُوا (عليهنّ بتطويل العِدّة)! وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ. وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا (فيقول مثلا: إنما حلفت فطلّقت وأنا لاعبٌ، فيرجع فيها) وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[231]. وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ (انقضت عدتهنّ) فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ (لا تمنعوهنّ يا أولياءهن) أَنْ يَنْكِحْنَ (بنكاح جديد) أَزْوَاجَهُنَّ (أي: الذين كانوا أزواجاً لهنّ) إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ (بعقدٍ حلال ومهرٍ جائز)، ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[232].

– "وَالْوَالِدَاتُ (المطلقات أحق من غيرهن أن) يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ (وعلى الزَّوج النفقة على المرأة المُطلّقة وكسوتها إذا أرضعت الولد) بِالْمَعْرُوفِ (النفقة عليها الخ بالقدر المتعارف عليه أنه عدلٌ على قدر الإمكان)، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا. لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ (لا ينزع الولد منها إلى غيرها بعد أن رضيت بإرضاعه وألفها الصبيُّ، ولا تلقيه هي إلى أبيه بعدما عرفها وألفها، تضارّ زوجها بذلك)، وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ[90]، فَإِنْ أَرَادَا (الأم والأب) فِصَالًا (فطام ابنهما قبل إكمال سنتين من الرضاعة) عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا. وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ (تعينوا مرضعات لهم غير الوالدة) فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ (الوالدة) مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ (أي أجرتها بمقدار ما أرضعت)، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[233]".

90- على والي الصبيّ، الذي لو مات أبوه وله مالٌ ورثه، مثل الذي كان على والده في حياته، في حق الوالدة من الرزق والكسوة.

- "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ (يخلّفون) أَزْوَاجًا (عليهن أن) يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ (ينتظرن قبل أن يباح لهن الزواج) أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا (هذه المدّة عدّة المُتوفى عنها زوجها إلاّ أن تكون حاملا)، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"234. وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ (خلال عدتهن: تعريضا وإشارة فقط يفهم منها أنكم ترغبون في الزواج منها)، أَوْ أَكْنَنْتُمْ (ولا جناح عليكم إن أضمرتم ذلك) فِي أَنْفُسِكُمْ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا (لا تأخذوا ميثاقهنّ أن لا ينكحن غيركم) إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا (أي تعرضوا ولا تصرحوا كما ذكر قبل)، وَلَا تَعْزِمُوا (تثبتوا) عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ (حتى تنقضي العدّة المفروضة)، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ"235. لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ (لم تجامعوهن) أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً (أي توجبوا لهن صداقا)، وَمَتِّعُوهُنَّ (وأعطوهنّ من مالكم ما يتمتّعن به)، عَلَى الْمُوسِعِ (الموسر) قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ (الضعيف) قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ"236. وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ (أي المطلقة قبل الدخول عليها) وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً (مهرا) فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ، إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ (تتنازل) أَوْ يَعْفُوَ (يتنازل) الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ، وَأَنْ تَعْفُوا (وأن لا تطالبوا وتتحاسبوا، الرجال والنساء) أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ (أن يحسن بعضكم إلى بعض). إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"237. حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى(91) وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ"238 (92)، فَإِنْ خِفْتُمْ (من عدو أو سيل أو سبع) فَرِجَالًا (صلوا راجلين، ماشين على أرجلكم) أَوْ رُكْبَانًا (راكبين للدواب)، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ"239. وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا (تجب عليهم) وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ (لنسائهم) مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ (تمتعا لهن مدة سنة، أي ينفق الورثة عليهن مدة سنة من غير أن يخرجوهن من منزل أزواجهن

91- اختلفوا في تحديدها، والمشهور أنها صلاة العصر. هذه الآية والتي بعدها (238-239) أشبه بالجملة الاعتراضية إذ لا مناسبة ظاهرة بينهما وبين التي قبلهما والتي بعدهما، فموضوعهما مختلف تماما.

92 – قيل: "كانوا في الصلاة يكلم بعضهم بعضا إلى أن نزل "وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ".

المتوفى) [93]، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ (في قطع النفقة عنهن) فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ (كالتشوف للزواج والعمل من أجله)، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ-240. وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ، حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ-241. كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ-242.

9- الحث على القتال: "كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً".

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ (قوم من بني إسرائيل) وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ (خوف القتال)، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ

---

93 – معظم المفسرين يقولون إن الوصية في هذه الآية منسوخة بالآية السابقة رقم 234. ولما اعترض عليهم بأن الناسخ لا يتقدم المنسوخ أجابوا بأن "الوضع" يقتضي أن تكون هذه الآية سابقة للأولى نزولا ومتأخرة عنها تلاوة، وهذا من أغرب الأمور! ولو طبقنا هذا على آيات أخرى لفسد الدين كله. والذي يستقيم مع السياق هو ما قاله مجاهد وسايره فيه الطبري وقال: "إن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها، والعدّة كانت قد ثبتت أربعة أشهر وعشراً، ثم جعل الله لهن وصيّةً منه سُكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة، فإن شاءت المرأة سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت"، وهذا ما رجحه كل من الرازي وابن عاشور وغيرهما (انظر مناقشتهما لهذه المسألة في تفسيريهما). ونحن نرى أنه لا لبس هناك ولا تناقض، فالآية الأولى (234) مجالها غير مجال الثانية (240): الأولى مجالها العدة التي وضعت تجنبا لشبهة اختلاط النسب وما يتولد عنه من منازعات، وإنما حددت بـ"أربعة أشهر وعشرا" من وفاة زوجها، لأنه لم يكن من سبيل لمعرفة ما إذا كانت حاملا من زوجها المتوفى أم غير حامل غير التقدير الذي يقوم على مراقبة الحيض الخ. أما اليوم فالعلم الحديث قادر على التعرف على حال المرأة في أية لحظة. أما مجال الآية الثانية فيخص النفقة عليها بعد وفاة زوجها لمدة عام حتى لا تتشرد، قبل أن تتزوج ثانية. وطرح أمر النفقة عليها شيء ضروري أمس واليوم، فإذا تزوجت قبل العام بطل مفعول الوصية لأنها حينئذ ستكون في عهدة زوجها الجديد. أما احتجاج القائلين بالنسخ بكون الآية الثانية نسخت بآية الميراث في سورة النساء وهي قوله تعالى: "وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ" فاحتجاج لا يستقيم لأن الآية تقول: "مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ". ولا شيء يمنع من إدخال وصية الزوج لزوجته في نطاق الوصية المذكورة ههنا. وأما الاستشهاد بحديث : "لا وصية لوارث" ويضاف إليه: "إلا أن يجيز الورثة ذلك"، فهو حديث آحاد وفي رواته نقاش، وفي جميع الأحوال لا يعقل أن يعتبر مبطلا لعدة آيات وفي مقدمتها قوله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ، فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (البقرة 180-181).

عَلَى النَّاسِ(94)، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ"243. قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"244. مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"245. أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ (صمويل الأول) ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا (يقودنا) نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ (أليس) إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا؟ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا (تركناهم مضطرين) (95)! فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا (لم يقاتلوا)، إِلَّا قَلِيلًا

94- الغالب أن ها هنا إشارة إلى ما ورد في التوراة، كتاب حزقيال الإصحاح 17 من أن الله عاقب بني إسرائيل عل عبادة الأصنام وتقاعسهم عن قتال أعدائهم خوفا من الموت فأماتهم حتى صاروا عظاما نخرة ثم أحياهم، وفي هذا يقول حزقيال النبي. "وَكَانَتْ يَدُ الرَّبِّ عَلَيَّ فَأَحْضَرَنِي بِالرُّوحِ إِلَى وَسَطِ وَادٍ مَلِيءٍ بِعِظَامٍ، 2وَجَعَلَنِي أَجْتَازُ بَيْنَهَا وَحَوْلَهَا، وَإِذَا بِهَا كَثِيرَةٌ جِداً، تُغَطِّي سَطْحَ أَرْضِ الْوَادِي، كَمَا كَانَتْ شَدِيدَةَ الْيُبُوسَةِ. 3فَقَالَ لِي «يَاابْنَ آدَمَ، أَيُمْكِنُ أَنْ تَحْيَا هَذِهِ الْعِظَامُ؟» فَأَجَبْتُ: «يَاسَيِّدُ الرَّبُّ، أَنْتَ أَعْلَمُ». 4فَقَالَ لِي: «تَنَبَّأْ عَلَى هَذِهِ الْعِظَامِ وَقُلْ لَهَا: اسْمَعِي أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْيَابِسَةُ كَلِمَةَ الرَّبِّ: 5هَا أَنَا أَجْعَلُ رُوحاً يَدْخُلُ فِيكِ فَتَحْيَيْنَ. 6وَأَكْسُوكِ بِالْعَصَبِ وَاللَّحْمِ، وَأَبْسُطُ عَلَيْكِ جِلْداً وَأَجْعَلُ فِيكِ رُوحاً فَتَحْيَيْنَ وَتُدْرِكِينَ= أَنِّي أَنَا الرَّبُّ . 7وَفِيمَا كُنْتُ أَتَنَبَّأُ كَمَا أُمِرْتُ، حَدَثَ صَوْتُ جَلَبَةٍ وَزَلْزَلَةٍ، فَتَقَارَبَتِ الْعِظَامُ كُلُّ عَظْمٍ إِلَى عَظْمِهِ، 8وَاكْتَسَتْ بِالْعَصَبِ وَاللَّحْمِ وَبُسِطَ عَلَيْهَا الْجِلْدُ. إِنَّمَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا رُوحٌ 9فَقَالَ لِي: «تَنَبَّأْ لِلرُّوحِ يَاابْنَ آدَمَ، وَقُلْ: هَذَا مَا يَأْمُرُ بِهِ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَيَّا يَارُوحُ أَقْبِلْ مِنَ الرِّيَاحِ الأَرْبَعِ وَهُبَّ عَلَى هَؤُلاَءِ الْقَتْلَى لِيَحْيَوْا». 10فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أَمَرَنِي الرَّبُّ، فَدَخَلَ فِيهِمِ الرُّوحُ فَدَبَّتْ فِيهِمِ الْحَيَاةُ، وَانْتَصَبُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ جَيْشاً عَظِيماً جِداً جِداً..". والتذكير بهذه القصة هنا مناسب لأن الخطاب سينتقل من المسائل التي تخص الحياة الشخصية التي كانت محل استفسارات المسلمين أعلاه إلى الحث على قتال مشركي مكة، عبدة الأصنام الخ. وتأتي قصة موسى مع الذين قالوا له "اذهب أنت وربك فقاتلا.." لتؤكد وحدة السياق.

95 - لم ترد هذه القصة في القرآن المكي مثلها مثل "قصة البقرة" المذكورة آنفا. ولعل أقرب الوقائع التي تحكيها التوراة إلى قصة طالوت وجالوت كما عرضها القرآن ما ورد في سفر صموئيل الأول، عندما خاض الإسرائيليون حروبا مريرة حين رجوعهم من مصر ووفاة موسى وتولي رجال آخرين قيادتهم ومنهم النبي صوئيل الأول الذي كان من جماعة القضاة الذين كانوا يدبرون شأن الشعب اليهودي. ومنه طلب الإسرائيليون أن ينصب عليهم ملكا يقودهم في حربهم ضد الفلسطينيين، فنصب شاوول –وهو المعبر عنه في القرآن بطالوت فقاد جيوشهم التي تعرضت لهزائم منكرة أمام الفلسطينيين. وكان قائد الفلسطينيين في إحدى المعارك رجل اسمه "جُلْيَات"، وهو المعبر عنه في القرآن بـ"جالوت". وقد تحدى جليات هذا جيش الإسرائيليين مرارا طلبا منهم تعيين رجل لمبارزته، وقد تصدى داوود الشاب في=

مِنْهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ[246]. وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ (شاوول) مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ! قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[247]. وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ(96) فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[248]. فَلَمَّا فَصَلَ (خرج) طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ (لليهود) : إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ (نهر الأردن)، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ؛ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ (جليات، قائد جيش الفلسطينيين) وَجُنُودِهِ (فرجعوا)! قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ[249]. وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[250]. فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ (أي داوود) الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ[251]. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ[252]. تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ[253]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ، وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ[254].

نهاية الأمر لمبارزة جليات وانتصر عليه. قال في التوراة: "48وَعِنْدَمَا شَاهَدَ دَاوُدُ الْفِلِسْطِينِيَّ يَهُبُّ مُتَقَدِّماً نَحْوَهُ، أَسْرَعَ لِلِقَائِهِ. 49وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى الْجِرَابِ، وَتَنَاوَلَ حَجَراً لَوَّحَ بِهِ بِمِقْلاَعِهِ وَرَمَاهُ، فَأَصَابَ جَبْهَةَ الْفِلِسْطِينِيِّ، فَغَاصَ الْحَجَرُ فِي جَبْهَتِهِ وَسَقَطَ جُلْيَاتُ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ". (التوراة. سفر صموئيل الأول 17)

96- التَّابُوتُ: الصندوق. وتابوت بني إسرائيل "الصندوق الذي فيه التوراة وبقية من بعض أشياء تركها آل موسى وآل هارون، مثل العصا وفُتات الألواح، وكانوا يحملونه في حروبهم تبركا به. وفي إحدى معاركهم مع الفلسطينيين انهزموا شر هزيمة فأخذه منهم الفلسطينيون، ثم أعادوه إليهم فيما بعد.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (القائم بتدبير الكون)، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ (أول النعاس) وَلَا نَوْمٌ (ثقيل)، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ؛ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ؛ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ (حاضرهم) وَمَا خَلْفَهُمْ (مستقبلهم) وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ. وَسِعَ كُرْسِيُّهُ (ملكه وسلطانه) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ (يجهده ويثقل عليه) حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ'255'. لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ [97] فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ (الأصنام والشيطان) وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ'256'. اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا [98] يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ'257'. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ (جادل قيل هو نمروذ بن كنعان) إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ (معتزا بـ) أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ. قَالَ أَنَا (أيضا) أُحْيِي وَأُمِيتُ (أقتل من أشاء وأبقي على الحياة من يشاء). قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ (انقطع وسكت، لأنه هذه المرة لا يستطيع أن يقول وأنا أيضا)! وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ'258'. أَوْ (عطف في المعنى على أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ...) كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا (متهدمة السقوف)، قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ (القرية: أهلها) اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، قَالَ: كَمْ لَبِثْتَ؟ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالَ: بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ! فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ (لم يتغيّر ولم ينتن)، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ (فرأى حماره ميتا، عظامه بيضٌ، علامة على كونه مات منذ وقت طويل)! وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ.

---

97 - الآية السابقة تسمى "آية الكرسي" وهي عظيمة الشأن في الإسلام، ومجيء آية "لا إكراه في الدين" بعدها مباشرة يضفي عليها -أعني على هذه الأخيرة- قيمة خاصة. وبالتالي فكل آية في القتال وردت في القرآن إلا وهي تقع تحت عموم هذه التي لا شبهة في كونها محكمة ومطلقة. وبعبارة أخرى إن جميع آيات القتال في القرآن آيات مقيدة واقعة تحت عموم هذه.

98- قيل: اليهود والنصارى لا يعبدون الأصنام ولا الشيطان، بل يعبدون الله، فهم لا يكرهون على الإسلام. قالوا "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبُّ إسلام أهل الكتاب الذين حول المدينة، ويسأل الله ذلك".

وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا (نرفعها من الأرض) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[259]. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى! قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي. قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ (قطعهن) إِلَيْكَ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[260].

11- الحث على النفقة... والتحذير من المن والرياء...

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[261]. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى، لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[262]. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ[263]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى، كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ (الحجر الأملس) عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ (مطر أزال منه التراب) فَتَرَكَهُ صَلْدًا (براقا أملس)، لَا يَقْدِرُونَ (=الذين يمنون الخ) عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ[264]. وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ (بستان) بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ (مطر كثير قوي) فَطَلٌّ (مطر ضعيف)، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[265]. أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ؟ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ[266]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا تَيَمَّمُوا(تقصدوا) الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ (لو أعطيتموه في حق لكم) إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ (العين، أي تتساهلون)، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ[267]. الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[268]. يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ[269]. وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ[270]. إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[271]. لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ (ليس عليك هُدى مَن خالفك ممن لم يسلموا)، وَلَكِنَّ

اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ[272]. لِلْفُقَرَاءِ (فقراء المهاجرين الذين لا مأوى لهم إلا الصفة بالمسجد) الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ (لا رأس مال لهم) يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا (إلحاحا)، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ[273]. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[274].

12- تحريم الربا ... وكتابة الدين، والشهادة ...

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ (المجنون)، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا (فقالوا: الزيادة التي تحصل في رأس المال بعد حلول الدَّين، كالزيادة التي تحصل فيه بالربح في أول البيع)، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا. فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى (اتعظ وترك الربا) فَلَهُ مَا سَلَفَ (أي ما أكل من الربا، ليس عليه ردّ ما أخذ قبل النّهي)، وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[275]. يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا (يمحوه وينقصه) وَيُرْبِي (يزيد وينمي) الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ[276]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[277]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا (بعد نزول الآية السابقة وبالتالي الاقتصار على أخذ رأسمال دون الربح في العمليات الربوية السابقة) إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[278]. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (أي فأيقنوا أنكم بامتناعكم من ترك ذلك تعصون الله ورسوله)، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ (بطلب الزيادة) وَلَا تُظْلَمُونَ[279] (بالنقصان من رأس المال). وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ (مدين يعاني صعوبات مالية) فَنَظِرَةٌ (فتأخير مطالبته بدفع ما عليه) إِلَى مَيْسَرَةٍ (حصول اليسر له)، وَأَنْ تَصَدَّقُوا (على المعسرين برأس المال) خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[280]. وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[281] (99). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ (تبايعتم) بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى

99- رووا عن أكثر من جهة أن هذه الآية هي آخر آية نزلت من القرآن. وحدد بعضهم التاريخ بالضبط فذكر "أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم مكث بعدها تسع ليال، وبدا يوم=

فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ (بين المستدين والمدين) كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ (لا يزيد في المال والأجل ولا ينقص منهما)، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ (لا يمتنع من ذلك إذا أمر) كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ (المدين)، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ (لا ينقص من الدين الذي عليه) شَيْئًا: فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ (عليه الدين) سَفِيهًا (طفلا) أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ (لعاهة فيه)، فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ (وارثه أو مَنْ يقوم مقامه) بِالْعَدْلِ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ (تتوسمون فيهم الصدق والعدل) مِنَ الشُّهَدَاءِ: أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ (أداء الشهادة) إِذَا مَا دُعُوا، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ (أجل ذلك الدين)، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ (يكون الأداء فيها في الحين)، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ (لا يزيد ولا ينقص). وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[282]. وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ (بدل الوثيقة المكتوبة) فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ[283]. لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ

السبت، ومات يوم الاثنين". وقال آخرون مات بعدها بسبع ليال. وروي بثلاث ليال. وروي أنها نزلت قبل موته بثلاث ساعات، وأنه عليه السلام قال: "اجعلوها بين آية الربا وآية الدين"، وفي رواية أخرى: "قال جبريل للنبيّ صلى الله عليه وسلم: "يا محمد ضعها على رأس ثمانين ومائتين من البقرة". وفصل بعضهم فقال: "وذلك لأنه عليه السلام لما حج نزلت "يَسْتَفْتُونَكَ" (النساء: 127) وهي آية الكلالة، ثم نزل وهو واقف بعرفة "ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي" (المائدة: 3) ثم نزل "وَٱتَّقُوا" يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّه" (البقرة: 281) فقال جبريل عليه السلام: يا محمد ضعها على رأس ثمانين آية ومائتي آية من البقرة، وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحدا وثمانين يوما/ وقيل: أحدا وعشرين وقيل: سبعة أيام، وقيل: ثلاث ساعات". قلت: الروايات حول آخر ما نزل من القرآن كثيرة، وما نرجحه هو ما ذكره أحد كبار كتاب الوحي وجامعي القرآن أبي بن كعب الذي قال إن آخر ما نزل هو آخر سورة التوبة أعني قوله تعالى: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[128]. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ"[129]. لأن هذا أقرب إلى السياق العام لمسيرة التنزيل وتطور الدعوة، كما سنبين في حينه.

يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[284].

7- خاتمة: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ.

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ (كذلك آمنوا وصدقوا)، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ. وَقَالُوا (الرسول والمؤمنون) سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، (نطلب) غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ[285]. لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ (من حسنات) وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (من سيئات). رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا (تكاليف ثقيلة) كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (كاليهود)، رَبَّنَا! وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[286].

- التعليق

تعتبر سورة البقرة أطول سور الذكر الحكيم وأغناها على الإطلاق. ولا شك أن القارئ الذي لم يعتد على قراءة القرآن قد لاحظ مدى تداخل الموضوعات فيها إلى الدرجة التي يصعب معها الحفاظ على "خط السير" في قراءتها من أولها إلى آخرها. وقد ذكر القرطبي أن ابن العربي قال: "سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر". وقد وردت في شأنها أخبار منها: "إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن سورة البقرة". وكثير من هذه الأخبار إن لم تحمل على الحقيقة فإن حملها على المجاز يدل على مدى انبهار الناس بحجمها وتنوع أسلوبها وكثرة موضوعاتها، مما سهل على كثير من المفسرين الانشغال بأجزائها وجزئياتها دون الاهتمام بكليتها وجوانب الوحدة في سياقاتها، مما جعل كثيرا منهم يمدد "زمن" نزولها ليشمل العصر المدني من النبوة بأجمعه. فجعلوا تاريخ نزول بعض آياتها في السنة الأولى للهجرة وتاريخ أخرى في السنة الأخيرة من النبوة، بل اعتبروا آية منها آخر ما نزل من القرآن كله، كما جعلوا بعض آياتها ناسخة لأخرى، وتجاوزا في ذلك ضرورة احترام ترتيب آياتها (لأنه توقيفي باتفاق) فجعلوا آية سابقة، في الترتيب، ناسخة لأخرى لاحقة واخترعوا من أجل تبرير ذلك مبدأ "التقدم في التلاوة والتأخر في النزول" (كما أشرنا إلى ذلك في

حينه)، وهو المبدأ الذي لو طبق على القرآن كله لأصبحت آياته تنطق بما يريد "المفسر" ولتجاوز ما تنطق به عند "الباطنيين".

ونحن نعتقد أن القارئ الذي يولي اهتماما لما يقرأ على ضوء التقسيم الذي اعتمدناه في توزيع آياتها إلى فقرات، رئيسية وفرعية، سيكتشف أن هذه السورة لا تختلف في بنيتها عن غيرها من السور التي تناولناها بالشرح والتحليل في القسمين السابقين من هذا الكتاب. فهي مثلها مطوقة بمقدمة وخاتمة، المقدمة تفصح عن الموضوع العام الذي ستتحرك فيه، والخاتمة تستعيد هذا الموضوع نفسه وترتفع به إلى مستوى أعلى. وبين المقدمة والخاتمة يتسلسل تحليل الموضوع إلى أجزاء يُستعمل في بعضها الأسلوب الإقناعي الجدلي المباشر، وفي بعضها أسلوب الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ويُكتفي في بعضها بأساليب ضرب المثل، إما من بيئة المخاطبين الطبيعية والاجتماعية، وإما من مخزونهم الثقافي العام، وإما من قصص الأمم الماضية ورسالات الأنبياء السابقين الخ. وهكذا فبتتبع بنية السورة على هذا الأساس (مقدمة فتحليل فخاتمة) يصبح في الإمكان إبراز وحدة السورة والتقيد بالسياقات، وبالتالي التحرر من قيود "الأفكار المتلقاة" والعوائق المعرفية التي تقيد حركة الفكر وتشل قدرته الجدلية، القدرة على النفي بعد الإثبات، والخروج من ذلك بمستوى أعلى من الإثبات يستعيد الإثبات الأول وقد تخلص من مطلقات التقليد والجمود لينفتح أمام نسبية نامية تضع بنفسها حدودها وقيودها.

وسيطول بنا المقال إذا نحن أخذنا في عرض مضمون هذه السورة، عرضا جديدا بكلامنا الخاص وفاقا مع ما ذكرناه حول بينة سور القرآن، كما فعلنا في سور سابقة قصيرة نسبيا، فالسورة التي نحن ضيوف عليها طويلة جدا متنوعة جدا ... ولكننا نعتقد أننا سنجعل القارئ يمسك معنا بتلابيبها ويكتشف وحدتها وترابط سياقاها من خلال عرض موجز نتتبع فيه مضمون فقراتها باعتماد العناوين التي وضعناها لها.

لقد قسمنا هذه السورة إلى ست فقرات رئيسة، تتفرع عن بعضها عناوين لموضوعاتها. لقد أبرزنا في مقدمة هذا القسم الثالث من الكتاب كيف أن النبي سيواجه في المدينة التي هاجر إليها وضعا يختلف تماما عن الوضع الذي كان يواجه في مكة. في مكة كان هناك طرف واحد، خصم للدعوة المحمدية معلن، هم المشركون، وطرف آخر، واحد كذلك، هو الرسول ومن آمن من سكان مكة من العبيد والموالي وأبناء صغار القبائل وغيرهم من المستضعفين ... القرآن المكي

كله موجه لهذين الطرفين: خطاب إلى الرسول والمؤمنين برسالته، وخطاب إلى المشركين الذين كفروا. أما في المدينة فقد تعددت الأطراف التي كان على الدعوة المحمدية أن تتعامل معها. وقد جاءت سورة البقرة بعد تجربة نحو سنة من التعامل مع هذه الأطراف وفق ميثاق الصحيفة، "صحيفة النبي"، لتتحدث إلى كل منها حسب ما كشف عنه سلوكها وتبين من مواقفها. وعلى هذا الأساس قسمناها إلى سبع فقرات رئيسية ميزنا في بعضها فقرات فرعية خاصة يستقل كل منها بالحديث في موضوع مستقل ولكنه يندرج تحت الفقرة الرئيسية التي تفرع منها.

وفيما يلي مجمل هذه الموضوعات الرئيسية منها والفرعية.

1- استهلت السورة خطابها بمقدمة قصيرة تحدثت فيها عن القرآن مؤكدة أنه هدى للمؤمنين، الذين يؤمنون بـ"الغيب" (بالله وملائكته وبإحساسات قلوبهم واستدلالاتهم عقولهم، من غير طلب دليل حسي كالإتيان بمعجزات خارقة للعادة أو إحضار الملائكة في الشاهد الخ، كما كانت تطالب به قريش)، والذين يؤمنون بما أنزل على الرسول محمد (ص) وبما أنزل على الرسل من قبله، والذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله على الفقراء وفي سبيل الله (جهاد كفار قريش الذي كان يتمثل آنذاك في تجهيز سرايا لاعتراض قوافلهم التجارية)، والذين يوقنون بالحياة الأخرى وما فيها من حساب فثواب فعقاب. هؤلاء هم المؤمنون المفلحون الذين يسيرون على هدى من ربهم وهم المهجرون، ثم الأنصار الذين بايعوا النبي وهو في مكة على أن يهاجر إليهم في "يثرب" متعهدين على أن يحموه وينصرونه في كل ما يقوم به من أجل نشر الدعوة، بما في ذلك القتال معه ضد خصومه. أما الكافرون الذين لا يؤمنون بما تقدم فهم لا يسيرون على هدى من الله؛ لقد أعرضوا وأنكروا، فضلوا ضلالا لم يعد معه في إمكانهم التراجع فصاروا سجناء كفرهم، ولذلك فهم لن يؤمنوا – يقول تعالى: "سواء أنذرتهم أم لم تنذرهم".

2- بعد هذه المقدمة التي فصلت فها السورة بين المؤمنين الصادقين وبين الكفار المعاندين الضالين الميؤوس منهم تنتقل إلى الفقرة الثانية التي خصصتها لمن سماهم القرآن بـ المنافقين" وهم الذين يظهرون الإيمان بنبوة محمد ورسالته وفي الوقت نفسه يضمرون لهم الحقد والحسد ويقومون بدور "الطابور الخامس" الذي مهمته التخريب من الداخل. كان على رأس هؤلاء رئيس الخزرج عبد الله بن سلول الذي كان يستعد لينصبه قومه رئيسا عليهم فأفسدت عليه ذلك هجرة الرسول (ص) و"الصحيفة" التي بادر عليه السلام بوضعها لتنظيم

العلاقات بين مختلف مكونات مجتمع المدينة تحت رئاسته. لقد بقي هذا الرجل وجماعة من أتباعه حاقدين على الرسول والمسلمين رغم إسلامهم الظاهري فتعاونوا مع اليهود سرا وجهارا، بل إن كتاب السيرة وبعض المفسرين ينسبون له مواقف فيها خداع صريح للمسلمين مثل انسحابه هو ومجموعة من أصحابه من معركة "غزوة أحد" مما اعتبر من أسباب هزيمة المسلمين فيها، كما روي أنه هو المعني بقوله تعالى : "يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ " (المنافقون 8)، وأنه قال ذلك عند رجوع الرسول وجيشه من غزوة "بنو المصطلق". ومع أن موقفه في غزو أحد وتصريحه المذكور قد وقعا بعد نزول سورة البقرة كما سنرى فإن عداءه للرسول وتعاونه مع اليهود قد بدا واضحا منذ أوائل السنة الأولى للهجرة، ولذلك عمدت السورة التي نحن ضيوف عليها إلى فضحه والتشهير بسلوك النفاق الذي يمارسه. فقالت عنه: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ[8] (وهم المنافقون). يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا (يظهرون عكس ما يبطنون)، وَمَا يَخْدَعُونَ (وما يضرون) إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَمَا يَشْعُرُونَ (وما يدرون). فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (ضعف وشك يمنعهم من التصريح بالكفر أو بالإيمان)، فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"، ومع أن القرآن قد حكم على هؤلاء، في هذا الوقت المبكر بأنهم "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ"، فإنه لم يدع الرسول إلى الإعراض عنهم ولم يخاطبه في شأنهم بقوله : "سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ؟! خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ" – كما قال في شأن الكفار– بل أبقى بخيط الاتصال معهم ما داموا يظهرون الإيمان ويصنفون أنفسهم كمسلمين، وذلك تجنبا لدفعهم إلى تحريك العصبية القبلية في قومهم، فينقسم أهل يثرب إلى فريقين : فريق مع النبي وهم الأوس وبعض الخزرج، وفريق ضده، وقد يكونون أكثر عددا ورئيسهم ابن سلول.

3- وإلى جانب هؤلاء الخصوم المنافقين في المدينة كان هناك المشركون في مكة الذين أدركوا منذ بيعة العقبة، مدى خطورة انتقال الرسول بالدعوة إلى المدينة، فتجندوا لمحاربته هناك بالتحالف مع اليهود والمنافقين، فكان لابد من أن تعمل السورة على فضحهم ومواصلة الجدل معهم فخصصت لذلك فقرة هي الفقرة الرئيسية الثالثة. فدعاهم الذكر الحكيم أولا إلى عبادة الله الذي خلقهم وجعل لهم الأرض فراشا والسماء سقفا وأنزل لهم الأمطار فأخرج لهم رزقهم من الزرع والثمرات الخ، ودعاهم إلى ترك الشرك به وعبادة الأصنام التي لا تفعل شيئا، ثم تحداهم ثانيا بالإتيان بسورة مثل هذا القرآن إن كانوا يشكون في كونه من الله

وليطلبوا مساعدة الأصنام، ثم أكدت لهم السورة أنهم لن يستطيعوا وأن عليهم بالتالي ترك الإصرار على تكذيب النبي محمد ورسالته ليجنبوا عذاب النار يوم القيامة ويلتحقوا بالمؤمنين في الجنة التي أعدت لهم. وهنا يتدخل القصص القرآني، فتأتي قصة إبليس الذي أصر على عدم الامتثال لأوامر الله عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم فرفض واستكبر بدعوى أنه أفضل منه فهو من نور وآدم من تراب، كما يرفض المشركون الإيمان بنبوة محمد ويستكبرون، والتماثل هنا واضح بين موقف إبليس من آدم وموقف قريش من محمد، فإبليس الذي أضل آدم في الجنة فأهمل أوامر الله بأن لا يأكل من شجرة معينة، هو نفسه الشيطان الذي يضل مشركي قريش ويصرفهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام. هذا من جهة ومن جهة أخرى فكما "علم الله آدم الأسماء كلها" ليرد على اعتراض الملائكة على اختيار آدم من دونهم ودون الخلائق كلها، اختار محمدا من دون أهل مكة وغيرهم لينزل عليه "الكتاب"، وكما عجزت الملائكة على إعطاء المخلوقات أسماءها التي علمها الله لآدم، ستعجز قريش عن الإتيان بسورة من مثل سور القرآن.

ومع أن السورة وعدت المشركين بجهنم كمصير محتوم، إلا أنها فتحت باب التوبة لهم من خلال التذكير بتوبة آدم، لقد ألهمه الله التوبة فتاب، وقبل الله توبته ومحا خطيئته فلم تعد تلاحق ذريته. لقد أمر الله آدم وزوجته وإبليس بالهبوط إلى الأرض وأخبرهم بأنه سيبعث أنبياء ورسلا، فمن آمن بهم واتبع هدى الله التي يحملونها "فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"، ومن كفر بالله وكذب رسله وآياته فـ "أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ". لم تغلق سورة البقرة الباب أمام مشركي قريش كما فعلت سورة الحجر التي أمرت النبي بالإعراض عن المشركين والصدع بالدعوة في المواسم والأسواق وسط القبائل. لقد تغير الوضع. لقد نجحت إستراتيجية الإعراض عن المشركين في مكة والاتجاه إلى غيرهم. لقد كانت النتيجة إسلام قسم كبير من أهل المدينة ومن ثمة الهجرة إليها، والشروع، انطلاقا منها، في الضغط على قريش من خلال اعتراض قوافلهم التجارية وتدمير أسس اقتصادهم. إن الحكمة تقتضي مواصلة الضغط وانتظار النتيجة.

4- وبما أن قريشا تعمل الآن على التأثير في الوضع بالمدينة من خلال الاتصال باليهود وتحريضهم ضد الرسول والمسلمين فقد بات من الضروري كشف الحساب مع اليهود. وهكذا اتجهت السورة إلى مخاطبة يهود المدينة في فقرة طويلة - الفقرة الرابعة- تقرعهم فيها لكونهم لا يستجيبون لدعوة القرآن إلى الدخول في الإسلام، واتجاههم بدلا من ذلك إلى إلحاق الأذى بالرسول والمسلمين

والتعاون مع خصوم الإسلام من مشركي قريش ومنافقي المدينة. لقد ميزنا في هذه الفقرة الطويلة بين سبع موضوعات جعلناها تحت عناوين فرعية كما يلي: 1) تذكيرهم بنعم الله على أسلافهم وبما قابلوها به من تعنت وتمرد على أنبيائهم ورسلهم. 2) تذكيرهم بمتاعب موسى مع قومه في الرحلة من مصر إلى فلسطين. 3) تذكيرهم بنقض بعض أسلافهم لميثاقهم مع الله وعدم تقيدهم بشريعته ووصاياه التي خصهم بها. 4) تنبيههم إلى وجود أحبار أميين أدعياء بين صفوفهم لا يعلمون الكتاب (التوراة) ويفتون في الناس حسب رغبتهم مقابل رشوة. 5) إبراز كونهم لا يحترمون الميثاق: يؤمنونَ ببَعْضِ الْكِتَابِ وَيكفُرُونَ بِبَعْضٍ! 6) وأنهم كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ من الله "بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمُ اسْتَكْبَرُوا وأعرضوا ...! 7) ثم تستخلص السورة النتيجة في فقرة سابعة فاتجهت إلى الرسول لتضعه أمام حقيقة موقف أهل الكتاب فأكدت له أن الجهود التي يبذلها لحملهم على الانضمام إلى الإسلام، لكون القرآن مصدق لما بين أيديهم في التوراة والإنجيل، جهود لن تؤتي ثمارها، فالأسلوب الذي يسلكه معهم، في الدعوة، بناء على الأمر الصادر إلى المسلمين عند استعدادهم للهجرة من مكة إلى المدينة، والذي يدعوهم إلى الجدل مع أهل الكتاب برفق ("وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ – العنكبوت 46) لم ينفع معهم فقد كشفت التجربة عن الحقيقة التالية وهي أنه: "لَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ". ولما كان الأمر كذلك فلم يبق إلا تجاوز إستراتيجية "الجدل معهم بالتي هي أحسن" تحت شعار "آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (العنكبوت 46).

5- وتجاوز هذه الإستراتيجية تتطلب إستراتيجية أخرى أعلى، وهي الرجوع إلى دين إبراهيم. ذلك ما تقرره الفقرة الخامسة، منطلقة من البداية: لقد رزق شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام ولدان إسماعيل جد العرب، وإسحاق والد إسرائيل (المسمى يعقوب). لقد أنزل الله التوراة على موسى من نسل إسرائيل (بني إسرائيل) وبين فيها أن الرسول الذي سيأتي بعد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام هو محمد بن عبد الله من نسل إسماعيل جد العرب. وبما أن أحبار اليهود قد كتموا هذا الأمر ولم يريدوا الاعتراف بنبوة محمد ورسالته فليكن الرجوع إلى دين إبراهيم الذي لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما، كما ستبين سورة آل عمران التي أضافت "إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ

وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ" (آل عمران 68). وبناء عليه تذكر سورة البقرة بالحوار الذي جرى بين الله وإبراهيم حين اختاره "إماما" (شيخا للأنبياء من بعده) لتبين كيف أن الله كلف إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء الكعبة وجعلها بيت الله التي يقصدها الناس من كل " كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ"،)انظر فقرة 5).

الرجوع إلى دين إبراهيم يتطلب أولا ترك قبلة اليهود (بيت المقدس) واتخاذ الكعبة التي بناها إبراهيم وابنه إسماعيل في مكة قبلة خاصة بالمسلمين، وبيان شعائر الحج التي ترجع إلى إبراهيم بعد حذف ما أضافه عبدة الأصنام، ورفض التقليد المتولد عن ذلك والذي لا أساس له إلا القول : "إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون".

6- يأتي بعد ذلك تفصيل القول في عدد من المسائل التي يطرحها الوضع الجديد للمسلمين حفدة إبراهيم وبيان حكمها في الشريعة الجديدة، الشريعة المحمدية الإبراهيمية. وقد طرحت السورة خمسة عشرة مسألة متنوعة، منها مسائل في مجال الجنايات ومسائل في مجال الأحوال الشخصية وأخرى في العبادات والسلوك الأخلاقي (القصاص، الوصية وواجبات أخرى، القتال في الشَّهْرُ الْحَرَامِ، الحج والعمرة ومناسكهما، الأخذ بجميع تعاليم الإسلام، الصدقة والنفقة، فريضة الدفاع عن النفس، القتال في الشهر الحرام، الخمر والميسر، اليتامى، الزواج بالمشركات والمشركين، المحيض، اليمين والطلاق، والرضاعة وحقوق الأرملة، الحث على القتال قصة طالوت وجالوت، لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، الحث على النفقة والتحذير من المن والرياء، تحريم الربا، وضرورة كتابة الدين، ووجوب أداء الشهادة ...)

7- بعد ذلك تأتي خاتمة السورة لتستعيد المقدمة في صورة جديدة. لقد افتتحت السورة بالتأكيد على أن القرآن هو كتاب من الله لا ريب فيه، هدى للمؤمنين المتقين الذين يؤمنون بما أنزل الله على محمد وعلى من قبله من الرسل والذين يقيمون الصلاة وهم بالآخرة موقنون. أولئك هم الذين هداهم الله وأولئك هم المفلحون. أما الكفار فليس فيه لهم هداية لأنهم أصروا على الكفر حتى صارت الغشاوة على سمعهم وأبصارهم وختم الله على قلوبهم، فلا فائدة من إنذارهم. وبعد أن تحلل السورة هذا الذي كانت قد أوجزته في المقدمة بالتذكير بمواقف المنافقين المخادعين ومشركي أهل مكة المتربصين، تقف وقفة تقريع طويلة لليهود المراوغين المنكرين لنبوة محمد، الرافضين لدعوته إلى عبادة إله واحد والإيمان بجميع الأنبياء والرسل والانضواء تحت دين واحد، تستخلص النتيجة

فتدعو إلى الرجوع إلى دين إبراهيم شيخ الأنبياء، جد العرب وباني الكعبة والثائر على عبادة الأصنام، والذي سمى المؤمنين بعقيدته وشريعته بالمسلمين. وبعد أن بينت السورة بإيجاز موقف هذا الدين من كثير من المسائل التي كانت مطروحة على الرسول في المدينة قبل نزول هذه السورة وحين نزولها، ختمت بتأكيد إيمان الرسول والمؤمنون الذين معه بما أنزل إليه من ربه في هذه السورة وغيرها : كلهم آمنوا "بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ"، وكلهم قالوا "لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ"، جاهرين بإيمانهم بالله قائلين: "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ"[285]، مؤمنين بأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها "لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ"، متوجهين إليه بهذا الدعاء : "رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا (تكاليف ثقيلة) كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (كاليهود)، رَبَّنَا! وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"[286].

وبعد، فهذه هي سورة البقرة "سنام القرآن"، كما تقدم وصفها، سورة واحدة، لا تقديم فيها ولا تأخير ولا نسخ ولا تكرار. سورة محكمة البنية والسياق، متكاملة المضمون والشكل. ونحن نعتقد أننا لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا، خلافا لمل ذهب إليه جميع المفسرين، إنها نزلت مرة واحدة في زمن متصل، أياما أو أسابيع.

– استطراد : مسألة النسخ في القرآن

1– موضوع "الناسخ والمنسوخ" موضوع للخلاف والاختلاف بامتياز!

موضوع "الناسخ والمنسوخ" من أكثر الموضوعات التي حظيت باهتمام زائد لدى المؤلفين في علوم الفقه والأصول وفي "علوم القرآن" وتفسيره. ويرجع سبب هذا الاهتمام، ليس فقط إلى كونه "ضروريا" لكل باحث أو متكلم في العلوم الدينية في الإسلام، خصوصا منهم الفقهاء، كما يقول بعضهم، بل أيضا إلى كون هذا الموضوع يشكل مجالا خصبا لتنوع الآراء والاجتهادات، فهو فضاء للاختلاف والخلاف بامتياز!

وربما كان علماء الدين الإسلامي أكثر الأديان اهتماما بهذا الموضوع من علماء الديانات الأخرى لأن القرآن الذي هو المصدر الأول للتشريع في هذا الدين

قد نزل منجما على مدى نحو من ثلاث وعشرين سنة، وأنه قد تضمن بسبب ذلك أحكاما تختلف مناسبات نزولها، فاختلفت بالتالي مضامينها تبعا لتلك المناسبات، فاعتبر اللاحق منها حاكما في السابق، وناسخا له، خصوصا إذا كان ذلك مما ينتمي إلى الأمر والنهي. وهذا يجعل المجتهد، أو الفقيه أو المفسر أو المتكلم، إزاء آيات تقرر في الشيء الواحد أكثر من حكم واحد، الشيء الذي لا يفصل فيه -كما يقولون- إلا المعرفة بالناسخ والمنسوخ في القرآن جملة. على أن ذلك إنما يخص مجال الشريعة أساسا. أما في مجال العقيدة فالقضية التي توازن فيه مسألة الناسخ والمنسوخ هي قضية المحكم والمتشابه التي نرجئ الكلام فيها إلى حينه.

لنركز اهتمامنا هنا إذن على مسألة النسخ وحدها ولنتساءل أولا : ما معنى النسخ؟

تورد معاجم اللغة لمادة "نسخ" معنيين: 1) النسخ : "اكتتابك كتاباً عن كتاب حرفاً بحرف". 2) "والنَّسخ : إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه". وهذا المعنى الثاني هو المقصود عند عموم الفقهاء والأصوليين بـ"النسخ في القرآن". فنسخ آية بأخرى معناه "إزالة حكم" الأولى وإثبات حكم الثانية، كما يقول الأشاعرة، أو إزالة مِثل حكم الأولى، أي عدم تطبيقه في المستقبل، وإثبات حكم الثانية. كما يقول المعتزلة. وإنما قالوا "مثل حكمها" لأن حكم الأولى مراد من الله لأنه حسن، والحسن عندهم صفة ذاتية للأشياء، وبالتالي فالحُسن في الأولى باق، وما أزيل عن الثانية هو مثل حكم الأولى. والنسخ عندهم جميعا لا يقع إلا في الأمر والنهي، وفي الخبر المفيد لمعنى الطلب. أما الخبر الذي لا يفيد هذا المعنى فلا يدخله النسخ..

وهذا الحصر لمعنى النسخ، في الطلب دون الخبر، يقصد به تجنب الخلط بينه وبين البَدَاء (ومعناه عند القائلين به أن يقرر الله أمرا ثم يبدو له أمر فيغير ما قرر). وعلى هذا الأساس أنكر اليهود القول بالنسخ، وذلك دفعا لقول من يقول أن شريعة موسى نُسخت بالشرائع التي جاءت بعدها. قالوا "إن الشريعة لا تكون إلا واحدة وهي ابتدأت بموسى عليه السلام وتمت به، فلم تكن قبله شريعة إلا حدود عقلية وأحكام مصلحية". وقالوا: فلا يكون النسخ بعد شريعته أصلاً لأن النسخ في الأوامر بداءٌ، ولا يجوز البداء على الله تعالى، وهم يجوزنه في الخبر. ولتلافي هذا المعنى فرق علماء الإسلام -كما ذكرنا- بين النسخ والبداء، فقالوا إن النسخ لا يكون في الأخبار لأنها تتعلق بعلم الله، وعلمه لا يتغير، وإنما يتعلق

النسخ بالأحكام لأن الأحكام تتعلق بمقتضى أحوال الناس، وهي تتغير بتغير الظروف الزمانية والمكانية، وهذا التغير يحدث بسابق علم الله.

إذا نحن غضضنا الطرف عن الجدل في هذه الأمور لأن مجاله العقيدة (علم الكلام) وحصرنا النسخ في أحكام الشريعة وحدها فإننا لا نملك إلا أن نلاحظ أن هناك، في هذا الميدان، ما يبرر الطعن في كثير مما كتب وقيل في موضوع النسخ. يأتي على رأس ذلك المبالغة في استعمال هذه المقولة إلى حد التكلف. ثم هناك خلط بين مقولة النسخ هذه وبين مقولات أخرى مثل العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والمبهم والمعين. فكثيرة هي الآيات التي جاءت في صيغة العام أو المطلق أو المبهم أو المجمل فخصصت أو قيدت أو بينت بآيات أخرى، فاعتبر كثير منهم هذه ناسخة وتلك منسوخة، وهذا شيء ينطوي على تجاوز كبير: فالعام والمطلق والمبهم والمجمل صيغ لفظية تقع موقع الكلي أو الجنس، أما الخاص والمقيد والمفصل فهي صيغ تقع في موقع الجزئي والمفرد. والجزئي لا ينسخ الكلي كما لا ينسخ المفرد الجنس. فإذا اعتبرت هذه الأشياء تقلص مجال الناسخ والمنسوخ إلى حد كبير.

على أن الإشكال الذي تطرحه مقولة النسخ ليس محصورا في المبالغة في توظيفها، بل إنه إشكال يطال جواز أو عدم جواز القول به. هناك من يقول بوقوعه مطلقا، وهناك من ينكر ذلك، وهناك من يقول بوجوده في القرآن ومن ينكر ذلك.

أ- أما القائلون بوقوع النسخ مطلقا فيحتجون بما يلي، قالوا: "إن الدلائل دلت على أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لا تصح إلا مع القول بنسخ شرع من قبله، فوجب القطع بالنسخ". وقد أجاب منكرو النسخ بقولهم: "لا نسلم أن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لا تصح إلا مع القول بالنسخ لأن من الجائز أن يقال: إن موسى وعيسى عليهما السلام أمرا الناس بشرعهما إلى زمان ظهور شرع محمد (ص)، ثم بعد ذلك أُمِر الناس باتباع محمد (ص)، فعند ظهور شرع محمد (ص) زال التكليف بشرعهما وحصل التكليف بشرع محمد عليه الصلاة والسلام، لكنه لا يكون ذلك نسخا، بل جاريا مجرى قوله: "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ" (البقرة: 187)، أي إلى أن يحين الليل بغروب الشمس. فالمسألة في نظرهم مسألة تأجيل : تأجيل التوقف عن العمل بشرع موسى وعيسى إلى أن يأتي شرع محمد. وهم يحتجون لرأيهم هذا بقولهم: "قد ثبت في القرآن أن موسى وعيسى

عليهما السلام قد بشرا في التوراة والإنجيل بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام، وأن عند ظهوره يجب الرجوع إلى شرعه. وإذا كان الأمر كذلك فمع قيام هذا الاحتمال امتنع الجزم بوقوع النسخ".

ب- هذا عن جواز -أو عدم جواز- وقوع النسخ مطلقا. أما عن جواز وقوعه في القرآن فقد قال به جمهور علماء المسلمين، وكان هناك من أنكره. احتج القائلون بالنسخ بعدة آيات أبرزها قوله تعالى: "مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة **106**). وقد رد منكرو النسخ في القرآن على ذلك من عدة أوجه منها قولهم: "إن المراد من الآيات المنسوخة هي الشرائع التي في الكتب القديمة من التوراة والإنجيل"، ومنها "أن الله تعالى وصف كتابه (القرآن) بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... فلو كان فيه نسخ لكان قد أتاه الباطل". وقال آخرون إن الإسلام جاء ناسخا للديانات الأخرى فلا يعقل أن يكون فيه منسوخ، وهو الناسخ لما قبله. وفي رأي القائلين بالنسخ إن هذه حجة تنتمي إلى مجال الفكر المجرد، لا غير. أما في الواقع فمسألة الناسخ والمنسوخ تكتسب مشروعيتها من القرآن نفسه، من كونه نزل منجما ولمناسبات معينة تختلف زمانا ومكانا الخ.

ومن تفريعاتهم أيضا اختلافهم في هل ينسخ القرآن بالقرآن وحده، أم أنه يجوز أن ينسخ بالسنة والإجماع، فقال بعضهم : لا يُنسَخُ القرآن إلا بقرآن كقوله تعالى : "ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها" قالوا: ولا يكون مثل القرآن أو خيرًا منه إلا قرآن. وقيل بل ينسخ القرآن بالسنة لأنها أيضا من عند الله، قال تعالى: "وما ينطق عن الهوى" (النجم 3). وقال آخرون: إذا كانت السنة بأمر الله من طريق الوحي نَسَخَت، وإن كانت باجتهاد فلا. وحرص الشافعي على توافق القرآن والسنة فقال: "حيث وقع نسخ القرآن بالسنة فمعها قرآن عاضد لها، وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سنة عاضدة له". واختلفوا هل ينسخ الإجماعُ القرآن؟ فقال بعضهم بجواز ذلك، ومثلوا له بآيات.

2- تصنيفات وتفريعات ... هي "تخريفات"

ذهب القائلون بوجود النسخ في القرآن مذهبا قصيا في العمل به فوضعوا تصنيفات هي عبارة عن قوالب منطقية فارغة، ثم راحوا يبحثون لها عما يملؤها، الشيء الذي جعلهم يمعنون في التجزيء وينزلقون مع افتراضات لا فائدة من ورائها غير اصطناع أوضاع ونوازل أثقلت وتثقل كاهل الفقه الإسلامي.

من ذلك مثلا تقسيمهم النسخ في القرآن إلى الأقسام التالية:

- فالقسم الأول، هو ما عبروا عنه بقولهم "ما نسخت تلاوته وحكمه معًا". وهذا ليس له من نتيجة إلا إثبات "الفراغ" في المصحف نصا ومضمونا. وعبثًا حاول بعضهم تجنب هذه النتيجة! لقد انتهوا إلى القول إن هذا القسم الذي فيه المنسوخ غير متلو والناسخ أيضًا غير متلو ليس له نظير في القرآن.

- أما القسم الثاني من تصنيفهم للنسخ في القرآن فهو ما أطلقوا عليه "ما نسخ حكمه دون تلاوته"، وهو جل ما ينصرف إليه معنى النسخ عندهم لوجود آيات تقرره في نظرهم. وسنفحص هذه الدعوى لاحقا. لنكتف الآن بالتنبيه إلى أن القول بوجود شيء من القرآن "نسخ حكمه دون تلاوته" قول يحمل تناقضا لا حل له. إذ كيف يمكن أن يكون هناك قرآن للتلاوة فقط، وهو يحمل معنى مفهوما واضحا؟ نحن نقول: إن ما يمكن أن يقال عنهُ في القرآن "إنه للتلاوة فقط" هو الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور مثل "ن"، "ق، "ص"، "يس، "طه"، "طس"، "طسم"، كهيعص"، "الم"، "المص" الر" المر". أما ما عدا ذلك، وهو القرآن كله، فهو محكم لأنه يحمل معنى، سواء على مستوى الحقيقة أو على مستوى المجاز. أما مسألة هل يعمل به مطلقا أم أن العمل به قد قيده القرآن في وقت لاحق أو أجله أو أوقفه لاعتبار من الاعتبارات، فهذا شيء آخر. وهو محل اجتهاد.

أما القسم الثالث، والذي عبروا عنه بقولهم "ما نسخت تلاوته دون حكمه"، فهو ليس من القرآن. أما استشهادهم بأقوال بعض الصحابة التي تشير إلى خلو المصحف من آيات قالوا إنها كانت من القرآن فقد سبق لنا أن أوضحنا فيه رأينا في "المدخل إلى القرآن". لقد بينا كيف أن ذلك لا يجوز اعتباره من القرآن. ذلك لأننا عندما نتحدث عن "القرآن"، فنحن نتحدث عن القرآن كما هو في المصحف منذ أن جُمع زمن عثمان. أما غير ذاك مما يتصل بمناسبات نزوله ومراحل جمعه فهي أمور تنتمي إلى التاريخ، إلى مجال التعريف بالقرآن، وليس إلى فهم نص القرآن.

ومن مبالغات القائلين بالنسخ تصنيفهم سور القرآن حسب "وجود" النسخ فيها أو عدم وجوده إلى الأصناف التالية:

- سور تضمنت الناسخ والمنسوخ وعدوها خمسا وعشرين هي: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة وإبراهيم والنحل ومريم والأنبياء

والحج والنور والفرقان والشعراء والأحزاب وسبأ والمؤمن والشورى والـذاريات والطور والواقعة والمجادلة والمزمل والتكوير والعصر.

– وسور دخلها المنسوخ دون الناسخ، وهي عندهم أربعون: الأنعام والأعراف ويونس وهود والرعد والحجر والإسراء والكهف وطه والمؤمنون والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة والملائكة والصافات وص والزمر والسجدة والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف وسورة محمد و"ق" والنجم والقمر والممتحنة و"ن" والمعارج والمدثر والقيامة والإنسان وعبس والطارق والغاشية والتين والكافرون.

– وسور اشتملت على الناسخ دون المنسوخ، وعدوها ستا وهي: الفتح والحشر والمنافقون والتغابن والطلاق والأعلى.

– وسور خاليات من ناسخ ومنسوخ، وهي عندهم ثلاث وأربعون هي: الفاتحة ويوسف ويس والحجرات والرحمن والحديد والصف والجمعة والتحريم والملك والحاقة ونوح والجن والمرسلات والنبأ والنازعات والانفطار والمطففين والانشقاق والبروج والفجر والبلد والشمس والليل والضحى والشرح والقلم والقدر والانفكاك والزلزلة والعاديات والقارعة والتكاثر والهمزة والفيل وقريش والكافرون والكوثر والنصر والمسد والإخلاص والفلق والناس.

وفي مقابل هذا الغلو في توظيف مقولة النسخ حاول علماء مبرزون حصر النسخ في حدود. منهم الفقيه ابن الجوزي الذي ألف كتابا في النسخ سماه : "نواسخ القرآن" عرض فيه تلك التصانيف وعلق عليها بقوله: "قلت: واضح بأن التحقيق في الناسخ والمنسوخ يظهر أن هذا الحصر تخريف من الذين حصروه". ثم أخذ يستعرض الآيات التي ادُعِي فيها النسخ وانتهى إلى حصر "المنسوخة" في آيات قليلة العدد والتمس للباقي تفسيرا باعتماد مقولة العام والخاص الخ.

أما الشاطبي فهو وإن كان لا يضرب صفحا عن مقولة "النسخ" كليا فإنه يقلص مفعولها ومداها إلى مستوى "النادر" من الأشياء. وذلك لعدة اعتبارات يذكرها:

– منها "أن غالب ما ادعي فيه النسخ إذا تأمل وجدته متنازعا فيه ومحتملا، وقريبا من التأويل بالجمع بين الدليلين على وجه من كون الثاني بيانا لمجمل أو تخصيصا لعموم أو تقييدا لمطلق وما أشبه ذلك من وجوه الجمع، مع البقاء على الأصل من الإحكام في الأول والثاني".

– ومنها "أن تحريم ما هو مباح بحكم الأصل ليس بنسخ عند الأصوليين كالخمر والربا فإن تحريمهما بعد ما كانا على حكم الأصل لا يعد نسخا لحكم الإباحة الأصلية". ومن هذا القبيل أنهم "قد كانوا في الصلاة يكلم بعضهم بعضا إلى أن نزل "وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ" (البقرة 238)، وأنهم كانوا يلتفتون في الصلاة إلى أن نزل "الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (المؤمنون 2). قالوا (يعني المفسرين والأصوليين) وهذا إنما نسخ أمرا كانوا عليه. وأكثر القرآن على ذلك. معنى هذا أنهم كانوا يفعلون ذلك بحكم الأصل من الإباحة، فهو مما لا يعد نسخا، وهكذا كل ما أبطله الشرع من أحكام الجاهلية". ويضيف الشاطبي قائلا: "فإذا اجتمعت هذه الأمور ونظرت إلى الأدلة من الكتاب والسنة لم يتخلص في يدك من منسوخها إلا ما هو نادر".

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقرر الشاطبي أن القواعد الكلية من الضروريات والحاجيات والتحسينيات لم يقع فيها نسخ، وإنما وقع النسخ في أمور جزئية بدليل الاستقراء، فإن كل ما يعود بالحفظ على الأمور الخمسة (النفس والعقل والنسل والمال والدين) ثابت. وإن فرض نسخ بعض جزئياتها فذلك لا يكون إلا بوجه آخر من الحفظ، وإن فرض النسخ في بعضها إلى غير بَدَل فأصل الحفظ باق، إذ لا يلزم من رفع بعض أنواع الجنس رفع الجنس".

هذا وقد تتبع السيوطي ما قالوا عنه إنه منسوخ وهو أكثر من 500 آية، وانتهى إلى أن عدد المنسوخ هو 21 آية فقط. وجاء بعد، من المحدثين والمعاصرين، من راجع لائحة السيوطي، فبعضهم حصر النسخ في خمس آيات فقط، بينما أثبت آخرون أن تلك الآيات الخمس نفسها لا نسخ فيها.

على أن هذه الآراء التي تقلص من عدد الناسخ والمنسوخ في القرآن إلى درجة "الصفر" تعترف –ضمنيا على الأقل– بوقوع أو إمكانية وقوع النسخ في القرآن. ذلك لأنها إنما تعتمد في ما تقرره على نوع من التأويل للآيات التي وضعها آخرون تحت طائلة النسخ. وواضح أن تأويل مضمون آية من الآيات على نحو يحررها من طائلة النسخ لا يغلق الباب أمام تأويلات أخرى تجعلها ناسخة أو منسوخة. إن حل مشكلة "النسخ" لا يكون نهائيا ما لم ينطلق من القرآن نفسه. فإذا نحن استطعنا إثبات أن لا دليل في القرآن على وقوع النسخ في نصوصه، صار بإمكاننا حل المشكل من أساسه.

نحن ندرك أن هذا لن يكون سهلا على الذين لا زاد لهم إلا الأفكار المتلقاة، ومع ذلك فأملنا أن لا يسارعوا إلى ارتكاب الأخطاء.

3- لا دليل في القرآن على وقوع النسخ فيه

أ- في معنى : "الآية"

نقطة البداية في إثبات وجود أو عدم وجود النسخ في القرآن هي تحديد معنى "الآية"، ذلك أن القائلين بالنسخ، كالمنكرين له، يصفون بعض الآيات بأنها ناسخة أو منسوخة، أو ينزعون عنها هذه الصفة. فلنتعرف أولا على معنى الآية؟

اختلف اللغويون في تحديد الأصل اللغوي لكلمة "آية": هل هو أيَّة على وزن فعْلة، أم أيَيَة على وزن فَعَلَة، أم أويَة، أم أن أصلها على وزن فاعِلة، وهم جميعا متفقون على أن معناها : العلامة، والعبرة، والمعجزة. هذا عن المعنى اللغوي. أما عن المعنى الاصطلاحي الخاص بـ"الآية من القرآن" فقد اشتهر بين المفسرين تعريف الجعبرى الذي ورد فيه "حد الآية: قرآن مركب من جمل، ولو تقديرا، ذو مبدأ ومقطع، مندرج في سورة". وهناك تعريف أقصر من هذا هو قول القائل : "الآية قطعة من القرآن". والواقع أنه من شبه المستحيل تعريف "الآية من القرآن"، ذلك لأن هناك آيات تتألف من كلمة واحدة، وأخرى من بضع كلمات ولكن دون أن ترقى إلى الجملة المفيدة باصطلاح النحويين، وفي المقابل هناك آيات تتألف من عدة جمل نحوية وتستغرق نصف صفحة أو أكثر.

وإذا نحن رجعنا إلى القرآن الكريم فإننا سنجد أن لفظ "آية"، في جميع الصيغ التي ورد فيها (آية، آيات، آياتي، آياتنا) ينصرف معناه إلى العلامة (أو المعجزة التي تثبت وجود الله وقدرته الخ). من ذلك قوله تعالى: "وَإِنْ يَرَوْا آيَةً (كانشقاق القمر) يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ" (القمر 2)، وقوله: "وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا (سفينة نوح) آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ" (37 القمر15). وقوله : "قَالَ (فرعون) إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ (العصا) فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (الأعراف 106). وقوله : "وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ (على محمد) آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ" (معجزة- يونس 20). وتتكرر عبارة "تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ" وما في معناها، للإشارة إلى "ما يُحتاج إليه من الدليل على التوحيد والنبوة والبعث وغيرها" مثل قوله تعالى: "وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً" (الإسراء 12) الخ. وهذا المعنى هو المقصود بـ"الآية" في جميع السياقات في القرآن بما في ذلك تلك التي ورد فيها لفظ آية مقرونا بألفاظ تفيد التلاوة "تتلو، تتلى"، مثل قوله تعالى: "تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ"، وقوله : "يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ" (الجاثية 6-8)، فالمقصود

بالتلاوة هنا ليس النطق بألفاظ القرآن بل الإخبار بصنع الله ومقدوراته الخ، كما هو واضح، جلي، من سياق تلك الآيات.

وعلى هذا فلا معنى للقول بالنسخ في القرآن إلا بمعنى أن الله ينسخ معجزة نبي سابق بمعجزة أخرى لنبي لاحق، دليلا على صحة وصدق نبوة كل منهما، أو ينسخ ظاهرة طبيعية مثل الليل بظاهرة طبيعية أخرى مثل النهار الخ، دليلا على قدرته. والنسخ بهذا المعنى هو إحلال شيء مكان آخر. وليس في القرآن قط ذكر لما اصطلح على تسميته "آية" بمعنى "قطعة من القرآن"، وذلك على خلاف لفظ "السورة"، الذي ورد في القرآن مفردا "قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ" (يونس 38) وجمعا "قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ" (هود 3) وقوله "فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ" (البقرة 23). أما لفظ "آية" الذي تكرر فيه كثيرا بمعنى العلامة والحجة والمعجزة الخ، فلم يرد قط بالمعنى الاصطلاحي (عبارة من القرآن)، لا مفردا ولا جمعا.

من هنا ضرورة طرح السؤال التالي: إذا كان القرآن لا يسمي، أي لفظ ولا أية مجموعة ألفاظ من ألفاظه، باسم "آية"، فمن أين جاءت هذه التسمية؟

لم نعثر في مصادرنا على جواب قطعي عن هذا السؤال. وكل ما تفيده الروايات هو أن الأمر يتعلق باصطلاح وضع للإشارة إلى "القطعة" التي كان يقف عندها الرسول عليه السلام أثناء تلاوة القرآن. فقد ورد في الحديث عن أم سلمة أنها قالت : «كانَ رَسُولُ الله يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ، يَقْرَأُ: الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ. ثُمَّ يَقِفُ. الرَّحمنِ الرَّحِيمِ. ثُمَّ يَقِفُ. ..." (الترميذي. لم يرد هذا الحديث في غيره من الكتب التسعة، وقد ذكر في مراجع أخرى هكذا : "كان النبي يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آية آية"، وواضح أن عبارة "آية آية" إضافة من الراوي). وكل ما يدل عليه هذا أن معنى "آية" من القرآن هو اللفظ أو الألفاظ التي تقع بين وقفة ووقفة في تلاوة النبي عليه السلام للقرآن، سواء كانت جملة مفيدة أو أقل من جملة أو أكثر، وبالتالي فلا معنى للقول عنها إنها ناسخة أو منسوخة.

أما متى اصطلح على هذا، أما متى تم ترقيم الآيات بهذا المعنى في المصحف فذلك ما لم نعثر فيه على خبر! والظاهر أن ذلك حدث بعد النبي عليه السلام. يؤيد ذلك ما ذكرته أم سلمة من حيث إنه كان -في الماضي- طريقة قراءة النبي، أضف إلى ذلك اختلاف أهل المدينة والبصرة والكوفة الخ في عدد آيات بعض السور كما في عدد آيات القرآن ككل.

ب- حول "السبع المثاني"

أما ما يذكرونه بصدد قوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ" (الحجر 87) من أن المقصود بـ "السبع المثاني" هو الفاتحة بدليل كونها "سبع آيات"، فليس هناك ما يدل على أن "المثاني" هي "الآيات"، بالتحديد. فكل ما يفيده النص هو أن الأمر يتعلق "بسبعة أشياء من جنس الأشياء التي تثنى" (الرازي). وإذا عرفنا أن علماء الإسلام قد اختلفوا حول عدد آيات الفاتحة هل هي سبع أم ست أم ثمان أم تسع، صار القول بأن "السبع المثاني" هي الفاتحة، لكونها "سبع آيات"، قولا لا يصمد أمام الفحص النقدي. هذا فضلا عن صعوبة فهم السبب الذي من أجله تم التمييز بينها وبين "القرآن العظيم" في الآية السابقة، خصوصا والرأي السائد أن الفاتحة هي من القرآن وليست مجرد "دعاء" كما قال بعضهم. (انظر رأينا في حقيقة "السبع المثاني" في القسم الثاني من هذا الكتاب: سورة الحجر، هامش رقم 15).

4- نص القرآن ليس موضوعا لا للتبديل ولا للنسخ ولا للمحو.

هناك خمس آيات يلتمس فيها القائلون بـ "النسخ" في القرآن مشروعية هذه المقولة، ندرجها هنا حسب ترتيب نزولها وضمن سياقها لنتمكن من مناقشة مضمونها، على أساس ذلك المبدأ المثالي القائل : "القرآن يفسر بعضه بعضا". أما روايات "أسباب النزول" فسيكون لنا حديث خاص بها، فليمسك عنا أصحاب البضاعة بضاعتهم إلى حين!

أ- "وإذا بدلنا آية مكان آية ..."

الآية الأولى من سورة النحل وهي سورة مكية تقع تحت رقم 70 في ترتيب النزول. ونصها: "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ، قَالُوا (قريش) إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ! بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (النحل 101) . قال الواحدي في كتابه أسباب النزول : "نزلت حين قال المشركون: إن محمداً عليه الصلاة والسلام سخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم، وما هو إلا مفتر يقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله تعالى هذه الآية". وهذا "السبب" (سبب النزول) يكرره الواحدي نفسه، فضلا عن المفسرين، بصدد آيات أخرى تفيد "النسخ" في نظر القائلين به، وهذا ما يضعفه لأن المفروض في "سبب نزول" آية ما أن يكون خاصا بها وحدها وإلا لما صح اعتباره سببا في نزولها.

لعل هذا ما جعل القرطبي يعرض عن الرواية السابقة ليشير بصدد قوله تعالى: "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ"، إلى رأي آخر، فكتب يقول: "قيل المعنى: بدلنا شريعة متقدمة بشريعة مستأنفة"، ونحن نرى أن هذا تفسير يحتمله السياق فعلا. فالآية التي تلي السابقة وهي قوله تعالى: "قُلْ نَزَّلَهُ (القرآن) رُوحُ الْقُدُسِ (جبريل) مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (النحل 102) تشير إلى القرآن ككل، وتتكامل مع السابقة.

على أنه إذا أمكن صرف معنى "الآية" هنا إلى "الشريعة" (شريعة موسى مثلا)، كما فعل القرطبي وغيره، فلا شيء يمنع من صرفها إلى معنى "العلامة" و"المعجزة"، وهو المعنى الغالب الذي وردت فيه هذه اللفظة في القرآن. وفي هذه الحالة يكون معنى قوله تعالى : "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ" الخ، هكذا: إذا كنا قد جعلنا العصا التي تنقلب ثعبانا علامة على صدق نبوة موسى، مثلا، فقد بدلنا هذه المعجزة بأخرى لتكون علامة على صدق نبوة عيسى، وهي منحه القدرة على الكلام إلى الناس وهو صبي في المهد الخ. ونحن نعتقد أنه بهذا النوع من الفهم يكون المعنى أقوى، خصوصا ومجال الخطاب هنا هو الجدل مع المشركين في مكة، وليس الجدل حول التشريع.

ب - *"وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ" ...*

أما الآية الثانية التي يستشهدون بها لإثبات مشروعية القول بالنسخ في القرآن فهي من سورة الحج، وهذه السورة مصنفة في المصحف مع القرآن المدني، وهناك من المفسرين والمهتمين بترتيب النزول من يقولون إنها مكية. وتقع الآية التي تعنينا هنا ضمن سياق واحد يتألف من الآيات التاليات: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ، وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ (مغالبين معاندين) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ" (الحج 49-51).

وواضح أن المقصود بـ "آياتنا" هنا ليس "قطعة" أو "قطعا" من القرآن، لأنه ثبت أن قريشا عجزت عن معارضته ومعاندته بعد أن تحداهم بالإتيان بسورة مثله، بل المقصود في رأينا هو : العلامات التي تشير إلى قدرة الله وبديع صنعه الخ، والتي تحمل الذين يتأملونها على الإيمان بالخالق الأحد، وبالبعث والثواب والعقاب، وتدفعهم إلى القيام بالعمل الصالح، مما يجعلهم يستحقون المغفرة والرزق الكريم (كما هو منصوص عليه قبل). وهذا بخلاف الذين يعاندون في وحدانية الله وخلقه العالم والبعث والحساب الخ، وذلك بإثارة أسئلة وشكوك مثل

قولهم : "أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (ص 5)، وقولهم: "أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون، أوآباؤنا الأولون" (الواقعة 27-48). وهذا المعنى الذي قررناه هنا تشهد له بالصحة آيات أخرى (أنظر: سبأ 1-6-38).

ج- "فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ"...

ومباشرة بعد آيتي سورة الحج (49-51) موضع كلامنا نقرأ قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" الخ (الحج 52-54).

لا مجال هنا لتفسير لفظ "ينسخ" في قوله تعالى في الآية السابقة "فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ" بالمعنى الذي يعطيه القائلون بالنسخ في القرآن لهذه الكلمة. ذلك أن معنى "ينسخ" هنا هو : "يمحو"، أي يضع حدا لمشاعر من التمني كانت تدور في وجدان النبي عليه السلام من حين لآخر، وأساسها تشوقه إلى أن يؤمن به قومه قريش. وسياق الآيات أعلاه يشير بوضوح إلى أن النبي قد خطر له -هنا- كما حدث في مناسبات أخرى، تلبية بعض مطالب قريش التي طرحوها عليه في إطار مساوماتهم التي تحدثنا عنها في سور سابقة. وقد نزلت في ذلك آيات أخرى مثل قوله تعالى: "وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا، وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا. وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا. سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا" (الإسراء 73-77).

واضح إذن أن معنى قوله تعالى في سورة الحج "أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ"، يشرحه ما ورد أعلاه في سورة الإسراء: الله يمحو التمنيات التي تخطر على قلب النبي أثناء دعوته لقريش وتلويحهم له بإمكانية اتباعهم له إذا هو فعل كذا أو قال كذا. وبهذا المحو للتمنيات التي من شأنها إيقاع الفتنة (والفتنة من الشيطان) تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي وتستمر الدعوة في دربها المحكم الذي وضحته آيات سابقة، فيكون هذا المحو بمثابة إحكام جديد لمنهج الرسالة وأدلتها ومقاصدها. فالنسخ والإحكام لا يعودان هنا إلى ألفاظ هذه الآية (القرآنية) أو تلك، بل يعودان إلى مسار الدعوة المحمدية، إلى سيرورتها الفعلية المقررة في محكم الكتاب.

د- يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ

والآية الثالثة التي يعتمدها القائلون بالنسخ في القرآن هي قوله تعالى : "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ" (الرعد 38- 39).

قد لا نحتاج هنا إلى الوقوف طويلا مع هذه الآية، إذ من الواضح من السياق أنها جواب على ما ورد في آية سابقة تحكي تحدي قريش للنبي عليه السلام أن يأتيهم بمعجزة، كأن ينزل عليه كنز أو يأتي معه ملك، ذلك قوله : "وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ" (الرعد 7)، ويأتيهم الجواب في الآية نفسها "إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ". ثم تأتي الآيتان المذكورتان أعلاه (38-39) لتقررا أن الله أرسل رسلا قبل محمد (ص)، وأنهم لم يكونوا ملائكة ولا أناسا خارقين للعادة، بل كانوا كجميع البشر لهم أزواج وذرية ولم يكن في مقدور أي منهم أن يأتي بمعجزة أو ما في معناها إلا بإذن الله وفي وقت محدد سلفا، وهذه الآيات/المعجزات التي يأتي بها الأنبياء لإقناع أقوامهم، منها ما أثبته الله وقصّه في رسالاته اللاحقة (كالقرآن) ومنها ما لم يثبته. وهو يعلم هذا الصنف كما يعلم ذلك، لأن الكل مسجل في "أم الكتاب" وهو اللوح المحفوظ.

وهكذا يتضح أن قوله "يمحو" لا علاقة له بالقرآن ولا بكون بعض آياته تنسخ أخرى. وليس هناك في السياق ما يسمح بإقامة مثل هذه العلاقة. ومع أن بعض المدافعين عن وجود النسخ في القرآن يستشهدون بهذه الآية ليصرفوا معنى "المحو" فيها إلى "النسخ" فإن جل المفسرين يذهبون إلى مثل ما قلنا أو قريبا منه (انظر ما ذكره الطبري في تفسيره). ونحن مطمئنون إلى صواب وجهة نظرنا هذه لأن القرآن يشهد لها بالصحة في آية أخرى هي قوله تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ (فقصصهم وآياتهم بمعنى معجزاتهم مثبتة في القرآن) وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (وقصصهم ومعجزاتهم لم تذكر فيه) وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ (معجزة) إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ" (فصلت 78).

هـ- "ما ننسخ من آية أو ننسها ..."

لعل أهم حجة يستند إليها القائلون بوجود النسخ في القرآن هي الآية التالية، الواردة في هذه السورة، الشيء اذ يبرر تخصيصها باستطراد في موضوع

إِلَيْكَ الْكِتَابَ (القرآن) بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ (التوراة)، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ" (المائدة 48)، نبوة محمد عليه السلام خير من النبوات السابقة فهي مهيمنة عليها، ناسخة لها.

ونعود إلى تتمة آية "ما ننسخ..." وهو قوله تعالى: "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (البقرة 106- 107)، لنشير إلى أن ربط عملية النسخ بقدرة الله الخ، يناسب ليس "الآيات الكلام" فحسب، بل الأفعال والحوادث، وهذا هو المقصود لأن المعنى لا يستقيم مع صرف معنى النسخ إلى "حروف الآية" بل يحتم السياق صرفه إلى قدرته تعالى على الإتيان بشرائع وعلامات ودلائل وحجج ... جديدة تحل محل القديمة.

ويستمر هذا الخطاب ليتحول إلى نوع من العتاب للمسلمين الذين كانوا يقولون للرسول "راعنا" كما بينا آنفا. قال تعالى: "أَمْ تُرِيدُونَ (بقولكم للرسول راعنا، أي أمهلنا ولا تسرع في القراءة) أَنْ تَسْأَلُوا (تطلبوا من) رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ (=طلب من موسى) مُوسَى مِنْ قَبْلُ" وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" (108)، والمعنى : هل تريدون أن تسلكوا مع رسولكم نفس المسلك الذي سلكه بنو إسرائيل مع موسى إذ كانوا يتذمرون ويشتكون ويشتطون في الطلب (وهو معنى قولهم : راعنا)، حتى بدلوا الكفر بالإيمان، وضلوا سواء السبيل.

وتعود الآية التالية إلى بداية السياق (أعني قوله تعالى: "مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ"، فترتبط به وتقرر من جديد: "وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ".

وهكذا فمن خلال هذا السياق الذي تندرج تحته "آية النسخ" يتضح بجلاء أن ما تنسخه هذه الآية ليس ألفاظ آية من الآيات القرآنية بل النبوات والشرائع السابقة، ومن هنا كان الرسول محمد عليه السلام "خَاتَمَ النَّبِيِّينَ". وبختم النبوة نسخت "الآيات" (المعجزات) الخارقة للعادة التي خص الله بها أنبياء سابقين. لقد نسخ الله تلك الآيات/المعجزات واستقرت العادة، وصارت المعجزة العامة التي على جميع البشر أن يعتبروها هي تلك التي عبر عنها القسم الثاني من "آية النسخ" (أعلاه) والآية التالية لها، ذلك قوله تعالى يخاطب رسوله الكريم : "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ".

* * *

يتضح من جميع ما تقدم في هذا الاستطراد أنه لا دليل في القرآن على وجود النسخ فيه بالمعنى الفقهي وأن حجج القائلين به، المستندة على الآيات الخمس التي حللناها أعلاه لا تدل على ما يريدون إثباته بواسطتها إلا إذا سلخناها من سياقها وضمّناها ما نريد. وهذا غير جائز. فالقرآن، ولو أنه نزل منجما مفرقا حسب مقتضى الأحوال، فإن لآياته سياقا كما أن لها أسباب نزول. والعمل بأسباب النزول يجب أن لا يعتدي على السياق. فأسباب النزول، هي في نهاية الأمر روايات آحاد، وأكثرها ظنون وتخمينات. أما السياق فشيء معطى من القرآن نفسه. وهو توقيفي، لأن ترتيب آيات القرآن في جميع سوره ترتيب توقيفي. فإذا كان لا يجوز تغيير هذا الترتيب فلا يجوز أيضا إهماله. والقرآن يفسر بعضه بعضا ليس بالكلمات والألفاظ بل بالمعنى والسياق.

وواضح أنه يترتب على قولنا إنه لا دليل في القرآن على النسخ بالمعنى الفقهي، أنه ليس في القرآن الذي في المصحف آيات -أحكام أو أخبار- منسوخة، بمعنى أنها ألغتها آيات أو أحكام أخرى! كلا، ليس في القرآن ناسخ ولا منسوخ. كل ما هناك هو وجود أنواع من التدرج في الأحكام: من العام إلى الخاص، ومن المطلق إلى المقيد، ومن المجمل إلى المبين، ومن المبهم إلى المعين، هذا فضلا عن ملاءمة الأحكام مع مقتضيات الأحوال، كأن يأتي حكم يراعي حالة المسلمين من الضعف أو غيره، ثم عندما تتحسن أحوالهم يأتي تعديل في نفس الحكم ليتلاءم مع المستجدات. وهذا لا يعني إزالة الحكم الأول ولا إبطاله بالمرة، وإنما يعني إعماله بصورة معدلة.

وإذن، فنحن لا ننكر وجود آيات تنطق بأحكام عممتها آيات نزلت بعدها، أو خصصتها، أو قيدتها، أو فصّلتها، أو عدلتها، أو أجّلتها، أو رفعت عنها التأجيل الخ! نحن لا ننكر هذا! وهل يصح ذلك والقرآن نزل منجما وفق مقتضى الأحوال، أي حسب تغير الظروف والمصالح وشؤون الحياة عامة. وإذن فما ندعو إليه هو فقط الاستغناء عن مقولة "الناسخ والمنسوخ"، التي تجعل الناسخ يحل محل المنسوخ ويبطل حكمه، وكأن المنسوخ كان خطأ أو أن إرادة الله قد تغيرت! كلا، إن أحكام القرآن كلها قائمة أبدا، لا تعارض فيها ولا تناقض ولا تجدد، بل التعارض والتجدد قائمان في الأشياء والنوازل، وليس في أحكام القرآن؛ وعلى الإنسان أن يجدد فهمه للأحكام حتى تتلاءم مع المستجدات.

وإنما نزل القرآن مفرقا في مدى يزيد عن عشرين سنة لتكـون أحكامـه متلائمة مع تطور الحياة. وهو في جملته وتفصيله لا ناسخ فيـه ولا منـسوخ : "كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ (في منظومة كلية) ثُمَّ فُـصِّلَتْ (عناصـرها حـسب مقتـضى الأحوال) مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ" (هود 1)، ، والقرآن، كليتُه ومفرَّقُه، واحد "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد" (فصلت 42). وقد ذم الله "الْمُقْتَسِمِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ" يأخذون ببعضه ويتركون الباقي (الحجر 90- 91) وتوعدهم، وهذا ليس خاصا بالعمل والسلوك فحسب بل يـشمل أيـضا جميع أنواع التعامل مع القرآن، ويأتي في المقدمة فهم القرآن. فكل فهم لم يُـبْنَ على مراعاة السياقات واستقراء الآيات الخاصة بموضوع واحد هو كالوقوف عند "ويل للمصلين".

ومع أن القائلين بالنسخ في القرآن لا يـدخلون جميعـا ضـمن مفهـوم "الْمُقْتَسِمِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ" ، فإن إعمال بعضهم لآيـات وإهمـالهم لأخرى تتصل بالأولى، عن قصد أو غير قصد، تصرف مخـالف للقاعـدة الكليـة القرآنية التي تؤكد علي وحدته وخلوه من الاختلاف: قال تعالى: "أَفَلَـا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيـهِ اخْتِلَافًـا كَثِيـرًا" (النـساء 82)، والمفهوم أنه من عند الله وأنه ليس فيه اختلاف، لا ناسخ ومنـسوخ. وإذا كـان القرآن ينص على أن فيه "المحكم والمتشابه" فإنه لا علاقة لهذا التـصنيف مـع التصنيف إلى ناسخ ومنسوخ. فليس الناسخ في حكم المحكم ولا المنسوخ في حكم المتشابه، كما سنبين ذلك في حينه.

91- سورة القدر

- تقديم

اختلفوا في هذه السورة : هل هي مكية أم مدنية؟ لابن عباس قولان. ونسب القرطبي وأبو حيان القول بمدنيتها إلى الأكثر. وقال الواقدي: هي أول سورة نزلت بالمدينة. وهذا يقتضي أنها نزلت أثناء نزول سورة البقرة أو بعدها، بعد فرض صيام شهر رمضان وذلك لارتباطها بهذا الشهر. وذُكر أن رجلا قال للحسن البصري: "أرأيت ليلة القدر في كلّ رمضان هي؟ قال: نعم، والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي كلّ رمضان، وإنها لليلة القدر، فيها يُفرق كلّ أمر حكيم، فيها يقضي الله كلّ أجل وعمل ورزق". وعن ابن عباس: "نزل القرآن في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، في ليلة مباركة، جملة واحدة من عند الله، من اللوح المحفوظ إلى السَفَرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا؛ فنجّمته السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونجمه جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلّم عشرين سنة. قال ابن العَرَبيّ: "وهذا باطل؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة" (القرطبي).

وعن معنى "ليلة القدر" قالوا: ليلة الحكم. ويضيف القرطبي: "والمعنى ليلة التقدير؛ سميت بذلك لأن الله تعالى يقدّر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة، من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، ويسلمه إلى مدبِرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل؛ عليهم السلام". وعن ابن عباس قال: يُكتَب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت، حتّى الحاجّ. قال عكرمة: يُكتب حاجّ بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، ما يُغادَر منهم أحد، ولا يُزاد فيهم. وقال سعيد بن جبير هذا المعنى. وعن ابن عباس أيضاً: أن الله تعالى يقضي الأقضية في ليلة نصف شعبان، ويُسلّمها إلى أربابها في ليلة القدر. وقيل: إنما سميت بذلك لعظمِها وقَدْرها وشرفها؛ من قولهم: لفلان قَدْر؛ أي شرف ومنزلة" (القرطبي).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى اختلفوا الأولى في عدة مسائل: في تعيين ليلة القدر؛ وأكثرهم يقول إنها ليلة سبع وعشرين من رمضان، وبعضهم يقول إنها في العشر

الأواخر منه. وبعضهم قال هي في ليالي السنة كلها. ومنهم من ربط هذا بأحكام شرعية فقال: "من علق طلاق امرأته أو عتق عبده بليلة القدر، لم يقع العِتق والطلاق إلا بعد مضي سنة من يوم حلف. لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك، ولم يثبت اختصاصها بوقت. وإلى هذا القول ذهب أبو حنيفة، أي أنها في جميع السنة. ونسب إليه القرطبي إليه القول إنها: "إنها رُفِعَتْ -يعني ليلة القدر- وأنها إنما كانت مرة واحدة. وروي عن ابن مسعود: "أنها إذا كانت في يوم من هذه السنة، كانت في العام المقبل في يوم آخر". وحاول بعضهم ربطها بـ"الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر بناء على قوله تعالى: "وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ" (الأنفال: **41**). ويبدو أن الخلاف حول موعدها كان زمن النبي عله السلام، فقد رووا عدة أحاديث منسوبة إليه، بعضها يجعلها في الحادي والعشرين من رمضان، وبعضهن في الثالث والعشرين وبعضها الآخر في ليلة الخامس، وبعضها في ليلة السابع والعشرين. وقيل إنها في ليلة التاسع والعشرين. وقيل إن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها ونسبوا في ذلك حديثا إلى النبي عله السلام. كما نسبوا إليه عن طريق ابن عباس أنه (ص) قال: «إذا كان ليلةَ القدْرِ، تَنَزَّلَ الملائكةُ الّذينَ هم سُكان سِدرة المُنْتَهى، منهمْ جبريلُ، ومعهم ألْويةٌ يُنْصَبُ منها لواءٌ على قبري، ولواء على بيت المقدس، ولواء على المسجد الحرام، ولواء على طُور سَيْناء، ولا تَدَعُ فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلاّ تُسَلِّم عليه، إلا مُدْمِن الخمر، وآكِلَ الخنزير، والمتضَمِّخ بالزعفران»! (القرطبي).

- نص السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ (القرآن) فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ[1]، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ[2] (تنويه وتعظيم)، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ[3] (1)، تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ[4] (2)، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ[5] (3).

---

1 - قال بعضهم معناه: "أن ليلة القدر خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر".

2- اختلفوا في معنى الآية : قال بعضهم " تنزل الملائكة وجبريل معهم، وهو الروح، في ليلة القدر بإِذْنِ رَبِّهِمْ من رزق وأجل وغير ذلك"

3- قالوا في هذه الآية : "سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ: سلام ليلة القدر من الشرّ كلّه من أوّلها إلى طلوع الفجر من ليلتها". فهي ليلة سلامة. وقيل: "هو تسليم الملائكة على أهل المساجد، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر؛ يمرون على كل مؤمن، ويقولون: السلام عليك أيها المؤمن. وقيل: يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض فيها".

تعليق

ما يمكن أن يخرج به المرء من هذه السورة هو أن الشيء الوحيد المؤكد هو أن القرآن نزل في هذه الليلة وأنه نزل في شهر رمضان، وبالتالي فلا بد أن تكون ليلة القدر في شهر رمضان. أما موعد هذه الليلة فليس في القرآن ما يدل عليها ولا على كيفية إنزال القرآن فيها مع العلم أنه نزل على مدى عشرين أو ثلاث وعشرين سنة! هل يتعلق الأمر ببداية نزوله (وهذا لا يستقيم لأن هذه البداية كانت قبل شهر رمضان، إن كان المقصود به شهر فريضة الصيام). وبالتالي فليس للمرء إلا أن يقول إن الله أخفى هذه الليلة وأخفى كيف العلاقة بينها وبين القرآن وبين شهر رمضان.

ومن هنا راح بعضهم يستكشف الحكمة من إخفاء الله لها. من ذلك ما كتب الرازي، في تفسيره، قال: "إنه تعالى أخفى هذه الليلة لوجوه أحدها: أنه تعالى أخفاها، كما أخفى سائر الأشياء، فإنه أخفى رضاه في الطاعات، حتى يرغبوا في الكل، وأخفى الإجابة في الدعاء ليبالغوا في كل الدعوات، وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء، وأخفى في الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل، وأخفى قبول التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسام التوبة، وأخفى وقت الموت ليخاف المكلف، فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالي رمضان وثانيها: كأنه تعالى يقول: لو عينت ليلة القدر، وأنا عالم بتجاسركم على المعصية، فربما دعتك الشهوة في تلك الليلة إلى المعصية، فوقعت في الذنب، فكانت معصيتك مع علمك أشد من معصيتك لا مع علمك، فلهذا السبب أخفيتها عليك، فكأنه تعالى يقول: إذا علمت ليلة القدر فإن أطعت فيها اكتسبت ثواب ألف شهر، وإن عصيت فيها اكتسب عقاب ألف شهر، ودفع العقاب أولى من جلب الثواب وثالثها: أني أخفيت هذه الليلة حتى يجتهد المكلف في طلبها، فيكتسب ثواب الاجتهاد. ورابعها: أن العبد إذا لم يتيقن ليلة القدر، فإنه يجتهد في الطاعة في جميع ليالي رمضان، على رجاء أنه ربما كانت هذه الليلة هي ليلة القدر، فيباهي الله تعالى بهم ملائكته، يقول: كنتم تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء. فهذا جده واجتهاده في الليلة المظنونة، فكيف لو جعلتها معلومة له فحينئذ يظهر سر قوله: "إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" .

ولم تخل ليلة القدر من الوقوع تحت طائلة التوظيف السياسي. قال الرازي: روى القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن، قال: قلت للحسن بن علي عليه السلام يا مسوِّد وجوه المؤمنين عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له يعني معاوية، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأى في منامه بني أمية يطؤون منبره واحداً بعد واحد، وفي رواية ينزون على منبره نزو القردة، فشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى: "إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ" إلى قوله: "خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ" يعني ملك بني أمية. قال القاسم فحسَبنا ملك بني أمية، فإذا هو ألف شهر. طعن القاضي في هذه الوجوه فقال: ما ذكر من "أَلْفِ شَهْرٍ" في أيام بني أمية بعيد، لأنه تعالى لا يذكر فضلها بذكر ألف شهر مذمومة، وأيام بني أمية كانت مذمومة. ويضيف الرازي: اعلم أن هذا الطعن ضعيف، وذلك لأن أيام بني أمية كانت أياما عظيمة بحسب السعادات الدنيوية، فلا يمتنع أن يقول الله تعالى إني: أعطيتك ليلة هي في السعادات الدينية أفضل من تلك السعادات الدنيوية".

وبعد فقد ذكرني هذا الذي قالوا عن ليلة القدر بمثل شعبي يقول: "راها، راها؛ ما شفناها"، والمقصود : الجميع يشير إليها ولكن لا أحد رآها.

ما يقوله القرآن هو: إن "ليلة القدر" ليلة قدرها عظيم، فهي خير من ألف شهر، لأن فيها تنزل الملائكة وجبريل أوامر الله ونواهيه أي رسالاته إلى الناس، ومنها رسالة محمد، أي القرآن الذي نزل في شهر رمضان، فهي إذن تقع في هذا الشهر. ونظرا لهذه الأهمية التي تكتسيها جعلها الله سلاما حتى مطلع فجرها. هذا كل ما في القرآن عنها. والمفهوم أنها من مجال العبادات لا من مجال العقائد ولا المعاملات. أما ما قيل حولها، مثل ما هو مذكر أعلاه، فمجرد كلام لا يلزم إلا قائليه. وهو كله من قبيل الفضول والتخمين، فليست العبادات في أي دين في متناول العقل. وما يميز العبادات أنها من المنقول لا من المعقول. فإذا آمن الإنسان بالنبوة أخذ منها العبادات بعقل مستقيل، كما قال الغزالي.

93- سورة الأنفال

- تقديم

الأنفال: الكلام في هذه السورة يدور حول غزوة بدر وما استدعاه السياق. قيل: ابتدأ نزولها قبيل انصراف من بدر. وغزوة بدر كانت في منصف السنة الثانية للهجرة، بعد تحويل القبلة من القدس إلى مكة بشهرين، وهذا له دلالة خاصة. ذلك أن تحويل القبلة إلى الكعبة بمكة سيبقى مجرد تدبير ديني ما لم يكن منطلقا إلى عمل ملموس. وهكذا فبمجرد ما سمع الرسول عليه السلام بخروج قريش بقافلة تجارية إلى الشام، قيل إنها كانت من أكبر قوافلها "جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها مثقال فصاعداً إلا بعث به في تلك العير"، وكان على رأس هذه القافلة أبو سفيان بن حرب (من بني عبد مناف عمومة النبي عليه السلام) ومعه بضعة وعشرون رجلاً، أقول فبمجرد ما علم الرسل بالخبر خرج لاعتراضها، وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة، ومعه مائة وخمسون من المهاجرين؛ غير أنه لما قطع مسافة في الطريق إليها تبين له أنها قد غادرت المكان الذي كان ينوي اعتراضها فيه واتجهت إلى الشام. (ويسمى هذا الخروج بغزوة بدر الصغرى). حينذاك عاد الرسول إلى المدينة ينتظر رجوع القافلة من الشام. وفي انتظار ذلك أي في رجب من هذه السنة بعث سرية من ثمانية أشخاص، يرأسها عبد الله بن جحش، الذين تحدثت عنها سورة البقرة وعن مسألة القتال في الشهر الحرام الخ، وكان الهدف من هذه العثة تقصي أخبار قريش.

وعندما علم عليه السلام أن قافلة أبي سفيان في طريق العودة إلى مكة وأنه قد حان وقت إعتراضها استنفر أصحابه قائلا: "هذه عيرُ قريش فاخرجوا إليها لعلّ الله أن ينفِلُكموها"، فاستجاب له بعضهم وتخلف آخرون، "فخرج لثلاثِ ليالٍ خَلَوْنَ من رمضان على رأس "ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً: مئتان ونيف وأربعون من الأنصار، والباقون من المهاجرين، ومعهم فَرَسان وسبعون بعيراً يعتقبونها". ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول لاعتراض القافلة، -وكان قد بث

العيون على الطريق- أرسل إلى قريش يخبرهم بذلك ويستنجد بهم لحماية أموالهم. فبادروا إلى نجدة قافلتهم وفي مقدمتهم أشرافهم، ولم يتخلف إلا أبو لهب بن عبد المطلب، الذي أناب عنه شخصا آخر من بني المغيرة المخزومي. وحاولت شخصيات أخرى من أشراف قريش أن تتخلف فضغط عليهم أبو جهل وأصحابه فخرجوا مع زملائهم. وبعد أن تأكد الرسول من وقوف الأنصار معه (لأن "الصحيفة" لم تكن تنص صراحة على أنه تجب عليهم نصرته خارج المدينة) مضى في طريقه لمواجهة قريش والاستيلاء على قافلتهم. غير أن أبا سفيان علم من استخباراته بخروج النبي وجيشه لاعتراض قافلته، فترك الطريق المعتاد سلوكها وانحرف نحو الطريق الساحلية ليدخل منها مكة. ولما دخلها أرسل إلى جيش قريش يخبرهم بنجاته ويطلب منهم الرجوع فامتنع أبو جهل وألح على مواصلة الطريق إلى بدر للاحتفال بها لتسمع العرب بذلك فتتعزز مهابة قريش في نفوسهم، وكانت بدر من أساق العرب . غير أن قبيلتين من قريش فضلتا الرجوع ولتسحبتا من جيش أبو جهل فأحدث ذلك ثغرة خطيرة فيه.

وعندما اقترب جيش الرسول من بدر أرسل عليا والزبير يتقصيان أخبار جيش قريش فلقيا سقاة له منهم غلامين، فأتيا بها رسول الله وعلم منهم أن جيش قريش على قرب من ذلك المكان وأنهم ينحرون يوما تسعا ويوما عشرا من الإبل، فاستنتج الرسول من ذلك أن عددهم بين التسعمائة والألف، ثم سألهما عمّن هناك من أشراف قريش فذكرا له عدداً كبيرا منهم فقال عليه السلام لأصحابه: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها". سار جيش الرسول حتى نزلوا بعُدْوَةِ الوادي الدنيا (جهة المدينة) بعيداً عن عيون الماء في أرض سبخة، فأصيبوا بالعطش فأصابهم القلق والتوتر مما كاد ينال من عزائمهم، مخافة من أن يقعوا فريسة سهلة لقريش. غير أن المطر سرعان ما غير من الوضع: سال الوادي وشربوا واتخذوا الحياض الخ، بينما كان المطر في غير صالح جند قريش الذين كانوا في العدوة القصوى من الوادي، فقد قلبت مياه الوادي الأرض وَحَلا لزقا فلم يقدروا على مغادرة المكان. وإلى هذا تشير السورة إذ قال تعالى: "وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ" (الأنفال: 11). هذا من جهة، ومن جهة أخرى رأى الرسول في منامه أنه يقاتل جيش قريش وهم قليلو العدد كما رآهم أول مرة، فاستبشر المسلمون خيرا، وإلى هذا تشير الآية التالية / "إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ، وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ، وَإِذْ

يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلامُورُ(43-44).

تفقد الرسول جيشه وأخذ يعدل الصفوف ويوصيهم فقال: "لا تحملوا حتى آمركم، وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تَسُلّوا السيوف حتى يَغْشَوكم"، ثم حضّهم على الصبر والثبات ورجع إلى عريشه، محل قيادته، ومعه رفيقه أبو بكر، وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش متوشح سيفه.

التحم الجيشان واشتد القتال، وانهزم جيش قريش وهربوا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون: فقتل من المشركين نحوُ سبعين رجلا منهم كثير من أشرافهم وعلى رأسهم أبو جهل، كما أسر المسلمون منهم نحو سبعين رجلا كذلك. وستأتي في السورة إشارات إلى بعض وقائع المعركة فلنترك الحديث عنها إلى الشرح. وعندما تحرك الرسول للعودة إلى المدينة حدث نزاع وفوضى بسبب الغنيمة: روى عُبادة بن الصّامت قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بَدر فَلَقُوا العدوّ؛ فلما هزمهم الله أتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت (أحاطت) طائفة برسول الله (ص) يحرسونه، واستولت طائفة على العسكر والنهب؛ فلما نفى الله العدوّ ورجع الذين طلبوهم (كانوا يلاحقونهم) قالوا: لنا النفل (الغنيمة)، نحن الذين طلبنا العدوّ وبنا نفاهم الله وهزمهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله (ص): ما أنتم أحقّ به منا، بل هو لنا، نحن أحدقنا برسول الله (ص) لئلا ينال العدوّ منه غِرة. وقال الذين استولوا على العسكر والنهب: ما أنتم بأحقّ منا، هو لنا، نحن حَوَيْنَاه واستولَينا عليه؛ فأنزل الله عز وجل: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلأَنْفَالِ" الخ، ففصلت في النزاع كما سنرى.

ومع أن انتصار المسلمين في هذه المعركة كان كافيا وحده للرفع من معنوياتهم ومن شأنهم لدى العرب، إلا ما أسفرت عنه من مقتل أبو جهل ومعه كبار من قومه بني مخزوم وأسر آخرين منهم ونجاة أبي سفيان بالقافلة بدهائه، قد قلب المعادلة رأسا على عقب على صعيد علاقة النبي عليه السلام بقريش. ذالك أن بني مخزوم كانوا هم العدو الألد للنبي والمسلمين في مكة، وقد زاد هذه العداوة التنافس بينهم وبين بني عبد مناف، الذي يلتقي عنده نسب بني أمية وبني هاشم. وقد سبق أن أشرنا في مناسبة سابقة إلى رد فعل أبي سفيان من سخرية أبي جهل[1] من الرسول في بداية النبوة، رد فعل احتجاجي لم يكن الدافع إليه

1- أما أبو جهل فق كان أحد رجالات قبيلة بني مخزوم المنافسة لبني عبد مناف (بنو هاشم وبنو أمية معا)، وكان يكنى بـ"أبي الحكم" واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة. ونظرا لشدة خصومته للدعوة المحمدية كني بـ"أبي جهل"، وهو ابن أخي الوليد بن المغيرة الذي كان عميد المخزوميين زمن الرسول، ومن كبار "الملأ من قريش" (خصوم الدعوة المحمدية)=

شيئا آخر غير النعرة القبلية : يروى أن النبي (ص) مر على أبو جهل وأبي سفيان في بداية النبوة في مكة وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال : "هذا نبي بني عبد مناف"!. فغضب أبو سفيان، وهو بعدُ خصما للدعوة المحمدية، وقال مستنكرا: "أتنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي"؟ وكما سنرى بعد فقد انتهى به الأمر إلى أن فاوض النبي عليه السلام بواسطة عمه العباس على الدخول إلى مكة ففتحت بدون حرب، كما سنرى بعد. وكان ابنه معاوية من كتاب الوحي لدى الرسول (ص)، ثم صار عاملا على دمشق، ثم مؤسس الدولة الأموية بعد حربه مع علي بن أبي طالب وانتزاع الخلافة منه.

هذا ولابد من الإشارة هنا إلى أن ما ساد تضاعيف هذه السورة لم يكن الاعتزاز بالنصر وآفاقه، بقدر ما هيمن فيها الاستياء من النزاع والفوضى الذين سادا جيش الرسول عليه السلام بسبب الغنيمة، ولذلك تكرر فيها العتاب للمؤمنين، مع التذكير بتقاعس بعضهم عن الخروج الخ...

- نص السورة

1- مقدمة: غنائم بدر يتصرف فيها الرسول كيف شاء ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ[2] (لمن هي)؟ **قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** (يضعها الرسول حيث يشاء). **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ** (عودوا كما كنتم إخوانا)، **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** (فيما فعل الرسول فيها) **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**[1]. **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** (خافوا وانقادوا لأمره) **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**[2]. **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**[3]، **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** (صدقا من غير تردد ولا شك)، **لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ** (مكانة محترمة) **وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**[4].

ولكنه لم يكن في قساوة ابن أخيه أبي جهل. وأما أبو سفيان فقد كان عميد بني أمية من= أبناء عمومة النبي عليه السلام، وكان من خصوم الدعوة المحمدية، وزعيم قريش بعد وفاة أبي طالب عم النبي (ص).

2- الأنفال جمع فيء، وهو في الاصطلاح الشرعي : " كل مال دخل على المسلمين من غير حرب كخراج الأراضي والجزية وخمس الغنائم. أما الغنيمة والجمع غنائم وهي ما يحصل عليه المسلمون بعد خوض المعركة مع العدو يكون فيها قتلى وأسرى...

2- عتاب... وتقريع لمن تخلفوا ولم يخرجوا، ولمن خافوا حين المعركة ...

(يا محمد : نفذ أمر الله في الغنائم وهم كارهون) **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ** (بالمدينة لاعترض قافلة قريش) **بِالْحَقِّ** -**وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ**[5] (كارهون للخروج)- (كذلك مكثوا) **يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ** (أن القتال واقع وأن الأمر ليس مجرد اعتراض القافلة التجارية كما كانوا يرغبون، فلم يأخذوا أهبة الحرب. فلمّا وقع الاستنفار للحرب شقّ عليهم ذلك، فطلبوا الرّخصة في القعود وكانت حالهم) **كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ**[6]. و (تذكروا يا هؤلاء) **إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ** (العير أو النفير: القافلة أو الحرب) **أَنَّهَا لَكُمْ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ** (أي الاستيلاء على العير بدون نفير) **تَكُونُ لَكُمْ، وَيُرِيدُ اللَّهُ** (أما الله فيريد بالمناسبة) **أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** (يظهر الحق بنصرة المؤمنين كما وعدهم) **وَيَقْطَعَ دَابِرَ** (آخر من تبقى من زعماء) **الْكَافِرِينَ**[7]، **لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**[8]. (وتذكروا) **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**[9] (معينين لكم). **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ** (أي جواب الله لاستغاثتكم) **إِلَّا بُشْرَى** (لكم وتشجيعا) **وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ** (أما النصر فليس من أحد، إن هو) **إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**[10]. (وتذكروا) **إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ** (اطمئنانا بعون الله) **وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ** (كانت قريش قد استولت على منبع الماء فنزل المطر ففرج على المسلمين) **وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ**[11]. (واذكر يا محمد) **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا** (بالتبشير بالنصر وأني) **سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ، فَاضْرِبُوا** (الكفار) **فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**[12] (الأيدي والأرجل). **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** (كذبوا وخالفوا)، **وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**[13]. **ذَلِكُمْ** (القتل والضرب) **فَذُوقُوهُ** (أيها الكفار هنا في الدنيا)، **وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ**[14].

3- اتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا وحدهم بل تصيب الجميع!

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا (قتالا بالمواجهة) **فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ**[15] (لا تهربوا وتعطوهم ظهوركم)، **وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ، إِلَّا** (باستثناء أن يكون) **مُتَحَرِّفًا** (يرد إعادة الكر) **لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا** (أي يريد، بعد أن

وجد نفسه منفردا، الانضمام) **إِلَى فِئَةٍ** (من المقاتلين للعدو. إن من يول دبره ويهرب من المعركة من غير هؤلاء) **فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**16، (3)**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ** (من تلقاء أنفسكم) **وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ** (بتشجيعكم وتثبيت أفئدتكم). **وَمَا رَمَيْتَ** (يا محمد) **إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى** (4)، **وَلِيُبْلِيَ** (يجاهد) **الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**17؛ **ذَلِكُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ**18: **إِنْ تَسْتَفْتِحُوا** (إن كنم طلبتم النصر لكم أيها المشركون) **فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ** (جاء النصر لمن على هدى خلافا لما كنتم تتوقعون)، **وَإِنْ تَنْتَهُوا** (تتركوا الشرك) **فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَعُودُوا** (للقتال) **نَعُدْ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ، وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**19. **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ** (بمخالفة أمره) **وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ**20 (ما جرى يوم بدر)؛ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ**21 (لا يفهمون ولا يتعظون). **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ**22، **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ**23. **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ** (بالطاعة) **إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** (وهو الجهاد، وهو بمعنى "ولكم في القصاص حياة")، **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** (الله يأمر بالجهاد وبعض القلوب تفضل الاستكانة والراحة)، **وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**24. **وَاتَّقُوا فِتْنَةً، لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** (بل تصيب الجميع، الظالمين وغيرهم)، **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**25. **وَاذْكُرُوا** (أيها المهاجرون وكان منهم من شارك في النزاع على الغنيمة) **إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ** (في مكة)، **تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ** (المشركون لو خرجتم منها)، **فَآوَاكُمْ** (في المدينة) **وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ** (لكم بمبايعة الأنصار) **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**26. **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** (الخطاب للمتقاعسين عن الخروج إلى بدر) **لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**27. **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** (اختبار

---

3 – قيل هذا الوعيد، للفار من الحرب، خاص بيوم بدر لأن حياة الرسول كانت في الميزان، أما في الحروب الأخرى فلا وعيد في الهروب.

4– روي "أن رسول الله (ص) أخذ بيده قبضة من حصى الوادي، فرمى بها في وجوه القوم، فلم يبق مشركٌ إلاّ دخل عينيه منها شيءٌ، وكان ذلك سبب هزيمتهم، فقال الله تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى"، أيْ: إنّ كفّاً من حصى لا يملأ عيون ذلك الجيش الكثير برمية بَشر، ولكنّ الله تعالى تولّى إيصال ذلك إلى أبصارهم" (تفسير الواحدي).

لكم)، وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[28]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا (يفصل بينكم وبين ما تخافون من فقدان المال والولد)، وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[29].

4- التذكير بتآمر قريش للتخلص من النبي قبل الهجرة

و(تذكر يا محمد وذكر المسلمين) إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا (في مكة قبيل الهجرة فتداولوا في أمرك) لِيُثْبِتُوكَ (يوثقوك) أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ (من مكة)، وَيَمْكُرُونَ (يخططون لتصفيتك) وَيَمْكُرُ اللَّهُ (ويخطط الله لنصرتك) وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ[30] (خير من يخطط للمستقبل). وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ (على مشركي مكة) آَيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[31] (كما كان يقول النضر بن الحارث التي كان يقص قصص الفرس). وَإِذْ قَالُوا (مشركوا قريش) اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا (الذي يقوله محمدّ) هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ (كما أمطرتها على أمم سابقة) أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[32] (كالزلازل الخ). (ويأتي الجواب موجا إلى الرسول) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ (لم يرد الله إنزال صاعقة على قريش وأنت مقيم معهم في مكة)، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ (بصفة جماعية) وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[33] (أي وفيهم مسلمون). وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ (اليوم في بدر بعد هجرتك وهجرة المسلمين، خصوصا) وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (مدعين أنهم أولياءه)، وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ! إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[34]. وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً (صفيرا وتصفيقا، وكانت قريش يطوفون بالبيت عُراة يُصفرون ويصفقون، جعلوا ذلك صلاةً لهم، فكان تقرُّبهم إلى الله بالصفير والصفيق)، فَذُوقُوا الْعَذَابَ (ببدر) بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ[35]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ! فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ (وسينفقونها مرة أخرى وسيندمون أيضا لأن النصر سيكون للمسلمين). وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ[36] (يوم القيامة) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[37]. قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا (مشركي قريش) إِنْ يَنْتَهُوا (من الشرك وتوابعه) يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ (من معاص وذنوب)، وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ[38] (بنصر الأنبياء والرسل وهزيمة المكذبين). وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ

فِتْنَةٌ (ردة إلى الكفر) وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"[39]، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا (أيها المؤمنون) أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ، نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ"[40].

5- كيفية توزيع غنائم بدر وأخبار عن بعض وقائع المعركة

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا (أن ما) غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ (أخذتموه من الكفار بالقوة) فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ (الغنيمة تقسم على خمسة أقسام : قسم، الخمسُ منه لله وللرسول يصرفه كما يشاء، والأخماس الأربعة الباقية من هذا الخمس توزع على المذكورين بعده بالتساوي وهم) وَلِذِي الْقُرْبَى (قربى الرسول)، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ (المسافر المنقطع: لم يعد لديه ما يصرف على نفسه. أما الأربعة أخماس الباقية من الغنائم فهي للغانمين) (5)، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ (يوم بدر)، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[41]. (اذكروا) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا (بجانب الوادي شمالا) وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى (جنوبا، بقيادة أبي جهل) وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ (وقافلة أبي سفيان التجارية أسفل منكم جهة ساحل البحر)، وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ (معهم لتحديد يوم اللقاء للقتال) لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ (لتأخرتم فنقضتم الميعاد لكثرتهم وقلتكم)، وَلَكِنْ (جمعكم الله من غير ميعاد) لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ. وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ"[42]. إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ (يظهرهم) فِي مَنَامِكَ (جيشا) قَلِيلًا، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ (لجبنتم) وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[43]. وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ، إِذِ الْتَقَيْتُمْ، فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا، وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ"[44]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[45]. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[46]. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ (مع

---

5 - بعبارة أخرى أربعة أخماس الغنيمة للغانمين المحاربين، والخمس الباقي : خمسه للرسول وأربعة أخماسه لله (في سبيل الله) أي للمذكورين: ذوي القربى الخ. واختلفوا حول العلاقة بين هذه الآية والآية الأولى (مقدمة السورة)، قال بعضهم هذه نسخت تلك، وقال آخرون العكس، ومنهم من ادعى أن هذه نزلت قبل تلك، إلى غير ذلك من الخلافات الفقهية (انظر القرطبي)

جيش قريش) **بَطَرًا** (مظهرين القوة والنعمة) **وَرِئَاءَ النَّاسِ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**[47]، و (هم متبخترون) **إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ** (زعيم من قبيلة أخرى كانت قريش تخاف أن تنضم إلى الرسول) **أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ** (مناصر لكم) **لَكُمْ! فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ** (جيش قريش وجند المسلمين) **نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ** (خاف وتراجع) **وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ! إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**[48] (6). **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** (حسد) (7) **غَرَّ هَؤُلَاءِ** (المسلمين) **دِينُهُمْ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**[49]. **وَلَوْ تَرَى** (يا محمد) **إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ** (= حين كان الملائكة ينزعون أرواح قتلى المشركين في بدر كان هؤلاء) **يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ** (إذا اتجهوا نحو المسلمين) **وَأَدْبَارَهُمْ** (إذا اتجهوا نحو المشركين) و(يقول لهم الملائكة) **ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** [50] (يوم القيامة في جهنم). **ذَلِكَ** (العذاب) **بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**[51]. (عادتهم في التكذيب) **كَدَأْبِ** (كعادة) **آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ: كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ**[52]. **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ** (على قريش : "أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف") **حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** (كفروا بهذه النعم وكذبوا رسوله)، **وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**[53]: (كذلك حالهم) **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ**[54]. **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**[55]. **الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ**

6- قيل : لما قررت قريش السير لقتال المسلمين رغم وصول خبر نجاة قافلتهم إذ سلك بها أبو سفيان طريقا آخر، "خافت كنانة وبني مدلج لطوائل كانت بينهم، فتبدّى لهم إبليس "في جنده" على صورة سُراقة بن مالك بن جعشم الكناني ثمّ المدلجي، فقالوا له: نحنُ نريد قتال هذا الرّجل (الرسول)، ونخاف من قومك، فقال لهم: أنا جارٌ لكم، أيْ: حافظٌ من قومي، فلا غالب لكم اليوم من النّاس "فلما تراءت الفئتان" التقى الجمعان "نكص على عقبيه" رجع موليا، فقيل له: يا سراقة، أفراراً من غير قتال؟! فقال: "إني أرى ما لا ترون" وذلك أنّه رأى جبريل مع الملائكة جاؤوا لنصر المؤمنين "إني أخاف الله" أن يهلكني فيمن يهلك.

7- قيل: "هم قومٌ أسلموا بمكة ولم يهاجروا، فلمّا خرجت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم، وقالوا: تكون مع أكثر الفئتين، فلمّا رأوا قلّة المسلمين قالوا: "غرّ هؤلاء دينهم" إذ خرجوا مع قلّتهم يقاتلون الجمع الكثير، ثمّ قُتلوا جميعاً مع المشركين".

مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ[56]. فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ[57]، (أعراب خارج المدينة : انظر مقدمة الكتاب)؟

6- وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...

وَإِمَّا تَخَافَنَّ (تعلمن) مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ (أعلمهم أنك نقضت عهدهم لئلا يتوهموا منك الغدر)، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ[58]. وَلَا يَحْسَبَنَّ [(8)] الَّذِينَ كَفَرُوا (ونجوا من القتل في بدر أنهم) سَبَقُوا (أي أفلتوا منا نهائيا) إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ[59] (لا يعجزونا، بل سيأتي دورهم)، وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ (وهم المشركون) وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ (وهم المنافقون) لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ[60] (لا ينقص من حقكم لا في الدنيا ولا في الآخرة). وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ (للصلح) فَاجْنَحْ لَهَا[(9)] (كما سيحدث في الحديبية) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[61]. وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ (بالدعوة إلى السلم لتكف عنهم) فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ (الذي تولى كفايتك يوم بدر)، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ[62] وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[63]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[64]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ: إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ[65] (إنكم في حالة التعبئة والصبر يغلب الواحد منكم عشرة منهم). الْآنَ (وأنتم في حالة ضعف بعد الحرب) خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ، وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ

8- في قراءة أخرى : "ولا تحسبن"، أي الخطاب إلى الرسول...

9- قال كثير من المفسرين إن هذه الآية نسخت بقوله تعالى "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله" (التوبة 29). وهذا شطط فظروف غزوة بدر غير الظروف التي نزلت فيها سورة التوبة وهي آخر سورة نزلت. وإذا كنا سنلغي ظروف نزول الآيات ومن تتحدث عنهم ومقتضى الحال الخ، فما الحكمة إذن من نزول القرآن منجما وما الفائدة من الأخذ بهذه الحقيقة، إذا كنا سنفهمه انطلاقا من آخر سورة فيه؟ نحن نرى أنه لو كان الأمر كذلك لحذف الرسول حين مراجعته للقرآن جميع الآيات التي يعتبرونها منسوخة. نعم يقولون النسخ هنا للحكم وليس للتلاوة، وإذن فنحن نقرأ قرآنا منسوخة كثيرة من أحكامه، فما الفرق بينه وبين التوراة التي نسخ الله كثيرا من أحكامها. انظر الاستطراد السابق.

يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ (في حالة الضعف هذه الواحد منكم يغلب اثنين منهم)، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ"66. مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ(10)، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"67. لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ (وقرر أن الغنائم حلال لكم) لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"68، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"69. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى: إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا (أي الرغبة في الإسلام) يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ (كفداء) وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"70. وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ (بإعلانهم أنهم يؤمنون بأنك رسول الله) فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ (قبل بدر)، فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ (يوم بدر، وسيمكن منهم بعده) وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"71. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا، أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ؛ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"72. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ (إن لم تعملوا بما تقدم) تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ"73 (11).

10- قيل: " نزلت في فداء أسرى بدر، فادوهم بأربعة آلاف ألف، فأنكر الله عزّ وجلّ على نبيه صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: لم يكن لنبيٍ أن يحبس كافراً، قَدَر عليه، للفداء، فلا يكون له أيضاً أسرى حتى يُثخن في الأرض: يخوض المعركة ويكون هناك قتلى وينتصر. أما الاحتفاظ بالأسرى من أجل الحصول على ثمن فدائهم فهذا لا يجوز. فالهدف من الجهاد قتال الأعداء الذين يقاتلونكم ومن بقي منهم مستسلما فهؤلاء هم الأسرى، ولا يجوز قتلهم. وفيهم يكون الفداء بالمال. وما المال إلا عرض الدنيا". "والله يريد الآخرة"، يريدكم مجاهدين ولكم الجنة.

11- قالوا هذه الآية نزلت في الميراث: "كانوا في ابتداء الإسلام يتوارثون بالهجرة والنصرة، فكان الرّجل يُسلم ولا يهاجر، فلا يرث أخاه فذلك قوله: "الذين آمنوا وهاجروا هجروا قومهم وديارهم وأموالهم "والذين آووا ونصروا" يعني: الأنصار، أسكنوا المهاجرين ديارهم ونصروهم "أولئك بعضهم أولياء بعض" أيْ: هؤلاء هم الذين يتوارثون بعضهم من بعض. "والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء" أيْ: ليسوا بأولياء، ولا يثبت التوارث بينكم وبينهم "حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين" يعني: هؤلاء الذين لم يهاجروا فلا تخذلوهم وانصروهم "إلاّ" أن يستنصروكم "على قوم بينكم وبينهم ميثاق" عهدٌ فلا تغدروا ولا تعاونوهم."والذين كفروا بعضهم أولياء بعض" أيْ: لا توارث بينكم وبينهم، ولا ولاية، والكافر وليُّ الكافر دون المسلم "إلاّ تفعلوه" إلاّ تعاونوا وتناصروا وتأخذوا في

7- خاتمة: المهاجرون والأنصار، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا".

وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[74]. وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ (بعد هجرة النبي) وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ[12] فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[75].

- تعليق

يدور الكلام في هذه السورة حول غزوة بدر، كما ذكرنا في التقديم، وقد قسمنا الخطاب فيها إلى سبع فقرات رئيسية :

1- تبدأ الفقرة الأولى، وهي المقدمة، بطرح مسألة غنائم هذه الغزوة طرحا مباشرا، وفي شبه استعجال: سؤال واضح وجواب واضح حاسم: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ" (لمن هي)؟ لقد بدأت السورة بآخر ما حدث في مسار هذه الغزوة وهو تنازع جيش الرسول حول الغنائم: كل فريق يرى أنها له وحده، أو على الأقل له حق فيها. فجاء الجواب ليضع حدا للنزاع أولا: "قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ"؟ بمعنى أن الرسول المبعوث من الله هو الذي يضعها حيث يشاء"، وبالتالي فالفصل فيها ليس من شأنكم. أما أنتم فما عليكم إلا اتقاء ما يغضب الله، وتنفيذ أوامره، ولا تنازعوا، وتراجعوا عما بدر منكم من فرقة وصراع، وعودوا كما يجب أن تكونوا: إخوانا مطيعين الله والرسول إن كنتم فعلا مؤمنين بالله والرسول. ثم تأخذ السورة في تذكيرهم بخصال المؤمن : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[3]، هؤلاء هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[4].

الميراث بما أمرتكم به "تكن فتنة في الأرض" شركٌ "وفساد كبير" وذلك أنَّ المسلم إذا هجر قريبه الكافر كان ذلك أدعى إلى الإسلام، فإن لم يهجره وتوارثه بقي الكافر على كفره، وقوله: "والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً" أيْ: هم الذين حققوا إيمانهم بما يقتضيه من الهجرة والنصرة خلاف من أقام بدار الشرك.

12 – قرابة النسب أولى من أية رابطة أخرى. قيل كان الرجل يعاقد الرجل يقول: ترثني وأرثك فلما نزلت ترك ذلك.

2- وخلافا لما فكر فيه بعض الفقهاء المفسرين فإن الخطوة الثانية لن تكون -كما يميل إليه اختصاصهم هو تفصيل القول في الحكم الذي سينزل في الغنائم وهو ما يشغل بالهم- بل ستواصل توجيه اهتمام مخاطبيها إلى ما هو أهم على مستوى الدعوة والصراع مع المشركين. وهكذا تتجه إلى الرسول (والخطاب في الحقيقة إلى هؤلاء المقاتلين الذين تنازعوا حول الغنيمة في أول معركة تحقق فيها الدعوة نصرا كبيرا) تذكرهم بجوانب الضعف الذي برزت لدي بعضهم عندما دعاهم الرسول للخروج إلى اعتراض قافلة أبي سفيان، فأخذوا يتساءلون هل سنخرج لاعتراض القافلة وسلب ما تحمله من أموال أم أن الأمر يتعلق بخوض معركة مع المشركين. تركهم الرسول يتناقشون ويتجادلون ودخل بيته ليخرج منها لابسا سلاحه، إيذانا بأن الخروج سيكون لقتال المشركين وليس لسلب القافلة. ولما رأوا ذلك استثقل بعضهم الخروج "كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ"[6]، فأخذوا يستغيثون بالله يطلبون العون والنصر. هنا تذكرهم السورة بأن الله قد أغاثهم فعلا فأرسل مطرا أنقذهم من عطش، وملائكة يثبتون أقدامكم، بينما جعل الرعب يتسرب إلى العدو عندما رأى جنوده أن المطر قد حول الأرض التي نزلوا عليها إلى وحل يعوق الحركة مما سيهل على المسلمين الإجهاز عليهم وإشباعهم قتلا جزاء لهم في الدنيا على إعراضهم وانشقاقهم عن المؤمنين بالله ورسوله، أما في الآخرة فمصيرهم عذاب جهنم.

3- ثم تنتقل السورة في الفقرة الثالثة إلى بيان السلوك الذي يجب أن يكون عليه المسلمون عند خوض المعارك مع العدو، فتؤكد على ضرورة مواجهة العدو صفا واحدا مرصوصا وتوصيهم بضرورة الثبات في وجهه وعدم ترك المواجهة إلا إذا تعلق الأمر باصطناع الفر من أجل الكر، أوالانتقال إلى فئة أخرى من المقاتلين المسلمين، أما في غير هذه الحال وتلك فإن مغادرة صف المقاتلين والفرار من القتال لن يستفيد منه الفار منه شيئا، وإنما سيعود بغضب من الله وستكون جهنم مأواه الوحيد يوم القيامة. ثم تؤكد السورة لأهل بدر المتنازعين الذين يدعي كل فريق منهم أن الفضل في النصر والغنائم يرجع له وحده، أن الحقيقية هي أن الله هو الذي حقق النصر لهم بتثبيت أقدامهم وإفشال كيد أعدائهم. ولكي يكون الخطاب عاما ومقنعا اتجهت السورة إلى الرسول نفسه "وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى". ثم تعود إلى الكافرين لتقول لهم إنكم إن كنتم قد أصررتم على المجيء إلى بدر متأكدين من النصر راغبين في إظهار قوتكم وإعلاء شأنكم، فقد جاء النصر فعلا، ولكن لا لكم بل للمؤمنين. فإن انتهيتم وآمنتم فذلك خير لكم "وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ".

وتتجه السورة في الفقرة نفسها إلى المؤمنين بخطاب فيه توجيه وعتاب: لا تخالفوا أمر الرسول، "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ"[21]، أولئك الذين تخلفوا عن الخروج معكم إلى بدر، وحسنا فعلوا لأنه لا خير فيهم، لأنهم لو خرجوا لما صبروا، وهربوا وأفسدوا عليكم أمركم. إن الواجب على الكافة إذا دعاكم الرسول لقتال أعدائكم هو الاستجابة التامة من الجميع، ولا يظنن أحد أنه إن تخلف سينجو بنفسه ضرورة، ذلك لأن تخلفه قد يحدث فتنة، وإذا حدثت فتنة فهي ستصيب الجميع بما في ذلك من أحدثوها. وتواصل السورة خطابها التوجيهي قائلة: إذا كان المتخلفون قد اعتذروا من الخروج إلى المعركة خوفا على زوجاتهم وأولادهم وأموالهم فليعلموا أن الأولاد والأموال يتحولون في هذه الحالة إلى فتنة، تفتن الرجل وتصرفه عن أداء الواجب فتكون العاقبة أسوأ.

4- وتعود السورة إلى مخاطبة النبي عليه السلام مرة أخرى لتذكر أصحابه بما لقيه من قومه وكيف أنه صبر حتى انتصر. وهكذا تذكهم بالمؤامرة التي خطط لها زعماء قريش في مكة -وفي مقدمتهم أبو جهل- المؤامرة التي عقدوا العزم فيها على التخلص منه إما بقتله وإما بنفيه من مكة الخ، فأسد الله خطتهم؟ كما تذكرهم بتحدي القرآن لمشركي قريش بأن يأتوا بسورة واحدة من القرآن إثباتا لصحة زعمهم أنه إنما يأتي بهذا القرآن من عنده وأنه يستعين في ذك ببعض الموالي من أهل الكتاب وأنه إنما يحكي فيه أساطير الأولين، فطالبوه بمعجزات تخرق العادة لكي يصدقوه أو يرسل عليهم صواعق كما ذكر أن الله فعل ذلك مع الأمم الماضية! ويأتي الجواب بأن الله ما كان ليرسل الصواعق على أهل مكة وبينهم الرسول وأصحابه المؤمنون! أيقتل رسوله والمؤمنين به استجابة لتحد أخرق مثل هذا؟ إذا كانوا قد طلبوا العذاب في الدنيا قبل الآخرة تحديا، فها هو العذاب قد أتاهم يوم بدر، وهم يستحقونه جزاء لهم على منعهم المسلمين من المسجد الحرام مدعين أنهم أولياؤه. وما هم بأوليائه، وما كانت صلاتهم فيه بصلاة، وإنما صفيق وصفير، كانت مجرد ضجيج. لقد أنفقوا أمواله بسخاء ليوم بدر آملين أن ينتصروا فيستمرون في احتكارهم للمسجد الحرام! دعهم ينفقونها فالنتيجة ستكون الهزيمة، وسيكون مصيرهم جهنم يوم القيامة. فإذا رجعوا عن غيهم قبل فوات الأوان فإن الله سيغفر لهم، وإن هم عادوا (بعد هزيمته في بدر) فإن مصيرهم يكون كمصير الأمم الماضية الذين أصروا على معاندة رسلهم. وفي هذه الحالة فالواجب قتالهم حتى لا يتسببوا في فتن أخرى، فإن انتهوا فذاك وإن لم ينتهوا فَإِنِ الله سينصركم عليهم و"نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ"[40].

5- وتنتقل السورة في الفقرة الخامسة إلى الحديث عن المعركة وما جرى فيها فبدأت بمسألة الغنائم وبينت كيفية توزيعها. لتنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن ما جريات المعركة.

- أما الغنائم، وهي "ما أخذه المسلمون من عدوهم بالقوة خلال معركة فيها قتال وقتلى"، فيجب أن تقسم على خمسة: قسم، الخمسُ منه لله وللرسول، ويبقى تحت تصرف الرسول. والأخماس الأربعة الباقية من هذا الخمس توزع على ذِوِي الْقُرْبَى (قربى الرسول وكانوا مهاجرين، منهم محتاجون) وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ (المسافر المنقطع: الذي لم يعد لديه ما يصرف على نفسه). والأقسام الأربعة الباقية من الغنائم فهي للغانمين [13].

- وأما الكيفية التي جرت بها المعركة والعِبَر التي يجب استخلاصها منها فقد ذكّرت السورة جند النبي بأنهم نزلوا بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا (بجانب الوادي شمالا)، ونزل جيش المشركين بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى (جنوبا)، بينما قافلة أبي سفيان التجارية أسفل منهم جهة ساحل البحر. وهكذا وجدوا أنفسكم في وضعية ممتازة وكأنهم قد رتبوا موعد اللقاء ومكانه. وتخاطبهم الآية: ولكن لو كنتم أنتم الذين رتبتم الموعد لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ونقضتموه لأنكم ستلاحظون أنهم أكثر منكم عددا وعدة. وَلَكِنْ الله جمعكم من غير ميعاد لـ"يَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ". هنا ذكرت السورة النبي عليه السلام بما رآه في المنام من أن جيش العدو كان أقل عددا من جنده، وقد فعل ذلك لأنه "لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ (لجبنتم) وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ". واستمرت الصورة التي رآها الرسول في المنام راسخة في أذهان جنده، يرون عدوهم أقل عددا منهم "لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا" أي كي تتشجعوا وتنتصروا. ثم تخاطبهم السورة لتبين لهم المقصود

---

13 -اختلفوا حول العلاقة بين هذه الآية والآية الأولى (مقدمة السورة)، قال بعضهم هذه نسخت تلك، وقال آخرون العكس، ومنهم من ادعى أن هذه نزلت قبل تلك الخ. والواقع أنه لا تناقض ولا لبس بين الآيتين، فالأولى نزلت لمواجهة النزاع الذي نشب بين فئات جيش بدر بمجرد انتهاء المعركة وفرار من بقي من جيش المشركين، فحصنت المغانم بأن أخبرت أنها لله والرسول ابتداء وأسكتت الجميع. أما الثانية فقد جاءت لتفصيل كيفية توزيعها بعد أن عاتبت الفئات المتنازعة وأكدت على خلق المؤمنين الخ. ثم أضافت بأن هذا هو ما أنزل الله على الرسول "يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ" (يوم بدر)، الشيء الذي يعني أن هذا الذي بينته هذه الآية الثانية هو تفصيل لما في الآية الأولى. وهذا يفهم منه أن الآية الأولى نزلت في بدر لجعل حد للنزاع، وأن الآية الثانية نزلت بعد ذلك عند رجوع الرسول إلى المدينة.

من تلك الرؤيا المنامية ومن ترسيخها في أذهانهم، يقول تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[45]. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[46]. ثم توصيهم بتجنب الرياء والبطر، كما فعل عدوهم عندما خرج متبخترا، ليعود منهزما هاربا بعد أن قتل كبار قادته وجنده. وكان المنافقون والذين ينتظرون هزيمة المسلمين من اليهود وغيرهم يقولون عندما خرج المسلمون للحرب :"غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ" فأبى الله إلا أن يلحق بالمتبخترين وحلفائهم هزيمة نكراء، فانقلب استقواؤهم بمالهم ورجالهم إلى حالة من الضعف والذل: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ (على قريش : "أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف") حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" (كفروا بهذه النعم وكذبوا رسوله). وتضيف السورة: وأما الذين تعاهدتم معهم، والمقصود أعراب المدينة و"الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ"، فلا ترأف بهم إن تمكنتم منهم في الحرب. أما الذين يضمرون الخداع والخيانة (كاليهود) ويظهرون المسالمة، ويربطكم بهم عهد وميثاق فإذا شعرت أو علمت بخيانة يدبرونها فلا تنقض عهدك معهم وتدخل معهم في حرب حتى تخبرهم بذلك لئلا يتهموك بالغدر.

6- وأما مشركو مكة الذين انهزموا في بدر وفروا إلى أهليهم يظنون أنهم نجوا من القتل فلا تحسبن أيها المؤمنون أنهم قد أفلتوا نهائيا كلا، إنهم لا يعجزوننا، وسيأتي دورهم. ومن الآن استعدوا لهم، "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ" هؤلاء وآخرين (كالأعراب واليهود والمنافقين)، كي يستكينوا ويعرفوا أنهم سيهزمون. ولا تبخلوا بالنفقة على هذا الاستعداد فالله سيعوضكم بأكثر مما أنفقتم، هذا فضلا عن كون الاستعداد التام سيمنعكم من أن يظلموكم ويهاجموكم. أما إن مالوا إلى السلم وطلبوا الصلح فما لكم إلا أن تستجيبوا لهذا الطلب : "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ (للصلح) فَاجْنَحْ لَهَا" (14) (كما سيحدث

14- قال كثير من المفسرين إن هذه الآية نسخت بقوله تعالى "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله" (التوبة 29). وهذا شطط في القول، فظروف غزوة بدر غير الظروف التي نزلت فيها سورة التوبة وهي آخر سورة نزلت. وإذا كنا سنلغي ظروف نزول الآيات ومن تتحدث عنهم ومقتضى الحال الخ، فما الحكمة إذن من نزول القرآن منجما؟ وما الفائدة من الأخذ بهذه الحقيقة إذا كنا سنفهم القرآن انطلاقا من آخر سورة فيه؟ وقد أورد الطبري رأي بعض الذين قالوا بذلك وعقب عليه، قال : "عن قتادة، قوله: وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ إلى الصلح فَاجْنَحْ لَهَا قال: وكانت هذه قبل براءة، كان نبيّ الله (ص) يوادع القوم إلى أجل، فإما أن يسلموا=

في الحديبية) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[61]. وَإِنْ قصدوا بالدعوة إلى السلم أن يخدعوك فالله الذي تولى كفايتك ونصرك يوم بدر، هو حسبك. ومع أن الله هو الذي جمع قلوب المؤمنين وألف بينهم لغزوة بدر فإن هذا لا يعفيك من مواصلة تعبئة نفوسهم. وليعلموا أن عشرين معبئين صابرين "يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ"، ومع أنكم الآن في حالة ضعف بسبب أنه لم يمر بعد وقت كاف على وقعة بدر لاسترجاع قوتكم : "فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ (بدل عشرين) يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ".

بعد هذا تنتقل السورة إلى الحديث عن أسرى بدر لتعاتب جند المسلمين على لجوئهم إلى المبالغة في فديتهم. ذلك أنه "مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى

وإما أن يقاتلوا، ثم نسخ ذلك بعدُ في براءة فقال: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وقال: قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وأمره بقتالهم حتى يقولوا لا إله إلا الله ويسلموا، وأن لا يقبل منهم إلا ذلك، وكل عهد كان في هذه السورة وفي غيرها، وكل صلح يصالح به المسلمون المشركين يتوادعون به فإن براءة جاءت بنسخ ذلك، فأمر بقتالهم على كل حال حتى يقولوا: لا إله إلا الله". وقد عقب الطبري على ذلك فقال: "فأما ما قاله قتادة ومن قال مثل قوله من أن هذه الآية منسوخة، فقول لا دلالة عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل. وقد دللنا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره على أن الناسخ لا يكون إلا ما نفي حكم المنسوخ من كل وجه، فأما ما كان بخلاف ذلك فغير كائن ناسخا. وقول الله في براءة: "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" غير ناف حكمُه حكمَ قوله: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا" لأن قوله: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ إنَّمَا عُني به بنو قريظة"، وكانوا يهودا أهل كتاب، وقد أذن الله جل ثناؤه للمؤمنين بصلح أهل الكتاب ومتاركتهم الحرب على أخذ الجزية منهم. وأما قوله: "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" فإنما عني به مشركو العرب من عبدة الأوثان الذين لا يجوز قبول الجزية منهم، فليس في إحدى الآيتين نفي حكم الأخرى، بل كل واحدة منهما محكمة فيما أنزلت فيه". قلت (=الجابري) : هذا الرد مع قوته الظاهرة ضعيف على مستوى السياق، فالخطاب في الآية صريح في أنه يخص مشركي مكة الذين فروا من معركة بدر، والضمير في "أعدوا لهم" الخ يعود عليهم أساسا، وإن كان ذلك لا يمنع من أن يدخل في قوله تعالى "وآخرين" كل من اليهود والأعراب والمنافقين كما ذكرنا في الشرح. وإذا كان الطبري يرى أن قوله تعالى: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ إنَّمَا عُني به بنو قريظة"، وهو غير ظاهر فالأظهر منه هو صلح الحديبية الذي باركه الله في آيات صريحة واضحة. ولاشك أن دخول النبي عليه السلام في مفاوضات الصلح مع مشركي مكة في الحديبية هو استجابة مباشرة لقوله تعالى: ""وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا". وواضح أن نزول "آيات القتال" في سورة التوبة بعد عامين من "صلح الحديبية" لا ينسخ الأمر للنبي بالجنوح إلى السلم فيه، ولم يعاتبه عليه بل باركه في حينه. أما ما نزل في الظروف التي نزلت فيها سورة التوبة فشيء آخر: وضع آخر وظروف أخرى كما سنبين في حينه.

حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ[15]، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ". ثم أخبرهم أنه سامحهم هذه المرة، وقرر أن يجعل الغنائم حلالا لهم، وطلب من النبي أن يتوجه إلى الأسرى الذين أخذ منهم الفداء ليخيرهم : فإن اختاروا الإسلام عن صدق أتاهم الله خيرا مما أُخِذ منهم وغفر لهم ما تقدم. وإن هم أضمروا الخيانة فكما أمكن الله منهم في معركة بدر سيمكن منهم المسلمين في المستقبل [16].

وبما أن الأسرى الذين اختاروا الإسلام عن صدق قد يفضلون –أو يفضل بعضهم– العودة إلى مكة للإقامة مسلمين غير مهاجرين فإن وضعهم لن يكون في مستوى وضع المسلمين الذين هاجروا وأصبحوا إخوانا للذين نصروه من أهل المدينة بمقتضى المؤاخاة التي أقامها الرسول بينهم والتي بموجبها كانوا يتوارثون : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا، أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [17]، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ (إن لم تعملوا بما تقدم) تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ"[73].

15– قيل: ' نزلت في فداء أسرى بدر، فادوهم بأربعة آلاف ألف، فأنكر الله عزّ وجلّ على نبيّه صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: لم يكن لنبيٍ أن يحبس مقاتلين أعداء، قَدَر عليهم، من أجل أخذ الفداء منهم بوصفهم أسرى. فالفداء لا يكون إلا بعد أن يُثخن في الأرض: يخوض المعركة ويكون هناك قتلى وينتصر، وما بقي ولم يتمكنوا من الإفلات، هم الأسرى. أما أخذ أفراد العدو من دون ذلك، ومن أجل الحصول على ثمن فدائهم، فهذا لا يجوز. فالهدف من الجهاد قتال الأعداء الذين يقاتلونكم ومن بقي منهم مستسلما فهؤلاء هم الأسرى، ولا يجوز قتلهم. وفيهم يكون الفداء بالمال. وما المال إلا عرض الدنيا". "والله يريد الآخرة"، يريدكم مجاهدين ولكم الجنة. قيل وكان ممن فدوا نفسهم العباس بن عبد المطلب عم النبي، وقد كان قد شارك في جيش قريش لأنه لم يكن قد أسلم بعد، انظر الهامش أسفله.

16 – روي أن المعيين هنا هم جماعة منهم العباس عم النبي وصحبه لم يكن قد آمن فبقي في مكة مع المشركين وخرج معهم يوم بدر فأسر ثم افتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب. قيل، قال العباس للنبي هو وجماعة من الأسرى أمثاله : "آمنا بما جئت به، ونشهد أنك لرسول الله، لننصحنَ لك على قومنا. قيل وفيهم نزل قوله تعالى: ": إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا" الآية. هذا وقد عاد العباس إلى تجارته بمكة وكان له مقام هناك. ويبدو أنه كان يزود النبي بأخبار قريش، وسنرى كيف أنه شارك في مفاوضة أبي سفيان على تسليم مكة للنبي يوم الفتح.

17 – جل المفسرين على أنهم "يتولى بعضهم بعضاً في الميراث".

7- وتأتي الخاتمة لتستعيد المقدمة في صورة جديدة. لقد افتتحت السورة بالفصل السريع الحاسم في مسألة الغنائم : "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ" (لمن هي)؟ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ (يضعها الرسول حيث يشاء)، ثم طالبت المتنازعين بطاعة الله والرسول وخاطبتهم : "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ". ثم بينت معنى الإيمان بعيدا عن التفكير في الغنائم فقالت: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[2]. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[3]، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا"، باعتبار؛ وجاءت الخاتمة لتضيف إلى ذلك أن المؤمنين حقا، هم باعتبار آخر، اعتبار تجربة غزوة بدر درجات: فـ "الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[74]". أما الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ (بعد هجرة النبي) وَهَاجَرُوا إلى المدينة ملتحقين بـ"المهاجرين والأنصار"، وَجَاهَدُوا معهم فَأُولَئِكَ مِنْهُمْ"، ولكنهم لا تنطبق عليه "المؤاخاة"، فلا يتوارثون معهم. وبالتالي فالتوارث بينهم يكون على أساس ما يلي: "وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ". هذا وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية نسخت نظام المؤاخاة، الذي أكدته الآية السابقة" بعضهم أولياء بعض"، وهذا لا يستقيم، فالموضوع واحد والسياق واحد، فكيف ينسخ كلام كلاما ورد قبله بقليل ضمن كلام طويل متصل. نحن نرى أن ها هنا وضعيتان: وضعية المهاجرين والأنصار الذي أقام الرسول بينهم نظام المؤاخاة وزكته الآية الأولى (72) بجعل "بعضهم أولياء بعض"، ووضعية الذين التحقوا بالمدينة بعد الهجرة" (الآية 75) وهؤلاء لم يدخلوا ولا يدخلون في نظام المؤاخاة، ولذلك فالمعتبر في توارثهم هو الأرحام؛ قرابة النسب.

94- سورة آل عمران

تقديم

قال ابن عاشور: "ووجه تسميتها بسورة "آل عمران" أنّها ذُكرت فيها فضائل آل عمران، وهو عمران بن ماتان أبو مريم، وآله هم زوجه حنة وأختها زوجة زكرياء النبي. وزكرياء كافل مريم، إذ كان أبوها عمران توفي وتركها حمْلا فكفلها زوج خالتها".

وذكر ابن إسحاق أن وفدا من كبار نصارى نجران قدم إلى المدينة ليتعرفوا عن كثب على موقف الإسلام من "عيسى"، وكانوا من المعتقدين بألوهيته: "يحتجون في قولهم: إنه وَلَدُ الله بكونه لا أب له يُعلم، وقد تكلم في المهد، وهذا لم يصنعه أحد من وُلد آدم قبله، ويحتجون في قولهم: "إنه ثالثُ ثلاثة" بقول الله: فَعَلْنا، وأمرْنا، وخلقْنا، وقَضَيْنا، فيقولون: لو كان (الله) واحداً ما قال إلا فعلتُ، وقضيتُ، وأمرتُ، وخلقتُ ولكنه هو وعيسى ومريم". ولما دخل الوفد على النبي (ص) في المسجد كلمه بعض رؤسائهم فدعاهم الرسول إلى الإسلام فقالا: "قد أسلمنا قبلك". فرد عليهما: "كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما (ادعاؤكما أن) للّه ولداً ... "قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهما. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم كله، صدر سورة آل عمران، إلى بضع وثمانين آية". (قلت: 123آية".

أما سنة نزولها فالغالب أنها نزلت بعد سورة الأنفال في شوال من السنة الثالثة للهجرة يؤيد ذلك إشارتها إلى غزو بدر التي وقعت في السنة الثانية وتخصيصها القسم الثاني منها لغزوة أُحُد التي جرت في السنة الثالثة للهجرة. وفيما يلي أهم وقائع هذه الغزوة التي لابد من استحضارها لمتابعة هذا القسم من السورة.

وقعت غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة، وذلك أن قريشا أرادت أن تنتقم لقتلاها في معركة بدر، فاجتمع بقية كبرائها بزعامة أبي سفيان، بعد أن نجح في العودة إلى مكة بقافلة قريش التجارية سالمة، فجهزوا جيشا بقيادته في نحو ثلاثة آلاف

رجل. وسار نحو المدينة ونزل في مكان قريب منها يسمى "ذو الحليفة". وكان خبر هذا الجيش قد وصل إلى الرسول فجمع أصحابه وتداول الأمر معهم فكان منهم من اقترح البقاء في المدينة حتى إذا دخل جيش قريش أزقتها هاجمه المسلمون من كل جانب، وكان ممن ارتأى عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي "رئيس" المنافقين، بينما قال آخرون بضرورة الخروج لقتال جيش قريش. وقد غض النبي الطرف عن الاقتراح الأول واختار الخروج فجند المقاتلين وسار بهم. ثم ما لبث عبد الله بن أبي بن سلول أن رجع إلى المدينة في ثلاثمائة من أصحابه وقال: "عصاني (الرسول) وأطاع الوِلْدان! فعلام نقتل أنفسنا"؟ وفي الوقت نفسه، همَّت طائفتان من المؤمنين أن ترجعا، لكن ثبتتا في نهاية الأمر. واحتدم القتال وقتل حَمَلَةُ اللواء من المشركين، ولم يقدر أحدٌ على الدنو منه، فتراجعوا وهربوا، فتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب. فلما رأى ذلك فريق الرماة الذين وضعهم الرسول فوق الجبل لحماية ظهر المسلمين نزل معظمهم واتجهوا نحو الغنائم. ولما رأى خالدُ بن الوليد، ـ وكان أحد رؤساء جيش المشركين ولم يكن قد أسلم بعدـ خُلُوَّ الجبل من الرماة، انطلق ببعض الجيش، فقتل من ثبت من رماة المسلمين هناك وهاجم من الخلف المنهمكين في النهب وجمع الغنائم، فأصابهم الذعر حتى صاروا يضربون بعضُهم بعضاً. أما الرسول فقد ثبت في مكانه وحوله جماعة من الرماة مكلفين بحمايته، واجهوا بشجاعة ضربات رماة المشركين. خرج الرسول عليه السلام ناجيا بعد أن كان قد سقط في حفرة فخدشت ركبتاه وأصابته ضربات بعض جند قريش فتكسرت رباعيته وشج وجهه وجرحت وجنتاه، ثم تكسرت ثنيتاه، وفقد المسلمون نحو سبعين قتيلا. وعندما رأى أبو سفيان أنه أخذ الثأر لقتلى قريش يوم بدر، صاح بأعلى صوته "الحربَ سِجالٌ"، وموعدكم بدر العام المقبل". ثم رجع هو وجيشه إلى مكة.

– نص السورة

1– مقدمة : نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ... وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم[1]. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (ليس معه غيره شريك في أمره: رد على ادعاءات وفد نجران)، الْحَيُّ الْقَيُّومُ[2] (الحي الذي لا يموت، وقد مات عيسى. والقيوم القائم بسلطانه في خلقه لا يزول وقد زال عيسى في قولهم عن مكانه

الذي كان به وذهب إلى غيره)؛ نَزَّلَ عَلَيْكَ (يا محمد) الْكِتَابَ بِالْحَقِّ (بالصدق) مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ[3] مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ (القرآن: يفرق بين الحق والباطل فيما اختلف فيه اليهود والنصارى). إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ[4].

2- ... مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ[5]. هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ (بما في ذلك عيسى، فكيف يكون إلها؟)، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[6]. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ (واضحات لا لبس فيها) هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ (أساس العقيدة وثوابتها)، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ (بينهن تشابه يثير ظاهرهن اللبس لتغير دلالتهن) [(1)]، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ (ميل عن الحق: وهم النصارى) فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ (في أمر عيسى) ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ (تشكيك الناس في عقيدتهم) وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ (صرف معناه إلى غير ما وضع له)، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ (صرف معناه إلى حقيقته) إِلَّا اللَّهُ (فهو الذي يبينه للناس) وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ (في المعرفة اللغوية والدينية)[2]، يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ (بالكتاب/القرآن) : كلٌّ (من المحكم والمتشابه جاء) مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ (يتفهم هذا) إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ[7] (أصحاب العقول الفاحصة، الذين يقولون:) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا (لا تتركها تنساق مع الخطأ) بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً (معرفة سديدة)، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ[8]. رَبَّنَا (نحن نؤمن ونقول) إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ (يوم القيامة)، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ[9] (الذي فيه الجزاء الذي تتحدد به مصائر الناس). (وهذه المصائر كما يلي:)

3- تذكير يهود المدينة بهزيمة المشركين في بدر...

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (المقصود هنا هو يهود المدينة) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ[10]. (حالهم) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ[11]. قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ[12]. قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ

---

1 – سنعقد استطرادا خاصا لمسألة "المحكم والمتشابه" بعد نهاية حديثنا عن هذه السورة.

2 – جل المفسرين من أهل السنة يفهمون قوله "وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ" على أن استئناف، أما المعتزلة فيقولون بالعطف وقد رجحنا العطف لاعتبارات سنشرحها بعد.

فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا (يوم بدر) : فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأُخْرَى كَافِرَةٌ : (الأولى هم المسلمون) يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ (يرون عدوهم مشركي قريش ضعفيهم ومع ذلك انتصروا عليهم)، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ[13] (لذوي العقول الذين يستخلصون النتائج مما يرون). زُيِّنَ لِلنَّاسِ (لليهود) حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ[14] (المصير الأفضل: الجنة). قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ (يا يهود المدينة) بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ: (إنه ما أعددناه) لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ[15]. الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ[16]: الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ[17] (في الليل).

4- إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ؛ واختلاف أهل الْكِتَابَ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ.

شَهِدَ اللَّهُ (بيّن وأظهر بما نصب من الأدلّة على وحدانيته) أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ (من أنبياء وعلماء أقروا هم أيضا بوحدانيته وبكونه يتصرف) قَائِمًا بِالْقِسْطِ (بالعدل) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[18]. إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (الذي جاء به محمد وهو دين إبراهيم وذريته)؛ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (من يهود ونصارى وهم من ذرية إبراهيم) إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ (أي التوراة والإنجيل) بَغْيًا بَيْنَهُمْ (حسدا لبعضهم بعضا)، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[19]. فَإِنْ حَاجُّوكَ (إن جادلوك يا محمد) فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ (كذلك أسلموا وجهه لله). وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (اليهود والنصارى) وَالْأُمِّيِّينَ (وهم العرب لأنهم لم يأتهم كتاب من قبل) أَأَسْلَمْتُمْ (استفهام بمعنى الأمر: أسلموا)؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ[20] (يعلم من أسلم وصدق ومن لم يفعل). إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ (دلائله وحججه)، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ (اليهود)، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ (وهم الذين استنكروا قتل أولئك الأنبياء)، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[21]. أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[22]. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ (يهود المدينة) يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ (إلى الرسول والقرآن) لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ

مُعْرِضُونَ[23] [(3)]؛ ذَلِكَ (أنهم برروا عدم العمل بالتوراة) بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[24] (=يزيدون فيه وينقصون). فَكَيْفَ (سيكون جوابهم وتبريرهم) إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ (يوم الجزاء)، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[25]؟ قُلِ اللَّهُمَّ (يا الله يا) مَالِكَ الْمُلْكِ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ (كما حصل في معركة بدر)، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[26]: تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (وهذا هنا نظير قوله تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء الخ) وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[27]. لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً (تتجنبوا كيدهم)، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ (أي من عذابه) وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ[28]. قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ (من صحبة اليهود وموالاتهم) أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ [(4)]، وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[29]. يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا! وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ[30]. قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[31]. قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ[32].

5- التذكير بقصة مريم وبعيسى ومعجزاته... والرد على وفد نجران.

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ[33]، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[34]. إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ[(5)] رَبِّ إِنِّي

3- قيل: سأل يهود المدينة الرسول عن حد المحصنين إذا زنيا، فحكم بالرّجم فقالوا: جُرْتَ يا محمد، فقال: بيني وبينكم التوراة، ثمّ أتوا حبرا من أحبارهم اسمه (بابن صوريا) فقرأ التّوراة، فلمّا أتى على آية الرّجم سترها بكفه، فقام ابن سلاّم (من اليهود الذين أسلموا) فرفع كفه عنها، وقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليهود، فغضبت اليهود لذلك غضباً شديداً وانصرفوا".

4- قيل إشارة إلى جماعة من الأنصار كانوا يألفون اليهود ويجلسون معهم الخ.

5- انظر التعريف بعمران وآله التقديم.

وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا (مخلصك منهم)، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ، فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[55]. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[56]؛ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[57]. ذَلِكَ (ما تقدم) نَتْلُوهُ عَلَيْكَ (يا محمد) مِنَ الْآيَاتِ (الدالة على صدق نبوتك) وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ[58] (والأحداث التي فيها ذكرى عبرة). إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ : خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ،[59]! (ما قصصنا عليك حول مريم وعيسى هو) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ[60] (الشاكين). فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ (في هذا الذي أخبرناك به) مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ (الذي أعطيناك) فَقُلْ (له): تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ[61] (15). إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[62]، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ[63].

6- مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ...

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ (يهود المدينة ونصارى نجران) تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ: أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا (أعرضوا ولم يستجيبوا) فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ[64]. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[65] (16). هَا أَنْتُمْ (يا) هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ (في التوراة كقصة مريم وعيسى)، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ (وهو ادعاؤكم ان إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا، وهذا ليس في التوراة ولا في الإنجيل، فمن أين لكم بهذا الادعاء؟)، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[66]؟ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا

15- روي أنه: لمّا نزلت هذه الآية دعا الرسول وفد نجران إلى المباهلة، وهي الدّعاء على الظّالم من الفريقين، وخرج الرسول الله، وقال لهم تعالوا نتضرع في الدّعاء فندعو الله باللّعنة على الكاذبين، فلم تجبه النّصارى إلى المباهلة خوفاً من اللّعنة".

16- لمّا تنازعت اليهود والنّصارى مع الرسول عليه السلام في إبراهيم وقالت اليهود ما كان إبراهيم إلاّ يهودياً وقالت النّصارى: ما كان إلاّ نصرانياً، رد القرآن عليهم: كيف يمكن أن يكون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا، وكتب اليهودية والنصرانية (التوراة والإنجيل)، قد نزلت بعد موته بزمانٍ طويل؟.

وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا(17) مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[67]. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ (أحقهم به) لَلَّذِينَ (هم الذين) اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ (محمد) وَالَّذِينَ آَمَنُوا (به)، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ[68]. وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (بعض يهود المدينة) لَوْ يُضِلُّونَكُمْ (يعودوا بكم إلى الكفر) وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ (لأنهم يضلون أقرب الناس إليهم من الناحية الدينية) وَمَا يَشْعُرُونَ[69] (بأن ذلك سيكون نتيجة عملهم). يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ (بالقرآن) وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ[70] (أنه مخبر بما في التوراة). يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[71]. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِرَهُ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[72] (18)! وَ(قالوا لبعضهم بعضا) لَا تُؤْمِنُوا (لا تصدقوا ولا تقروا) إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ –قُلْ (يا محمد) إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ[19]– (لا تصدقوا أيها المسلمون) أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ (من النبوة والحكمة والنعم الإلهية) أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ (لأن حجتكم أقوى)! قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[73]، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[74]. وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا (مطالبا)، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ (العرب المشركون) سَبِيلٌ (أي أن التوراة لم تحرم عليهم أخذ ما للعرب المشركين)، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ (يكذبون على التوراة التي هي من عند الله) وَهُمْ يَعْلَمُونَ[75]. بَلَى (إن عليهم سبيل! أما) مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى (الله) فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ[76] (الذين هم على هذه

17- "من كان على دين إبراهيم، فهو حنيف عند العرب، وكان عَبَدَةُ الأوثانِ في الجاهلية يقولون: نحن حُنَفاء على دين إبراهيم، فلما جاء الإسلام سَمَّوُا المسلم حنيفاً. وكان في الجاهلية يقال مَن اختَتَنَ وحجّ البيت حَنيفٌ لأن العرب لم تتمسّك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الخُتان وحَج البيت، فكلّ من اختتن وحج قيل له حنيف. ومعنى الحنيفية في اللغة المَيْلُ، والمعنى أنّ إبراهيم حَنَفَ، أي مال، إلى دين اللّه ودين الإسلام، وإنما أُخذ الحَنَفُ من قولهم رَجُل أَحْنَفُ ورِجْلٌ حَنْفاء، وهو الذي تَميلُ قدَماه كلُّ واحدة إلى أُختها بأصابعها. ومعنى: "حُنَفاء للّه : غيرَ مشركين به".

18- قيل إنّ جماعةً من اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمّدٍ والقرآن في أوّل النّهار، وارجعوا عنه في آخر النهار وقولوا لأصحابه نظرنا في كتابكم فوجدنا محمداً ليس بذاك، فإنّهم أحرى أن ينقلبوا عن دينه ويشكوا.

19- جملة اعتراضية.

الصفة). إِنَّ (هؤلاء اليهود) الَّذِينَ يَشْتَرُونَ (يستبدلون) بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ (بوصيته لهم أن لا يحلفوا كاذبين) ثَمَنًا قَلِيلًا (من متاع الدنيا) أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ (سيكونون منبوذين)، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ (ليسوا هم المخاطبين في التوراة)، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (بعين العطف)، وَلَا يُزَكِّيهِمْ (لا يرحمهم) وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[77]. وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ (ينسبون أقوالا إلى التوراة) لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[78]. مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ (كما يعبدون عيسى)، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ[79]، وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا! أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[80] (20)؟ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ (أي عهد أنبياء بني إسرائيل في التوراة، وقال لهم إنكم تعهدتم أنكم) لَمَا (من أجل ما) آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ (مثل محمد)، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ (الله لهم): أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي (عهدي)؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا. قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ[81]. فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ (خرق العهد) فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[82] (يعني يهود المدينة). أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ (بعد هذا الميثاق)! وَلَهُ (لله) أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ[83]؟! قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ (لهذا الذي أنزل على هؤلاء) مُسْلِمُونَ[84].

20- قيل: "لمّا ادّعت اليهود أنّهم على دين إبراهيم عليه السّلام وكذّبهم الله تعالى غضبوا وقالوا: ما يرضيك منّا يا محمد إلاّ أنْ نتّخذك ربّاً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: معاذَ الله أنْ نأمر بعبادة غير الله، ولكن نقول لكم: كونوا معلّمي الناس بعلمكم ودرسكم، علّموا النّاس وبيّنوا لهم ما في كتاب الله (التوراة). إنني لا آمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا كما فعلت النّصارى والصّابئون. أنأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون! (بحكم التوراة).

7- الذين كفروا بعد إيمانهم ... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ85 (21). كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُول

21- نذكر أولا ما قاله كبار المفسرين حسب تتابعهم الزمني: قال الطبري: "ومن يطلب دينا غير دين الإسلام ليدين به، فلن يقبل الله منه... وذكر روايات تفيد أن أهل كل ملة ادّعوا أنهم هم المسلمون لما نزلت هذه الآية، فأمرهم الله بالحجّ إن كانوا صادقين، لأن من سنة الإسلام الحجّ، فامتنعوا، فأدحض الله بذلك حجتهم". وهذا القول فيه نظر: لأن آية فريضة الحج (التي ستأتي ورقمها 96 ورقم الآية التي نحن بصددها هو 61)، والسياق بينهما غير متصل، ولا شيء، لا على مستوى اللغة ولا على مستوى التأويل، يربط بينهما كما سنرى. ثم ذكر الطبري رواية عن ابن عباس جاء فيها أنه بعد قوله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ" إلى قوله" "وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة 62) أنزل الله عزّ وجلّ بعد هذا: "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (آل عمران 85). ولم يضف الطبري من عنده شيئا ولا ذكر ما قصد في هذه الرواية من التذكير بالآيتين، وهما في سورتين مختلفتين وسياقين مختلفين. أما الحاكم النيسابوري وكثير غيه من المفسرين فقد قفزوا على الآية وتركوا القارئ مع ظاهر نصها الذي يفيد العموم". أما الزمخشري فقد ربط هذه الآية بالتي قبلها ففسر قوله تعالى : "لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ (لهذا الذي أنزل على هؤلاء الأنبياء) مُسْلِمُونَ"، قال: أي "موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكاً في عبادتها؛ ثم قال: "وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام" يعني التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى: "دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ. أما القرطبي فقد ذكر أن رجلا من الأنصار، ارتدّ عن الإسلام هو واثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفاراً، فنزلت هذه الآية، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة". وأضاف القرطبي: "ورُوي ذلك عن ابن عباس وغيره. قال ابن عباس: وأسلم بعد نزول الآيات". وأما ابن كثير فقد قال في تفسيره الآية: "وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ": أي من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله، فلن يقبل منه". ونحن نرى أن عبارة ابن كثير، إذا أخذت في عمومها، تلتقي مع عبارة الزمخشري الذي فسر الإسلام في الآية بدين التوحيد. وبالتالي فالمعنى الذي نرجحه هو كما يلي: ومن يتبع دينا غير منزل من الله (التوحيد، شرع الله) فلن يقبل منه. بمعنى أن من= يتبع دينا غير دين إبراهيم فلن يقبل منه. وهذا ما يفيده السياق ويشهد له الواقع فقد اعترف الإسلام باليهودية والنصرانية وفرض على أهلهما الجزية في مقابل الزكاة. وهذا لا يسقط مضمون رواية القرطبي من الحساب لأن الشخص المشار إليه في الرواية التي ذكرها والذي فر إلى مكة مرتدا لن يقبل منه دين المشركين، بطبيعة الحال. فهذه الرواية لا تصلح لتفسير الآية التي نحن بصددها لأن الأمر سيكون حينئذ عبارة عن تحصيل حاصل، وإنما تصلح لتفسير الآية التي بعدها كما ورد في جل التفاسير.

حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ؟ [22] وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[86]؟ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[87]، خَالِدِينَ فِيهَا، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ[88] (يمهلون)، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[89]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ (اليهود كانوا يؤمنون بقرب ظهور نبي، كما عندهم في التوراة، فلما ظهر وجاء يدعوهم إلى الإسلام كفروا به) ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا (بأن حاولوا زرع الفتنة بين المسلمين في المدينة) لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ[90]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (أي هؤلاء اليهود وغيرهم من الكفار) وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ (أي لم يتوبوا) فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ (يوم القيامة) مِلْءُ الْأَرْضِ (ما يملأ الأرض) ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ (ولو قدمه فدية ليسمح له بالتوبة)، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[91]. (أيها اليهود) لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ (لا التوبة ولا الجنة) حَتَّى تُنْفِقُوا (هنا في الدنيا) مِمَّا تُحِبُّونَ (وأنتم لا تفعلون ذلك)،

22- ذكر المفسرون لهذه الآية أحد احتمالين : أحدهما في معنى الذي ذكره القرطبي في الهامش السابق (رجل ارتد وذهب إلى مكة الخ)، والثاني في معنى أن المقصودين هم اليهود والنصارى، "رأوا نعت محمد صلى الله عليه وسلّم في كتابهم، وأقرّوا به، وشهدوا أنه حقّ، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك، فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسدا للعرب حين بعث من غيرهم". وقد جمع الطبري بين الاحتمالين على معنى : "أن يكون داخلاً في ذلك كل من كان مؤمنا بمحمد صلى الله عليه وسلّم قبل أن يبعث، ثم كفر به بعد أن بعث، وكل من كان كافرا ثم أسلم على عهده صلى الله عليه وسلّم ثم ارتدّ، وهو حيّ، عن إسلامه، فيكون المعنيون بالآية هم جميع هذين الصنفين وغيرهما ممن كان بمثل معناهما". ونحن نرجح الرأي الأخير لأن سياق الآية يندرج في خطاب موجه لليهود، والآية: "كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ"؟ واقعة في سياق هذا الخطاب، لأن قوله تعالى "وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ" يقتضي أن يكون المخاطب هم أهل الكتاب فهم الذين شهد كتابهم أن محمدا هو الرسول المبشر به عندهم، وأنهم قد جاءتهم منه البينات (في القرآن) على أنه رسول حقا، والمقصود بالبينات هنا ما أخبر به القرآن عن تاريخهم الخ. وهذا يقتضي أن يكون المخاطب هم اليهود في الآيات اللاحقة إلى الآية 96، ("إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ")، بما في ذلك قوله تعالى "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ، على أساس أن المقصود بـ"البر" هو هنا "التوبة ونتيجتها: الجنة". فهذه الآية مسيجة بالآية التي سبقتها والآية التي تليها وهما معا في اليهود.

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ[92] (23). (أنتم تحرمون أطعمة وتنسبون هذا التحريم للتوراة ثم تتخذون ذلك ذريعة لعدم التصدق بها، وهذا كذب فالحقيقة أن) كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ. قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا (لـنرَ هل حقا فيها تحريم ما تحرمون النفقة منه) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[93]. فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ (من بعد ما تبين أن التوراة ليس فيها ما تدعون تحريمه) فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[94]؟ قُلْ (يا محمد) صَدَقَ اللَّهُ (=ليس في التوراة ما تدعون تحريمه عليكم)، فَاتَّبِعُوا (يأهل الكتاب) مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (مسلما) وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[95]. إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا (24) وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ[96]. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ، مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ.

23- هذه الآية تطرح مشكل العلاقة بينها وبين ما سبقها وما تلاها. فما قبلها خطاب موجه للكفار، وسياقه العام يتعلق باليهود كما بينا في الهامش أعلاه، أما ما بعدها فصريح أنه يتعلق باليهود كذلك! فكيف نفهم قوله تعالى: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ (أي الجنة) حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ"؟ وبعبارة أخرى من المخاطب هنا؟ جميع المفسرين يذهبون إلى أنها خطاب للمسلمين، وهذا يجعل الآية مقطوعة الصلة بما قبلها وما بعدها، وهذا ما ارتضاه ابن عاشور إذ جعلها جملة اعتراضية، والجملة الاعتراضية (أو المعترضة)، لا تعني في رأينا، الخروج تماما عن السياق، فهي تكون بين متلازمين كالمبتدأ والخبر للتفصيل ومزيد بيان أو للاستثناء والاحتراس الخ، وهي لا تكون جملة يتيمة منقطعة عما قبلها وما بعدها، وهذا النوع من الجمل اليتيمة لا تليق ببيان القرآن وبلاغته، ولا ينفع فيه القول بأن القرآن نزل منجما، لأن كونه نزل مفرقا لا ينزع المعقولية عن وحداته الخطابية (العبارات) ولا عن سياقاته. وبناء عليه نحن نرجح أن يكون الخطاب في هذه الآية موجها لليهود، وبذلك تكون علاقتها بما بعدها واضحة (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل)، أما علاقتها مع ما قبلها فواضح من قوله تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ"، أي لن تقبل منهم التوبة يوم القيامة ولو قدموا من أجلها من الذهب قدر ما يملأ الأرض! إن التوبة وبالتالي الجنة ليست مرهونة بمقدار ما بإمكانهم أن ينفقوا بل تتوقف على أن ينفقوا الآن مما يحبون، قال القرطبي: "لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء تأملون العيش وتخشون الفقر". وهذا في نظرنا أولى أن يقال لليهود.

24- في هذا رد على ما ذكر في التوراة التي بين أيدينا من أن البيت الذي بناه إبراهيم عند مجيئه إلى فلسطين مهاجرا من "أور" (من أرض الكلدانيين) يقع في أرض الكنعانيين. فقد ورد في التوراة : "6فَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ. 7وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «سأُعطي هذه

وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا. وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ (جميعا بما فيهم اليهود والنصارى) حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَنْ كَفَرَ (رفض) فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ[97]. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ (بشريعة الله وحججه) وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ[98] (يشهد ويراقب ويحصي). قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ (بالرسول محمد)، تَبْغُونَهَا (سبيل الله) عِوَجًا (معوجة : تضلون الناس) وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ (على أن الذي تصدون الناس عنه هو الحق)، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[99].

8- وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (هم اليهود الذين يزرعون الفتنة بينكم، بين الأوس والخزرج) يَرُدُّوكُمْ، بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، كَافِرِينَ[100] (يقاتل بعضكم بعضا كما كان حالكم قبل إسلامكم)! وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ (وتصدقون سعي اليهود بينكم) وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آَيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[101]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا (الأوس والخزرج) اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[102] (أموركم لله ورسوله). وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ (عهد الله) جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً (تتقاتلون) فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ (بالإسلامكم) فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ (كنتم حين أسلمتم في بيعة العقبة على وشك الاقتتال) فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا! كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[103]. وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[104]. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ (كما حدث لليهود والنصارى بعد أنبيائهم) وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[105] يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ (يوم القيامة): فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ (يقال لهم) أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ؟ (إذن:) فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ[106]؛ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ (الجنة) هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[107]. تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ

الأَرْضَ لِذُرِّيَّتِكَ». فَبَنَى أَبْرَامُ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. ⁸وَانْتَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيلَ حَيْثُ نَصَبَ خِيَامَهُ مَا بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ غَرْباً وَعَايَ شَرْقاً وَشَيَّدَ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِهِ. ⁹ثُمَّ تَابَعَ أَبْرَامُ ارْتِحَالَهُ نَحْوَ الْجَنُوبِ". (بيت إيل هي حاليا بيتين وتقع على بعد 18 كم شمال شرق القدس".

نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ (يا محمد) وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ[108]. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ[109].

9- وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ...

كُنْتُمْ (أيها الأنصار)[(25)] خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (في يثرب) : تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ. وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ (مثلكم) لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ. مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ (كعبد الله بن سلام وأصحابه) وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ[110]! (وهؤلاء الفاسقون) لَنْ يَضُرُّوكُمْ (عند المواجهة معهم) إِلَّا أَذًى (ما يتقولون به مما يؤذي مشاعركم)، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ (يهربون) ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ[111] (لا يجدون من يناصرهم). ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ (المهانة) أَيْنَ مَا ثُقِفُوا (أينما وجدوا طوال تاريخهم) إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ (مماثل لصحيفة النبي التي ضمنت لهم حقوقهم، وباستثناء هذه الحال) وَبَاءُوا (رجعوا إلى المذلة) بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[112]؛ لَيْسُوا (جميعا) سَوَاءً (في الكفر بل): مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ (جماعة) قَائِمَةٌ (مستقيمة) يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ[113]، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ[114]. وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ (لن يحجب عنهم)، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ[115]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[116]. مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (رياء) كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ (برد شديد) أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ (ولم يبق فيه نفع)، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[117].

10- تحذير المنافقين... بين وقعة بدر ووقعة أحد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً (أصدقاء) مِنْ دُونِكُمْ (أي من اليهود) لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا (لا يكفون عن إثارة الفتنة بينكم)، وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ (تمنوا ضلالكم عن دينكم)، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ.

25- جل المفسرين يجعلون "المهاجرين" هم المقصودون، وهذا لا يزكيه السياق. فالكلام هنا مع الأوس والخزرج الذين بايعوا في العقبة ورجعوا إلى يثرب ينشرون الإسلام. والآية التالية تخاطب يهود المدينة، وإذن فالخطاب كله لأهل المدينة تارة للأنصار وتارة لليهود.

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ[118]. هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ (أيها الأنصار الذين ما زالوا مع صحبتهم لليهود) تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آَمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[119]. إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ (نصر وغنيمة) تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ (هزيمة ونكسة) يَفْرَحُوا بِهَا، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ[120]. وَ(اذكر يا محمد) إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ (خرجت من بيتك) تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ (تنظم معسكرهم لغزوة أحد) – وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[121] – إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ (إحداهما من الخزرج والأخرى من الأوس) مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا (تتركا القتال)، وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا (الدافع عنهما ضعفهما)، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[122]. وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ (قليلون)، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[123]. (واذكر يا محمد) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ (وأنت تشجعهم يوم أحد) [26] أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ[124]؟ بَلَى! (يكفيكم ذلك) إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا. وَ(إن) يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا (الآن على الفور)، يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ[125] (مستعدين للقتال). وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ (أي هذا الوعد) إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ؛ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[126] (لقد نصركم) لِيَقْطَعَ (ليقتل) طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ (يخذلهم فلا يقتحمون المدينة) فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ[127] –لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ[27]– أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ[128]. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[129].

26- جل المفسرين على أن هذه الآية تتحدث عن وقعة بدر بناء على كون مشاركة الملائكة في قتال الكفار إلى جانب المسلمين قد حدث في بدر كما ورد في سورة الأنفال (الآية 9). وهذا لا يستقيم مع السياق، فالكلام هنا عن وقعة أحُد. ولا شيء يمنع من أن يكون النبي قد وعد المسلمين بمساعدة الملائكة وهذا الاحتمال وارد جدا لأن آية سورة الأنفال تحدثت عن "ألف من الملائكة"، بينما الكلام هنا عن ثلاثة آلاف وخمسة آلاف!

27- قال ابن إسحق : تشير الآية إلى ما حصل للرسول الله يوم أحد حين "كسرت رباعيته وشج في وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول "كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم، فنزلت: "ليس لك من الأمر شيء" الخ.

11- مواساة المسلمين بعد هزيمة أحد ... وكشف الحساب معهم؟

أ- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً(28) وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ130، وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ131 ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ132. وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ

28- المضاعفة في الربا: "أن يكون الرجل له على آخر مال إلى أجل، فإذا حلّ الأجل طلبه من صاحبه، فيقول له الذي عليه المال: أخر عني دينك، وأزيدك على مالك! فيفعلان ذلك". هذا وقد غض جل المفسرين الطرف عن المناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها وما بعدها، وهما في موضوع واحد هو وقعة أحُد. وقد أثاره ابن عاشور هذه المسألة فوجد الحل في نظريته العامة التي تقوم على أن عدة سور كانت تنزل وتبقى مفتوحة، وأنه بالتالي "لا حاجة إلى اطّراد المناسبة... وقد طرح ابن عاشور مسألة أخرى تخص "إعادة النهي عن الربا في هذه السورة بعد ما سبق من آيات سورة البقرة"، فقال: "إنّ الظاهر أنّ هذه الآية نزلت قبل نزول آية سورة البقرة، فكانت هذه تمهيداً لتلك، ولم يكن النّهي فيها بالغاً ما في سورة البقرة". وهذا معناه "فوضى الآيات" داخل السور وعدم التقيد بكون ترتيبها توقيفي.. لكن ابن عاشور يطرح احتمالا آخر، قال "ويحتمل أن يكون بعض المسلمين داين بعضاً بالمراباة عقب غزوة أحُد، فنزل تحريم الرّبا في مدّة نزول قصّة تلك الغزوة". نحن نعتقد أن هذا الاحتمال مناسب. وبه تدخل الآية في السياق العام الذي هو الكلام عن وقعة أحد، وفي سياق خاص (داخل العام) وهو مخاطبة المسلمين عقب الهزيمة لمواساتهم وتثبيتهم على الإيمان. وتبدأ المواساة بآية الربا التي نحن بصددها. وما يجب أن يثير الانتباه هو أن آيات سورة البقرة في تحريم الربا قوية شديدة اللهجة، تسد الباب نهائيا أمام ممارسة الربا مضاعفا أو غير مضاعف. ذلك قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"8. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا (أيقنوا) بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ". أما الآية التي نحن بصددها فهي تنهى عن المضاعفة في الربا فقط، ونحن نرجح احتمال أن يكون بعض الذين شاركوا في وقعة أحد وفقدوا بسببها ليس الغنائم فحسب بل ما تجهزوا به فأصبحوا في حالة إملاق، فاضطروا إلى اقتراض ما يسدون به خلتهم من المرابين الذين عرفوا حاجتهم فضاعفوا الربا، ومما يلفت الانتباه أن الآية التي نحن بصددها وكذا التي بعدها قد سلكت مسلكا لينا مع مخاطبيها فطرحت الوعد بالمغفرة إذا "لَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا"، إذا لم يجعلوا ذلك سلوكا دائما الخ. وهكذا فبدلا من القول بالنسخ أو بـ "سبق التلاوة عن النزول" أو العكس، أو نزول اللاحق قبل السابق... يكفي ربط كل آية بسياقها الخاص من جهة، وسياقها العام من جهة أخرى، وبالتالي فهم "الخصوص" على أنه يشمل ليس فقط خصوص الأفراد بل خصوص الظرف زمانا ومكانا وحالة.

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ[133]: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ (لإعانة الضعفاء)، وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ (الذي تسببت فيه الهزيمة)، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ (الذين تسابقوا إلى الغنائم والنهب) وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[134]. وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً (كتركهم القتال والانكباب على النهب أو ماسوا الربا) أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ (تراجعوا عن المشاركة في الحرب) ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ - وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ - وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ[135] (تنبيه موجه إلى المنافقين). أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ[136]. قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ (تجارب الأمم الماضية)، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ[137] (أهلكوا في ديارهم بالصواعق).

ب- *وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ...*

هَذَا (الذي أوضحت لكم) بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ[138]. وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا (بعد الذي حدث في أحد) وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[139]. إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ (هزيمة أو نسكة في أحُد) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ (المشركين) قَرْحٌ مِثْلُهُ (في بدر)، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (يوم لك ويوم لغيرك)، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا (من المنافقين) وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[140]. وَلِيُمَحِّصَ (يختبر) اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ[141] (ينقص من عددهم). أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ[142]؟ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ[143] (29). وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا (30)، وَسَيَجْزِي اللَّهُ

29- قال الطبري بصدد هذه الآية : "إن قوما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ممن لم يشهد بدرا، كانوا يتمنون قبل أحد يوما مثل يوم بدر، وينالوا من الأجر مثل ما نال أهل بدر؛ فلما كان يوم أحد فرّ بعضهم وصبر بعضهم، فعاتب الله من فرّ منهم، فقال: "وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ" الآية، وأثنى على الصابرين منهم.

30- تشير هذه الآية إلى البلبلة التي حصلت عند هزيمة المسلمين يوم أحد، فقد سقط الرسول في إحدى الحفر التي حفرها المشركون ليسقط فيها جنود المسلمين فأغمي عليه وأخرجه منها علي بن أبي طالب بمساعدة بعض الصحابة. وأشيع بأن الرسول عليه=

الشَّاكِرِينَ[144]. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، كِتَابًا مُؤَجَّلًا، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا، وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ[145]. وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ (صحابة صادقون) كَثِيرٌ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ[146]. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ (قول الربيين حين مات نبيهم) إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[147]. فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[148]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ[149]، بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ[150]؛ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا (الذين هزموك يوم أحد) الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا (بسبب شركهم) بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا (ما لم يرخص به)، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ[151]. وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ (بالنصر يوم أحد) إِذْ تَحُسُّونَهُمْ (تقتلونهم) بِإِذْنِهِ (وكان ذلك قبل أن يترك الرماة أماكنهم ليجروا وراء الغنيمة)، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ (جبنتم) وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ (الهزيمة لهم والغنائم لكم): مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا (فجرى نحو الغنائم) وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ (فثبت وقاتل)، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ (عندما سلبتكم الغنائم) لِيَبْتَلِيَكُمْ (ليختبركم هل ستثبتون أم ستتركون مواقعكم في القتال)، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ (على فعلتكم تلك)، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ[152]. إِذْ تُصْعِدُونَ (تتسابقون فارين نحو الجبل) وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ (لا يلتفت بعضكم إلى بعض) وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ (أي من خلفكم ويقول: "إليَّ عِبَادَ اللَّهِ، إليَّ عِبادَ اللَّهِ!") فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ (الأول بما أصابهم من القتل وضربات عدوهم، والثاني بما سمعوا من استغاثة النبي) لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ (من الغنيمة) وَلَا مَا أَصَابَكُمْ (الهزيمة)، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[153]. ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً (أمنا) نُعَاسًا (نوما) يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ (لما تيقنوا أن العدو انسحب راجعا إلى مكة)، وَطَائِفَةٌ (وهم المنافقون الذين حضروا الحرب) قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ (نادمين على حضورها مرددين أنهم خدعوا بوعد بالنصر "كاذب")، يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ، ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ، يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ (أي لم يؤخذ برأينا حين طالبنا بالبقاء داخل المدينة حتى

السلام قد قتل، فصمد بعض الصحابة وأعلن بعض المسلمين الجدد ردتهم وخاصة المنافقين ومن كان على صلة بهم الخ. وواضح أن الآيات أعلاه تتحدث عن هذا الموضوع.

يدخلها العدو فنهاجمه من سطوح منازلنا)؟ قُلْ (يا محمد) إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ. يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ: (وهكذا) يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا. قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ (لو أخذنا برأيكم وجاء العدو) لَبَرَزَ (لخرج) الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ (مكان سقوطهم قتلى)، وَلِيَبْتَلِيَ (يختبر) اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ (أيها المنافقون) وَلِيُمَحِّصَ (ويكشف) مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[154]. إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا (من النصر فراحوا يجرون مع الغنائم)، وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ[155]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا، وَقَالُوا (والذين يقولون) لِإِخْوَانِهِمْ، إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى، لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا، لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ (يتحسرون على موت إخوانهم أولئك)، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[156]. وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ (أيها المؤمنون فإن ثوابكم) لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ[157] (من الأموال). وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ[158] (ومصيركم الجنة).

ج- فَاعْفُ عَنْهُمْ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ...

فَبِمَا رَحْمَةٍ (فبرحمة) مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ (لأصحاب أحُد من الذين تسببوا في الهزيمة)، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا (سيء المعاملة معهم) غَلِيظَ الْقَلْبِ (قاسيا عليهم) لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (لتركوك وتفرقوا)؛ فَاعْفُ عَنْهُمْ (تجاوز عن فعلتهم)، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ (أمور الحرب)، فَإِذَا عَزَمْتَ (اتخذت القرار بعد مشاورتهم) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (سلم له أمر النصر وعدمه). إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ[159]: إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[160]. وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ (أن يخون أو يُخان) [31]، وَمَنْ يَغْلُلْ (يخن وينهب) يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ

31- في قراءة :" أنْ يَغُلَّ" بفتح الياء وضم الغين، بمعنى "يخون" وفي أخرى "أن يُغَلّ" بضم الياء وفتح الغين بمعنى أن يخونه أصحابه، وهذا أقرب إلى السياق، إشارة إلى الذين تهافتوا على الغنائم في أحد ينهبون ويستحوذون الخ، والآية التالية ترجح هذا المعنى. وقد ذكر الزمخشري : أن الآية "نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز وطلبوا الغنيمة وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أخذ شيئاً فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا=

مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[161]. أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ (ولم يخن) كَمَنْ بَاءَ (رجع من الحرب مثقلا) بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[162]. هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ[163]. لَقَدْ مَنَّ (تفضل) اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ (من نوعهم) يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[164]. أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ (في أحُد إذ قتل منكم سبعون) قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا (في بدر حيث قتلتم من عدوكم سبعين وأصبتم سبعين) قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا (من أين أصابنا هذا القتل والهزيمة ونحن مسلمون، ورسول الله فينا)؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ (تركتم مواقعكم وجريتم وراء الغنيمة)، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[165]. وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ، وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ[166] وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا : (أن النصر مع طاعتكم نبيكم، وترك النصر مع مخالفتكم إياه). وَقِيلَ لَهُمْ (لعبد الله بن أبي وأصحابه المنافقين الذين رجعوا إلى منازلهم) تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا (اخرجوا معنا فقط لتكثير عددنا وتخويف العدو)، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ! (كذبوا): هُمْ (بخذلانهم المؤمنين) لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ. يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ[167]. الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ (في النفاق) وَقَعَدُوا (أي لم يخرجوا): لَوْ أَطَاعُونَا (أي قتلى أحد) مَا قُتِلُوا! قُلْ فَادْرَءُوا (ادفعوا) عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ (عندما يحين أجلكم) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[168]. وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ[169] [(32)]، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ

المركز حتى يأتيكم أمري، فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفاً، فقال صلى الله عليه وسلم: بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم". وواضح أن نص هذه الرواية يصلح للقرائتين معا.

32- علق الرازي على هذه الآية بقوله: "اعلم أن ظاهر الآية يدل على كون هؤلاء المقتولين أحياء. فإما أن يكون المراد منه حقيقة أو مجازا، فان كان المراد منه هو الحقيقة، فإما أن يكون المراد أنهم سيصيرون في الآخرة أحياء، أو المراد أنهم أحياء في الحال= وبتقدير أن يكون هذا هو المراد، فإما أن يكون المراد إثبات الحياة الروحانية أو إثبات الحياة الجسمانية؛ فهذا ضبط الوجوه التي يمكن ذكرها في هذه الآية. ثم أخذ يفصل القول في هذه الاحتمالات وغيرها إلى الدرجة التي يستعصي معها خروج القارئ منها بنتيجة. ونحن نرى أن من أهم عوائق الفهم الصحيح للآيات الكلام فيها كأجزاء مستقلة وإغفال وحدة التركيب وما يعطيه السياق. إن قوله تعالى "بَلْ أَحْيَاءٌ" لا يجوز الكلام فيه بمفرده بل لابد من اعتبار قوله "عند ربهم" كجزء من المعنى: والمعنى أنهم أحياء "عند الله". أما كيف تكون حياتهم

خَلْفِهِمْ: أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[170]، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ. وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ[171]: (وهكذا فـــ) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ (الجراحات في أحد) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ[172] (33)، (هؤلاء الذين كانوا متجهين إلى ملاحقة أبي سفيان وأصحابه و) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ (أخبرهم بعض أهل القبائل) إِنَّ النَّاسَ (أي أبو سفيان وأصحابه) قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ (جيشهم) فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[173]، (لم يخافوا بل واصلوا طريقهم، ولما وجدوا أن أبا سفيان قد واصل الرجوع بجيشه إلى مكة)، فَانْقَلَبُوا (عاد أولئك الذين ذهبوا لملاحقة أبي سفيان) بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ[174] (34). إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ (يعظم أمر المشركين أيها المنافقون في أنفسكم فتخافونه) فَلَا تَخَافُوهُمْ، وَخَافُونِ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[175]. وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ (أي المنافقون)، إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا (ثوابا) فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[176]. إِنَّ الَّذِينَ

عند الله فهذا ما لا يعلم حقيقته إلا الله؟ يجوز أن يكون المعنى : أحياء" في علم الله، أو في "تقدير الله" أو بجانب الله كالملائكة الخ... ومثل هذا يقال في الآيات التاليات إلى قوله : "بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ".

33- الإشارة هنا إلى جماعة من جند المسلمين أمرهم الرسول بملاحقة أبي سفيان، رئيس جيش المشركين، بعدما قيل إن هذا الأخير كان ينوي التوجه إلى النبي ومن معه لتصفيتهم. وفي رواية أخرى أن النبي لما عاد إلى المدينة خاف من مكر أبي سفيان وعودته إلى المدينة لاحتلالها والمسلمون فيها، ولتلافي هذا الاحتمال جهز الرسول جيشه بعد أن عاد إلى المدينة مباشرة واتجه لملاقاة أبي سفيان الذي أشاع أنه سيقتحم المدينة ولما وصل النبي إلى مكان يقال له "حمراء الأسد" لم يجد أحدا لأن أبا سفيان كان قد واصل طرقه إلى مكة. وقد سمي هذا الخروج بـــ "غزو حمراء الأسد".

34- بعض الروايات تجعل نزول هذه الآية منفصلا عن سياق النص وسياق الأحداث، فتربطها بغزو بدر الثانية، ذلك أن أبا سفيان لما انتهت وقعة أحد صاح في المسلمين أن= موعدنا بدر في العالم القادم. فلما حل موسم بدر في السنة الموالية تجهز الرسول بجيش لمواجهة أبي سفيان. أما هذا الأخير فقد قرر عدم الذهاب للموعد بسبب الجدب فبعث من بشيع في المدينة أن أبا سفيان قد جهز جيشا عظيما وأنه آت لميعاد بدر، وهذا من أجل تخويف المسلمين حتى يتخلوا هم عن الموعد ويحسب عليهم ذلك. غير أن الرسول جهز جيشه وذهب إلى بدر فلم يجد أبا سفيان فاقتصر المسلمون على التعامل مع السوق بالتجارة دون حرب. وقد سمي خروج النبي هذا بـــ "غزوة بدر الصغرى".

اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[177]. وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ (نمد في أعمارهم) خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ"[178]. مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ (من التباس المؤمن الحقيقي بالمنافق يوم أحد) حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ (على قلوب الناس لتعلموا المؤمن من المنافق)، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي (يختار) مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ"[179]. وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"[180]. لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ (اليهود) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ (لأنه يستقرض وإنما يستقرض الفقراء) وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ! (الجواب:) سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا (كما كتبنا أقوال أسلافهم) وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَنَقُولُ (لهم جميعا يوم القيامة) ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ[181]، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[182]. (وسمع الله قول اليهود) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا (أوصانا في كتبنا) أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ (ذبيحة يتقرب بها إلى الله، فإذا أكلتها النار كان ذلك إشارة منه على أنه رسول حقا)! قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[183]؟ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ [184] (التوراة). كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ (أبعد) وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ[185]. لَتُبْلَوُنَّ (ستختبرون بالمصائب أيها المؤمنون) فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ (وأهليكم)، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[186]. وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ (عهد) الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ (أي نبوة محمد) لِلنَّاسِ (كما هو مبين في كتبكم) وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ (أي الميثاق) وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا (أي الإبقاء على زعامتهم على أهل دينهم، فحالوا بينهم وبين الإسلام)، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ"[187]. لَا تَحْسَبَنَّ (اليهود) الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا (يعني التوراة) وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا (يمدحوا ويشكروا) بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا (أي ما يدعون من أنهم متمسكون بالتوراة)، فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ (بمنجاة) مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[188].

14- خاتمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[189]. إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ[190]: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (ويقولون): رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ[191]، رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ[192]. رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ (هو محمد عليه السلام) أَنْ آَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآَمَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ[193]. رَبَّنَا وَآَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ، وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ[194]. فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ: فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ[195]. لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ[196] (بقاؤهم أحياء يتاجرون ويربحون ويتمتعون، ذلك) مَتَاعٌ قَلِيلٌ، ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ[197]. لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ[198]. وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ، لَا يَشْتَرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[199]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[200].

تعليق

تتناول هذه السورة، على طولها، موضوعين اثنين رئيسيين، أولهما الجدال مع يهود المدينة ووفد نصارى نجران من جهة، وغزوة أحد التي انهزم فيها المسلمون من جهة أخرى. هذا إضافة إلى مقدمة وخاتمة تتصلان بهذين بالموضوعين. ويبدو أنه لا شيء يجمع بين الموضوعين سوى كونهما ينتميان زمنيا إلى السنة الثالثة للهجرة.

1- تبدأ السورة بمقدمة مناسبة تماما للموضوع الأول، مما يمكن أن يستنتج منه أن الجدال مع النصارى واليهود كان أسبق من هزيمة أحد. وفضلا

عن أن بعض الروايات تجعل قدوم وفد نجران إلى الرسول في المدينة في السنة الثانية للهجرة –وقد يكون ذلك في أواخرها، فإن الجو الذي جرت فيه المجادلة بينه وبين الرسول يستحضر غزوة بدر وبالتالي فليس من المستبعد أن يكون الانتصار الذي حققه النبي وجيشه في بدر هو الذي حرك نصارى نجران، مع ما كان يصلهم من الحبشة وغيرها من أخبار الدعوة المحمدية ونجاحاتها.

تطرح المقدمة بعبارات قوية التصور الإسلامي للألوهية وهو الموضوع الأساسي الذي جاء من أجله وفد نصارى نجران ليستكشف حقيقة موقف الإسلام من عقيدة التثليث، خاصة ألوهية عيسى، فتؤكد بقوة أن الألوهية لله وحد وأن العقيدة الحق هي التي جاء بها القرآن المنزل على الرسول محمد بن عبد الله، وأن هذه العقيدة لا تتناقض مع التي جاءت بها التوراة والإنجيل وأن فيها الفرقان بين الحق الذي جاءا به وبين الباطل الذي تسرب إليهما بالزيادة والنقصان فيهما.

2- بعد هذا العرض الصريح لجوهر العقيدة الإسلامية تنتقل السورة إلى الرد على شبهات وفد نصارى نجران فتؤكد أن الله لا تخفى عليه حقيقة عيسى وأنه هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ"، بما في ذلك عيسى الذي خلقه في رحم مريم دون أن يمسسها بشر، وأنه مع ذلك تبقى حقيقته أنه بشر كسائر البشر. أما ما أثاره وفد نجران وغيره من شبهة في هذا الموضوع فراجع إلى عدم تمييزهم بين المحكمات والمتشابهات في الآيات والمعجزات التي يبين الله بها للناس ما يريد تبليغه عليه وإقناعهم به. والناس في هذا صنفان صنف مؤمن عارف بما هو محكم وما هو متشابه فيتبع المحكم ويفهم على ضوئه ما يبدو متشابها ملتبسا، وصنف في قلوبهم زيغ يتمسكون بما هو متشابه دورن رده إلى المحكم، وغرضهم من ذلك إثارة الفتنة والبلبلة في العقول، بهدف جر الناس إلى ما يريدون الوصول إليه وجعله هو الحقيقة. هذا في حين أن الحقيقة التي تثوي وراء المتشابه لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم، وهم المؤمنون بالقرآن كوحي من الله، يعرفون المحكم ويعرفون المتشابه ويضعون كلا منهما في مكانه ويقولون كل من عند ربنا... هذه الفقرة هي بمثابة التقديم والإعداد لحكاية الجدال الذي حدث مع وفد نجران حول حقيقة المسيح بن مريم عليه السلام.

3- وتأتي الفقرة الثالثة لتقوم بالشيء نفسه بالنسبة للجدل الذي جرى مع اليهود، لدفعهم لاستخلاص العبرة من انتصار المسلمين في غزوة بدر. لقد جمع الرسول اليهود، كما ذكرنا في الهامش رقم 36، ليدعوهم إلى الالتحاق بصفوف المسلمين قبل أن يفوت الأوان منبها إلى الانتصار الذي حققه المسلمون على

مشركي مكة والهزيمة التي لحقت بهؤلاء، فكان جوابهم من الوقاحة إلى الدرجة التي هددوه فيها بمعرفتهم بأساليب الحرب وبأنه سيرى منهم إذا دخل معهم في حرب ما لا يتصور ولا يتوقع. وعلى هذه الوقاحة ردت السورة بتذكيرهم بأنه لا أموالهم ولا أموالهم ستغني عنهم شيئا وأن مآلهم سيكون كمآل فرعون الذين أخذهم الله بذنوبهم فكان مصيرهم الغرق، وأنهم إن دخلوا في حرب مع المسلمين سيغلبون وسيحشرون إلى جهنم. ثم دعتم السورة إلى استخلاص العبرة من واقعة بدر، حيث غلبت فئة قليلة هم المسلمون فئة كبيرة العدد والعدة هم مشركو مكة بقيادة زعمائهم وعلى رأسهم أبو جهل. إن فئة المسلمين فئة مجاهدة، أما اليهود فمعروف عنهم أنهم يحبون "الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ"، ثم تنصحهم بالالتحاق بصفوف المسلمين وأنهم بذلك سيجدون عند ربهم في الحياة الأخرى "جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ".

4- ثم تأتي الفقرة الرابعة لتبدأ الجدل مع اليهود، فتقرر إن دين الله في الأصل هو الإسلام، دين إبراهيم، وأنه هو ما جاءت به التوراة والإنجيل، وأن اختلاف النصارى واليهود في هذا الدين إنما يرجع إلى حسد بعضهم لبعض، وأن القرآن جاء مصدقا للتوراة والإنجيل غير متأثر بالخلاف بين أهلهما، بل جاء ليصحح ما اعتراهما من تحريف. ثم تأمر السورة الرسول بتبليغ ذلك للجميع بما في ذلك مشركي مكة، فإن سلموا بما في القرآن، وآمنوا به فهم مسلمون على هدى من الله: فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ". ثم تأخذ السورة في تقريع اليهود بتذكيرهم بأعمال أسلافهم: الذين كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين والصالحين". أما يهود المدينة الذين أوتوا نصيبا من الكتاب فهم لا يطبقونه عندما يكون في غير صالحهم في وقت من الأوقات، وهكذا فهم لم يترددوا في دعوة بعضهم بعضا إلى تحكيم الرسول في نزاع نشب بينهم. ومع أن الصحيفة/الميثاق التي أبرمها الرسول معهم تتيح لهم ذلك وأنه عليه السلام قد حكم بينهم بما عندهم في التوراة فقد ولوا معرضين غير راضين ففضلوا تحكيم الرشوة التي يدفعونها لمن يفتي لهم من الأحبار بما يريدون، غير عابئين بحكم التوراة وبوعيدها بجهنم لمن خالف أمرها قائلين "لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ"، معتمدين على ما كانوا يفترون على دينهم. ثم تتوجه السورة إلى الذين ألفوا واعتدوا -من سكان المدينة- معاشرة اليهود وصحبتهم، فتذكرهم بالنصر العظيم الذي تحقق للمسلمين يوم بدر وتحذرمن اتخاذ

المسلمين للكافرين من اليهود وغيرهم أوليا دون المؤمنين، وتدعوهم إلى اتّباع الرسول إن كانوا يحبون الله فعلا.

5- ثم تنتقل السورة إلى مجادلة النصارى في أمر عيسى فتذرهم أن لائحة أنبياء الله ورسله تمتد إلى آدم ونوح ثم إلى آل إبراهيم وذريته من إسماعيل وإسحاق، ثم إلى آل عمران أسرة مريم. ثم تحكي قصتها، وحملها من دون أن يمسسها بشر. وإنما هو خلق الله الذي إذا "قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. وبعد أن أخذ عيسى في تبليغ الرسالة عارضه اليهود وتآمروا على قتله وصلبه فأفشل الله خطتهم بأن رفعه إليه. ولما احتجوا بأن الله صرح في القرآن نفسه أنه نفخ في فرج مريم من روحه، رد عليه القرآن بأن بيّن أن الشبهة التي وقعوا فيها راجعة إلى أنهم لم يفهموا أن النفخ الذي خلق به عيسى هو نفسه الذي خلق به آدم من قبل: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ : خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ".

6- بعد ذلك تنتقل السورة، متجاوزة النقاش حول طبيعة عيسى إلى دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الرجوع إلى دين إبراهيم وتكوين أمة واحدة قائمة على عبادة الله وحده وعدم الشرك به. وذلك هو دين إبراهيم : "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ". أما ادعاء اليهود بأن إبراهيم كان يهوديا وادعاء النصارى أنه كان نصرانيا فادعاء يكذبه التاريخ، ذلك أن إبراهيم عاش قبل نزول التوراة على موسى والإنجيل على موسى، وبالتالي فأولى الناس به هم الذين اتبعوه ومنهم النبي محمدا عليه السلام والمؤمنون برسالته... ثم تعرض السورة عليهم من جديد الدخول في الإسلام الذي يعترف بجميع الأنبياء والرسل: "قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

7- بعد هذه الدعوة الصريحة التي تعترف بجميع الأنبياء والرسل تؤكد السورة أن مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ". والخطاب هنا استمرار لما سبق، أعني أنه موجه إلى اليهود. ثم تبيان السبب في إخراج اليهود من الإسلام بهذا المعنى فذكر بأنهم كفروا بمحمد حين جاءهم يدعوهم إلى الإسلام، بينما كانوا يؤمنون به قبل أن يأتيهم، بناء على ما جاءهم عنه من البينات في التوراة. لقد ظلموا بإنكارهم ليس فقط نبوة محمد بل أيضا بإخفائهم ما عندهم عنه في التوراة، ولذلك كان جزاؤهم جهنم، "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ. أما الذين لم يتوبوا وأمعنوا في غيرهم "وازدادوا كفرا" بمحاولاتهم زرع الفتنة بين صفوف المؤمنين في المدينة فـ"لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ.

ثم ترد السورة بعد ذلك على اعتزاز اليهود بكونهم أصحاب أموال قائلة: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ (لا التوبة ولا الجنة) حَتَّى تُنْفِقُوا (هنا في الدنيا) مِمَّا تُحِبُّونَ"(35). وأنتم لا تفعلون ذلك. إنكم تحرمون أطعمة وتنسبون هذا التحريم للتوراة ثم تتخذون ذلك ذريعة لعدم التصدق بها، وهذا كذب، فالحقيقة أن "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ" وإذا أصروا على دعواهم هذه فـ "قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا" لـنَرَ هل حقا فيها تحريم ما تحرمون النفقة منه! لا. ليس الأمر كما تدعون، إذن قُلْ (يا محمد) صَدَقَ اللَّهُ، فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (مسلما) وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"

ومباشرة ترد عليهم في السياق نفسه على مؤاخذتهم النبي بترك قبلتهم والتوجه إلى مكة فتصحح ما عندهم في التوراة وتقول: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا (36) وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ96. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ، مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنْ دَخَلَهُ

35- جميع المفسرين يذهبون إلى أن الخطاب في هذه الآية للمسلمين، وهذا يجعلها مقطوعة الصلة بما قبلها وما بعدها، وقد اعتبرها ابن عاشور اعتراضية، والجملة الاعتراضية (أو المعترضة) لا تعني الخروج تماما عن السياق، فهي تكون بين متلازمين كالمبتدأ والخبر للتفصيل ومزيد بيان أو للاستثناء والاحتراس فهي الخ، ولا تكون جملة يتيمة منقطعة عما قبلها وما بعدها، وهذا النوع من الجمل اليتيمة لا تليق ببيان القرآن وبلاغته، ولا ينفع فيه القول بأن القرآن نزل منجما، لأن كونه نزل مفرقا لا ينزع المعقولية عن وحداته الخطابية (العبارات) ولا عن سياقاته. وبناء عليه نحن نرجح أن يكون الخطاب في هذه الآية موجها لليهود، وبذلك تكون علاقتها بما بعدها واضحة (كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل)، أما علاقتها مع ما قبلها فواضح من قوله تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ"، أي لن تقبل منهم التوبة يوم القيامة ولو قدموا من أجلها من الذهب قدر ما يملأ الأرض! إن التوبة وبالتالي الجنة ليست مرهونة بمقدار ما بإمكانهم أن ينفقوا بل تتوقف على أن ينفقوا الآن مما يحبون، قال القرطبي: "لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء تأملون العيش وتخشون الفقر"، وهذا في نظرنا أولى أن يقال لليهود.

36- نقرأ في التوراة التي بين أيدينا أن البيت الذي بناه إبراهيم عند مجيئه إلى فلسطين مهاجرا من "أور" (من أرض الكلدانيين) يقع في أرض الكنعانيين. فقد= ورد في التوراة : "6فَشَرَعَ أَبْرَامُ يَتَنَقَّلُ فِي الأَرْضِ إِلَى أَنْ بَلَغَ مَوْضِعَ شَكِيمَ إِلَى سَهْلِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ

كَانَ آَمِنًا". ثم تدعو الناس جميعا، بما فيهم اليهود والنصارى، إلى الحجُّ إلى هذا الْبَيْتِ وجعلت ذلك فرضا على كل مسلم "اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا". وإذا رفض اليهود أو غيرهم الحج إليه "فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ[97]. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ (بشريعة الله وحججه) وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ[98] (يشهد ويراقب ويحصي). قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ (بالرسول محمد)، تَبْغُونَهَا (سبيل الله) عِوَجًا (معوجة : تضلون الناس) وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ (على أن الذي تصدون الناس عنه هو الحق)، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[99].

8- بعد ذلك تنتقل السورة في الفقرة الثامنة إلى مخاطبة الذين أعلنوا إيمانهم بالرسول من سكان المدينة، والذين ما زالوا يحتفظون بعلاقة المودة مع اليهود، وهم المنافقون خاصة، فتنبههم إلى أنهم إذا استمعوا لحديث اليهود الذين يزرعون الفتنة بين الأوس والخزرج فإنهم سينقلبون بعد إيمانهم كافرين، يقاتل بعضهم بعضا كما كانوا قبل الإسلام، ثم تدعوهم الاعتصام بالله : "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ (عهد الله) جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً (تتقاتلون) فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ (بإسلامكم) فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ (كنتم حين أسلمتم في بيعة العقبة على وشك الإقتتال) فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ (كما حدث لليهود والنصارى بعد أنبيائهم) وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ".

9- وتواصل السورة نصحها لأهل يثرب فتذكرهم بأنهم كانوا[(37)] بعد بيعة العقبة وهجرة النبي عليه السلام "خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" وتعملون على نشر الإسلام، وتضيف السورة

آنَئِذٍ يَقْطُنُونَ تِلْكَ الأَرْضَ. 7وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «سَأُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ لِذُرِّيَّتِكَ». فَبَنَى أَبْرَامُ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. 8وَانْتَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيل حَيْثُ نَصَبَ خِيَامَهُ مَا بَيْنَ بَيْتِ إِيل غَرْباً وَعَايَ شَرْقاً وَشَيَّدَ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِهِ. 9ثُمَّ تَابَعَ أَبْرَامُ ارْتِحَالَهُ نَحْوَ الْجَنُوبِ". (بيت إيل هي حاليا بيتين وتقع على بعد 18 كم شمال شرق القدس.

37- جل المفسرين يجعلون "المهاجرين" هم المقصودين، لأنهم هاجروا مع الرسول من مكة، وهذا فهم لا يزكيه السياق، فالكلام هنا مع الأوس والخزرج الذين بايعوا في العقبة ورجعوا إلى يثرب ينشرون الإسلام، والآية التالية تخاطب يهود المدينة، وإذن فالخطاب كله متجه لأهل المدينة تارة للأنصار وتارة لليهود.

استطراد : المحكم والمتشابه

1- الخطاب القرآني وبداية التأويل

المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، في القرآن، من أكثر الموضوعات التي كانت وما تزال مجالا للاختلاف بين علماء المسلمين: المفسرين منهم والأصوليين والفقهاء والمتكلمين والمؤلفين في علوم القرآن الخ. بل إن كثيرا من الفرق السياسية والدينية في الإسلام، إن لم يكن جميعها، تستند بصورة أو أخرى، إلى آيات من القرآن تعتبرها محكمة، في إضفاء المشروعية الدينية على آرائها وتحركاتها وثوراتها أو استكانتها، بينما يعتبرها غيرها من المتشابهات.

وحتى لا نلقي بالقارئ -منذ البداية- في خضم التعريفات التي كثيرا ما تكون متأثرة بالمواقف الدينية والسياسية لأصحابها، ننطلق من "الواقع" الذي تعود إليه ظاهرة نشوء المفاهيم التي نحن بصددها: واقع الدعوة المحمدية، أعني ظروفها الاجتماعية والثقافية والحضارية العامة. ويهمنا هنا أن نبرز من هذا "الواقع" الجانب الذي يخص مفهوم "المحكم والمتشابه"؛ وميدانه الكلام في العقيدة.

كان الخطاب القرآني موجها إلى العرب بلغتهم وحسب طرقهم في التعبير وفي إطار معهودهم الثقافي والحضاري العام. وقد جاءهم بعقيدة جديدة أساسها "التوحيد"، أي القول بإله واحد لا شريك له، في وقت كانوا يؤمنون فيه بآلهة متعددة يجسمونها في تماثيل من الحجر وغيره (الأصنام).

وهكذا فعندما كان القرآن يخاطب العرب متحدثا عن الله، عن ذاته وصفاته وأفعاله، فإنه كان يستعمل، ضرورة، ألفاظا وعبارات وأساليب في التعبير من المعهود اللغوي عند العرب، فكانت لا تثير في عقولهم أي إشكال. فعبارات مثل قوله تعالى: "الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى" (طه 5)، وقوله: "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (الرحمان 26-27)، وقوله: "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" (القيامة 22-23)، وقوله: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (النحل 93)، وقوله: "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (الإنسان 3) الخ، إن مثل هذه العبارات، أو الآيات، التي جاءت غير متعارضة مع أسلوب العرب في التجوز في الكلام (استعمال المجاز) لم تكن لتثير في أذهان خصوم الدعوة المحمدية، بله أتباعها، تلك الإشكالات الفكرية التي أثيرت فيما بعد حين أصبحت العقائد الدينية موضوع كلام وجدال منذ أواخر العصر الأموي، عندما صار المجتمع العربي

الإسلامي يتحول إلى مسرح لكثير من الملل والنحل. إن الاحتكاك بين العقائد الدينية والجدل بين أهلها هو الذي يفسح المجال لظهور مثل تلك الإشكالات من خلال اكتشاف التناقض أو الاختلاف بين ما تقرره هذه العقيدة أو تلك في سياق، وما تنفيه في سياق آخر؛ ومن هنا نشأة التأويل.

2- التأويل: ثلاث مرجعيات

وإذا نحن أردنا "التأريخ" لظهور مثل تلك الإشكالات في تاريخ الفكر الإسلامي منذ البداية فسيكون علينا أن نرجع إلى العصر النبوي نفسه. ذلك أن إشكالات من هذا النوع قد برزت في المدينة على عهد الرسول عليه السلام حين أخذ سكانها من اليهود يلمزون في القرآن ويطرحون على النبي والمسلمين أسئلة بقصد التشويش والإحراج والتحدي، موظفين في ذلك تراثهم العقدي التوراتي لإبراز ما يعتبرونه تناقضا أو غموضا، من ثم التشكيك في كون القرآن من عند الله. أما بعد العصر النبوي فقد بدأ التعامل "المعرفي"[38] مع القرآن ينحو نحو التفسير والتأويل[39]، وكان المستند الأساس في ذلك منذ أوائل العصر الأموي ثلاث مرجعيات: اللغة، الموروث الإسلامي (الحديث، أقوال الصحابة)، ثم "الموروث القديم"[40] وفي مقدمته ما اصطلح على تسميته بالإسرائيليات[41] بصفة خاصة. وواضح أن اختلاف هذه المرجعيات من حيث طبيعتها وآفاقها وتعدد منازعها سيكون له أثره الكبير في "فهم القرآن" من طرف علماء الإسلام، المفسرين وغيرهم. وفي الموضوع الذي يهمنا هنا، موضوع المحكم والمتشابه الذي يلقي بظلاله على المناقشات التي عرفها الفكر الإسلامي في موضوع العقيدة خاصة، كانت الآية التي يستمد منها الفرقاء مشروعية ما يقترحونه من آراء على صعيد

---

38 – نقصد بـ"التعامل المعرفي" الاتجاه نحو فهم القرآن وتأويل آياته وتوظيفها لأغراض مختلفة، كالوعظ والدروس العلمية في المساجد، وأيضا لأغراض سياسية ومذهبية.

39 – الفرق بين التفسير والتأويل : قال بعضهم "التفسير هو بينا وضع اللفظ حقيقة أو مجازا"، أما التأويل فهو بيان المعاني التي تستفاد من وضع اللفظ". وكثيرا ما ربطوا التفسير بالرواية والتأويل بالدراية". وبعبارة أخرى : التفسير هو بيان معنى اللفظ في اللغة مستقلا عن المتكلم، والتأويل هو الرجوع بع إلى مراد المتكلم.

40 – ما انتقل إلى الفكر العربي من الثقافات السابقة للإسلام.

41 – الإسرائيليات: مجموع التأويلات التي ترجع إلى الثقافة اليهودية التوراتية، وقد غزت التفسير والحديث في الإسلام منذ زمن الصحابة.

التأويل هي قوله تعالى بصدد القرآن مخاطبا رسوله الكريم: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ" (آل عمران 7).

والاختلاف يبدأ من فهم هذه الآية نفسها ويطال معناها العام كما يطال ألفاظها: المحكم، والمتشابه، أم الكتاب، التأويل، الراسخون في العلم؛ كما يطال الاختلاف أيضا : أيُّ الآيات هي محكمات؟ وأيها متشابهات؟ ومن هم "الراسخون في العلم"؟

ومما زاد المسألة تعقيدا، أن المتكلمين ورواة "أسباب النزول" والمفسرين، يتعاملون في الأعم الأغلب مع هذه الآية، كما ذكرناها، بدون ربطها لا بالسياق العام الذي تنتمي إليه ولا بموقعها من ترتيب النزول، ولا بغيرها من الآيات التي تحدثت عن "التشابه" مستعملة هذا اللفظ نفسه أو ما في معناه. والذين منهم قاموا بهذا النوع من الربط قالوا بآراء لا شيء يبررها إلا كونها مما يصح أن يفترض.

وأدهى من ذلك وأدعى إلى الالتباس أنهم، عندما يتحدثون عن المحكم والمتشابه من "الآيات"، يقصرون معنى الآية على المعنى الذي يفهم من قولنا "آية من القرآن". هذا في حين أن "الآية من القرآن" كما ترسم في المصحف قد تكون كلمة واحدة مثل "الرحمان" (وكذا بعض فواتح السور من الحروف المقطعة مثل يس، طه، الم، المص، طسم...)، وقد تكون كلمتين مثل "مدهامَّتان" (الرحمان 64)، كما قد تضم الآية الواحدة عددا من الجمل والعبارات لا تشكل جملة مفيدة بالمعنى النحوي! وبالعكس من ذلك هناك آيات طويلة (وأطولها آية الدين وتشتمل على 133 كلمة : البقرة 182) تتألف من جمَل مفيدة عديدة.

وكما بينا في الاستطراد السابق الذي كان موضوعه مسألة "الناسخ والمنسوخ" فإننا لا نعثر في القرآن على استعمال لكلمة "آية" بمعنى "الجزء من نص القرآن"، حروفا وألفاظا، بل جميع العبارات القرآنية التي ورد فيها لفظ "آية" إنما تحيل إلى معنى "العلامة" والحجة والدليل بما في ذلك ما جرت به العادة، وما هو في حكم خرق العادة. إن التقيد بمدلول لفظ "آية"، بوصفه "العلامة" وما في معناها وحكمها، ضروري. ذك أن التساهل في تحديد هذا المدلول قد سهل الانسياق إلى وآراء ومذاهب كان من الممكن تجنبها لو قيد التفكير في معنى "الآية" بمضامين محددة. من ذلك قول بعضهم: القرآن كله محكم لقوله تعالى

"كتاب أحكمت آياته" (هود 1)، وقول آخرين، بالعكس، القرآن كله متشابه لقوله تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ" (الزمر 13). هذا بينما ذهبت الأكثريةإلى القول بأن القرآن فيه محكم وفيه متشابه بناء على قوله تعالى: "مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ" (آل عمران 106).

3- آية المحكم والمتشابه: سياقها الذي تتحدد به.

وبغض النظر عما قلناه قبل من أن لفظ "الآية" لم يستعمل في القرآن قط بمعنى "قطعة منه"، فإن شيوع هذا الاصطلاح الذي لا نعلم متى بدأ وانتشر، يضطرنا إلى استعماله بدل البحث عن مصطلح آخر مثل الجملة أو العبارة أو المقطع الخ. وهكذا سنحتفظ بالعبارة المتعارفة فنقول "آية المحكم والمتشابه" وبالتحديد "الآيات" التي يتشكل منها السياق الذي يتحدد به وفيه معنى "المحكم والمتشابه" وهي قوله تعالى في مقدمة سورة آل عمران: "الم، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، نَزَّلَ لَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ. هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ" (آل عمران 1-7).

إن استحضار هذه الآيات السبع ضروري لأنها تشكل كلا واحدا يؤطر معنى أجزائه. ومثل هذا "الكل" هو ما نقصده هنا بالسياق، عندما يتعلق الأمر بآية من آيات القرآن. ونحن نحرص على هذا الأمر لأن عزل آية عن سياقها -عما قبلها وما بعدها- كثيرا ما يفتح الباب أمام تخمينات وتأويلات "حرة"، يبحث لها صاحبها عن سند لها في آيات أخرى أو في الحديث أو في أقوال "السلف" الخ، في حين أن الآية المعنية إنما يتحدد معناها، أوّلاً وقبل كل شيء، ضمن السياق الذي وردت فيه. والسياق في آيات المحكم والمتشابه التي ذكرنا، سياق واضح يؤكد جملة أمور:

1- أن الله واحد لا شريك له: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ...".

2- أن ما جاء به القرآن هو الحق، وأنه جاء في ذلك مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل،

3- والحق الذي يعنيه القرآن في هذه الآيات هو: أن الله هو الذي يصور كل مولود "فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ".

4- القرآن فيه آيات محكمات وأخر متشابهات.

5- أما "الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ"،

6- "وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا".

7- دعاء: "رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا" الآية.

والسؤال الذي يتوقف عليه فهم هذه القضايا السبع هو التالي: ما الذي يربط بين هذه القضايا ويجعلها تدخل في سياق واحد؟

- علامات تؤطر السياق

هناك أربع عبارات/علامات دالة في هذا الصدد هي: 1) الله لا إله إلا هو، 2) التوراة والإنجيل، 3) يصوركم في الأرحام، 4) الذين في قلوبهم زيغ. وهذه العلامات تشير أولا إلى أن مجال الخطاب هنا هو العقيدة، وليس الشريعة، وأن هذا الخطاب هو خطاب جدل، يدخل فيما يسميه المتكلمون بـ: "الرد على المخالفين".

أما المخالفون فلم يذكروا بالتحديد، وإن كان ذكر "التوراة والإنجيل"، يمكن اعتباره علامة على أن "المخالفين" هم الذين يدينون بهما، ويعارضون عقيدة الإسلام، هدفهم زرع البلبلة والشك و"الزيغ" و"الفتنة" بين المسلمين. وللتأكد من ذلك لابد من الرجوع إلى الظروف التي نزلت فيها هذه الآيات، وهي ظروف معروفة لحسن الحظ، سجلها المؤرخون وكتاب السيرة الأوائل، وفي مقدمتهم ابن إسحق الذي روى ما يلي.[42]

42- ذكر الطبري روايات أخرى عن أسباب نزول تلك الآيات فقال: "وقال آخرون: أنزلت هذه الآية في أبي ياسر بن أخطب، وأخيه حيي بن أخطب، والنفر الذين ناظروا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قدر مدة أجله وأجل أمته، وأرادوا علم ذلك من قبل قوله: الـم، والمص، والمر، والر، فقال الله جل ثناؤه فيهم: 'فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ' يعني هؤلاء اليهود الذين قلوبهم مائلة عن الهدى والحق، "فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ" يعني معاني هذه الحروف المقطعة المحتملة التصريف في الوجوه المختلفة من التأويلات ابتغاء الفتنة. "وقال آخرون: بل عنى الله عزّ وجلّ بذلك كل مبتدع في دينه بدعة مخالفة لما ابتعث به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بتأويل يتأوله من بعض آي القرآن المحتملة التأويلات، وإن

4- وفد نصارى نجران يجادل الرسول : - المتشابه: والمحكم

روى ابن إسحق في السيرة أن وفدا من كبار نصارى نجران (باليمن) قدم إلى المدينة ليناقش مع النبي (ص) موقف الإسلام من طبيعة المسيح عليه السلام، وكانوا يقولون بألوهيته، ومعلوم أن القرآن قد أكد، منذ البداية، أن عيسى ابن مريم بشر وليس إلها ولا ابنا للإله. وتقول الرواية إنهم قد احتجوا لقولهم بألوهية المسيح بأنه : "لم يكن له أب يُعلم، وقد تكلم في المهد، وهذا لم يصنعه أحد من وُلْد آدم قبله. ويحتجون لقولهم: "إنه ثالثُ ثلاثة" باستعمال الله في القرآن والتوراة والإنجيل ضمير الجمع : فَعَلْنا، وأمرنا، وخلقْنا، وقَضَيْنا، فقاولوا: لو كان واحداً ما قال إلا فعلتُ، وقضيتُ، وأمرتُ، وخلقتُ، ولكنه هو، وعيسى، ومريم". وقد اعترض عليهم الرسول عليه السلام بأن عيسى بشر فكيف يكون ابنا للإله؟ فردوا بقولهم : فمن أبوه يا محمد"؟ وأضافوا: "ألست تزعم أن عيسى روح الله وكلمته"؟. وتقول الرواية: فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم كله، صدر سورة آل عمران، إلى بضع وثمانين آية".

واضح مما ذكره ابن إسحق في الجملة الأخيرة أن سياق آيات "المحكم والمتشابه"، أكثر اتساعا من الآيات السبع الأولى التي ذكرنا من سورة آل عمران، فهو يشمل أزيد من ثمانين آية (123) يندرج معظمها في إطار الجدل مع أهل الكتاب عموما ومع النصارى خصوصا، وفيها رد القرآن على دعاوى وفد نصارى نجران ثم دعاهم في نهاية اللقاء إلى "المباهلة" (43).

كان الله قد أحكم بيان ذلك، إما في كتابه وإما على لسان رسوله". هذا وقد ربط كثير من المحدثين هذه الآية بأصل فرقة "الخوارج" "وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية: "فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ" قال: إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدري من هم؟ ثم يذكر الطبري ما أيد به هؤلاء رأيهم، ويتعلق الأمر بجملة أحاديث منسوبة للنبي تتنبأ بالخوارج وصفاتهم وتوصي بالحذر منهم. غير أن هذه الروايات تبدو أضعف كثيرا من رواية ابن إسحق المذكورة أعلاه. فسياق الآيات الثمانين الأولى من سورة آل عمران يشهد بذلك، أما الروايات الأخرى فواضح أنها تقع خارج السياق، وفيها "رائحة" الوضع.

43- والـمُباهلة: الـمُلاَعَنَة. ويقال: باهَلْت فلاناً أي لاعنته، ومعنى الـمباهلة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لَعْنَةُ الله على الظالم منا". أي يدعو كلُّ من= الطرفين بالهلاك على نفسه إن كان من الكاذبين. وتقول الرواية إن أحد كبار الوفد كان يؤمن بأن محمدا رسول الله طبقا لما عندهم في الإنجيل، فحذر رفاقه من الحلف على الكذب،

وما يهما هنا هو أن هذه الآيات/السياق تشير بوضوح إلى أن الآيات المتشابهات هي كالتي احتج بها وفد نجران حين خاطب النبي: "ألست تزعم أن عيسى روح الله وكلمته"، مشيرين بذلك إلى قوله تعالى: "فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا (إلى مريم) رُوحَنَا [44] فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا" (مريم 17)، وقوله "وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا" (التحريم 12)، وقوله: "وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" (البقرة 253)[45]. فالتشابه هنا هو تصور النصارى أن كون عيسى ابن مريم هو نتيجة نفخ الله من روحه في رحم مريم يلزم عنه أن علاقته به هي من نوع العلاقة التي يكون بها الابن ابنا لأبيه، كما هو الحال لدى البشر. وهذا قياس باطل لأنه يقوم على المطابقة بين فعل الإله وفعل البشر، وهما ليسا من طبيعة واحدة [46]. والقياس الصحيح يجب أن يكون بين متماثلين : بين عيسى وآدم، فهما متماثلان، من طبيعة واحدة. لقد نفخ الله في رحم مريم فتكوَّن عيسى كما نفخ في الطين فتكوَّن آدم. والنفخ هنا هو نفسه هناك، ومعناه : "الكلمة" التي تقتضي الإيجاد: هي "قوله كن". قال تعالى: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (آل عمران 59).

النفخ الإلهي الذي خلق منه آدم هو نفسه الذي خلق منه عيسى. وهكذا فقوله تعالى: "وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ" (آل عمران-12) يشرحه تعالى

فخافوا وطلبوا من الرسول أن يبعث معهم من يمثله وتراضوا على ما يشبه الجزية. انظر التفاصيل في"مدخل إلى القرآن". الطبعة المغربية. ص. 186. وأيضا: 377 . طبعة بيروت 208، أيضا 414. وقد نزلت آية الملاعنة في الزوج يتهم زوجته بالخيانة الزوجية ولا شهادة لديه تثبت ذلك أمام إنكار الزوجة. قال تعالى: وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ (يقسم بالله أربع مرات) إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (النور 7/6)

44 – يميل أكثر المفسرين إلى القول إن المقصود بـ "الروح" في مثل هذه العبارة هو جبريل.

45- وقوله عليه السلام في رسالته إلى كبير أساقفة الروم على عهد هرقل: " فإن عيسى بن مريم روح الله وكلمة ألقاها إلى مريم الزكية".

46 – ورد لفظ التشابه في آيات عديدة، ولكنه لا يعني المطابقة بأية حال. فقوله تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ" (الزمر 23)، أي فيه آيات وقصص و.. و.. مشابهة، ولكنها ليست مكرورة ولا متطابقة، وكذلك قوله: "وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ" (الأنعام 99).

في سورة أخرى نزلت قبل سورة آل عمران، حيث نقرأ: "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" (ص71– 72). وهكذا فالجواب عن السؤال الذي طرحه وفد نجران على النبي عليه السلام بقولهم "فمن أبوه يا محمد"؟ قد جاء على الصيغة التالية: كما أن الله خلق آدم من دون أب، وهذا ما يؤمن به النصارى واليهود، خلق عيسى كذلك من دون آب. وكما أن "الخلق من دون أب" لم يجعل من أدم ابنا لله، فكذلك الشأن في عيسى. وأما كيفية الخلق فيشرحها تعالى لمريم عندما أتاها جبريل يبشرها بأنها ستلد ولدا فــ: "قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ؟ قَالَ كَذَلِكِ (= نعم سيكون لك ولد من دون أن يمسك بشر). اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ. إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (آل عمران 47).

وقد تكرر هذا بصيغ متنوعة في سورة مكية ومدنية، قال تعالى: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (البقرة 117)، وقال: " أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس81– 82)، وأيضا : "هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (غافر 68).

من هنا يتضح معنى "الآيات المحكمات" : إنها الفعل الإلهي الذي يدل على وجود الله، وعلى وحدته وقدرته الخ، والذي يتمثل في خلق السماوات والأرض، وخلق آدم من طين، وخلق الملائكة من نور، وخلق عيسى في رحم مريم. ولذلك كان الاعتقاد بأن عيسى ابن الله وأن أمه ذات طبيعة إلهية أو تشارك الله في الألوهية هو غلو في الدين وابتعاد عن الحق. ذلك قوله تعالى: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ. انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا" (النساء 171).

الآيات المحكمات هي العلامات والدلائل والظواهر الكونية التي تدل على أن الله إله واحد، فهن "أم الكتاب" [47]، بمعنى الأصل الذي يجب أن ترد إليه الفروع والحواشي، مثلها مثل "أم القرى" (مكة) التي تحج إليها القبائل العربية لممارسة الدين (الحج وشعائره). أما المتشابهات فهي العلامات التي أراد الله بها

---

47 – وردت عبارة "أم الكتاب" في آيات أخرى، وهي تحتمل في جميعها هذا المعنى : معنى الأصل والمرجع. وقد حملها بعض المفسرين على أنها "اللوح المحفوظ".

إثبات فعل خارق للعادة لأنبيائه ورسله ليكون لهم عند أقوامهم كعلامات على صدق نبوتهم مثل كون عيسى ولد من دون أب وكونه يصنع مِنَ الطِّينِ مثال الطير فينفخ فِيهِ "فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ" الخ[48].

من هنا ندرك أن مفهوم "المتشابه" في القرآن ليس معناه اللفظ أو الألفاظ الملتبسة الغامضة، فالقرآن نزل "بلسان عربي مبين"، فلا يجوز القول إن ألفاظه أو عباراته يكتنفها الغموض، ولو كان الأمر كذلك لاعترضت عليه قريش. ولم يسجل لنا التاريخ في هذا الشأن سوى حالتين اعترضت فيهما قريش على النبي لأنهما من المتشابه بالمعنى الذي شرحناه. الحالة الأولى تتعلق بقوله تعالى : "عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ" : على جهنم تسعة عشر من الحراس (المدثر 30) والثانية تخص "شجرة الزقوم" التي ذكر القرآن أنها شجرة في جهنم [49].

---

48 - ذكر المفسرون أقوالا عدة في معنى المحكمات والمتشابهات، وهي أقوال لا علاقة لها بالسياق ولا مرجع لها إلا غلبة الأفق الفقهي على فهمهم لآي الذكر الحكيم. من ذلك قول= بعضهم: المحكمات من آي القرآن: المعمول بهنّ، وهن الناسخات، أو المثبتات الأحكام؛ والمتشابهات: المتروك العمل بهن، المنسوخات. وقد فصل بعضهم فقال: المحكمات: ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، وما يؤمن به، ويعمل به. والمتشابهات : منسوخه، ومقدّمه، ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه، وما يؤمن به، ولا يعمل به. وقال آخرون: المحكمات من آي الكتاب: ما لم يحتمل من التأويل غير وجه واحد؛ والمتشابه منها: ما احتمل من التأويل أوجها. بينما ذهب آخرون إلى القول : معنى المحكم: ما أحكم الله فيه من آي القرآن وقصص الأمم ورسلهم الذين أرسلوا إليهم، ففصله ببيان ذلك لمحمد وأمته. والمتشابه: هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور: فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني. وقال آخرون: بل المحكم من آي القرآن: ما عرف العلماء تأويله، وفهموا معناه وتفسيره؛ والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك نحو الخبر عن وقت مخرج عيسى ابن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناء الدنيا، وما أشبه ذلك، فإن ذلك لا يعلمه أحد (تفسير الطبري).

49 - بخصوص الآية الأولى تهكم خصوم الدعوة المحمدية من عدد 19 لكونه قليلا في نظرهم حتى قال بعضهم "أنا أكفيكم منهم كذا، فاكفوني الباقين". أما "شجرة الزقوم" فقد= اعترضوا عليها قائلين: كيف ينمو الشجر في جهنم وهي نار، والنار تأكل الشجر؟ وقد أورد المفسرون أقوالا كثيرة في الموضوعين وهي في نظرنا مجرد تخمينات، لأنها لا تجد ما يشرحها أو يسندها من القرآن. ونحن نري أن ما ورد في القرآن من أوصاف ونعوت للجنة والنار هي من قبيل ضرب المثل، فما وصف به نعيم الجنة هو من أجل الترغيب وما ورد بخصوص عذاب جهنم هو للترهيب والتخويف، ومثل أوصاف الجنة والنار ما ورد في

وقد رد القرآن عليهم في الأولى بأن تحديد عدد حراس جهنم في تسعة عشر هو من قبيل ضرب المثل، لا غير. والقصد منه إرباك الذين كفروا وإيقاعهم في الفتنة، مما يقوي يقين أهل الكتاب –الذين يؤمنون باليوم الآخر– ويزيد وفي إيمان المؤمنين وفي حيرة الكافرين. ذلك قوله تعالى: "وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ" (المدثر31). وإذن فالأمر لا يتعلق بحقائق دنيوية، حتى يعترض عليها، بل يتعلق بحقائق أخروية لا تخضع لمنطق البشر (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)، وهي عندما تذكر في القرآن فليس من أجل أن يفهمها الناس بالصيغة التي تذكر بها والتي يعبر عنها بما يشبهها في الحياة الدنيا، بل إن المقصود من ذكرها تذكير البشر بأن بعد هذه الحياة حساب وثواب أو عقاب : "وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ"، والهدف أن يؤمنوا ويعملوا الصالحات ويستقيموا فلا يظلموا.

ومثل العدد "تسعة عشر" في ذلك مثل "شجرة الزقوم" فالمقصود من ذكر هذه الشجرة، في السياق الذي ذكرت فيه، ليس من أجل أن يتخذ الله منها آية لإظهار قدرته وبديع صنعه، كما في آيات عديدة من القرآن مثل قوله تعالى : "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" (الغاشية 17–20) وقوله: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى" (طه 53–54)، بل إنما ذكرها (شجرة الزقزم) من أجل تخويف الذين كفروا وإيقاعهم في الفتنة. ولكي يزيدهم حيرة وفتنة أخذ يصف هذه الشجرة بما يجعلها أكثر تخويفا وأشد إرباك. قال تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ، إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا

القصص القرآني وفي غيره من الماورائيات، سواء تحدثت عن "التاريخ المقدس" تاريخ الأنبياء والرسل أو عن "التاريخ/المصير" الذي "يؤرخ" ليوم الدين : "وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ، ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ، يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ" (الانشقاق 19). انظر أيضا "المدخل إلى القرآن": طبعة المغرب ص 273، طبعة بيروت ص. 296، وأيضا خاتمة الكتاب: القصص القرآني بيان وبرهان.

(ثمرها) كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (يخالطها الماء الحار)، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ، إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ" (الصافات 63–70).

بعد هذين المثالين اللذان استطردنا فيهما لبيان معنى المتشابه في القرآن، نعود فنقول ليس "المتشابه" في اصطلاح القرآن هو اللفظ الملتبس الغامض المعنى بل هو ظاهرة منسوبة إلى الطبيعية أو إلى الجنة والنار أو إلى تاريخ الأنبياء والرسل، ليست من جملة معهود العرب، تشبه شيئا أو أشياء من معهودهم، ولكن لا يربطها بها إلا الاشتراك في الاسم (نفخ، تسعة عشر، شجرة...)، والقصد من الإشراك في التسمية هو إما الترغيب أو الترهيب أو الإقناع أو الإفحام الخ. إن المتشابه مثله مثل قصص الأنبياء والرسول، هي لضرب المثل، هي للذكري، والهدف منها تنبيه الغافلين: "وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ" (الذاريات 55).

5- في معنى التأويل

كان ذلك هو معنى "المحكم والمتشابه" كما يمكن استخلاصه، باعتماد السياق وسبب النزول، من الآية التي هي المرجع في هذا الموضوع. فلننظر الآن إلى مسألة "التأويل" كما تتحدد في القسم الثاني من نفس الآية. أقصد قوله تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ" (آل عمران 7).

لنقل أولا كلمة عن الفرق بين التفسير والتأويل : في معاجم اللغة أن "التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل"، أما "التأويل فهو "ردّ أحد المحتملين إلـــى ما يطابق الظاهر". ولا يكاد المرء يلمس فرقا واضحا بينهما: فالمشكل هو الملتبس الذي فيه خلط، فهو يحتمل أكثر من معنى، وكشف المراد منه أو رد أحد معانيه المحتملة إلى ما يطابق الظاهر، شيء واحد.

هذا في معاجم اللغة أما في الاصطلاح فأوضح تمييز بين التفسير والتأويل هو ذلك الذي يجعل مجال التفسير هو الشريعة وبالتخصيص الفقه، ومجال التأويل هو العقيدة وبالتحديد علم الكلام. غير أن وضوح هذا التمييز لا يلغي الاختلاف بين الممارسين لكل من التأويل والتفسير، الاختلاف الراجع ليس فقط إلى اختلاف القدرة على الإمساك بالمعنى سواء على مستوى التفسير أو مستوى التأويل، بل أيضا إلى الانتماء إلى هذا المذهب الفقهي أو ذاك وهذه الفرقة الكلامية أو تلك، ومدى التعصب لها.

يحاول صاحب كتاب كشف الظنون [50] أن يتجنب الآراء التي يبدو فيها التعصب واضحا والاكتفاء بتلك التي تلتزم قدرا معينا من الموضوعية والحياد. وهكذا نقرأ عنده البيانات التالية: "علم التفسير" هو "علم باحث عن معنى نظم القرآن، بحسب الطاقة البشرية، وبحسب ما تقتضيه القواعد العربية. ومبادئه: العلوم العربية وأصول (علم) الكلام وأصول الفقه، والجدل... وغير ذلك من العلوم الجمة. وفائدته: حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية، على وجه الصحة". هذه التحديدات (علم باحث، الاعتماد على قواعد اللغة والعلوم كالفقه والكلام والجدل) مكنته من وصف "التفسير" بكونه علما، ولكن بالمعنى البياني للكلمة (أي من العلوم المعتمدة لدى أهل السنة والمعتزلة). أما التأويل فنقرأ عنه (في نفس المصدر): إن "أصله من الأول، وهو الرجوع. فكأن المؤوِّل: صرَف الآيةَ إلى ما تحتمله من المعاني. وقيل: من الإيالة، وهي: السياسة. فكأنه ساس الكلام، ووضع المعنى موضعه. ثم ينقل رأيا للراغب الأصفهاني في الفرق بين التفسير والتأويل يقول فيه: "التفسير أعم من التأويل؛ وأكثر استعماله في الألفاظ، ومفرداتها؛ وأكثر استعمال التأويل في المعاني، والجمل؛ وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية. ثم يضيف: وقال أبو طالب التغلبي: التفسير بيان وضع اللفظ، إما: حقيقة أو مجازا؛ والتأويل: تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. واضح من أننا هنا إزاء تمييز محتشم بين "علم الظاهر" ويعطيه التفسير، و"علم الباطن" وأداته التأويل[51]. وصاحبنا يتجنب الخوض بتفصيل في هذا التصنيف ليختم بإبراز الموقف السني، واختياره. قال: "وقال قوم – منهم: البغوي، والكواشي: هو (التأويل): صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وبعدها، تحتمله الآية، غير مخالف للكتاب والسنة، من طريق الاستنباط"".

مجموع ما ذكرناه مفيد لتأطير ما نحن بصدده، أقصد قوله تعالى: "وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ" الآية، ولكنه لا يكفي في معرفة قصد الشارع من التأويل هنا. وللاقتراب منه لا بد من اعتماد مبدأ "القرآن يشرح بعضه بعضا"، لا بد من التماس معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما من القرآن نفسه. والواقع أننا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم فإننا سنجده يستعمل اللفظين في معنى مختلف.

50- حاجي خليفة: كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون.

51 – للحصول على تفاصيل أوفى حول التفسير والتأويل انظر كتابنا بنية العقل العربي: قسم البيان الفصل الأول والثاني وقسم العرفان الفصل الأول والثاني كذلك.

– فقوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا، وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا" (الفرقان 33)، معناه حسب ما يعطيه السياق : أن قريشا شككت في كون القرآن من عند الله بأن قالت: لماذا لم ينزل على محمد جملة واحدة، كمثل التوراة التي نزلت على موسى دفعة واحدة. لقد أرادوا إحراجه بضرب المثل بموسى. فجاء الرد عليهم موجّها إلى الرسول عليه السلام، وقد أخبرنا القرآن قبل هذه الآية بأنه كان قد اشتكى إلى الله من انصراف قومه عن القرآن وهجرهم إياه: "وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا"، أقول جاء الرد ليؤكد للرسول (ص) بأن تنزيل القرآن منجما مفرقا أمر مقصود: "لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا"، وأيضا لتقرأه على الناس شيئا فشيئا مرتلا فيكون له تأثير أكبر ("وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ" (الإسراء 106). والمعنى: فإذا كانوا قد أرادوا إحراجك بأن ضربوا لك المثل بموسى، فقد جئناك بالبيان الحق والتفسير الأحسن للغرض الذي قصدناه من تنزيل القرآن مفرقا... وهكذا: فالتفسير هنا ليس مجرد بيان معنى كلمة أو رفع الغطاء عن اللفظ المشكل، بل هو أكثر من ذلك: إنه الكشف عن "معنى نظم القرآن"، المعنى الذي يعطيه السياق ويشهد له القرآن في مكان آخر.

– وأما قوله تعالى : "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (الإسراء 35)، فواضح أن "التأويل هنا هو بيان المآل. والمعنى أن إتمام الكيل وتوخي العدل في الميزان أفضل للمشتري من الغدر والغش، وأحسن مآلا ومصيرا للبائع (في الدنيا والآخرة).

ويتضح هذا المعنى في الآيات التالية من خلال السياق بصورة لا تترك مجالا لفهم آخر. يقول تعالى : في سورة الأعراف: "وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ، هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ. يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؛ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (الأعراف 52-53)، إن السياق يفرض أن يكون معنى قوله "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ" هو : هل ينتظرون ما يؤول إليه أمرهم حين البعث.

6- التأويل ... والذين في قلوبهم زيغ ...

والواقع أن جميع الآيات التي ورد فيها لفظ "التأويل" تحتمل أن يحمل فيها هذا اللفظ على معنى: المآل والمصير. فقوله تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟ (قريش

تقول محمد افترى القرآن على الله) قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ! كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ" (يونس38- 39). فقوله "بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ولما يأتيهم تأويله"، لا يحتمل معنى آخر غير ما يلي: كذبوا بالقرآن وهو ما يزال ينزل منجما ولم يكتمل بعد، كما كذبوا بما فيه من الوعد والوعيد، والقيامة لم تقم بعد حتى يتحققوا من ذلك. وكذلك الشأن في قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (النساء 59). فالرجوع بالخلاف والتنازع إلى ما في القرآن والسنة وطلب رأي المختصين منكم فيما اختلفتم فيه، هو خير، هو أحسن مآلا وأفضل مصيرا. أما ما ورد في القرآن عن "تفسير الأحلام" بلفظ "التأويل" كقوله تعالى: "وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ" (يوسف 6)، فواضح أن المقصود من تأويل الأحلام هو الكشف عن خبايا المستقبل، أي عما تحمله رموز الحلم والرؤيا من إشارات إلى ما سيحدث، إلى ما سيؤول إليه الأمر.

واضح أن الأخذ بهذا المعنى للفظ "التأويل" في القرآن يرفع اللبس الذي يخيم على العقل إزاء الآيات التي تتحدث عن مسائل تقع خارج عالم العقل والمعقول مثل مضامين الآيات التي تتحدث عن وقت قيام الساعة، وفناء الدنيا، وما أشبه ذلك، مما يؤول أمره إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، هذا الإيمان الذي يؤول أمره هو الآخر إلى مقاصد وحجج ذكرها القرآن في آيات أخرى. ويدخل في هذا العالم الغيبي معاني "الحروف المقطعة" التي في أوائل بعض سور القرآن من نحو الم، والمص، والمر، والر...، كما يدخل فيه معنى كون عيسى كلمة الله "أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ"، إذ بما هو "كلمة" فهو فعل. وفعل الله يؤول إلى قوله تعالى: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (يس 82).

بعد هذا الإيضاح لمعنى التأويل في القرآن نأتي الآن إلى قوله تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ". إذا نحن استحضرنا مناسبة نزول هذه الآيات، أعني النقاش مع وفد نصارى نجران حول طبيعة المسيح، فإننا سندرك بسهولة أن المقصود بقوله تعالى "الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ" هم هذا الوفد بالذات، الذين زاغوا (انحرفوا عن

وقد حصل هذا عندما اتخذ المعتزلة من قوله تعالى "ليس كمثله شيء" آية محكمة، يجب أن تحكم تصورنا للذات الإلهية، فقالوا بنفي الصفات عن الله بدعوى أن القول بالصفات زائدة عن الذات الإلهية يستلزم أن تكون قديمة قدم الذات، وهذا يؤدي إلى القول بتعدد القدماء! ولذلك قالوا "هو عالم بذاته قادر بذاته حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة"، أو أنه: "عالم بعلمه وعلمه ذاته، قادر بقدرة وقدرته ذاته، حي بحياة وحياته ذاته".

أما خصومهم من أهل السنة فيثبتون له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعزة والعظمة، ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل بل يسوقون الكلام سوقا واحداً، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل: اليدين والوجه، ولا يؤولون ذلك، إلا أنهم يقولون: "هذه الصفات قد وردت في الشرع فنسميها: صفات خبرية". من أجل هذا سمي هؤلاء بـ"الصفاتية" لإثباتهم الصفات لله زائدة عن الذات، بينما سمى المعتزلة أنفسهم بـ"أهل التوحيد" أي يتصورون الله على أنه "واحد" غير متعدد بأي وجه من الوجوه. أما خصومهم أهل السنة فيطلقون عليهم اسم ـ "المعطلة" لنفيهم الصفات.

9- الرجوع إلى السياق وأسباب النزول

ومع أن المرء يستطيع أن يربط هذا الاختلاف في تصور الذات الإلهية بآراء ونظريات في الموروث الثقافي الذي انتقل إلى الحضارة العربية[53]، فإن التقيد بـ"أسباب النزول" في هذه القضية يقتضي منا الرجوع بها إلى التوظيف السياسي الذي مارسه الأمويون ثم العباسيون لمسألة الجبر والاختيار والذات والصفات[54]. إن السبيل إلى التخلص من مثل هذه التأويلات "الزائغة" التي ما زال كثير منها يحكم الفكر الديني عندنا[55] يكمن، في نظرنا، في الرجوع بكل آية

53 - الفلسفة الدينية الهرمسية والتصوف الغنوصي والأفلاطونية المحدثة، وهي مذاهب قالت كلها بفكرة الإله المتعالي الذي لا يمكن تحديده ولا وصفه، في مقابل مذاهب أخرى أضفت على الذات الإلهية أوصافا حتى قال بعضهم إنه جسم (المجسمة، المشبهة) ... انظر كتابنا "تكوين العقل العربي" الفصلان العاشر والحادي عشر.

54-انظر كذلك كتابنا "العقل السياسي العربي" : الفصلان السابع والتاسع.

55- لقد بقيت المعتزلة إلى اليوم، في كثير من المعاهد والتيارات الدينية لا تذكر إلا مع عبارات سب وشتم مثل "قالت المعتزلة قبحها الله"...

يلتبس معناها على العقل إلى سياقها ومناسبة نزولها والتماس المعنى الصحيح فيها من القرآن نفسه، وفق مبدأ "القرآن يشرح بعضه بعضا". وذلك في نظرنا هو معنى "التأويل" الذي لا يعلمه إلا الله بعلمه اسي والذي يلتمسه الراسخون في العلم، من خلال استقراء القرآن واعتبار السياقات والرجوع إلى مناسبات النزول.

95- سورة الأحزاب

تقديم

نزلت في السنة الرابعة للهجرة وهي سنة "غزوة الأحزاب" التي تسمى أيضا "غزوة الخندق". وسميت بهذا الاسم لأن المسلمين حفروا خندقا حول المدينة حين أحاط بها جيش "الأحزاب" المكون من عدة أطراف. ذلك أن الرسول عليه السلام قام ، بعد هزيمة المسلمين في غزوة أحُد بتنظيم عدة حملات على الأعراب خارج المدينة دفعا لطمعهم في النيل من المسلمين بعد هزيمتهم تلك؛ ولم يحصل اصطدام، ولكن حصل المسلمون على غنائم فضلا عن الفوائد المعنوية. ثم حدثت حادثة إجلاء يهود بني النضير من مساكنهم بجوار المدينة، وذلك عندما ذهب إليهم الرسول يطلب منهم، طبقا للصحيفة/المعاهدة، المساهمة في دفع دية رجلين كان قد أعطاهما الأمان وقتلهما أحد المسلمين دون أن يعرف بذلك، فاظهر اليهود الموافقة ثم تآمروا على اغتياله فعلم الرسول بذلك وعاد إلى المدينة وقرر الاستعداد لحربهم والسير إليهم فحاصرهم في حصونهم إلى أن قرروا الاستسلام على أن يكف عن دمائهم مقابل جلائهم وأخذ ما حملت إبلهم من أموالهم إلا الحلقة (= السلاح) ففعل، فخرجوا إلى مدينة خيبر شمال المدينة -ومنهم من سار إلى الشام- تاركين ممتلكاتهم وما تبقى من أموالهم.

ثم إن كبراء بني النضير أرادوا الانتقام واسترجاع مساكنهم فذهبت جماعة منهم إلى مكة، وقابلوا رؤساء قريش، وحرّضوهم على حرب الرسول على أن يقوموا هم بتجنيد القبائل من مختلف الجهات لإنشاء تحالف كبير لمحاربة المسلمين فوافق كبراء قريش. ومباشرة أخذ وفد بني النضير يطوف في القبائل فنجح في إقناع قبائل غطفان، وبنو مرّة، وبنو أشجع، وبنو سليم، وبنو أسد، فبلغت جموع هذا التحالف (الذي سمي بـ "الأحزاب) عشرة آلاف مقاتل، تولى القيادة العامة فيه أبو أبي سفيان زعيم قريش. ولما علم الرسول عليه السلام بخبر هذه التجهيزات، استشار أصحابه، فاقترح سلمان الفارسي حفر خندق حول المدينة فوافق الرسول وأصحابه على الفكرة وشرعوا في الحفر شمال المدينة. ولما وصل جيش الأحزاب ووجدوا الخندق وقفوا عنده وأخذوا يتراشقون بالنبال مع المسلمين. وكما هو شأن المنافقون دائما فقد انسحبوا من صفوف المؤمنين،

قائلين "إن بيوتنا عورة نخاف أن يُغير عليها العدو"، مما تسبب في توتر صفوف المسلمين. وقد زاد وضعَ المسلمين حرجا ما بلغهم من أن يهود بني قريظة الذين كانوا يسكنون المدينة قد استجابوا لتحريض رجال من بني النضير فقرروا اغتنام الفرصة ونقض الميثاق الذي بينهم وبين الرسول والانضمام إلى صفوف "الأحزاب". لكن المسلمين صمدوا. وتجند بعضهم لإشعال الفتنة في صفوف الأحزاب فتمكن من زرع الشك بين أطرافها، وبكيفية خاصة بين رجال القبائل العربية وبين اليهود. ولما جن الليل هبت ريح قوية باردة، فخافت جموع الأحزاب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم في تلك الليلة الباردة المظلمة، وقرروا الرحيل قبل الصباح، كل إلى مكان سكناه. وكان أبو سفيان أول من بادر إلى الدعوة إلى الرجوع فلما عابوا عليه ذلك تراجع وأخذ يشرف على عملية عودة الأحزاب إلى أماكنهم. وهذه هي المرة الثالثة التي يقف فيها أو سفيان في "منتصف الطريق" في الاصطدام مع المسلمين: فقد رأيناه يعارض أبا جهل في قراره الذهاب لحرب المسلمين في بدر لأن القافلة التي كان يستهدفها النبي قد تمكنت من الوصول سالمة على مكة. وهكذا فضل أبو سفيان عدم المشاركة في الحملة على المسلمين فنجا من مصير محتمل جدا: الموت في بدر. ثم رأينا أبا سفيان، زعيم "قريش الأوحد" -بعد مقتل غريمه أبو جهل في غزوة بدر- يكف عن ملاحقة المسلمين عند ما انهزامهم أمامه في غزو أحد مفضلا العودة، مكتفيا بالصياح "الحرب سجال"... مع أنه كان من المحتمل نظريا ان يصفي جيش المسلمين بما في ذالك النبي وكبار الصحابة. وها نحن نراه في غزوة الأحزاب يرجع بجيش الأحزاب الذي كان تحت قيادته، لمجرد أن عاصفة من الريح باردة قد هبت على المنطقة التي كان معسكرا فيه ، فاسحا المجال للمسلمين للخروج من الضيق الشديد الذي كانوا عليه ومن غير المستبعد أن يكون عالما بذلك!

عندما عاد الرسول إلى المدينة أمر أصحابه بالتوجه إلى أحياء يهود بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع الرسول وقرروا الانضمام إلى الأحزاب كما قلنا. حاصر النبي بني قريظة هؤلاء في حصونهم خمسا وعشرين ليلة، وعندما أنهكهم الحصار طلبوا من الرسول أن يفعل فيهم ما فعل في بني النضير (أي الجلاء) فرفض وأبى إلا محاكمتهم، واستشار الأوس الذين طالبوا بـ"التحكيم" فيهم، فطلب منهم الرسول أن يعينوا حكما من بينهم، فاختاروا رئيسهم الذي كان جريحاً من السهم الذي أُصيب به في الخندق، فأصدر حكمه قائلا: "إني أحكم أن تقتلوا الرجال، وتسبوا النساء والذرية". فقال له الرسول: "لقد حكمت فيهم بحكم الله يا

سعد"، فقد خانوا وغدروا؛ ثم تم تنفيذ الحكم فيهم وجمعت غنائمهم وكانت كثيرة. ذالك هو مجمل وقائع هذه الغزوة، ولابد من استحضارها لتتبع ما نزل في شأنها.

لم يكن موضوع "غزوة الأحزاب" هو الوحيد الذي تعرضت له هذه السورة، بل هناك موضوع آخر، يتعلق بزوجات النبي (ص) وما يرتبط به، شغل فيها حجما أكبر من الذي شغلته هذه الغزوة (غزو الأحزاب 9 آيات من 73 آية خصصت كلها تقريبا لموضوع زوجات النبي). وبما أننا سنعقد استطرادا لهذا الموضوع، في آخر تناولنا لهذه السورة، فسنقتصر هنا على الإشارة إلى "أصل الموضوع" الذي انطلقت منه السورة، ذاكرين في الهوامش ما هو ضروري لفهم الآيات. فقد روي من أكثر من جهة أن زوجات النبي عليه السلام، وكن يومئذ تسعا، قد طالبناه بالزيادة في النفقة، فغضب وقرر اعتزالهن شهرا. ولا يستبعد أن تكون الغزوات التي تلاحقت في السنتين الثانية والثالثة قد جعلت الرسول في ضائقة مالية، أضف إلى ذلك أنه قد تزوج نساء قُتل أزواجهن خلال تلك الغزوات، وكان منهم من كانت لها أولاد، ومنهن من عَرضن أنفسهن عليه أو عُرضن عليه ... وعلى كل فقد تدخل كل من أبي بكر وعمر لحل المشكل، وكان لكل منهما بنت من ضمن زوجات الرسول. وعندما انقضى الشهر خيَّر الرسول زوجاته بين أن يطلقهن أو يمكثن عنده، وقد اخترن المكوث، وكان ذلك على أسس جديدة كما سنرى في السورة. وفي الاستطراد تفاصيل أوفى.

هذا ومما يذكره المفسرون بخصوص هذه السورة ما روي من أن حجمها (73 آية) كان يعدل حجم سورة البقرة (286 آية) زمن النبي (ص) وقبل جمع القرآن على عهد عثمان. وقد ناقشنا تفاصيل هذه المسألة في "المدخل إلى القرآن". الفصل التاسع بعنوان: "جمع القرآن ومسألة الزيادة فيه و النقصان"، فليرجع إليه.

نص السورة

1- مقدمة: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (اجعله، وما ينزل عليك من الوحي، وقاية لك فلا تخف ولا ترغب في مرضاة أحد سواه) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا[1]. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[2]. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا[3].

2- مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ... تحريم التبني ...

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (يحب بواحد شيئا وبآخر شيئا آخر)(1). وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ (الذي يقول لزوجته "أنت علي كظهر أمي"، يريد أنها حرام عليه، مخطئ فهي لا تصير ظهر أمه بمجرد هذا التصريح) (2)، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ (3)، (وكذلك الشأن في الأشخاص الذين تتبنونهم وتنسبونهم إليكم، فهذا لا يجعل منهم أبناء لكم) –وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ (وهو أنَّ غير الابن لا يكون ابناً) وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ[4].– ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ (أعدل) عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ (إن كانوا من ملتكم) وَمَوَالِيكُمْ (إن كانوا ممن أعتقتم من الرق)، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ (في الكلام كأن تدعو شخصا : يا ابني مثلا، وأنتم لا تقصدون البنوة الفعلية)، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ (هو الذي فيه جناح عليكم). وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[5]. النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (إذا

---

1 – أورد المفسرون عدة روايات تربط مناسبة نزول هذه الآية بأشخاص يذكرون أسماءهم وأشهرهم شخص كان يدعي أن له قلبان الخ. ونحن نرى أن المعنى واضح من السياق تبينه الآية التالية، فالذي يقول لزوجته "أنت علي كظهر أمي"، أي يحرمها على نفسه كما تحرم عليه أمه، يجمع بين كراهية الزوجة ومحبة الأم في قلبه أي بين مختلفين متناقضين في قلب واحد. والمقصود النهي عن استعمال العبارة المذكورة. وينطبق هذا أيضا على تبني النبي لزيد بن حارثة فالرجل لا يمكن أن يتعامل بقلبين أحدهما لأبنائه والآخر لمن تبناهم.

2- سيرد الكلام في هذا الموضوع لاحقا في سورة "المجادلة".

3- يجمع المفسرون على أن المعني هنا ينصرف إلى قضية زيد بن حارثة. فقد روي أنه كان مسبيا من الشام، فابتاعه ابن أخ خديجة زوج النبي فوهبه لها، ثم وهبته هي للنبيَ (قبل النبوة)، فأقام عنده مدة، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما عليه السلام: "خيِّراه فإن اختاركما فهو لكما دون فداء". فاختار الرق مع النبي على حريته وقومه؛ فنادى النبي عند ذلك: "يا معشر قريش اشهدوا أنه ابني يرثني وأرثه"، وكان يطوف على حِلَق قريش يشهدهم على ذلك، فرضي ذلك عمه وأبوه وانصرفا. وقد روي عن ابن عمر أنه قال عنه: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، وهذا دليل على أن التَبَنِّي كان معمولاً به في الجاهلية واستمر الحال كذلك في الإسلام إلى أن نزلت هذه الآية فحرمته.

دعاهم إلى شيءٍ فأولى أن يطيعوه، من أن يطيعوا ما تدعوهم إليه أنفسهم)، **وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** (حرام عليهم الزواج بهن كما تحرم عليهم أمهاتهم)، **وَأُولُو الْأَرْحَامِ** (الأقارب) **بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ** (في الميراث)، **فِي كِتَابِ اللَّهِ** (في حكمه)، **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ** (وكان الرسول قد ربط بعضهم ببعض بنظام المؤاخاة فيتوارثون الخ: وهذه الآية إسقاط لهذا النظام) **إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا** (أن تخصوهم بمقدار في إطار الوصية)، **كَانَ ذَلِكَ** (حكم الله) **فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا**[6]. و (اذكر يا محمد) **إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**[7] (على أن يوفوا ويبلغوا ما يوحى إليهم ويصدقوا بعضهم بعضا) : **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمً**[8].

3- غزوة الأحزاب: هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ (الأحزاب: قريش وغطفان وقريظة والنضير، حاصروا المسلمين أيّام غزوة الخندق : راجع التقديم) **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا** (قلعت مخيمهم) **وَجُنُودًا** (من الملائكة) **لَمْ تَرَوْهَا، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ** (كانوا يحفرون الخندق) **بَصِيرًا**[9]. **إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ** (من قبل المشرق، يعني: قريظة والنضير) **وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ** (قريش من ناحية مكة)، **وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ** (فيكم : مالت وشخصت) **وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** (من شدة الخوف)، **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**[10] (ظن المنافقون أن المسلمين سيستأصلون)! **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ** (اختبر) **الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا**[11]. **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** (ضعيف إيمانهم) **مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا**[12]! **وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ** (أي المنافقون) **يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ** (لا فائدة لكم هنا في ساحة الحرب) **فَارْجِعُوا** (إلى منازلكم)، **وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ: إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ** (غير محصنة نخاف أن يقتحمها العدو)، **وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا**[13]. **وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ** (المدينة) **مِنْ أَقْطَارِهَا** (من جوانبها) **ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ** (طلب العدو منهم الردة) **لَآتَوْهَا، وَمَا تَلَبَّثُوا** (ترددوا) **بِهَا إِلَّا يَسِيرًا**[14]. **وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ** (غزوة الأحزاب) **لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ** (لا يهربون) **وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا**[15]. **قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ، وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا**[16] (لأن الموت سيأتي في أجله)! **قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي**

يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[17]. قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ (الذين يثبطون الناس عن نصرة محمد) وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا (اتركوا محمدا وتعالوا إلينا) وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ (ولا يحضرون الحرب) إِلَّا قَلِيلًا[18] (يكثرون من الأعذار): أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ (بخلاء بأنفسهم وأموالهم)! فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ (آذوكم بالكلام)، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ (وجادلوكم في الغنيمة). أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا[19]. يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا (لم ينصرفوا بعد هزيمتهم)، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ (يرجع الأحزاب كرة ثانية) يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ (غائبون في البادية) فِي الْأَعْرَابِ، يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا[20] (فقط من أجل الرياء وليس عن اقتناع). لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي (ثبات وصمود) رَسُولِ اللَّهِ (يوم أحد) أُسْوَةٌ (قدوة) حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا[21]. وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا: هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ (الانتصار)، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا[22]. مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ (مات في وقعة أحد)، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا[23]؛ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا[24]. وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ (في غزوة الأحزاب)، لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، (لم يظفروا بالمسلمين) وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ (بما أرسل عليهم من ريح الخ)، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا[25]. وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ (ساعدوهم) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (يهود قريظة) مِنْ صَيَاصِيهِمْ (من حصونهم وكان النبي قد حاصرهم حتى استسلموا) وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ: فَرِيقًا تَقْتُلُونَ (الرجال) وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا[26] (الذراري)، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا (خيبر)، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا[27].

4- نساء النبي ... وقضية زواجه عليه السلام من زوجة مولاه زيد.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا[28] (نزلت حين طلبت نساؤه الزيادة في النفقة)، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا

عَظِيمًا[29]. يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ (بمعصية ظاهرة) يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا[30]. وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ (تخلص الطاعة) لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا[31]. يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ (لا تقلن قولاً يجد منافقٌ به سبيلاً إلى أن يطمع في موافقتكنّ له)، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا[32] (بما يوجبه الدين). وَقَرْنَ (اجلسن بوقار) فِي بُيُوتِكُنَّ، وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى (لا تظهرن الزينة من أجل لفت نظر الرجال)، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ، وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ (كل عمل مستنكر) أَهْلَ الْبَيْتِ (نساء النبي) وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا[33]. وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا[34]. إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا[35]. وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ (الاختيار) مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا[36] [(4)]. وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ (زيد، اشتراه النبي فأعتقه): أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ (لا تطلقها) وَاتَّقِ اللَّهَ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ (أنت يا محمد) مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ (مظهره، أي رغبتك في التزوج منها)، وَتَخْشَى النَّاسَ (مقالة الناس)، وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ! فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا (حاجته) زَوَّجْنَاكَهَا، لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي (التزوج بـــ) أَزْوَاجِ (زوجات) أَدْعِيَائِهِمْ (أبنائهم بالتبني) إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا (لم يعد لهم فيهن رغبة وطلقوهن)، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا[37]. مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ (أحل له من النساء)،

4- قيل: نزلت في زينب أخت عبد الله بن جحش خطبها منه الرسول لمولاه زيد بن حارثة، وظنّت أنّه خطبها لنفسه، فلمّا علمت أنّه يريدها لزيدٍ صدمت، ثم امتثلت فتزوجت زيدا ومكثت عنده حينا. ثمّ إن الرسول عليه السلام أتى منزل زيد ذات يوم لحاجة، فأبصرها قائمةً في درعٍ وخمارٍ، فأعجبته وكأنّها وقعت في نفسه، وقال: "سبحان الله مُقلّب القلوب"، فسمعته. فلمّا جاء زيدٌ أخبرته بذلك، وأُلقي في نفس زيدٍ كراهتها، فأراد فراقها، فأتى الرسول فقال: إني أريد أن أفارق صاحبتي؛ فإنها تؤذيني بلسانها".

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ (من الأنبياء مثل داوود وسليمان اللذين أكثرا من الزوجات)، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا[38]، الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا[39]. مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ (فتقولوا تزوج امرأة ابنه)، وَلَكِنْ (هو) رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا[40]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا[41]، وَسَبِّحُوهُ (صلوا) بُكْرَةً وَأَصِيلًا[42]. هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ (يغفر لكم ويرحمكم) وَمَلَائِكَتُهُ (يستغفرون لكم)، لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا[43]. تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا[44]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا (على قومك بإبلاغ الرسالة) وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا[45]، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا[46]. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا[47]. وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ (لا تعاقبهم عليه حتى تؤمر على ذلك)، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا[48].

5- الزوجات: ما أحل للنبي منهن وفيهن

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ (أن تجامعوهن) فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا، فَمَتِّعُوهُنَّ (أعطوهن ما يستمتعن به علاوة على ما فرض لهن كحق وهو نصف الصداق) وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا[49] (أي بالمعروف وبالتي هي أحسن). يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ (مهورهن) وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ (من الإماء) مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ (من مسبيات مع الغنائم في الحرب)، وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ، وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ (دون اللاتي لم تهاجرن)، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ (من غير ولي، ولا مهر، ولا شاهد) [5] إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا (يتزوجها على هذه الصفة)، خَالِصَةً لَكَ (وهذا جائز لك دون

---

5 – المعنى: لا يحلّ لك من النساء إلا ابنة عمّ أو ابنة عمة، أو ابنة خال أو ابنة خالة، أو امرأة وهبت نفسها لك، من كان منهنّ هاجر معه عليه السلام. واختلفوا في المرأة المقصودة هنا، بعضهم قال: هي ميمونة بنت الحارث. وقال آخرون : هي أمّ شريك. وقال بعضهم: زينب بنت خزيمة"، وقيل: خولة بنت حكيم بن الأوقص. وذُكر أن الرسول كان قبل نزول هذه الآية يتزوج في أيّ النساء شاء، لم يحرّم ذلك عليه، فكان نساؤه يجدن من ذلك وجدا شديدا فلما أنزل الله: إني قد حرّمت عليك من الناس سوى ما قصصت عليك، أعجب ذلك نساءه" (الطبري).

غيرك) مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ (وهو أن لا نكاح إلاّ بولي وشاهدين) وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ (6)، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[50]. تُرْجِي (نوبة) مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ (تقدم نوبة) مَنْ تَشَاءُ، وَمَنِ ابْتَغَيْتَ (طلبت منهن) مِمَّنْ عَزَلْتَ (هجرت منهن) فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ. ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ، وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آَتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا[51] (7). لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ (بعد هؤلاء التسع المذكورة أعلاه الآية: 50)، وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا[52] (8).

6- تنظيم تعامل أصحابه مع بيته، وفرض الحجاب على زوجاته.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ، غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ (لا تسبقوه إلى بيته وتنتظروه)، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا، وَلَا (ماكثين في بيته) مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ (9). وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ (زوجات النبي) مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ. وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا[53] (10). إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا[54]. لَا

6- المعنى: "لا يحلُّ لغير النبيِّ إلاّ أربع زوجات يتزوجهن بوليٍّ وشاهدين، يضاف إليهن ملك اليمين، وهذا الذي ذكر في هذه الآية يبين أنه ليس عليك "حرج" (إثم وضيق) في نكاح من نكحت من هؤلاء الأصناف التي أبحت لك نكاحهنّ من المسمّيات في هذه الآية"

7- قالوا: "لما أشفقن أن يطلقهنّ، قلن: يا نبيّ الله، اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت فكان ممن أرجأ منهنّ سودة بنت زمعة، وجُوَيرية، وصفية، وأمّ حبيبة، وميمونة وكان ممن آوى إليه: عائشة، وأمّ سلمة، وحفصة، وزينب. (الطبري)

8- "ولمّا خيّر النبيّ صلى الله عليه وسلم نساءه فاخترنه ورضين به، قصره الله سبحانه عليهنّ، وحرّم عليه طلاقهنّ والتزوّج بسواهنّ، وجعلهنّ أُمّهات المؤمنين". وفرض عليه من بعد هؤلاء التّسع أن لا يطلّق واحدة منهن ولا يتزوّج بدلها أخرى أعجبته بجمالها إلاّ ما ملكت يمينه من الإماء فإنهنّ حلالٌ له". تسوية لنزاع بينه وبينهن بالنصفة.

9- قيل: " نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحيّنون طعام النبي (ص)، فيدخلون عليه قبل الطّعام إلى أن يدرك، ثمّ يأكلون ولا يخرجون".

10- قيل: "إنّ رجلاً من أصحابه عليه السلام قال: "لئن قبض رسول الله لأنكحنّ عائشة".

جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ (ليس عليهن أن يلبسن الحجاب) فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ (نساء المؤمنين الحرائر) وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ؛ وَاتَّقِينَ (فعل أمرٍ) اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا[55]. إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[56]. إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا[57]. وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا، فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا[58]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (يرخين أرديتهنّ وملاحفهنّ)، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ (فلا يتعرض لهنّ)، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[59]. لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (من ألحاق الأذى بك بالتكلم في الأعراض)، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ (نسلطنك) ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا[60] (إلا أياما ثم يرحلون)، مَلْعُونِينَ، أَيْنَمَا ثُقِفُوا (وجدوا) أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا[61]. سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا[62]. يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا[63]. إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا[64]، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[65]، يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا[66]؛ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا[67]، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا[68].

7- خاتمة: لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى (فرموه بالبرص) فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا[69]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا[70] (طيبا) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا[71]. إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ (الحرية المسؤولية) عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا[72] [(11)]، لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[73].

---

11 – "عن ابن عباس، قوله: إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة: الطاعة عرضها عليها قبل أن يعرضها على آدم، فلم تطقها، فقال لآدم: يا آدم إني قد عرضت الأمانة على السموات

تعليق

تشتمل السورة على سبع فقرات تتناول كما قلنا في التقديم موضوعين رئيسيين: غزوة أحد من جهة، وتوتر العلاقة بين النبي وزوجاته وإعادة تنظيمها، وبيان الكيفية التي يجب أن يكون عليها سلوك المؤمنات عموما. وكما جرت العادة تبدأ السورة بمقدمة وتنتهي بخاتمة.

1- لقد جاءت المقدمة وجيزة ومركزة كما هو الشأن في الغالب وتطرح بكيفية من الكيفيات موضوع السورة. وهكذا تبدأ هنا بتوجيه أمر عام إلى النبي عليه السلام : تدعوه إلى التقوى وعدم طاعة المنافقين والكفار الخ، وكما سيلاحظ القارئ فإن هذا الأمر العام "يغطي" القضايا التي ستطرح بعده: مسألة التبني، مسألة الظهار، العلاقة بين الأزواج والزوجات وفي مقدمتها علاقة النبي مع زوجاته.

2- تخصص السورة الفقرة الثانية لتأكيد حقيقة نفسية اجتماعية وهي : "مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ". فالذين يحرمون على أنفسهم زوجاتهم بقول الواحد منهم لزوجته "أنت علي كظهر أمي"، كما جرت عادة العرب قبل الإسلام، يقولون ما لا يعقل: فزوجته لا تصير أمه بمجرد هذا التصريح، وهو لا يمكنه أن يجمع بين أمه وزوجته في قلبه: هو يريد أن يعبر عن كراهيته لزوجته بالقول إنها حرام عليه كما تحرم عليه أمه، فأمه تحرم عليه من ناحية النسب وليس من الناحية العاطفية. ومقصود الآية من هذا كله أن تبين أن العلاقة الزوجية علاقة مبنية على الحب (الذي يربط الذكر بالأنثى) وعلى التعاقد. أما على علاقة الابن مع أمه فهي مبنية على نوع آخر من الحب هو عبارة عن ارتباط عضوي، رحمي ولا علاقة له بالتعاقد. هذه العلاقة العضوية الحميمية هي نفسها التي تربط الآباء بالأبناء، وهي تختلف عن علاقة التبني. لذلك لا يجوز الخلط بين هذه وتلك. فالتبني نوع من علاقة التعاقد، وهي علاقة تبقى لكل واحد شخصيته على الرغم من أن أصلها هو الرق. والله لم يخلق نوعا من الناس ليكونوا عبيدا لنوع آخر منهم، بل خلقهم "سواسية كأسنان المشط": "وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ، ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ (أعدل) عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا

والأرض والجبال، فلم تطقها، فهل أنت آخذها بما فيها؟ فقال: يا ربِّ: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جُزيت، وإن أسأت عُوقبت، فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله: وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوما جَهُولاً" (الطبري).

آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ". وكذلك الشأن في الميراث، فهو وإن كان النبي عليه السلام قد جعله عند مقدمه مهاجرا إلى المدينة، منضويا تحت علاقة "المؤاخاة" فإن ذلك كان لضرورة تنظيم العيش في المدينة بما يضمن للمهاجرين= لقمة العيش إلى أن يدبوا أمرهم في المجتمع الجديد. أما اتخاذ هذه "المؤاخاة" – التي عمل بها النبي للضرورة- مبدأ للتعاقد بين الناس كما صار كثير من الأعراب وغيرهم يفعلون، يتعاقدون على أن يرث الواحد منهم الآخر، "أرثني وأرثك"، فهذا لا يجوز. فمن يمنع الواحد منهم من تدبير اغتيال أو تسميم أو قتل صاحبه ليرثه! هنا ينقلب الغرض من المؤاخاة إلى عكسه تماما. وبما أن الوضع قد استقر بالمهاجرين في المدينة وأخذوا يكسبون رزقهم بأنفسهم، فإنه لابد من الرجوع للوضع الطبيعي وهو أن التوارث هو بين ذوي الأرحام فقط. إن علاقة الرحم هي علاقة غريزية فطرية للتناصر والتعاون والتراحم والتكافل ومن هنا كان "أُولُو الْأَرْحَامِ، بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ، فِي كِتَابِ اللَّهِ".

3- بعد هذا تنتقل السورة في الفقرة الثالثة إلى الكلام عن "غزوة الأحزاب" لتركز على شجب مواقف المنافقين وفضحها. وفضح موقف يهود بني قريظة وما يجب فيهم من القصاص. كما تذكر بموقف المنافقين المتخاذل في غزوة أحُد، وفي المقابل تنوه بموقف الصابرين من المجاهدين وتؤكد الوعد لهم بالجنة. بعد ذلك تعرض بشيء من التفصيل لوقائع غزو "الأحزاب" وكيف أن قلق المسلمين من تحالف الأطراف التي تحزبت ضد المسلمين قد انقلب إلى نصر حينما هبت عاصفة باردة أثناء الليل ألقت الرعب في ذلك التحالف فتسابقوا لمغادرة المكان والرجوع على مسكنهم و"كفى الله فيه المؤمنين القتال" (انظر التفاصيل في التقديم).

4- بعد ذلك تنتقل السورة في الفقرة الرابعة إلى مسألة تبني الرسول عليه السلام لمولاه زيد بن حارثة، وطلاق هذا لزوجته زينب، وزواج النبي بها (وقد شرحنا ملابسات ذالك في الهوامش). وقد طرحت السورة بصراحة تامة ما كان قد حدث من توتر بين النبي وزوجاته مما أدى إلى تخييرهن بين أن يطلقهن، وبين أن يبقين معه على أساس أن يهدأن ولا يتنافسن أو يغار بعضهن من بعض الخ، وقد اشتمل التخيير على إنصاف الطرفين:

فمن جهة فرض على زوجات النبي، نظرا لخصوصية وضعهن، سلوكا معينا يذهب عنهن الشبهات : "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ (لا تقلن قولاً يجد منافقٌ به سبيلاً إلى

أن يطمع في موافقتكنّ له)، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا[32] (بما يوجبه الدين). وَقَرْنَ (اجلسن بوقار) فِي بُيُوتِكُنَّ، وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى. وأيضا: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (يرخين أرديتهنّ وملاحفهنّ)، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ. وفي هذا الإطار تندد السورة بالمنافقين وإيذائهم لأعراض النبي المؤمنين. وتتوعدهم.

من جهة أخرى حددت السورة عدد زوجات النبي في تسع، وهن اللائي كنّ في عنقه وقت التخيير، ومنعته من الزيادة عليهن بقوله تعالى: "لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ (بعد هؤلاء التسع)، وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ، إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ". وفي المقابل أباحت له الاختيار، بالإبقاء على من يرغب فيهن وعمل النوبة لهن، وعزل أو إرجاء من لم تعد له فيهن رغبة (وكان من بينهن مسنات. ذلك هو قوله تعالى: "تُرْجِي (نوبة) مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ (تقدم نوبة) مَنْ تَشَاءُ، وَمَنِ ابْتَغَيْتَ (طلبت) مِمَّنْ عَزَلْتَ (هجرت منهن) فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ" (انظر التفاصيل الاستطراد).

6- وفي الفقرة السادسة تطرح الكيفية التي يجب أن تبنى على أساسها تنظيم علاقة أصحابه مع بيته وزوجاته: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ، غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ (لا تسبقوه إلى بيته وتنتظروه)، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا، وَلَا (ماكثين في بيته) مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ الخ. هذا مع وضع الضوابط التالية: تحريم الزواج بزوجات النبي في حالة طلاقهن أو وفاته. فرض الحجاب عليهن إلا علي آبائهن الخ، ثم فرضه على نساء المؤمنين الخ، ذلك هو قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (يرخين أرديتهنّ وملاحفهنّ)، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ. وتندد السورة بالمنافقين وتشجب إيذاءهم لأعراض النبي وأعراض المؤمنين، وتوعدهم وتهددهم : "لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (من إذايتك والتكلم في الأعراض)، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ (تسلطنك) ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا[60] (إلا أياما ثم يرحلون)، مَلْعُونِينَ، أَيْنَمَا ثُقِفُوا (وجدوا) أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا[61].

7- وتأتي خاتمة السورة لتستعيد أولا نفس الخطاب الذي وجهته إلى النبي في مقدمتها، فتوجهه إلى أصحابه المؤمنين على ضوء ما تم تقريره في الفقرات السابقة: تذكرهم بالسلوك المؤذي الذي كان يتعرض له موسى من أناس من قومه حين رموه بالبرص وتوصيهم بتجنب الكلمة المؤذية وتحضهم على

الطيب من الكلام، وتنبههم إلى أنهم مسؤولين يتحملون مسؤولية أقوالهم وأفعالهم، وأن هذا هو ما يميزهم على غيرهم المخلوقات. إنها الأمانة التي عرضها الله عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا"[72]: الأمانة التي يترتب عنها الثواب والعقاب: "لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا"[73].

– استطراد: نساء النبي

سنخصص هذا الاستطراد لما روي في موضوع نساء النبي عليه السلام، مما سيلقي أضواء إضافية على ما قلناه في شرح الفقرة الخاصة بهذا الموضوع في السورة التي نحن ضيوف عليها. وسنعتمد أساسا على ما رواه ابن إسحاق مع إضافات أوردها صاحب "السيرة الحلبية" نقلا من مراجع أخرى. سنبدأ بذكر زوجات النبي أولا، ثم نعرض لموضوع "توتر العلاقات" بينهن وبينه، وهو الموضوع الذي أشارت إليه السورة.

<u>1- عدد زوجاته ...</u>

قال ابن إسحاق : كان جميع من تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثَ عشْرةَ :

1-خديجة بنت خُويلد، وهي أول من تزوج، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكْرة (الناقة الفتية البَكْرة "التي لم يَضْرِبْها الفحل قطّ") ، فولدت له أولادَه كلّهم إلا إبراهيم، (وكان زوجها الثالث إذ كانت قبله عند اثنين آخرين)

2-عائشة : وتزوج عائشةَ بنت أبي بكر الصديق بمكة، وهي بنتُ سبع سنين، وبنى بها بالمدينة، وهي بنت تسع سنين أو عشر، ولم يتزوج بكراً غيرها، وأصدقها أربعمائة درهم. "وَعَائِشَةُ مِمَّنْ وُلِدَ فِي الإِسْلامِ، وَهِيَ أَصْغَرُ مِنْ فَاطِمَةَ بِثَمَانِي سِنِينَ، وَكَانَتْ تَقُولُ: لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ. وَكَانَتِ امْرَأَةً بَيْضَاءَ جَمِيلَةً. وَمِنْ ثَمَّ يُقَالُ لَهَا: الْحُمَيْرَاءُ. وَلَمْ يَتَزَوَّجِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِكْرًا غَيْرَهَا، وَلا أَحَبَّ امْرَأَةً حُبَّهَا، وَلا أَعْلَمُ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بَلْ وَلا فِي النِّسَاءِ مُطْلَقًا، امْرَأَةً أَعْلَمَ مِنْهَا. مُسْنَدُ" عَائِشَةَ يَبْلُغُ أَلْفَيْنِ وَمِائَتَيْنِ وَعَشَرَةَ أَحَادِيثَ. اتَّفَقَ لَهَا الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَلَى مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَسَبْعِينَ حَدِيثًا، وَانْفَرَدَ الْبُخَارِيُّ بِأَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ، وَانْفَرَدَ مُسْلِمٌ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ.(الذهبي: سير أعلام النبلاء)

3- سَوْدة : بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس ، مات عنها زوجها بمكة قبل هجرة الرسول إلى المدينة، فخلف عليها (ص).

4- زينب بنت جحش : ابن رئاب الأسدية، وقد وأصدقها أربعمائة درهم، وكانت قبله عند مولاه زَيْد بن حارثة، وفيها نزل قوله تعالى :"فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا" (الأحزاب: 37). انظر هامش رقم 4 السورة أعلاه.

5- أم سلَمة : بنت أبي أمية بن المغيرة المخْزومية واسمها هند. وكانت قبله عند أبي سَلِمَة بن عبد الأسد، واسمه عبد الله، وكانت من الذين هاجروا إلى الحبشة. فلما مات أبو سلمة قال لها رسول الله: سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك ويخلفك خيراً، فقالت: ومن يكن خيراً من أبي سلمة؟ وكان خطبها أبو بكر فأبت، وخطبها عمر فأبت. فلما جاءها من يخطبها للرسول قالت معتذرة: إني امرأة مسنة، وإني أم أيتام (كان معها أربع بنات)، وإني شديدة الغيرة، ثم ليس لي ههنا أحد من أوليائي فيزوجني. فأتاها النبي وتكفل بما ذكرت، ثم خاطبت ابنها : زَوِّجْ رسول الله ، فزوجها على متاع منه رحيٍ وجفنة وفراش حشوه ليف، وقيمة ذلك المتاع عشرة دراهم، وقيل أربعون درهما. قالت: فتزوجني رسول الله، وأدخلني بيت زينب أم المساكين بعد أن ماتت، فإذا جرة فيها شيء من شعير، وإذا رحى وبرمة وقدر وكعب: أي ظرف الأدم، فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته في البرمة، وأخذت الكعب فأدمته، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم".

6- حفصة: بنتَ عمر بن الخطاب أصدقها أربعمائة درهم، وكانت قبله عند خنَيْس بن حُذافة السَّهْمي. وقد حدثت لها مع النبي عليه السلام مشكلة، قيل إنه كان قد طلقها بسببها، وظروف هذه المشكلة كما يلي: قيل استأذنت النبي عليه السلام في زيارة أبيها -وقيل في زيارة عائشة لأنهما كانتا متصادقتين- فأذن لها. وحينها أرسل إلى مارية القبطية التي كان المقوقس قد أهداها إليه، وأدخلها بيت حفصة وواقعها، فرجعت حفصة فأبصرت مارية مع النبي (ص) في بيتها، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت، وقالت له: يا رسول الله لقد جئت إليّ بشيء، ما جئت به إلى أحد من نسائك، في يومي وفي بيتي وعلى فراشي، فلما رأى الرسول في وجهها الغيرة، قال لها: «أما ترضين أن أحرمها على نفسي ولا أقربها أبداً؟ قالت: بلى، وحلف أن لا يقربها». (وستنزل آية في الموضوع في سورة التحريم لاحقا)، وأوصاها «لا تخبري بما أسررت إليك». لكنها سارعت فأخبرت بذلك عائشة، فقالت لها: قد أراحنا الله من مارية، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرمها على نفسه وقصت عليها القصة. ولما أفشت حفصة عنها سره طلقها ثم راجعها رحمة لعمر، وقيل همّ بتطليقها ولم يفعل" (السيرة الحلبية).

7- أم حبيبة : واسمها رَملة بنت أبي سفيان بن حرب، وهي ربيبة كانت في حجر عثمان. وزوجُها عبيد الله بن جحش الأسدي وكانا قد هاجرا إلى الحبشة، وهناك تنصر زوجها وثبتت هي على الإسلام، ومن ثم زوَّجها للرسول خالد بن سعيد بن العاص، وأصدقها النجاشيُّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار. ولما علم أبو سفيان بزواج النبي بابنته حبيبة علق قائلا: "ذلك الفحل لا يقدع أنفه" فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة"[12] للإسلام.

8- جويرية : بنت الحارث بن أبي ضرار الخُزاعية، كانت في سبايا غزوة بني المصطلِق من خُزاعة، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشمَّاس الأنصاري، فكاتبها على نفسِها، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها. فقال لها: هل لك في خير من ذلك؟ قالت : وما هو؟ قال : أقض عنك كتابتك وأتزوجك ؟ فقالت : نعم، فتزوجها. وروي أن عائشة قالت عنها: كانت جويرية عليها ملاحة وحلاوة، لا يكاد يراها أحد إلا وقعت بنفسه. وكانت بنت عشرين سنة.

9- صفية : بنت حيَيَ بنت حُيى بن أخطب، سباها من خيْبر، فاصطفاها لنفسه، ، وكانت قبله عند كِنانة ابن الربيع بن أبي الحُقَيْق.

10- ميمونة : بنت الحارث ابن حَزْن بن بَحِير بن هُزَم، زوجه إياها عمه العباس بن عبد المطلب، وهو الذي أصدقها أربعمائة درهم، وكانت قبله عند أبي رُهْم بن عبد العُزَّى بن أبي ويقال إنها كانت على بعير عندما علمت أن الرسول خطبها، فقالت : "البعير وما عليه لله ولرسوله". فأنزل الله تبارك "وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ " "الأحزاب: 50" ويقال : إن التي وهبت نفسها للنبي غير هذه...

11- زينب : بنت خُزيمة ابن الحارث بن عبد الله، وكانت تُسمى أم المساكين؟ لرحمتها إياهم، ورقتها عليهم وقد أصدقها أربعمائة درهم، وكانت قبله عند عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، وكانت قبل عُبيدة عند جَهْم بن عمرو بن الحارث، وهو ابن عمها.

"فهؤلاء اللاتي بنى بهن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة، فمات قبله منهن ثنتان : خديجة بنت خويلد، وزينب بنت خزَيمة . وتوفى هو عن التسع الباقيات. وقد تزوج غير ما ذكر اثنتين لم يدخل بهما: 1) أسماء بنت

12- الزمخشري، الكشاف. ج4، ص 91.

النعمان الكندية، تزوجها فوجد بها بياضا فمتّعها (أعطاها ما تنتفع به) وردها إلى أهلها، 2) وعَمْرة بنت يزيد الكِلابية وكانت حديثة عهد بكفر؟ فلما قدمت عليه استعاذت بالله فقال الرسول: "منيعٌ عائذ اللّه"، فردها إلى أهلها. ويقال : إن بعض أزواج النبي هن اللاتي أوصينها بالتعوذ أمامه بدعوى أنه يجب ذلك". وقيل إن التي استعاذت من رسول الله (ص) كِندية بنت عم لأسماء بنت النعمان، دعاها، فقالت : إنا قوم نُؤتَى ولا نَأتِي؟ فردها إلى أهلها. وذكر أن ريحانة بنت يزيد، يهودية من بني النضير وقيل من بني قريظة، وكانت جميلة وسيمة، وقعت في سبي بني قريظة، فكانت صفيّ رسول الله، فخيرها بين الإسلام ودينها، فاختارت الإسلام، فأعتقها وتزوّجها. وقيل كانت موطوءة له بملك اليمين.

وأما سراريه فأربع: مارية القبطية أم ولده إبراهيم، وريحانة، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش، وأخرى اسمها زليخة القرظية.

"والحاصل أن جملة من خطبه من النساء ثلاثون امرأة منهن من لم يعقد عليها ومنهن من عقد عليها، وهذا القسم أيضاً منه من دخل بها ومنه من لم يدخل به. وفيرواية أخرى: جملة من عقد عليه ثلاث وعشرون امرأة، واللاتي دخل عليها منهن اثنتا عشرة وغير المدخول بها غزية، وهي أم شريك العامرية، وهذه قبل دخوله بها، طلقها ولم يراجعها. وهناك أم شريك أخرى، وهي خولة أو خويلة ولم يدخل بها. وهناك أم شريك ثالثة وهي الغفارية. وأم شريك رابعة وهي الأنصارية. ومن جملة اللاتي لم يدخل بها النبي (ص) المرأة التي ماتت من الفرح، لما علمت أنه تزوج بها وهي عز أخت دحية الكلبي، ومن جملتهن سودة القرشية التي خطبها فاعتذرت ببنيها، وكانوا خمسة، وقيل ستة، فقال لها خيراً.

2- توتر علاقته مع زوجاته:

في السيرة الحلبية وغيرها : عن عائشة أنها قالت: «أرسل أزواج النبي (ص) بنته فاطمة إليه فجاءته واستأذنت و هو معي، فأذن لها فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة" (تعني عائشة)، أي يطلبن أن تعدل بينهنّ وبينها «فقال النبي (ص): أي بنية ألست تحبين ما أحب؟ فقالت بلى، قال فأحبي هذه يعنيني (عائشة). فقامت فاطمة فخرجت فجاءت أزواج النبي (ص) فحدثتهنّ بما قالت وبما قال لها فقلن لها: ما أغنيت عنا من شيء، فارجعي إلى النبي، فقالت: والله لا أكلمه فيها أبداً. فأرسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش فاستأذنت عليه وهو

في بيت عائشة فأذن لها، فدخلت فقالت: يا رسول الله أرسلني أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، ثم وقعت (أخذت) تسمعني ما أكره، فطفقت أنظر إلى النبي (ص) حتى يأذن لي فيها، فلم أزل حتى عرفت أن النبي (ص) لا يكره أن أنتصر، فوقعت بها أسمعها ما تكره، فتبسم النبي (ص) وقال لها: إنها ابنة أبي بكر». يقال: إن طلبهنّ أن يعدل بينهن وبين عائشة أن الناس كانوا يتحرّون بهداياهم يوم عائشة".

اختلف المفسرون في سبب نزول قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (سورة الأحزاب أعلاه 28). قيل نزلت لما طلبن منه زيادة في النفقة، فاعتزلهن شهراً، ثم أمر بتخييرهن بين البقاء معهن أو مفارقته. روي أن أبا بكر جاء النبي فوجد الناس جلوساً ببابه ليأذن لهم، فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجدا النبي (ص) جالساً، حوله نساؤه قد سألنه النفقة وهو حاجم ساكت لا يتكلم، فقال عمر: لأقولن شيئاً أضحك به النبي (ص). فقال: يا رسول الله لو رأيت فلانة يعني زوجته سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك النبي (ص) وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة. فقام أبو بكر إلى عائشة فوجأ عنقها وقام عمر إلى حفصة فوجأ عنقها، وكل يقول: تسألن رسول الله (ص) ما ليس عنده، ثم أقسم رسول الله أن لا يجتمع بهن شهراً. وفي رواية أخرى أن عمر سأله: "أطلقت يا رسول الله نساءك"؟ قال عمر: "فرفع رأسه إليّ وقال لا، فقلت: الله أكبر، ثم قلت: كنا معاشر قريش بمكة نغلب على النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساءهم، فطفق نساؤنا يتعلمن منهن، فكلمت فلانة يعني زوجته فراجعتني (ردت عليه بما يخالف قوله) فأنكرت عليها، فقالت تنكر عليّ أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي (ص) لتراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك وخسر، أفتأمن إحداهنّ أن يغضب الله عليها بغضب زوجها، فتبسم رسول الله، فذهبت إلى حفصة فقلت: أتراجعن رسول الله ؟ فقالت: نعم، وتهجره إحدانا اليوم إلى الليل. فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها بغضب رسول الله ؟ لا تراجعي رسول الله (ص) ولا تسألينه شيئاً، وسليني ما بدا لك، ولا يغرنك إن كانت جارتك أحب إلى رسول الله (ص) منك؟ يعني عائشة، فتبسم أخرى، فقلت، استأنس يا رسول الله قال نعم، فجلست وقلت: يا رسول الله قد أثر في جنبك زمل هذا الحصير (كان متكئا عليه) وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً

وقال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت: أستغفر الله يا رسول الله. فلما مضى تسع وعشرون يوماً أنزل الله تعالى عليه أن يخير نساءه في قوله تعالى: "يا أيها النبي قل لأزواجك" الآية، فنزل ودخل على عائشة، فقالت له: يا رسول الله أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وقد دخلت وقد مضى تسع وعشرون يوماً، أعددهن! قال: إن الشهر تسع وعشرون، وفي رواية: يكون هكذا وهكذا وهكذا... ثم قال: يا عائشة إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك. فقالت: وما هو يا رسول الله، فقرأ: "يا أيها النبي قل لأزواجك" الآية. قلت، أفي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله، ورسوله والدار الآخرة. قالت: ثم قلت له: لا تخبر امرأة من نساءك بالذي قلت. فقال: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني متعنتاً ولكن بعثني معلماً بشيراً. ثم فعل أزواجه مثل ما فعلت عائشة".

96- سورة الممتحنة

- تقديم

هذه السورة مدنية باتفاق وسميت بـ "الممتحنة" (بالفتح وهو المشهور)، قيل سميت بهذا الاسم لورد الأمر فيها بامتحان النساء اللاتي يأتين الرسول من مكة ويصرحن بإسلامه، وقيل: المقصود المرأة التي خضعت لامتحان عقب إلقاء القبض عليها وهي تحمل رسالة تجسس على النبي من رجل مؤمن في المدينة إلى مشركي مكة يخبرهم فيها عن اعتزامه عليه السلام الذهاب إلى مكة. ولما علم الرسول بذلك بعث جماعة من الصحابة لتعقيها وإعادتها إلى المدينة. وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: "بعثني رسول الله (ص) -ونفر من المهاجرين- فقال: "انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (بين مكة والمدينة)، فإن بها ظعينة (مركب امرأة) معها كتاب، فخذوه منها. فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة، فوجدنا امرأة، فقلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ليس معي كتاب، قلنا: لتخرجنّ الكتاب، أو لنلقينّ الثياب، فأخرجته من عِقَاصها (ج. عقيصة، ضفرة شعر المرأة في رأسها)، وأخذنا الكتاب فانطلقنا به إلى رسول الله (ص) فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله (ص)، فقال رسول الله (ص): «يا حاطِبُ ما هَذَا؟» قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ، كنت امرأ ملصقا في قريش، ولم يكن لي فيهم قرابة، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات، يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب أن أتخذ فيها يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله (ص): "قَدْ صَدَقَكُمْ". فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرا، وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللّهَ قَدِ اطّلَعَ على أهْلِ بَدْرٍ، فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ". قيل وفيه نزلت الآية الأولى من هذه السورة "يا أَيّها الّذِينَ آمَنُوا لا تَتّخِذُوا عَدُوّي وَعَدُوّكُمْ أوْلِياءَ" الخ.

ويفهم من الرواية أن الرسالة كانت تتعلق بتجهيز الرسول عليه وسلّم للحديبية. قيل: "لما أراد النبي (ص) أن يأتي مكة أفشى في الناس أنه يريد

خيبر وأسرّ إلى ناس من أصحابه منهم حاطب بن أبي بلتعة المذكور وهو من أصحاب بدر، أنه يريد مكة. بمعنى أنه يريد عمرة الحديبية (أو صلح الحديبية وليس عمرة القضاء وفتح مكة)، لأن خيبر فتحت قبل فتح مكة. وبالنظر إلى أن عمرة الحديبية هذه كانت سنة ست فإن هذه السورة تكون قد نزلت قبلها في نفس السنة.

نص السورة

1- مقدمة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ (قريشا) أَوْلِيَاءَ (أصدقاء) تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ (تمدونهم بأخبار النبي وأسراره) وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ (من الدين: القرآن)، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ (من دياركم بمكة) أَنْ تُؤْمِنُوا (لأنكم آمنتم) بِاللَّهِ رَبِّكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي (جواب الشرط مقدم على الشرط: لا تتخذوهم أولياء إن كنتم تبتغون مرضاتي) (1) : تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ. وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ[1]. إِنْ يَثْقَفُوكُمْ (إن يظفروا بكم) يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ، وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ[2]. لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ (مع قريش الذين تتخذونهم أولياء)، يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ (الله) بَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[3].

2- دعوة المسلمين إلى الاقتداء بموقف إبراهيم من قومه.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ (قدوة) حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ. (اقتدوا بإبراهيم) إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ (فتدوا به إلا في استغفاره لأبيه فذلك مجرد دعاء)، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ (إن الله عاقبك على كفرك به، ولا أغني عنك

---

1 – الطبري: ووجه الكلام: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي، وابتغاء مرضاتي، يخرجون الرسول وإياكم بسبب أنكم آمنتم ا بالله ربكم.

منه شيئا. فدعا إبراهيم ربه) رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ[4]، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا (لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق، فيفتتنوا بذلك) وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[5]. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ (إبراهيم والمؤمنين به) أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ (يرجع إلى الكفار) فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ[6]. عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ (من أقاربكم في مكة) مَوَدَّةً، وَاللَّهُ قَدِيرٌ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[7]. (ذلك أنه) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ (من أهل مكة) لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا (تعدلوا وتحسنوا) إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ[8]، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا (تحالفوا وتناصروا) عَلَى إِخْرَاجِكُمْ، أَنْ تَوَلَّوْهُمْ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[9] (2).

3- النساء اللائي يلتحقن بالمسلمين واللائي يلتحقن بالمشركين...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ (من مكة) فَامْتَحِنُوهُنَّ (اختبروهن)، اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ. فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ(3)، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ (لأنهم مشركون) وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ (للسبب نفسه)، وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا (أعطوا لأزواجهن الكفار ما دفعوا لهن من المهر) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (مهورهن)، وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ (بمعنى إن لحقت بالمشركين واحدة من نسائكم فلا تتمسكوا بهن لكونكم أزواجا لهن)، وَاسْأَلُوا (اطلبوا ممن يتزوجهن من الكفار) ما

---

2 - المعنى إن الله لا ينهاكم عن التعاطف مع أقاربكم في مكة ممن لم يقاتلوكم، ولكن ينهاكم أن تتحولوا إلى جواسيس للملأ من قريش للذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم.

3- قيل نزلت بعد صلح الحديبية، وكان الصلح قد وقع على أن يردّ إلى أهل مكة مَنْ جاء من المؤمنين منهم، وهذه الرواية لا تستقيم مع كون هذه السورة نزلت قبل صلح الحديبية، لأن مضمون الرسالة التي كانت قد حملتها تلك المرأة إلى قريش صريح في أن الآية التي نزلت في شأنها وبالتالي السورة كلها كانت سابقة لتحرك النبي إلى الحديبية. ولا شيء يمنع من القول إنها نزلت قبل ذلك، والحفاظ على وحدة السورة أولى من الأخذ بروايات لا شيء يسندها سوى أنها لا تتعارض مع آياتها، فالقاعدة هي أن ما يسمى بـ "أسباب النزول" إنما يبحث عنها أو تختلق اختلاقا لتطابق آية سبق أن نزلت. فهي محاولة بعدية للشرح وليست سابقة للنزول، إلا ما يزكيه لفظ النزول مثل هذه الأسبقية.

أَنْفَقْتُمْ (عليهنّ من المهر) **وَلْيَسْأَلُوا** (أي المشركون) **مَا أَنْفَقُوا** (ما أعطوا من المهر لزوجاتهم اللائي يسلمن ويلتحقن بالمدينة وتتزوجون بهن)، **ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**[10]. **وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ** (إن لحقت بهم من ارتدت من نسائكم) **فَعَاقَبْتُمْ** (فغزوتموهم وانتصرتم)، **فَآتُوا** (أعطوا من الغنائم لهؤلاء) **الَّذِينَ ذَهَبَتْ** (ارتدت) **أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا** (عليهن)؛ **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ**[11]. **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ، وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ** (لا يأتين بولدٍ ينسبنه إلى الزوج زورا)، **وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ** (على هذا الأساس) **وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**[12].

4- خاتمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (يعني مشركي قريش)، **قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ** (قد كفروا بالبعث ويئسوا منه) **كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ** (في كل قوم من عودة أقاربهم) **مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ**[13] (أي من موتاهم).

- تعليق

تتميز هذه السورة بوحدة الموضوع : تنظيم العلاقات بين المسلمين بالمدينة والمشركين بمكة. وهذه المسألة قد أخذت تطرح نفسها بإلحاح عقب اشتعال الحرب بين قريش في مكة والمسلمين في المدينة: غزوة بدر، غزو أحد، غزوة الأحزاب، وغزوات جانبية أخرى. ذلك أن هذه الغزوات قد ضاعت الاحتكاك بين الطرفين على كثير من الأصعدة، فعلاوة على الزيارات العادية المتبادلة كالحج والعمرة والتجارة، أصبح هناك الآن في كل من مكة والمدينة نساء فقدن أزواجهن في القتال وأصبحن أياما في بلدهن ومعهن يتامى، وبالمقابل صار من المطلوب بدافع القبيلة أو غيره أن يكون هناك نوع من تبادل النساء: رجال من قريش يريدون الزواج بأخريات في المدينة والعكس صحيح أيضا. وفي مثل هذه الظروف ينشط التجسس، كل طرف يتجسس على خصمه مستخدما النساء، كما ينشط التواصل بين الأقارب الذين فرقت بينهم الحرب الخ. حول تنظيم العلاقات الناجمة عن الاتصال الذي تفرضه الحرب تدور هذه السورة

1- تبدأ السورة في المقدمة بنهي المسلمين من اتخاذ عدو الله وعدوهم، يعني مشركي قريش، أصدقاء يمدونهم بأخبار النبيِ وأسرَاره، والإشارة هنا إلى الشخص الذي بعث رسالة إلى أهل مكة يخبرهم فيها بعزم النبي على الذهاب إلى مكة (انظر التفاصيل في التقديم).

2- وفي الفقرة الثانية تدعو المسلمين بالمدينة إلى الاقتداء بإبراهيم والمؤمنين به "الذينَ قَالُوا لقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ". ثم تستثني السورة الذين من أهل مكة لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم فهؤلاء لا ينهاهم من أن يبروهم ويحسنوا إليهم.

3- وتأتي الفقرة الثالثة لتطرح مسألة برزت في صفوف المهاجرين في المدينة تخص "التنافي بين العلاقة الزوجية وعلاقة القرابة، ذوي الأرحام : ذلك هناك مهاجرين تركوا في المدينة زوجاتهم، ومهاجرات تركن في مكة أزواجهن. ويبدو أن هذه الظاهرة قد تنامت بعد الهجرة : رجال ينتقلون من مكة بعد إسلامهم إلى المدينة ويتركون زوجاتهم اللاتي لم يسلمن في مكة، ونساء يفعلن الشيء نفسه: يفدن على المدينة ليبايعن الرسول ويتركن أزواجهن في مكة، إضافة إلى رجال أو نساء مسلمين ومسلمات يعودون إلى مكة من المدينة، مع بقائهم على الإسلام أو الردة... لقد بينت هذه الفقرة كيفية معالجة هذه الظاهرة، فلم تحكم بالقتل على المرتدين والمرتدات كما أنها لم تحرم الأزواج والزوجات من حقهن في المهر سواء كان الانتقال إلى هذه الجهة أو تلك. والآيات واضحة ومفصلة.

وما تطرحه هذه السورة بصدد "المهر" يعطينا فكرة واضحة عن أهمية المهر أو الصداق في الحياة الزوجية في القبائل العربية في المجالين للاجتماعي والاقتصادي. وقد تحدث القرآن عنه في كثير من الأحيان كما في هذه السور باسم "الأجر"، كأن الزواج بامرأة نوعا من المعاملة التجارية، كانت قيمة المرأة –ولا تزال– تقاس بمقدار مهرها الذي كان يراد منه أن يعكس مكانة أسرتها في المجتمع. ولا بد من الإشارة كذلك إن أن المهر كان ينظر إليه بمقياس التبادل الاقتصادي بين القبائل إذ كان يتم بالعملة كما يتم بالإبل والمتاع...

4- وتأتي الخاتمة لتستعيد المقدمة كالعادة فتكرر النهي عن موالاة الكفار وعدم الثقة بهم لأنهم لا وازع لهم: هم قوم غضب الله عليهم، لأنهم مصرون على إنكار البعث والقيامة والحساب، وبالتالي فهم لا يخافون ترهيبا ولا يؤثر فيهم ترغيب.

97- سورة النساء

- تقديم

يبدو من تسلسل السور السابقة أن هذه السورة واحدة من نفس السلسلة من حيث المضمون، أعني الموضوعات التي تناولتها، كما يبدو من بعض الوقائع التي ذكرتها أو أشارت إليها أن ترتيبها في الرتبة التي وضعناها فيها مبرر تماما: فمجيئها بعد سورة الأحزاب تزكيه الآية الثانية منها وهي قوله تعالى : "وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ"، التي قيل إنها نزلت في رجل من غطفان، وغطفان أسلموا بعد وقعة الأحزاب، التي جرت سنة خمس، كما يزكيه نزول آية التيمم التي قيل إنها نزلت في هذه السنة أيضا. هذا من جهة ومن أخرى يمكن النظر إلى هذه السورة على أنها استعادة لموضوع السورتين السابقتين وتفصيل القول في جانب آخر من موضوع النساء. كل ذلك يفيد أنها نزلت في أوائل السنة السادسة.

- نص السورة

<u>1- مقدمة:</u>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ[1] اتَّقُوا رَبَّكُمُ (اتبعوا ما نزل عليكم من أحكام) الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ (هي آدم) وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا [2] وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً،

---

1 - بعض المفسرين يعتبرون هذه الآية مكية لكونها تبدأ بـ"يا أيها الناس" وليس بـ"يا أيها الذين آمنوا"، على اعتبار أن النداء الأول استعمل في مكة وحدها وأن الثاني استعمل في المدينة، وهذا غير مطرد ولا يصلح كقاعدة عامة. فكلمة "الناس" تفيد العموم.

2- للمفسرين أقول في هذا الموضوع ترجع كلها إلى ما ورد في التوراة من أن الله خلق حواء من ضلع آدم، ويقولون بما قالت التوراة في مسألة خطيئة "التفاحة"، في حين أنه ليس في القرآن ما يحمل المرأة مسؤولية هذه الخطيئة، بل إن جميع الآيات الواردة في هذا=

الموضوع تفيد أن آدم هو من ارتكب الخطيئة وأن المرأة إنما تبعته. ولكي يلمس القارئ الفرق بين التوراة والقرآن في هذا الموضوع نورد هنا ما جاء في التوراة. ففي سفر التكوين بعد أن خلق الله السماوات والأرض والكائنات الحية وخلق الإنسان (آدم) "على صورته" : " 15أَخَذَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَفْلَحَهَا وَيَعْتَنِيَ بِهَا. 16وَأَمَرَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ قَائِلاً: كُلْ مَا تَشَاءُ مِنْ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، 17وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لأَنَّكَ حِينَ تَأْكُلُ مِنْهَا حَتْماً تَمُوت ... 18ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: لَيْسَ مُسْتَحْسَناً أَنْ يَبْقَى آدَمُ وَحِيداً. سَأَصْنَعُ لَهُ مُعِيناً مُشَابِهاً لَهُ. 19وَكَانَ الرَّبُّ الإِلَهُ قَدْ جَبَلَ مِنَ التُّرَابِ كُلَّ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ وَطُيُورِ الْفَضَاءِ وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى بِأَيِّ أَسْمَاءٍ يَدْعُوهَا، فَصَارَ كُلُّ اسْمٍ أَطْلَقَهُ آدَمُ عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ اسْماً لَهُ. 20وَهَكَذَا أَطْلَقَ آدَمُ أَسْمَاءً عَلَى كُلِّ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْبَهَائِمِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ مُعِيناً مُشَابِهاً لَهُ. 21فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، ثُمَّ تَنَاوَلَ ضِلْعاً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَسَدَّ مَكَانَهَا بِاللَّحْمِ، 22وَعَمِلَ مِنْ هَذِهِ الضِّلْعِ امْرَأَةً أَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. 23فَقَالَ آدَمُ: هَذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. فَهِيَ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِئٍ أُخِذَتْ. 24لِهَذَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَتْرُكُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَصِيرَانِ جَسَداً وَاحِداً. 25وَكَانَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ 25وَكَانَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ عُرْيَانَيْنِ، وَلَمْ يَعْتَرِهِمَا الْخَجَلُ. وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَمْكَرَ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي صَنَعَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ، فَسَأَلَتِ الْمَرْأَةَ: «أَحَقّاً أَمَرَكُمَا اللهُ أَلاَّ تَأْكُلاَ مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟ 2فَأَجَابَتِ الْمَرْأَةُ: يُمْكِنُنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا، 3مَاعَدَا ثَمَرَ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِهَا. فَقَدْ قَالَ اللهُ : لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَلْمُسَاهُ لِكَيْ لاَ تَمُوتَا. 4فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: »نْ تَمُوتَا، 5بَلْ إِنَّ اللهَ يَعْرِفُ أَنَّهُ حِينَ تَأْكُلاَنِ مِنْ ثَمَرِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا فَتَصِيرَانِ مِثْلَهُ، قَادِرَيْنِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. 6وَعِنْدَمَا شَاهَدَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ لَذِيذَةٌ لِلْمَأْكَلِ وَشَهِيَّةٌ لِلْعُيُونِ، وَمُثِيرَةٌ لِلنَّظَرِ قَطَفَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، ثُمَّ أَعْطَتْ زَوْجَهَا أَيْضاً فَأَكَلَ مَعَهَا، 7فَانْفَتَحَتْ لِلْحَالِ أَعْيُنُهُمَا، وَأَدْرَكَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ، فَخَاطَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ مِنْ أَوْرَاقِ التِّينِ. 8ثُمَّ سَمِعَ الزَّوْجَانِ صَوْتَ الرَّبِّ الإِلَهِ مَاشِياً فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَآ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ الإِلَهِ بَيْنَ شَجَرِ الْجَنَّةِ. 9فَنَادَى الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ: أَيْنَ أَنْتَ؟ 10فَأَجَابَ: سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَاخْتَبَأْتُ خَشْيَةً مِنْكَ لأَنِّي عُرْيَانٌ. 11فَسَأَلَهُ: مَنْ قَالَ لَكَ إِنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا؟ 12فَأَجَابَ آدَمُ: إِنَّهَا الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا رَفِيقَةً لِي. هِيَ الَّتِي أَطْعَمَتْنِي مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ، فَأَكَلْتُ. 13فَسَأَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ الْمَرْأَةَ: مَاذَا فَعَلْتِ؟ فَأَجَابَتْ: أَغْوَتْنِي الْحَيَّةُ فَأَكَلْتُ. 14فَقَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ لِلْحَيَّةِ: لأَنَّكِ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ، عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ، وَمِنَ التُّرَابِ تَأْكُلِينَ طَوَالَ حَيَاتِكِ، 15وَأُثِيرُ عَدَاوَةً دَائِمَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ نَسْلَيْكُمَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ وَأَنْتِ تَلْدَغِينَ عَقِبَهُ". قلت (الجابري) : واضح أن الأفق الذي تتكلم التوراة فيه هنا ليس هو الأفق الذي يتكلم فيه القرآن، فالقرآن يتحدث صراحة عن سبب خطأ الإنسان وهو الهوى (المعبر عنه بالشيطان ووسوسته)، وقد تحدث عن المرآة (حواء) كتابعة للرجل (كضحية له) وليس كـ "حية" تلدغ. وإذا كان من الممكن اعتبار "الحية" رمزا للشيطان كما يقول شراح التوراة فإن الإدانة ستبقى -لغويا على الأقل- للأنثى، والضحية هو الرجل.=

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ (فتقولون مثلا: أسألك بالله والرحم)، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا[1].

2- وَآَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ...

وَآَتُوا الْيَتَامَى (الذين أنتم أوصياء عليهم) أَمْوَالَهُمْ (إذا بلغوا ورشدوا) وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ (ولا تستبدلوا الحرام عليكم من أموالهم بأموالكم الحلال) وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ (لا تخلطوها فتأكلوا من أموالهم)، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا (إثما) كَبِيرًا[2]. وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ (حل) لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَلِكَ أَدْنَى (أقرب) أَلَّا تَعُولُوا[3] (تميلوا ولا تعدلوا) (3). وَآَتُوا النِّسَاءَ

والقرآن بالعكس من هذا تماما. أما قوله تعالى "خلق منها زوجها" فلا شيء فيه يفهم منه أنه خلقها من "ضلع آدم" : والأقرب إلى الفهم الصحيح للقرآن (الفهم الذي يعتمد مبدأ "القرآن يفسر بعضه بعضا") هو أن نقول : المقصود بـ"النفس" هنا هو النوع، كما فهمنا قوله تعالى في سورة النحل "وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا" (النحل: 72) أي جعل لكم من نوعكم الإنساني أزواجا. وبالتالي فمعنى "خلق منها زوجها" (أي خلق زوجها من نفس نوعها) وهو كقوله تعالى: "إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ" (آل عمران: 164) وقوله: "لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ" (التوبة: 128)، أي بشر مثلكم من نوعكم الآدمي الإنساني، والنوع الإنساني هو ما يطلق عليه القرآن "بني آدم"، فكما خلق آدم من تراب فواجب أن تخلق حواء أيضا من تراب، لأنهما نوع واحد "نفس واحدة".

3- لابد من الإشارة أولا إلى ما قلناه في تقديم السورة السابقة من أن ظروف الحرب بين المسلمين في المدينة وغيرهم من الكافرين في مكة وغيرها كان لابد أن ينجم عنها كثرة من الأرامل والأيتام، ولا بد أن يكون هناك من يريد استغلال هذه الظاهرة لفائدته الخاصة الاقتصادية أو الزوجية الخ. بعد هذا التنبيه نذكر ما ورد من آراء متعدد في الطبري في الموضوع نلخصها فيما يلي: "الرأي الأول مبني على رواية عن عائشة سئلت في الموضوع فقالت: "هي اليتيمة تكون في حجر وليها، تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهنّ، ويبلغوا بهنّ أعلى سنتهنّ في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن" على أن لا يتجاوزوا أربعا. وأما الرأي الثاني فمؤداه: "النهي عن نكاح ما فوق الأربع، حذرا على أموال اليتامى أن يتلفها أولياؤهم، وذلك أن قريشا، كان الرجل منهم يتزوّج العشر من النساء، والأكثر والأقلّ، فإذا صار معدما، مال على مال يتيمه الذي في حجره، فأنفقه، أو تزوّج به، فنهوا عن ذلك". وأما الرأي الثالث فيقول: "كانوا يتخوفون من=

صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً (أعطوهن مهورهن وجوبا وفريضة) [4] فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا (أعطينكم من صداقهن بطيب خاطر) فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا[4] (بريئا من الضرر والخداع). وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ[5] أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا (فيكونون هم القيمون عليها)، وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا (أطعموهم منها) وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا[5]. وَابْتَلُوا الْيَتَامَى (واختبروا عقول يتاماكم في أفهامهم وصلاحهم) حَتَّى

أموال اليتامى ألا يعدلوا فيها، ولا يتخوفون في النساء ألا يعدلوا فيهنّ، فقيل لهم: كما خفتم أن لا تعدلوا في اليتامى، فكذلك خافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهنّ، ولا تنكحوا منهنّ إلا من واحدة إلى الأربع، ولا تزيدوا على ذلك، وأن خفتم ألا تعدلوا أيضا في الزيادة على الواحدة، فلا تنكحوا إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيهنّ من واحدة أو ما ملكت أيمانكم". ورأي رابع يقول: "إن تحرّجتم في ولاية اليتامى وأكل أموالهم، إيمانا وتصديقا، فكذلك فتحرّجوا من الزنا، وانكحوا النساء نكاحا طيبا". وأخيرا يختار الطبري الرأي التالي: "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فكذلك خافوا في النساء، فلا تنكحوا منهنّ إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهنّ، من واحدة إلى الأربع، فإن خفتم الجور في الواحدة أيضا فلا تنكحوها، ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم؟ "ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا" : فإنكم أحرى أن لا تجوروا عليهنّ، لأنهنّ أملاككم وأموالكم، ولا يلزمكم لهنّ من الحقوق كالذي يلزمكم للحرائر، فيكون ذلك أقرب لكم إلى السلامة من الإثم والجور. (قلت: ولكن يبقى تحديد معنى الجور ونوعه: هل الجور في المال فقط، أو في المعاملة عامة، أو في حق الزوجية من حب وجماع، أو في عدم الزنا عليهن الخ، ثم هل الجور على الإماء ليس جورا، حتى ولو سكتنا عن وضعيتهم كمسبيات وأسيرات! أليس للأسير في الإسلام حقوق الخ؟

4 – السؤال هنا هو: الخطاب لمن؟ هل للزوج أو للوصي؟ بعضهم قال الخطاب للزوج : لا بد أن يدفع لمن يريد أن يتزوج منها صداقا مسمى معلوما. وقيل: الخطاب لأولياء اليتامى: من النساء، وذلك أنهم كانوا يأخذون مهورهن: كان الرجل إذا زوّج أيمة (امرأة بقيت بدون زواج لمدة طويلة) أخذ صداقها دونها"، وقيل: "بل كان ذلك من أولياء النساء، بأن يعطي الرجل أخته لرجل، على أن يعطيه الآخر أخته، على أن لا كثير مهر بينهما".

5– اختلفوا في معنى السفهاء هنا: منهم من قال هم النساء والأولاد الصغار، ومنهم من قال: هم الصغار وحدهم، وآخرون قالوا: هن النساء، زوجات أو أمهات أو بنات، وقال آخر: النساء من أسفه السفهاء ... ويعترض الطبري على هذه التأويلات فيقول: "والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا : أن الله جلّ ثناؤه عمّ بقوله: "وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ" فلم يخصص سفيها دون سفيه، فغير جائز لأحد أن يؤتي سفيها ماله، صبيا صغيرا كان أو رجلاً كبيرا ذكرا كان أو أنثى. والسفيه، الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله، هو المستحقّ للحجر بتضييعه ماله وفساده وإفساده وسوء تدبيره ذلك". والسفيه في اللغة: خفيف العقل، الجاهل".

إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ (سن الرشد)، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا (عقولاً وصلاحا) فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ، وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا (بالإسراف فيما هو حلال لكم منها)، وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا(بالمبادرة إلى استغلال الفرصة قبل أن يكبروا ويتسلموها منكم)، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا (عن أجر ولايته لمال اليتيم) فَلْيَسْتَعْفِفْ (فليتنازل عن ذلك الأجر) وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ (ينفق على نفسه منها) بِالْمَعْرُوفِ (فلا يسرف ولا يبالغ. وقال بعضهم عليه أن يرد إذا استغنى)، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ (بحضور شهود)، وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا[6].

3- الإرث ... والوصية

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ (المتوفون) وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ، نَصِيبًا مَفْرُوضًا[7] (لابد من تسليمه لأهله) (6). وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ (قسمة الإرث) أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ (أعطوهم أيها الورثة شيئا قبل القسمة) (7)، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا[8] (واعتذروا لهم أيها الأولياء، إذا كان الورثة صغارا، بأنكم لا تملكون التصرف في الإرث). وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ (بعد موتهم) ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ (أن يضر الموصي بذريته فيوصي لغيرهم بما يضعف ميراثهم منه) فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا[9] (8). إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى

6 – مما ذكروا في سبب نزول آيات الميراث: عن جابر بن عبد الله أن امرأة سعد بن الربيع قالت: يا رسول الله، إن سعداً هلك وترك بنتين وأخاه، فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد، وإنما تنكح النساء على أموالهن. وهذه العبارة الأخيرة تلقي الضوء على أهمية المهر (الصداق، أو الأجر في التقاليد العربية، وبالتالي عناية القرآن بحق المرأة في الصداق وفي الإرث. وفي هذا الإطار يدخل تعدد الزوجات أيضا.

7- بعضهم جعل ذلك ندبا وبعضهم جعله فرضا. والمعنى هنا ينصرف إلى قرابة المتوفى ممن لا نصيب له من الإرث حسب لائحة الورثة الذين سيذكرون بعد.

8 – المعنى: وليخش من كانوا حاضرين ساعة احتضار الرجل الذي هو على فراش الموت. وكانوا ممن لهم أولاد صغارٌ يخافون عليهم من بعدهم الفقر والضياع... ليخشوا أن يبالغ المحتضر في الوصية لليتامى والمساكين وأقاربه الذين لا يرثون، بما يحرم ورثته من ميراثهم، فيكون هذا المحتضر قد أوصى بما لم يكون الحاضرون ساعة احتضاره ليفعلوه لو كانوا هم على فراش الموت، ولذلك فالواجب عليهم أن ينصحوه بما كانوا سيفعلون، هم الذين

ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[10] [(9)]. يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ (من ميراث أبيهم المتوفى إذا لم يكن له وارث غيرهم) [(10)]. فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً (=بنات الميت) فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ (دون سائر ورثته، إذا لم يكن الميت خلف ولدا ذكرا معهن)، وَإِنْ كَانَتْ (بنتا) وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ (أمه وأبيه)، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ (ذكرا كان و أنثى، واحدا أو جماعة)، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ (وللأب الثلثان) [(11)]، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ (اثنين أو أكثر، ذكورا أو إناثا) فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ (تنفيذ) وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ (قضاء) دَيْنٍ (ثبت عليه، حتى ولو استغرق الدين التركة كلها، فالأولوية له على الوصية، ومثل هذا يقال في الدين والوصية فيما يأتي). آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا (فأعطوهم حقوقهم من ميراث ميتهم)، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا[11]! وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ (من مال وميراث) إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ (يوم يتوفين، لا ذكر ولا أنثى)، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ (ذكر أو أنثى) فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ، وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ. وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ (متوفى) يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ (متوفاة تورث كلالة) [(12)] (أي لم يترك أي منهما

يخشون على صغارهم الفقر والضياع. وتلافيا للمبالغة في الوصية ستحصر الآية التالية الوصية في الثلث فقط.

9- قيل : الخطاب هنا للمشركين حين كانوا لا يورثونهم ويأكلون أموالهم.

10- قالوا: كان العرب قبل الإسلام يخصون بميراث الميت من كان من أبنائه يلاقي العدوّ ويقاتل في الحروب دون النساء والذرية، ويعطونه الأكبر فالأكبر... قيل: "لما نزلت الفرائض (=الآيات أعلاه التي تحدد كيفية قسمة الميراث) كرهها الناس أو بعضهم، وقالوا: (لماذا) تعطى المرأة الربع والثمن، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة؟! (وأضافوا :) اسكتوا عن هذا الحديث، لعلّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ينساه، أو نقول له فيغيره! فقال بعضهم: يا رسول الله، أنعطي الجارية نصف ما ترك أبوها، وليست تركب الفرس، ولا تقاتل القوم، ونعطي الصبيّ الميراث، وليس يغني شيئا؛ وقال آخرون: بل نزل ذلك من أجل أن المال كان للولد، وللوالدين الوصية.

11- في الحديث : "إن كل ميت فأقرب عصبته به أولى بميراثه"، بعد إعطاء ذوي السهام المفروضة سهامهم من ميراثه.

12 - انظر معنى الكلالة في آخر السورة، بعد الخاتمة.

ولدا ولا والدا)، وَلَهُ (للمتوفى أو المتوفاة) أَخٌ أَوْ أُخْتٌ (من أمهما) فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا (الأخ والأخت) السُّدُسُ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ، غَيْرَ مُضَارٍّ (غير ملحق ضررا بورثته بسبب وصية فيها إسراف. وجميع ما تقدم هو) وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ"12 (13). تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ (تفصل بين المطلوب وغير المطلوب) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

---

13 – قال القرطبي في توزيع الإرث: وأجمع العلماء على أن الأولاد إذا كان معهم من له فرض مسمًّى أعطيه، وكان ما بقي من المال للذكر مثل حظ الأنثيين؛ لقوله عليه السلام: «ألحقوا الفرائض بأهلها» -رواه الأئمة- يعني الفرائض الواقعة في كتاب الله تعالى. وهي ستة: النصف والربُع والثُمن والثُلثان والثُلث والسدُس. فالنصف فرضُ (نصيب) خمسةٍ: ابنة الصُلب، وابنة الابن، والأُخت الشقيقة، والأُخت للأب، والزوج. وكل ذلك إذا انفردوا عمن يحجبهم عنه. والربُع فرض الزوج مع الحاجب، وفرض الزوجة والزوجات مع عدمه. والثمن فرض الزوجة والزوجات مع الحاجب. والثلثان فرض أربع: الاثنتين فصاعداً من بنات الصلب، وبنات الابن، والأخوات الأشقاء، أو للأب. وكل هؤلاء إذا انفردنَ عمن يحجبهن عنه، والثلث فرض صنفين: الأم مع عدم الولد، وولد الابن، وعدم الاثنين فصاعداً من الإخوة والأخوات، وفرض الاثنين فصاعداً من ولد الأم. وهذا هو ثلث كل المال. فأما ثلث ما يبقى فذلك للأمّ في مسألة زوج أو زوجة وأبوان؛ فللأم فيها ثلثُ ما يبقىن وقد تقدم بيانه. وفي مسائل الجدّ مع الإخوة إذا كان معهم ذو سَهْم وكان ثلثُ ما يبقى أحظى له. والسدس فرض سبعة: الأبوان والجدّ مع الولد وولد الابن، والجدّة والجدّات إذا اجتمعن، وبنات الابن مع بنت الصلب، والأخوات للأب مع الأخت الشقيقة، والواحد من ولد الأم ذكراً كان أو أنثى. وهذه الفرائض (الأنصبة) كلها مأخوذة من كتاب الله تعالى إلا فرض الجدّة والجدّات فإنه مأخوذ من السنة. والأسباب الموجبة لهذه الفروض بالميراث ثلاثة أشياء: نسب ثابت، ونكاح منعقد، وولاء عتاقة. وقد تجتمع الثلاثة الأشياء فيكون الرجل زوج المرأة ومولاها وابن عمها. وقد يجتمع فيه منها شيئان لا أكثر، مثل أن يكون زوجها ومولاها، أو زوجها وابن عمها؛ فيرث بوجهين ويكون له جميع المال إذا انفرد: نصفه بالزوجية ونصفه بالولاء أو بالنسب. ومثل أن تكون المرأة ابنة الرجل ومولاته، فيكون لها أيضاً جميع المال إذا انفردت: نصفه بالنسب ونصفه بالولاء. ولا ميراث إلا بعد أداء الدّيْن والوصية؛ فإذا مات المتوفى أخرج من تركته الحقوق المعيَّنات، ثم ما يلزم من تكفينه وتقبيره، ثم الديون على مراتبها، ثم يخرج من الثلث الوصايا. وما كان في معناها على مراتبها أيضاً، ويكون الباقي ميراثاً بين الورثة، وجملتهم سبعة عشر، عشرة من الرجال: الابن وابن الابن وإن سفل، والأب وأب الأب و هو الجدّ وإن علا. والأخ وابن الأخ، والعمّ وابن العمّ والزوج ومولى النعمة. ويرث من النساء سبعٌ: البنت وبنت الابن وإن سفلت، والأم والجدّة وإن علت، والأخت والزوجة، ومولاة النعمة وهي المعتقة.

يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[13]. وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا، خَالِدًا فِيهَا، وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ"[14].

4- النساء: ما لهن وما عليهن ... حكم أولي في الزنا...

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِسَائِكُمْ (الزانيات من نساء المدينة اللائي اشتهر ذلك عنهن، وليس بالضرورة زوجات المؤمنين فقد يكن غير محصنات أو أرامل) فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنكُمْ (14)، فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ

14- قال القرطبي: "جعل الله الشهادة على الزنا -خاصة- أربعةً، تغليظاً على المدّعي وستراً على العباد؛ وتعديل الشهود بالأربعة في الزنا حكم ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن". وأضاف: "وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال: جاءت اليهود برجل وامرأة منهم (قد) زنَيا فقال: (النبي (ص) "ائتوني بأعلم رجلين منكم"، فأتوهُ بابنَيْ صُوريا فنشدهما: "كيف تجدان أمر هذين في التوراة" ؟ قالا: نجد في التوراة إذا شهد أربعةٌ أنهم رأوْا ذكره في فرجها مثل الميل في المُكحُلة رُجما. قال: "فما يمنعكما أن ترجموهما"؛ قالا: ذهب سلطاننا فكرهنا القتل؛ فدعا رسول الله (ص) بالشهود، فجاؤوا فشهدوا أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة؛ فأمر رسول الله (ص) برجمهما". هذا وقد ورد في التوراة بشأن الزنا والطلاق ما يلي: "22وَإِذَا ضَبَطْتُمْ رَجُلاً مُضْطَجِعاً مَعَ امْرَأَةٍ مُتَزَوِّجَةٍ تَقْتُلُونَهُمَا كِلَيْهِمَا، فَتَنْزِعُونَ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكُمْ. 23وَإِذَا الْتَقَى رَجُلٌ بِفَتَاةٍ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُلٍ آخَرَ فِي الْمَدِينَةِ وَضَاجَعَهَا، 24فَأَخْرِجُوهُمَا كِلَيْهِمَا إِلَى سَاحَةِ بَوَّابَةِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ، ارْجُمُوهُمَا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَا، لأَنَّ الْفَتَاةَ لَمْ تَسْتَغِثْ وَهِيَ فِي الْمَدِينَةِ، وَالرَّجُلَ لأَنَّهُ اعْتَدَى عَلَى خَطِيبَةِ الرَّجُلِ الآخَرِ، فَتَسْتَأْصِلُونَ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكُمْ. 25وَلَكِنْ إِنِ الْتَقَى ذَلِكَ الرَّجُلُ بِالْفَتَاةِ الْمَخْطُوبَةِ فِي الْحَقْلِ، وَأَمْسَكَهَا وَضَاجَعَهَا، يُرْجَمُ الرَّجُلُ وَحْدَهُ وَيَمُوتُ، 26وَأَمَّا الْفَتَاةُ فَلاَ تُرْجَمُ، لأَنَّهَا لَمْ تَرْتَكِبْ خَطِيئَةً جَزَاؤُهَا الْمَوْتُ، بَلْ تَكُونُ كَرَجُلٍ هَاجَمَهُ آخَرُ وَقَتَلَهُ، 27لأَنَّهُ لاَبُدَّ أَنْ تَكُونَ الْفَتَاةُ الْمَخْطُوبَةُ قَدِ اسْتَغَاثَتْ فِي الْخَلاَءِ حَيْثُ وَجَدَهَا الرَّجُلُ، فَلَمْ يَأْتِ مَنْ يُنْقِذُهَا. 28وَإِذَا= وَجَدَ رَجُلٌ فَتَاةً عَذْرَاءَ غَيْرَ مَخْطُوبَةٍ فَأَمْسَكَهَا وَضَاجَعَهَا وَضُبِطَا مَعاً، 29يَدْفَعُ الرَّجُلُ الَّذِي ضَاجَعَ الْفَتَاةَ خَمْسِينَ قِطْعَةً مِنَ الْفِضَّةِ وَيَتَزَوَّجُهَا، لأَنَّهُ قَدِ اعْتَدَى عَلَيْهَا. وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يُطَلِّقَهَا مَدَى حَيَاتِهِ. 30لاَ يَتَزَوَّجْ أَحَدٌ أَرْمَلَةَ أَبِيهِ لأَنَّ هَذَا عَارٌ وَإِهَانَةٌ لأَبِيهِ. (سفر التثنية 22) إِذَا تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْ فَتَاةٍ وَلَمْ تَرُقْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ لأَنَّهُ اكْتَشَفَ فِيهَا عَيْباً مَا، وَأَعْطَاهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَصَرَفَهَا مِنْ بَيْتِهِ، 2فَتَزَوَّجَتْ مِنْ رَجُلٍ آخَرَ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتْ طَلِيقَةً، 3ثُمَّ كَرِهَهَا الزَّوْجُ الثَّانِي وَسَلَّمَهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَصَرَفَهَا مِنْ بَيْتِهِ، أَوْ إِذَا مَاتَ هَذَا الزَّوْجُ، 4فَإِنَّهُ يُحْظَرُ عَلَى زَوْجِهَا الأَوَّلِ الَّذِي طَلَّقَهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا مَرَّةً أُخْرَى، بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ. لأَنَّ ذَلِكَ رِجْسٌ لَدَى الرَّبِّ... 5إِذَا تَزَوَّجَ رَجُلٌ حَدِيثاً يُعْفَى مِنَ الْجُنْدِيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ لِمُدَّةِ سَنَةٍ. يَقْضِيهَا حُرّاً فِي بَيْتِهِ لِيُسْعِدَ زَوْجَتَهُ وَيَسُرَّهَا. (التثنية 24).

(اسجنوهن) [15] حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا[15] (مخرجا وطريقا إلى النجاة مما أتين به من الفاحشة) [16]. وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا (أي الفاحشة) مِنْكُمْ (أي الرجل والمرأة من المسلمين) فَآذُوهُمَا، (لم يتحدد بعد نوع الأذى، مع استبعاد الرجم، لأنه فوق الأذى)، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا [17]، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا[16]. إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ (بمجرد ما يعلمون أن ما فعلوه منهي عنه)، فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[17]. وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[18].

---

15 ــ لم يقل في بيوتكم ولا في بيت زوجها ولا في بيت أهلها، ولكنه قال "البيوت" بدون تحديد، فهل كان اسم "البيوت"، بهذه الصيغة (جمع، معرف بأل) يستعمل علما على السجون؟ ابن عاشور فهمها كذلك ولكن دون توضيح. ومع أننا لم نقف على ما يفيد أن لفظ "البيوت"= قد استعمل بمعنى السجون فإن استعمالاته في العربية التي لا تكاد تحصى تسمح بافتراض ذلك. ويحتمل ن يكون السجن في بيت داخل منزل زوجها أو أهلها.

16- قالوا: كانت المرأة، قبل الإسلام وحين نزول هذه، إذا زنت حبست في البيت حتى تموت ويأخذ زوجها مهرها فهو له، ثم جعل الله لهنّ سبيلاً، فكان سبيل من أحصن جلد مائة ثم رمي بالحجارة وكان مهرها ميراثا، وسبيل من لم تحصن جلد مائة ونفي سنة. وروي في الحديث قوله عليه السلام: "قَدْ جَعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً، الثَّيبُ بالثَّيِّبِ، والبِكْرُ بالبِكْرِ؛ أما الثَّيبُ فتُجْلَدُ ثم تُرْجَمُ؛ وأما البِكْرُ فتجلَدُ ثم تُنْفَى. ويلي هذا المعنى في القرآن لاحقا. أما قول بعضهم إن هذا الحديث قد نسخ الآية أعلاه بناء على قولهم إن "السنة تنسخ القرآن" فغير مسلم.

17- اختلفوا في تأويل قوله تعالى: «وَاللاَّتِي» وقوله: «وَاللَّذَانِ»، بعضهم قال "الآية الأولى في النساء عامّة محصنات وغير محصنات، والآية الثانية في الرجال خاصة، وبيّن لفظ التثنية صنفي الرجال: من أحصَن ومن لم يُحصن؛ فعقوبة النساء الحبسُ، وعقوبة الرجال الأذى. وهذا قول يقتضيه اللفظ، ويستوفي نصُّ الكلام أصناف الزناة. ويؤيّده من جهة اللفظ قوله في الأولى: «مِنْ نِسَائِكُمْ» وفي الثانية «مِنْكُمْ» (القرطبي). ونحن نرى أن هذا الرأي لا يستقيم ولا يردم الهوة بين "اللاتي" وبين "اللذان"، وأن الأقرب إلى الصواب ما أثبتناه أعلاه. انظر التفصيل في التعليق.

5- مسألة العضل

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا (ورثة الميت) لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا (18) (زوجات المتوفين غير راضيات)، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ (النساء أي زوجاتكم) لِتَذْهَبُوا (لتطالبوهن) بِبَعْضِ مَا آَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ (19)، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (بدون رد فعل من جانبكم، علي ما أتينه، من فاحشة يزيد الموقف توترا بل تكون معاشرتكم لهن عادية)، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ (فتثبتوا ولا تتعجلوا بالطلاق)، فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا[19]! وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ

---

18 – لا يحل لكم أن تُكرهوهن وتُقسروهن على أن تتزوجوهن أو تُزوجوهن غيركم، أو تأخذوا ميراثهن من أزواجهن المتوفين الخ. قالوا: "وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته، فيعضلها (يمنعها من الزواج) حتى تموت أو تردّ إليه صداقها، فنهاهم الله عن ذلك". وقيل: "كان إذا توفي الرجل كان ابنه الأكبر هو أحقّ بامرأته ينكحها إذا شاء إذا لم يكن ابنها هي، أو يُنكِحها من شاء، أخاه أو ابن أخيه"، وقيل : "فإن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه، فإذا مات وترك امرأته، فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحقّ بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو يُنكِحها يزوجها لغيره فيأخذ مهرها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهم أحقّ بنفسها، حتى ترضى بأن تكونَ زوجةً لمن ترضاه. وقال آخرون: "بل معنى ذلك: لا يحلّ لكم أيها الناس أن ترثوا النساء تركاتهن كرها. وقال غيرهم في معنى الآية: وإنما قيل ذلك كذلك لأنهم كانوا يعضلون أيامَاهن (=اللاتي مات أزواجهن)، وهن كارهات للعضل، حتى يَمُتن فيرثوا أموالهن". وواضح أن اختلاف هذه الأقوال يعكس اختلاف عادات القبائل العربية

19- المفسرون لهذه الآية فريقان: فريق فسر الفاحشة هنا بالزنا فقالوا ما ملخصه: "إنّ الرجل إذا تحقق زنى زوجته فله أن يعضلها، فإذا طلبت الطلاق فله أن لا يطلّقها حتى تفتدي منه ببعض صداقها، لأنها تسببت في بَعْثرة حال بيت الزوج وأحوجته إلى تجديد زوجة أخرى. وإنما لم يَجْعل المفاداة بجميع المهر لئلا تصير مدةُ العصمة عريّة عن عوض مقابل. وأضاف غيرهم : هذا الحكم نسخ بحدّ الزنا وباللعان، فحرّم الإضرار والافتداء". وفريق فسر "الفاحشة" هنا بـ"النشوز"، أي كراهة امرأة لزوجها وبغضها له، فقالوا : "إذا نشزت جاز له أن يأخذ منها". وهذه آراء محتملة، باستثناء القول بأن هذه الآية نسخت بآية حد الزنا في سورة النور (رقم 2) . أما نحن فنرى أنه لا تناقض بين الآيتين، كل ما هناك هو أن الظروف التي نزلت فيها هذه الآية كانت تقتضي ما فيها من التخفيف، فالحكم الوارد فيها حكم أوّلي، من نوع الحكم الذي سيرد بعد قليل في قضية "الخمر"، وهو قوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ"، فالآية لم تحرم الخمر، وإنما نهت عنه في حالة الصلاة، فهذا حكم أولي بالقياس إلى الحكم النهائي الذي سيأتي، انظر التعليق.

مَكَانَ زَوْجَةٍ (أي إذا أردتم الطلاق بدون سبب إلا الرغبة في الاستبدال) وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا (وكنتم قد أعطيتم مهرا كبيرا للتي تريدون تطليقها) فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا[20]! وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا[21] (أي ليس من المروءة أن تطمعوا في أخذ عوض عن الفراق بعد معاشرة امتزاج وتراض على المهر بموجب عقد وميثاق هو عقد الزواج).

6- المحرمات من النساء .. وزواج المتعة .. والزواج بالإماء

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ (أو كما نكح) [(20)] آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ (وحدث قبل نزول هذه الآية)، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا[22]. حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ، وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ، وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ، وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ، وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ، وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ (بأن تكونوا قد طلقتموهن قبل الدخول عليهن) فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ؛ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا[23]؛ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ (المتزوجات المسلمات محرمات عليكم كذلك) إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ [(21)]. كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ (ذلك أمر الله). وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ (أي من غير المحرمات المذكورة، وفي إطار: من واحدة إلى أربع) أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ (زوجات) مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (غير زانين)، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ

20- بعضهم حمل ما على غير العاقل (أي نكاح) وقالوا لو كان المقصود "نساء آبائكم" لقال لا تنكحوا مَن نكح (أي زوجات آبائكم) أو اللاتي نكحوهن... وبالتالي فالمقصود لا تتزوجوا على عادة آبائكم إلا ما قد سلف..

21- بعضهم قال: "هن ذوات الأزواج غير المسبيات منهنّ. وملكُ اليمين: السبايا اللواتي فرّق بينهنّ وبين أزواجهنّ السباء، فحللن لمن صرن له بملك اليمين من غير طلاق كان من زوجها الحربيّ لها". وآخرون قالوا: "هنّ كل ذات زوج من النساء حرام على غير أزواجهنّ، إلا أن تكون مملوكة اشتراها مشترٍ من مولاها فتحل لمشتريها، ويُبطل بيع سيدها إياها النكاحَ بينها وبين زوجها". وهذا كله والتعقيدات الأخرى التي فرعوا منها لم تعد ذات موضوع في زمن يحرم فيه الرق. وإذا كان الإسلام لم يحرم الرق فإن أحكامه ومقاصده وأخلاقياته كانت كلها تسير في اتجاه التخلص منه.

أُجُورَهُنَّ (مهورهن) فَرِيضَةً[22]، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ [23]، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا[24]. وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا (ليس له من المال ما يمكنه من) أَنْ يَنْكِحَ (يتزوج الحرائر) الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَـ(ليتزوج) مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ (إمائكم) الْمُؤْمِنَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ (مالكيهن)، وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (مهورهن) بِالْمَعْرُوفِ، (على أن يكن) مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ (غير باغيات) وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ (أصحاب)؛ فَإِذَا أُحْصِنَّ (أي صرن محصنات : ممنوعات الفروج إما بالزواج وإما بالإسلام) فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ (الحرائر) مِنَ الْعَذَابِ (العقاب) [24]، ذَلِكَ (أي التزوج بالإماء) لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ (خاف من الزنا وعقوبته)؛ وَأَنْ تَصْبِرُوا (فلا تتزوجوا الإماء) خَيْرٌ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[25] [25]. يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ (من

22- هناك خلاف عميق حول مضمون "ما استمتعتم به منهن"، وهو ما يعرف بـ (زواج المتعة)، وسنخصص له استطرادا بعد انتهائنا من الشرح والتعليق.

23 – اختلفوا في هذه العبارة حسب اختلافهم في التي قبلها : فريق قال: لا حرج عليكم أيها الأزواج إن أدركتكم عُسرة بعد أن فرضتم لنسائكم أجورهنّ فريضة فيما تراضيتم به، من أن تنقصوا منه بالتراضي مع زوجاتكم. وفريق قال: "معنى ذلك: ولا جناح عليكم أيها الناس فيما تراضيتم أنتم والنساء اللواتي استمتعتم بهنّ إلى أجل مسمى، إذا انقضى الأجل الذي حددتموه بينكم وبينهن في الفراق، أن يزدنكم في الأجل وتزيدوا من الأجر والفريضة، قبل أن يستبرئن أرحامهن".

24 – أي خمسون جلدة، ونفي ستة أشهر، لأن عقاب الحرّة إذا هي أتت بفاحشة قبل الإحصان بالزوج: جلد مائة، ونفي سنة.

25- هناك تفسير آخر للآية يقوم على فهم لفظ "الطول" على أنه الهوى : بمعنى من غلبه حب أمة فله أن يتزوجها، إذا كانت محصنة غير زانية الخ كما هو مبين أعلاه. ومن المفسرين من يعارض بشدة هذا الرأي وفي مقدمتهم الطبري الذي كتب في تفسيره يقول: "قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معنى الطول في هذا الموضع: السعة والغنى من المال، لإجماع الجميع على أن الله تبارك وتعالى لم يحرّم شيئا من الأشياء سوى نكاح الإماء لواجد الطول إلى الحرّة... فإذ كان ذلك إجماعا من الجميع فيما عدا نكاح الإماء لواجد الطول، فمثله في تحريم نكاح الإماء لواجد الطول: لا يحلّ له من أجل غلبة هوى سرّه فيها، لأن ذلك، مع وجوده الطول إلى الحرة، منه قضاء لذة وشهوة وليس بموضع ضرورة تدفع ترخصه كالميتة للمضطر الذي يخاف هلاك نفسه، فيترخص في أكلها ليحيي بها نفسه،

الديانات السماوية) وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[26]، وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا[27]. يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا[28].

7- الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا أَنْفَقُوا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ (بالربا والقمار وما أشبه) إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً (ربحا من بيع وشراء) عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ (أي بعضكم بعضا) إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا[29]، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا[30]، إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ (26) نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا[31] وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ

وما أشبه ذلك من المحرّمات اللواتي رخص الله لعباده في حال الضرورة والخوف على أنفسهم الهلاك منه ما حرم عليهم منها في غيرها من الأحوال. ولم يرخص الله تبارك وتعالى لعبد في حرام لقضاء لذة، وفي إجماع الجميع على أن رجلاً لو غلبه هوى امرأة حرة أو أمة أنهما لا تحلّ له إلا بنكاح أو شراء على ما أذن الله به، ما يوضح فساد قول من قال: معنى الطول في هذا الموضع: الهوى، وأجاز لواجد الطول لحرة نكاح الإماء. فتأويل الآية إذ كان الأمر على ما وصفنا: ومن لم يجد منكم سعة من مال لنكاح الحرائر، فلينكح مما ملكت أيمانكم". هناك فريق من الصحابة والمفسرين يجيزون الزواج بالأمة : فعن علي بن أبي طالب أنه قال: " إذا نُكحت الحُرّة على الأمَة كان للحرّة يومان وللأمَة يوم. قال: ولم ير عليٌّ به بأسا". ووي عن مجاهد قوله "ممّا وسّع الله على هذه الأمّة. نكاحُ الأمَة والنّصرانية، وإن كان موسراً"، وأضاف القرطبي الذي أورد هذا :"وبه قال أبو حنيفة أيضاً". وقد رُوي عن مالك في الذي يجد طَولا لحرّة أنه يتزوّج أمَة مع قدرته على طَوْل الحُرّة؛ قالوا : لأن كل مال يمكن أن يتزوّج به الأَمَة يمكن أن يتزوّج به الحرّة، فالآية على هذا أصلٌ في جواز نكاح الأمَة مطلقاً". هذا وقد أوردنا هذه التفاصيل، وهناك غيرها كثير، لنفهم طريقة تفكير المفسرين القدامى في هذه المسائل، وهو تفكير تقيده ظاهرة الرق التي كانت سائدة في العصور السابقة. أما اليوم فالرق محرم (دوليا) والنصوص القرآنية كانت ولا تزال تتجه إلى تحريمه، وإذن ففقه "ملك اليمين" صار من فقه الماضي، ويجب أن يكون كذلك.

26- اختلفوا في الكبائر ما هي وما عددها: قال بعضهم : هي ما نهى الله عنه من أول هذه السورة (سورة النساء إلى الآية الثلاثين منها) أي هذه الآية. وقال آخرون: الكبائر سبع ورووا في ذلك جزءا من خطبة للخليفة علي ابن أبي طالب بمسجد الكوفة ورد فيها : الكبائر سبع: "الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرّم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف (الجهاد)، والتعرّب بعد الهجرة"، قيل: "التعرّب هو أن يهاجر الرجل

اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ (27)، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا[32]. وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ (أي ورثة) مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ (فكان الواحد منهم يعاقد الآخر أيهما مات ورثه الآخر) فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ (28)، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا[33]. الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ (29). فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ (طائعات لأوامر الله

مع النبي من مكة إلى المدينة حتى إذا وقع سهمه في الفيء ووجب عليه الجهاد، خلع ذلك من عنقه فرجع أعرابيا كما كان. وقيل سئل ابن عباس عن الكبائر السبع فقال: "هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار. ويري الطبري عمن قال "سمعت أنس بن مالك قال "ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبائر أو سئل عن= الكبائر فقال : الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين. فقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور أو قال شهادة الزور".

27- روي أن أم سلمة، إحدى زوجات النبي عليه السلام، قالت: يا رسول الله (نحن النساء) لا نعطى الميراث (إلا نصف ما أعطي للرجل)، ولا نغزو في سبيل الله فنقتل (فتكون لنا الشهادة)، فنزلت "ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض".

28- قالوا: " كان الرجل في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك؛ فلما جاء الإسلام، بقي منهم ناس، فأمروا أن يؤتوهم نصيبهم من الميراث وهو السدس". وذلك قبل إلغاء هذا العرف بقوله تعالى: "وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ"، قالوا هذه الآية نسخته، وما هو بنسخ، بل هو تشريع جديد حل محل العرف القديم.

29- فسر الطبري هذه الآية كما يلي: "الرجال أهل قيام على نسائهم في تأديبهن والأخذ على أيديهن، فيما يجب عليهنّ لله ولأنفسهم؛ "بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ" : يعني بما فضل الله به الرجال على أزواجهم من سوقهم إليهنّ مهورهنّ، وإنفاقهم عليهنّ أموالهم، وكفايتهم إياهن مؤنهن. وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهن، ولذلك صاروا قوّاما عليهنّ، نافذي الأمر عليهنّ فيما جعل الله إليهم من أمورهنّ". قلت (الجابري) : ليس في الآية ما يفيد أن الله جعل الرجال قوامين على النساء "في تأديبهن"، والتأديب يشمل الضرب. ولكي يزكي الطبري والقائلون بأن القوامة تشمل التأديب والضرب ساقوا أخبار مؤداها أن هذه الآية نزلت لتبطل حكما نطق به النبي عليه السلام في رجل لطم امرأته، فاشتكته إليه فحكم لها بالقصاص من لطمة زوجها. وفضلا عن أن إقحام "سبب نزول" من هذا النوع في آية مندرجة في سياق متماسك هو "عزل" لهذه الآية مع العلم أن مكانها توقيفي... ومما يوهن من هذه الأخبار كون أحدهما يقول إنه بهذه المناسبة نزل أيضا قوله تعالى"وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ" (طه 114)، وهذه الآية من سورة طه وقد نزلت في مكة قبل الهجرة!

مجتنبات لنواهيه) **حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ** (لأسرار أزواجهن) **بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** (بما أوصى بحفظها)[(30)]؛ **وَاللَّاتِي تَخَافُونَ** (تعانون من) **نُشُوزَهُنَّ** (من استعلائهنّ عليكم، وكراهتهن لكم كأزواج، وامتناعهن عليكم في فراش الزوجية) **فَعِظُوهُنَّ** (اطلبوا منهن بلطف الرجوع إلى المضجع)، وَ (إن امتنعن) **اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ** (لا تجامعوهن بالقوة) **وَاضْرِبُوهُنَّ** (في المضاجع ضربا غير مبرح: بلطف)[(31)]، **فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا**[(32)]. **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا**[34]. **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا** (إن علمتم أن النزاع بينهما قد ازداد وتعمق رغم ذلك)، **فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا، إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا** [(33)]. **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا**[35].

30- ويضيف الطبري: إذا كنّ هكذا، فأصلحوا إليهنّ! وهذا في نظري لا يقتضيه الكلام باعتبار أن "الصالحات" مبتدأ و"قانتات" خبر. والعبارة التالية استئناف.

31- عن ابن عباس "...ويضربها حتى تطيعه في المضاجع، فإذا أطاعته في المضجع فليس له عليها سبيل إذا ضاجعته". هذا وقد ذكروا أحديث نبوية في سياق هذا الموضوع منها: قوله عليه السلام: "لا تَهْجُرُوا النِّساءَ إلاَّ فِي المَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غيرَ مُبَرِّحٍ"، وقال عن الضرب غير المبرح هو مثل الضرب بالسواك ونحوه، غير مؤثر، ونسبوا مثل هذا إلى ابن عباس أيضا. وفي لسان العرب : "السِّواك ما يُدْلَكُ به الفَمُ من العيدان". وأيضا: "السَّوَاكُ والتَّسَاوُكُ : السير الضعيف". "قال الأزهري تقول العرب جاءت الغنم هَزْلَى تَساوَكُ أي تتمايل من الهزال والضعف في مشيها". إذن فالضرب المعني هنا ليس من النوع الذي يجعل المرأة تخاف وتذعن، بل هو من قبيل "التسوك" (دلك الفم بالسواك) وهو بحركة السير الضعيف أشبه. وإذن: ألا يعني ذلك نوعا من المداعبة الهادئة على الفراش لاستثارتهن وجعلهن يُقبلن على الجماع أو يطلبنه بالأحرى؟ وفي الحديث: من جهات متعددة: "خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ... ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ، فَوَعَظَهُمْ (الرجال) فِيهِنَّ، فَقَالَ: عَلاَمَ يَجْلِدُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ، وَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ... وَقَالَ لِمَ يَضْرِبُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ ضَرْبَ الْفَحْلِ، ثُمَّ لَعَلَّهُ يُعَانِقُهَا".

32 - قالوا: إذا أطاعته فليس له عليها سبيل إذا ضاجعته. فلا يكلفها أن تحبه، لأن قلبها ليس في يديها، فلا يقول لها : إنك لست تحبيني وأنت لي مبغضة، فيضربها على ذلك أو يؤذيها فذلك بغي عليها.

33- "اختلفوا فيما يبعث له الحكمان، وما الذي يجوز للحكمين من الحكم بينهما، وكيف وجه بعثهما بينهما"؟

8- الاحسان إلى الوالدين والمر بالنفقة على الفقراء والماسكين...

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى (في النسب) وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى (القريب)، وَالْجَارِ الْجُنُبِ (الأبعد من الأول)، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ (المرافق في السفر)، وَابْنِ السَّبِيلِ (المسافر المحتاج)، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ (عبيدكم)؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا (متعاظما) فَخُورًا[36] (يفتخر على الناس): الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [(34)]! وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا[37]، وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا[38]. وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ؟ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا[39]. إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا[40]. فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ (المذكورين) أعلاه شَهِيدًا[41] ؟ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا[42].

9- لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى.. إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ..

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى، حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ [(35)]، وَلَا (تقربوها إن كنتم) جُنُبًا (على جنابة، لم تغتسلوا)، إِلَّا (إذا كنتم)

34- بعض المفسرين يجعلون الضمائر هنا تعود على اليهود، ولاشيء في السياق يبرر هذا التخصيص. ونحن نرجح أن يكون لفظ "الذين" والضمائر التي تعود عليه وصفا عائدا على "كل مختار فخور". أي كل متكبر متفرعن متعال على الله والناس...

35- ورد النهي أول مرة في القرآن عن شرب الخمر في سورة البقرة أي بعد الهجرة إلى المدينة وذلك في إطار الأسئلة التي كانت تلقى على الرسول، فنزل قوله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ (القمار)، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا" (البقرة 219). وفي رواية أنهم قالوا : "يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله. فسكت عنهم"، بمعنى: دعنا نستفيد من جانب المنفعة فيها، فتركهم ولكنهم لم يتجنوا جانب الإثم فيها. فنزلت الآية أعلاه. وفي رواية ذكرها أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر. فأخذت الخمر منا. وحضرت الصلاة فقدموني (ليَؤُمَّ بهم) فقرأت : "قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون"، فانزل الله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا

عَابِرِي سَبِيلٍ (مسافرين والعادة لا يجد المسافر الماء)، حَتَّى تَغْتَسِلُوا؛ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ، أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ (جامعتموهن)، فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا (حجرا أو ترابا طاهرا): فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا[43]. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ (من يهود المدينة) يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ. وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ[44] (36). وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا[45]. مِنَ الَّذِينَ هَادُوا (من اليهود أناس) يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا (أقوال محمد) وَعَصَيْنَا (أوامره)، وَ(يقولون للنبي) اسْمَعْ (ويقولون في أنفسهم) غَيْرَ مُسْمَعٍ (لا سمعت)، و (يقولون للنبي) رَاعِنَا (ظاهريا : تمهل في حديثك) لَيًّا (وباطنا سبًّا) بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ، وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا[46] (منهم). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا، أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ (37)، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا[47]. إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا[48]. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ

مَا تَقُولُونَ ..." (النساء 43)، "فقالوا : يا رسول الله لا نشربها عند اقتراب وقت الصلاة، فسكت عنهم" (الطبري وغيره). وستنزل فيما بعد آية ثالثة تأمر بتجنبها نهائيا.

36 – ابن إسحق: "دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله فقال له بعضهم : على أي دين أنت يا محمد؟ قال على ملة إبراهيم ودينه قالا: فإن إبراهيم كان يهوديا. فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلم إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم فأبيا عليه. فأنزل الله تعالى فيهم الآية أعلاه.

---

37 – أي الذين يعتدون على حرمة يوم السبت الذي حُرِم عليهم الكسب فيه، قيل: إن الواحد منهم كان يأخذ مساء الجمعة خيطاً ويضع فيه وَهَقة، ويلقيه في البحر بينما الطرف الآخر من الخيط مربوط إلى وتِد، ثم يتركه كذلك إلى يوم الأحد. وفشا هذا فيهم حتى كثُر صيد الحوت. فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت عن ذلك. وقيل: إن الناهين قالوا: لا نساكنكم؛ فقسموا القرية بجدار. فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولاحظوا أنه لم يخرج من المعتدين أحد. فقالوا: إن للناس لشأنا؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم. فعرفت القِردة أنسابَها من الإنس، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القِردة؛ فجعلت القِردة تأتي نسيبَها من الإنس فتَشم ثيابه وتبكي؛ فيقول: ألم ننهكمْ فتقول برأسها نعم. قالوا: صار الشبان قِردة والشيوخ خنازير (كما سيأتي بعد)، فما نجا إلا الذين نهوْا وهلك سائرهم.

(اليهود يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار الخ)، بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[49]. انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا[50]. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ (الأصنام)، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا (من قريش) هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا[51]! أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا[52]. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ؟ فَإِذًا (لو كان لهم نصيب) لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا[53] (لا ينفعونهم في شيء)؟ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ (النبي والمسلمين) عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ (يعني النبوة والرئاسة في أهل المدينة بموجب بيعة العقبة والصحيفة)؟ (فلماذا هذا الحسد): فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ (التوراة) وَالْحِكْمَةَ (وكتب الحكمة) وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا[54] (على عهد داوود وسليمان): فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ (بما آتاهم الله) وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ، وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا[55] (عذابا محرقا لمن لم يؤمن): إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا[56]. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا[57].

10- فضح سلوك المنافقين والتعبئة للجهاد ...

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا (نعم ما) يَعِظُكُمْ بِهِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا[58]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا[59]. [(38)] أَلَمْ تَرَ إِلَى (المنافقين) الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ

38- قالوا في سبب نزول هذه الآية أنّها "نزلت يوم فتح مكة وكانت سدانة الكعبة بيد عثمان بن طلحة وفي قومه بني عبد الدار، فسلمها للنبي عليه السلام، فطلبها منه عمه العباس بن عبد المطلب لتجتمع عنده سدانة الكعبة مع السقاية التي كانت بيده وفي قومه بني هاشم، فلم يستجب له الرسول عليه السلام ودعا عثمان بن طلحة وابنَ عمّه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، فدفع لهما مفتاح الكعبة وتلا هذه الآية. قلت: (الجابري) هذه الرواية لا تستقيم هنا لأن السورة نزلت قبل فتح مكة، علاوة على ما قيل من ضعف إسنادها. ولا شيء يبرر القول بأنها نزلت يوم فتح مكة ووضعت هنا في هذه السورة. وكما يذكر جميع المفسرين هذه الرواية=

يقولون أيضا إنها نزلت في "ولاة أمور المسلمين"، وهذا ما رجحه الطبري إذ كتب يقول في تفسيره: "وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي قول من قال: هو خطاب من الله إلى ولاة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من ولّوا في فيئهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم بالعدل بينهم في الأقضية، والقَسْم بينهم بالسوية. يدلّ على ذلك ما وعظ به الرعية في الآية التالية لها: "أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ" فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الراعي بالرعية، وأوصى الرعية بالطاعة" وبهذا المعنى فسر بعضهم الأمانات فقال: "والأمانات: هي الفيء الذي استأمنهم على جمعه وقسمه، والصدقات التي استأمنهم على جمعها وقسمها". وواضح هذا المعنى لا يتعارض مع روح الرسالة المحمدية وتشهد له بالصحة آيات أخرى في سور عديدة. ومع ذلك فإن مثل هذه المعاني التي تمليها على المفسر ظروفه وظروف المسلمين من قبله منذ وفاة الرسول، فيها نوع من الفصل بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة. فظروف الدعوة يوم نزلت هذه الآية، لا تتحمل ظرفيا -وليس تشريعيا- مثل هذه المعاني، ذلك أنه لم يكن للمسلمين يومئذ "ولاة" بالمعنى الذي حدث بعد توسع الفتوحات. إن مسيرة الدعوة يومئذ كانت مؤطرة بصراع النبي عليه السلام مع ثلاثة أطراف: مشركي قريش، اليهود، المنافقين. ولم يكن هناك للمسلمين "ولاة" لا حكاما ولا سلاطين، فضلا عن أنها نزلت قبل فتح مكة. ومن هنا كان من الأرجح فهم الآية على أنها خطاب أبدي إلى المسلمين أفرادا كانوا أو جماعات، حاكمين كانوا أو محكومين. وإذا فسرنا "الأمانة" بالمسؤولية كما فعلنا سابقا في قوله تعالى : "إنا عرضنا الأمانة" الآية، فإن معنى هذه الآية سيكون عاما، غير مخصوص: "ردوا الأمانات إلى أهلها" أي تحملوا مسؤوليتكم وتصرفوا على ضوئها. ويعزز هذا المعنى قوله تعالى مباشرة : "وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُوا بِٱلۡعَدۡلِ". ولعل الزمخشري هو وحده من المفسرين القدماء الذين ربطوا دلالة هذه الآية بموقف واضح من الصفة التي يجب أن يكون عليها ولاة الأمر حتى يستحقوا الطاعة بمقتضى هذه الآية. لقد كتب في تفسيره "الكشاف" يقول: "لما أمر الولاة بأداء الأمانات إلى أهلها وأن يحكموا بالعدل، أمر الناس بأن يطيعوهم وينزلوا على قضاياهم. والمراد بأولي الأمر منكم: أمراء الحق؛ لأن أمراء الجور، الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل واختيار الحق والأمر بهما والنهي عن أضدادهما، كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان. وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وعن أبي حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له: ألستم أمرتم بطاعتنا في قوله: "وَأُولِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ" قال: أليس قد= نُزعت عنكم إذا خالفتم الحق بقوله: "فَإِن تَنَازَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ". ثم أورد الزمخشري رأيا آخر مفاده أن المقصود هم أمراء النبي على جند المسلمين في غزواته مستندا إلى حديث يقول فيه عليه السلام فقال: "من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع أميري فقد أطاعني ومن يعص أميري فقد عصاني"، وأضاف : وقيل هم العلماء الدينيون الذين يعلمون الناس الدين ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. "فَإِن تَنَازَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ" معناه:=

فإن اختلفتم أنتم وأولوا الأمر منكم في شيء من أمور الدين، فردّوه إلى الله ورسوله، أي: ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة في الحكم وأمرهم آخراً بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل، وأمراء الجور لا يؤدّون أمانة ولا يحكمون بعدل، ولا يردون شيئاً إلى كتاب ولا إلى سنة، إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله= وأحق أسمائهم: اللصوص المتغلبة". وقوله: "ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً": إشارة إلى الرد إلى الكتاب والسنة "خَيْرٌ" لكم وأصلح وأحسن عاقبة. وقيل: أحسن تأويلاً من تأويلكم أنتم. لا شك أن هذا الكلام يعبر عن روح الإسلام وأخلاقيته في موضوع الحكم وولاة مر المسلمين. ولكن ربط نسار التزيل بمسيرة الدعوة كما قلنا في الهامش السابق يقتضي في نظر فهم معنى "أولوا الأمر منكم" في إطار الحديث الذي أورده الزمخشري، وبالتالي فالمقصود بـ "أولي الأمر منكم": هم أمراء الجيش الذي لهم أن يأمروا الجنود ويقودوهم الخ. هذا من جهة ومن جهة أخرى فالمخاطبون المباشرون في هذه الآية والتي قبلهم هم المنافقون هم أنفسهم المخاطبون في الآية التي بعد هذه (الآية 60) التي تتحدث عن الذين " يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ" والذين "، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً" الخ. في الفقرة السابقة كن المخاطب هو اليهود وهنا، في هذه الآيات: المخاطب هم حلفاؤهم المنافقون. وقد ذكر الطبري أن هذه الآية نزلت في رجل من المنافقين دعا رجلاً من اليهود في خصومة كانت بينهما إلى بعض الكهان ليحكم بينهم ورسول الله صلى الله عليه وسلّم بين أظهرهم. يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية: "والمراد بـ"أولي الأمر منكم" أمراء الحق، لأن أمراء الجور: الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل واختيار الحق، والأمر بهما والنهي عن أضدادهم، كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان. وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وعن أبي حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له: ألستم أمرتم بطاعتنا "يعني طاعة الأمويين" في قوله: "وأولي الأمر منكم"، قال: أليس قد نزعت عنكم إذا خالفتم الحق بقوله: "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول". ويضيف الزمخشري قائلا: "وقيل هم "أولو الأمر" أمراء السرايا. وعن النبي (ص) "من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع أميري فقد أطاعني ومن يعص أميري فقد عاصني". وقيل: هم العلماء الدينون الذين يعلمون الناس الدين ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر. "فإن تنازعتم في= شيء": فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم في شيء من أمور الدين فردوه إلى الله ورسوله: أي ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة". ثم يعلق الزمخشري قائلا: "وكيف تلزم طاعة أمراء الجور وقد جنح الله الأمر بطاعة أولي الأمر بما لا يبقى معه شك، وهو أنه أمرهم أولا بأداء الأمانات وبالعدل في الحكم وأمرهم آخرا بالرجوع إلى الكتاب والسنة فيما أشكل. وأمراء الجور لا يؤدون أمانة ولا يحكمون بعدل، ولا يردون شيئا إلى كتاب ولا سنة، إنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند الله ورسوله، وأحق أسمائهم: اللصوص المتغلبة". غير أن=

إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ (الطاغي)، وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا[60]، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا[61]. فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ: (قائلين) إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا[62]! أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا[63] (الوعد والوعيد). وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ، لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا[64]. فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (أي المنافقون) حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ (في ما اختلفوا فيه)، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[65] (39). وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ (على المنافقين) أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ (40)

أقدم الروايات تجعلهم أمراء الرسول على السرايا، أي فرق المجاهدين. قال الشافعي في "الرسالة": "قال بعض أهل العلم: أولو الأمر: أمراء سرايا رسول الله. والله أعلم، وهكذا أخبرنا. وهو يشبه ما قال، والله أعلم، لأن كل من كان حول مكة من العرب لم يكن يعرف إمارة. وكانت "العرب" تأنف أن يعطي بعضها بعضا طاعة الإمارة. فلما دانت لرسول الله لم تكن ترى ذلك يصلح لغير رسول الله، فأمروا أن يطيعوا أولي الأمر الذين أمرهم رسول الله، لا طاعة مطلقة، بل مستثناة، فيما لهم وعليهم فقال: "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله". يعني: إن اختلفتم في شيء. وهذا –إن شاء الله– كما في أولي الأمر، إلا أنه يقول: "فإن تنازعتم" يعني –والله أعلم– هم وأمراؤهم الذين أمروا بطاعتهم، "فردوه إلى الله والرسول": يعني –والله أعلم– إلى ما قال الله والرسول إن عرفتموه، فإن لم تعرفوه سألتم الرسول عنه إذا وصلتم، أو من وصل منكم إليه". ويؤيد هذا ما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال عن الآية التي نحن بصددها (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) إنها "نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سرية" الخ.

39- واضح أن الكلام هنا عن المنافقين، فالآية متصلة مع ما قبلها والسياق واحد. ومع ذلك يرون حادثة بين الزبير ابن عمة النبي ورجل من الأنصار حصل بينهما شجار حول ماء السقي فاشتكيا إلى الرسول عليه السلام فحكم لصالح الزبير مما أثار غضب خصمه الأنصاري فقال للرسول: "اعدل يا نبيّ الله وإن كان ابن عمتك"، فجاءت الآية جوابا على ذلك. ونحن نرى أنه لا ضرورة للخروج من السياق إلى حادثة لم تسجل في حينها ولا يُعلم يقينا أنها ذات علاقة بالآية. والآية التالية مباشرة تتحدث عن المنافقين.

40- ولو أنا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك المحتكمين إلى الطاغوت أن يقتلوا أنفسهم، كما أمر أصحاب موسى أن يقتل بعضهم بعضا بالخناجر لم يفعلوا إلا قليل منهم (البقرة 54)...، وهذا تعريض بعلاقة هؤلاء المنافقين مع اليهود.

أو اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ، إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ؛ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا[66]، وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا[67]، وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا[68]. وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا[69]. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا[70]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ (اخرجوا للقتال جماعة بعد أخرى) أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا[71] (مع النبي)؛ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ (وهم المنافقين) فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ، إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا[72]، وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ، كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا[73]. فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ (يبيعون) الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ، فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا[74]. وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا (مكة، وأهلها قريش) وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا[75]. الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ (طغاة قريش عبدة الأصنام)! فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا[76]. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ (لا تستعملوا العنف مع المشركين في مكة، وكانوا يستأذنون الرسول في ذلك ويلحون) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ (في المدينة) إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا (أخرت موتنا) إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ [41]! قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا[77]. أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ! وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ! قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا[78]. مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا[79]. مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا[80]. وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ (أي نحن

41- في رواية عن ابن عباس أوردها الطبري أن هذه الآية تشير إلى "عبد الرحمن بن عوف وأصحاب له أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فقالوا: يا رسول الله، كنا في عزّ ونحن مشركون (قبل إسلامهم في مكة)، فلما آمنا صرنا أذلة! فقال: "إني أمِرتُ بالعفو فلا تقاتلوا" فلما حوّلهم الله إلى المدينة أمروا بالقتال فكفوا".

نطيع الله والرسول)! فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ (قالت) طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُول، وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ (يقولون ويغيرون)، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا[81]. (هؤلاء الذين يحرفون ما تقول:) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ (ليعلموا أن ما تقول هو الحق)؟! وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا[82]. وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ (أي خبر عن سرية غازية من المسلمين لم تحقق بعد مهمتها) أَذَاعُوا بِهِ (أفشوه وشنعوا به قبل أن يعلنه النبي)، وَلَوْ رَدُّوهُ (أي ذلك الخبر الذي وصلهم عن السرية) إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ (قادة السرايا) لَعَلِمَهُ (لعرف حقيقته: هل يبعث على الأمن أم على الخوف) الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ (أي المختصون من القادة أولي الأمر في هذا الشأن)، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا[83]. فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ (42) وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا[84]. مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً (من يستجيب بصدق نية ويشفع المسلمين بمعنى: يؤازرهم في حربهم) يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا (من نتيجتها: غنائم)، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً (يعين أعداء المسلمين) يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا (نصيب من الوزر والخسارة والعقاب)، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا[85] (حفيظا وحسيبا). وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا (43)، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

42- يقول الطبري في شرح هذه العبارة : "لا يكلفك الله فيما فرض عليك من جهاد عدوّه وعدوك، إلا ما حملك من ذلك دون ما حمل غيرك منه". وفسرها الزمخشري بما يلي: "قال (الله): "فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" إن أفردوك وتركوك وحدك ... لا تكلف إلا نفسك" : غير نفسك وحدها أن تقدمها إلى الجهاد، فإنّ الله هو ناصرك لا الجنود، فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك وحولك الألوف. وقيل: دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج، وكان أبو سفيان واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اللقاء فيها، فكره بعض الناس أن يخرجوا فنزلت، فخرج وما معه إلا سبعون لم يلوِ على أحد، ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده". قلت: لعل= الأنسب أن نقول إن الآيات السابقة كلها نوع من التعبئة لغزوات قادمة، بما فيها الذهاب إلى الحديبية. والآية التالية تزكي هذا الفهم : " وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا".

43- جل المفسرين تعاملوا مع هذه الآية على مستوى العموم وبقطع النظر عن السياق. ونحن نرى أن الآية مرتبطة بما قبلها : فالآية السابقة طرحت مسألة العون (الشفاعة) للمسلمين في مواجهة عدوهم، إيجابا أو سلبا، وتأتي هذه الآية لتوصي بالترحيب بمن استجاب (استجابة إيجابية) ترحيبا بمقدار استجابته أو بأكثر منها.

حسيبًا[86]. اللهُ لا إلهَ إلا هو، ليجمعنكم إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ (الحساب)، ومن أصدق مِن اللهِ حديثًا[87].

11- المسلمون الذين لم يهاجروا من مكة... والقتل العمد والقتل الخطأ

فَمَا لَكُمْ (مختلفون) فِي الْمُنَافِقِينَ (في جماعة منهم كانت ما تزال مقيمة في مكة على) فِئَتَيْنِ (فئة ترى فيهم رأيا وأخرى ترى رأيا مخالفا)، و (الحال أن) وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ (أهلكهم) بِمَا كَسَبُوا، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا[88]. وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً (كفارا مثلهم)، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ (كما هاجرتم)، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[89]، إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ (ينتمون) إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ، أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ (ضاقت) صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ (فهؤلاء كفوا عنهم)، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ (اجنحوا إلى السلم معهم)، فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا[90] (ليس لكم مبرر لقتالهم). سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ [44]، كُلَّ مَا (كلما) رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا (انغمسوا فيها) فِيهَا، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ (يسالموكم) وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ، وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا[91]. وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً [45]، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا (يتنازلوا عن حقهم في الدية، ويبقى على القاتل تحرير رقبة مؤمنة بالغة)، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ

44- تعددت الروايات حول المقصودين في هذه الآية، تقول إحداها: "هم ناس كانوا يأتون النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا (إن لم يبقوا على الحياد) ويصلحوا".

45- واضح أن الصلة بين هذه الفقرة وما قبلها قائمة. فالأوامر التي صدرت أعلاه بقتل المنافقين العملاء والانتهازيين والمتجسسين الخ مشروطة بوجوب أن تتم في إطار الدفاع عن النفس. وقتلهم بدون توافر تلك الشروط قد يؤدي إلى ردود فعل تطالب بالثأر ثم الثأر للثأر الخ، ولذلك وجب التمييز هنا بين القتل الخطأ والقتل العمد وهؤلاء المنافقون يشهروا الإيمان، فلا يجوز قتلهم عمدا.

عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ [46]، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ (رقبة يحررها، في هذه الحالة أو تلك) فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ: تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[92]. وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ (زيادة على القصاص) جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا[93]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (سافرتم للجهاد في سبيل الله) فَتَبَيَّنُوا (لا تتعجلوا في القتل)، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ [47]. كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ (تحفزن إيمانكم عن المشركين) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ (بالإسلام) فَتَبَيَّنُوا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[94]. لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (الذين يعتذرون عن المشاركة في الحرب) -غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ (الذين لاشيء يمنعهم من المشاركة فيها)- وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ! فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا[95]: دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[96]. إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ (لم يهاجروا مع النبي إلى المدينة وبقوا في مكة) قَالُوا (قال لهم الملائكة) فِيمَ كُنْتُمْ (كيف كان موقفكم من دينكم)؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ (نخاف المشركين في مكة)! قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا[97]، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ (الذين كانوا) لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً (ولا قوة) وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا[98] (للخروج من مكة)، فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ. وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا[99]. وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا (أوضاعا وتحولات كثيرة) وَسَعَةً (في الرزق)؛ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[100].

46- قالوا: "كان الرجل يسلم، ثم يأتي قومه فيقيم فيهم وهم مشركون، فيمرّ بهم جيش لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، فيقتل ذلك الرجل فيمن يقتل، فيعتق قاتله رقبة ولا دية له".

47- ذكر أن هذه الآية نزلت في قتيل قتلته سرية بعد ما عرف بنفسه كمسلم، وذلك من أجل غنيمة كانت معه أو غير ذلك من ملكه، فأخذوه منه.

12- الصلاة وقت الحرب... وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ...

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ (مسافرين) فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ (48) إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا[101]. وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ (يا محمد) فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ: فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ. وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ، وَخُذُوا حِذْرَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا[102]. فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (مجموعين) إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا[103]. وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ (طلب العدو)، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[104]. إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا[105] (لا تقف ضدهم بل احكم بالعدل كيفما كان المتخاصمون)، وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ (إن حدث أن انحزت) إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا[106]. وَلَا تُجَادِلْ (تدافع) عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ (يخونون) أَنْفُسَهُمْ (جعلوا من أنفسهم خونة يخونون ما للغير)، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا[107]: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ (خوف العار) وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ (يؤلفون) مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا[108]. هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا[109]؟(49) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ (بارتكابه ذنبا يعاقب به) ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ (يتوب) يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا[110]. وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[111]. وَمَنْ يَكْسِبْ

48- اختلفوا حول التقصير من الصلاة ومقداره، وكثيرون منهم ميزوا بين تقصير الركعات من أربع إلى اثنتين بالنسبة للمسافر أيا كان، وإلى ما دن ذلك في الحرب (صلاة الخوف) حيث يقسم المحاربون إلى فئتين: فئة تقيم الصلاة وأخرى تحرسها، بالتناوب كما في الآيات أعلاه.

49- قالوا نزلت هذه الآيات من قوله (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الآية 105) في رجل اسمه طعمة بن أبيرق سرق درعا من حديد وقال أصحابه من المؤمنين للنبيّ: اعذره في الناس بلسانك! ورموا بالدرع رجلا من يهود بريئا. انظر تفاصيل القصة في الطبري.

خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ (شخصا آخر) بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا[112]. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ (وتبيانه لك أمر هذا الخائن، فكففت لذلك عن المدافعة عنه)، لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ (من هؤلاء الذين يظلمون أنفسهم) أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ؛ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا[113]. لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ (لا خير في كثير من المتناجين من الناس) إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا[114] وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ (يعاديه) مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى (من بعد ما أسلم) وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى (نجعل ناصره ما استعان به من الأصنام، وهي لا تغنيه ولا تدفع عنه) (50) وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا[115]. إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا[116] (51). إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا (أشياء ميتة لا روح فيها) (52) وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا[117] (متمردا على الله يدفع إلى المعاصي)، لَعَنَهُ اللَّهُ! وَقَالَ (إبليس في قصته مع آدم) لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا[118]. وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ (53) آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ (بالإخصاء)! وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا[119]، يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا[120]. أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

50- ما زال الكلام عن الخائنين المذكورين من قبل : لما أبى طعمة بن الأبيرق التوبة ولحق بالمشركين من عبدة الأوثان بمكة مرتدًا مفارقًا الرسول (ص) وسلّم ودينه.

51- قال الطبري في هذه الآية: "إن الله لا يغفر لطعمة إذ أشرك ومات على شركه بالله، ولا لغيره من مات من خلقه بشركهم وكفرهم به؛ "وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يشاء" يقول: ويغفر ما دون الشرك بالله من الذنوب لمن يشاء.

52- "الإناث: كل شيء ميت ليس فيه روح، خشبة يابسة، أو حجر يابس، الخ. وقيل المعنى: "إلا ما سموه بأسماء الإناث كاللات والعزّى وما أشبه ذلك"

53- البَتْك في البَحيرة والسائبة، كانوا يُبَتِّكون – يقطعون- آذانها لأصنامهم : كانوا إذا نُتِجَتِ الناقةُ أو الشاةُ عَشَرَةَ أبْطُنٍ بَحَروها، وتَركوها تَرْعَى وحرَّموا لَحْمَها -إذا ماتَت- على نِسائِهِمْ وأكلَها الرِّجالُ، أو التي خُلِّيَت بلا راعٍ أو التي إذا نُتِجَتْ خَمْسَةَ أبْطُنٍ والخامسُ ذَكَرٌ نَحَروه، فأكلَهُ الرِّجالُ والنِّساءُ، وإن كانت أُنْثَى بَحَروا أُذُنَها، فكانَ حَراماً عليهم لَحْمُها ولَبَنُها وركوبُها، فإذا ماتَتْ حلّتْ للنِساءِ، أو هي ابْنَةُ السّائبَةِ، وحكْمُها حُكْمُ أُمِّها، أو هي في الشّاءِ خاصّةً.

وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا[121] (لا بديلا). وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا[122]. لَيْسَ (ذلك : الجنة) بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ! مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[123]. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا[124]. وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، (وقد) وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا[125]. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا[126].

13- ... كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ...

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ! قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ، وَ (من جملة ذلك) مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ (وبالخصوص في هذه السورة حيث وردت فتاوى) فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ، وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا[127]. وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ [(54)]، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ (المرأة شحيحة، مفرطة في حرصها على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقتها". وَإِنْ تُحْسِنُوا (إلى زوجاتكم) وَتَتَّقُوا (وتتجنبوا الطلاق وما في معناه) فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[128]. وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ (إذا تزوجتم على زوجتكم الأولى) وَلَوْ حَرَصْتُمْ، (ولذلك) فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ (إلى الزوجة الجديدة) فَتَذَرُوهَا (الزوجة الأولى) كَالْمُعَلَّقَةِ (لا هي ذات زوج ولا هي مطلقة)، وَإِنْ تُصْلِحُوا (تعدلوا بينهن) وَتَتَّقُوا (ولا تتركوا إحداهن كالمعلقة) فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا[129]. وَإِنْ يَتَفَرَّقَا (لم يتفق الزوج الذي يريد الزواج على امرأته وزوجته هذه) يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا[130]. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَلَقَدْ

54- الطبري: "عن ابن عباس في قوله: "وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا" قال: هي المرأة تكون عند الرجل حتى تكبر، فيريد أن يتزوّج عليها، فيتصالحا بينهما صلحا، على أن لها يوما ولهذه يومان أو ثلاثة" وكثير من المفسرين ذهبوا هذا المذهب. وعن عائشة: "قالت هذا في المرأة تكون عند الرجل، فلعله لا يكون يستكثر منها، ولا يكون لها ولد ولها صحبة، فتقول: لا تطلقني وأنت في حلّ من شأني".

وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا[131]. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا[132]. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا[133]. مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا[134]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ (قوموا بالعدل عند شهادتكم) وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، (ولا تميلوا لأحد ضد آخر) إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى (فيمنعكم) أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا (ضد طرف) أَوْ تُعْرِضُوا (عنه) فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[135]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ (التوراة)، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا[136]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا (هم المنافقون أصدقاء اليهود وعملاء قريش آمنوا وارتدّوا، ثم آمنوا وارتدّوا، ثم ازدادوا كفرا بموتهم على كفرهم)، لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا[137]. بَشِّرِ (هؤلاء) الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[138]. الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ! أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ؟ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا[139]. وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ (أيها المنافقون) فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا (من طرف اليهود وقريش) فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ! إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا[140]. (إن المنافقين هم) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ (أيها المؤمنون): فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ (نصر وغنيمة) قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ (وطلبوا نصيبا من الغنيمة)، وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ (من الغلبة) قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ (ننحز إليكم) وَنَمْنَعْكُمْ (وطلبوا النصيب من الغنيمة) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا[141]. إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ (يكذبون) وَهُوَ خَادِعُهُمْ (عالم بما في قلوبهم)، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا[142]، مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ! وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا[143]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا[144] (حجة واضحة)؟ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا[145]؛ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ، فَأُولَئِكَ

مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا[146]. مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ (لا منفعة له في عذابكم) إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ؟ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا[147]. لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ (فله حق الشكوى والتظلم). وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا[148]. إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا[149]. إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ (محمد)، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا[150] (طريقا ومذهبا)، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا؛ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا[151]. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[152].

14- يطلب أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ!

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ (يهود المدينة) أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ (خاصا بهم يثبت نبوتك وتكليفك بدعوتهم. لا تتعجب من طلبهم)! فَقَدْ سَأَلُوا (يعنى أسلافهم) مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا: أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (عيانا نراه بأبصارنا) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ (أنفسهم عندما طلبوا رؤية الله)، ثُمَّ (إنهم) اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ (قبل ذلك، عندما بعثناك لتحريرهم من اضطهاد فرعون) فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا[153]. وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ (جبل، وكان جبلا من الدخان الخانق) بِمِيثَاقِهِمْ (بعد أن أخذنا منهم العهد بالعمل بالتوراة فنكثوا) وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ (باب حطة) سُجَّدًا (فدخلوا غير ساجدين)، وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا (لا تتجاوزا حرمات الميثاق) فِي السَّبْتِ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا[154] (بذلك). فَبِمَا (=بسبب) نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ (مغطاة لا تسمع دعوتك) -بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا[155] (منهم)- وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا[156] (اتهموها بالزنا)، وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا[157] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا[158]، وَإِنْ (=ما من أحد) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (اليهود) إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ (بعيسى كمسيح منتظر) قَبْلَ مَوْتِهِ (أما بعد أن قتلوه -بزعمهم- فقد كفروا به ولم يعودوا يعترفون به كمسيح منتظر)، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا[159]، فَبِظُلْمٍ

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا (فمن أجل جميع ما ذكر من المعاصي التي ارتكبها اليهود طوال تاريخهم) حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ، وَ (قد استحقوا هذا العقاب أيضا) بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا[160]، وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ (في التوراة) [55]، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَ (علاوة على هذا العقاب الدنيوي : تحريم الطيبات) أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[161]. لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ، وَالْمُؤْمِنُونَ (بالله وملائكته ورسله واليوم الأخر) يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَالْمُقِيمِينَ[56] الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،

---

55 – 5في التوراة: "...ولَكِنْ إِنْ كَانَ الْمَرْءُ صَالِحاً يُمَارِسُ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ، 6ولَمْ يَصْعَدْ إِلَى الْجِبَالِ لِيَأْكُلَ أَمَامَ الأَنْصَابِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى أَصْنَامِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يَزْنِ مَعَ امْرَأَةِ جَارِهِ وَلَمْ يُعَاشِرِ امْرَأَةً طَامِثاً، 7ولَمْ يَظْلِمْ أَحَداً، بَلْ رَدَّ لِلْمَدْيُونِ رَهْنَهُ، وَلَمْ يَسْلِبْ قَطُّ، وَأَطْعَمَ الْجَائِعَ خُبْزَهُ وَكَسَا الْعُرْيَانَ ثَوْباً، 8ولَمْ يُقْرِضْ بِالرِّبَا ولَمْ يَأْخُذْ حَرَاماً، وَكَفَّ يَدَهُ عَنِ ارْتِكَابِ الإِثْمِ، وَقَضَى بِالإِنْصَافِ وَالْحَقِّ بَيْنَ إِنْسَانٍ وَإِنْسَانٍ. 9ومَارَسَ فَرَائِضِي، وَأَطَاعَ أَحْكَامِي بِأَمَانَةٍ، فَهُوَ صِدِّيقٌ وَحَتْماً يَحْيَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. 10فإِنْ أَنْجَبَ ابْناً لِصّاً سَفَّاكاً لِلدِّمَاءِ، فَاقْتَرَفَ بِحَقِّ أَخِيهِ بَعْضاً مِنْ ذَلِكَ الشَّرِّ، 11ولَمْ يَصْنَعْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ الْخَيْرِ، بَلْ صَعِدَ إِلَى الْجِبَالِ لِيَأْكُلَ أَمَامَ الأَنْصَابِ، وَزَنَى مَعَ امْرَأَةِ جَارِهِ، 12وجَارَ عَلَى الْبَائِسِ وَالْمِسْكِينِ وَسَلَبَ وَلَمْ يَرُدَّ الرَّهْنَ، وَالْتَفَتَ إِلَى الأَصْنَامِ لِيَعْبُدَهَا وَارْتَكَبَ الأَرْجَاسَ، 13وأَقْرَضَ بِالرِّبَا وَأَخَذَ رِبْحاً حَرَاماً، أَفَيَحْيَا؟ إِنَّهُ لاَ يَحْيَا! لأَنَّهُ اقْتَرَفَ جَمِيعَ هَذِهِ الْمُوبِقَاتِ فَإِنَّهُ حَتْماً يَمُوتُ، وَيَكُونُ دَمُهُ عَلَى رَأْسِهِ.

14أمَّا إِنْ أَنْجَبَ ابْناً شَهِدَ جَمِيعَ مَا ارْتَكَبَهُ أَبُوهُ مِنْ ذُنُوبٍ وَلَمْ يَقْتَرِفْ مِثْلَهَا، 15فلَمْ يَأْكُلْ عَلَى الْجِبَالِ أَمَامَ الأَنْصَابِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى أَصْنَامِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ لِيَعْبُدَهَا، وَلَمْ يَزْنِ مَعَ امْرَأَةِ جَارِهِ، 16ولَمْ يَظْلِمْ أَحَداً، وَلَمْ يَحْتَفِظْ بِرَهْنٍ وَلَمْ يَسْلِبْ قَطُّ، بَلْ أَطْعَمَ خُبْزَهُ لِلْجَائِعِ وَكَسَا الْعُرْيَانَ ثَوْباً. 17ولَمْ يُسِيءْ إِلَى الْبَائِسِ، وَلَمْ يُقْرِضْ بِالرِّبَا وَلاَ بِالرِّبْحِ الْحَرَامِ، وَقَضَى بِالإِنْصَافِ وَمَارَسَ فَرَائِضِي وَأَطَاعَ أَحْكَامِي، فَإِنَّهُ لاَ يَمُوتُ بِإِثْمِ أَبِيهِ، بَلْ حَتْماً يَحْيَا. 18أمَّا أَبُوهُ فَلأَنَّهُ ظَلَمَ وَسَلَبَ أَخَاهُ وَارْتَكَبَ مَا هُوَ طَالِحٌ بَيْنَ شَعْبِهِ، فَهُوَ حَتْماً يَمُوتُ بِإِثْمِهِ. 19ومَعَ ذَلِكَ تَقُولُونَ: لِمَاذَا لاَ يُعَاقَبُ الابْنُ بِوِزْرِ أَبِيهِ؟ حِينَ يُمَارِسُ الابْنُ الإِنْصَافَ وَالْحَقَّ وَيَعْمَلُ بِكُلِّ فَرَائِضِي فَإِنَّهُ حَتْماً يَحْيَا. 20أمَّا النَّفْسُ الَّتِي تُخْطِيءُ فَهِيَ تَمُوتُ. لاَ يُعَاقَبُ الابْنُ بِإِثْمِ أَبِيهِ وَلاَ الأَبُ بِإِثْمِ ابْنِهِ. يُكَافَأُ الْبَارُّ بِبِرِّهِ وَيُجَازَى الشِّرِّيرُ بِشَرِّهِ. (كتاب حزقيال)

56– تعددت تخمينات المفسرين واللغويين في تفسير مجي هذا اللفظ هكذا (والمقيمين) وليس"المقيمون" كما تقتضي قواعد اللغة. ونحن نرى أن جميع ما أدلوا به من تبريرات فيه من العدوان على اللغة أكثر من ورود لفظ "المقيمين" خارج قواعد اللغة. ذلك أن قواعد اللغة وضعت بعد نزول القرآن ولم يكن قبل إقرار تلك القواعد غير السليقة، السليقة ليست خطأ في اللغة بل هي اللغة قبل أن يدخلها قانون النحاة في الصواب والخطأ.

أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا[162]. إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ، وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا[163]، وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ، وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا[164]: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا[165]. لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ: أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا[166]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا[167]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا[168]، إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا[169].

15- خاتمة: قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا..

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[170]. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ! انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا[171]. لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا[172]. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[173]. يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا[174]. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا[175].

3ب- مسألة الكلالة

يَسْتَفْتُونَكَ: قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ (حفظا لكم من) أَنْ تَضِلُّوا. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[176] [57].

---

57 – روي أن النبي (ص) أنه قال: الكلالة: "من مات وليس له ولد ولا والد".

– تعليق : النساء: ما لهم وما عليهن

تشتمل هذه السورة على ثلاث عشرة فقرة، مع أخرى إضافية. المقدمة والفقرات الخمس التي تليها، وكذا الفقرة الإضافية هي استمرار، من حيث الموضوع، لما ورد في السور السابقة، حول الشؤون العائلية : الحياة الزوجية. مسألة الإرث، السلوك العائلي الخ. وبما أننا قد أسهبنا في شرح الموضوعات التي تكلمت فيها السورة، سواء داخل نص التنزيل أو في الهوامش، فسنقتصر في هذا التعليق على تسجيل مواقف وملاحظات تخص النساء عموما، ما لهن وما عليهن، فنقول:

يتضح من هذه السورة ومن السورة المدنية أن المرأة في مدينة الرسول كان لها شأن. يتجلى ذلك من تصريح بعض زوجاته بأنهن كن يراجعن النبي عليه السلام، أي يعترضن، كما يتجلى من قولة عمر بن الخطاب عندما ذهب يستفسر الرسول عن حقيقة ما كان قد أشيع من أنه طلق زوجاته. قال عمر موجها الخطاب للنبي عليه السلام : "كنا معاشر قريش بمكة نغلب على النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساءهم، فطفق نساؤنا يتعلمن منهن، فكلمت فلانة يعني زوجته فراجعتني (ردت عليه بما يخالف قوله) فأنكرت عليها، فقالت تنكر عليّ أن أراجعك؟ فو الله إن أزواج النبي (ص) لتراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل". وقد بينا أن ذلك كان حينما طالبت زوجات النبي بالزيادة لهن في النفقة، مما أدى بالرسول إلى اعتزالهن مدة شهر (راجع الاستطراد آخر سورة الأحزاب. ثم لما نزلت آية "التخيير" التي منحت للنبي حق تخيير نسائه بين أن يبقين معه أو يطلقهن، وقد اخترن البقاء؛ وهكذا حسمت الآية الموقف بأن حددت لكل من الطرفين ما له وما عليه. وكان مما أقرته حصر عدد زوجات النبي في تسعة هن اللاتي كن عنده حين نزول الآية وعد السماح له بإضافة أخرى عليها، وفرضت على زوجاته سلوكا خاصا في تعاملهن مع أصحابه منه احتجابهن. أما السورة التي نحن الآن ضيوف عليها (سورة النساء) فهي بمثابة تكميل وتتمة للتشريعات السابقة الخاصة بالحياة الزوجية والعائلية. لقد طرحت في البداية قضية اليتامى وأموالهم، والزواج بهن أو بأمهاتهن الأرامل، كما وضعت حدودا لظاهرة تعدد الزوجات التي كانت مستشرية وبكيفية عامة "الذكورية" المفرطة التي كانت منتشرة في كثير من القبائل العربية وفي مقدمتها قريش، كما سنرى.

1- تبدأ السورة بمقدمة لها دلالتها : "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ". ما يجب الانتباه إليه هنا هو الإشارة إلى أن الله خلق الناس (بني أدم) من نفس واحدة، وهذا إقرار لمبدأ المساواة بين الناس ذكورا وإناثا. فمن نفس آدم خلق زوجها (أي حواء)، وهذا ليس معناه أن زوجة آدم خلقت من جزء منه كشخص، بل خلقت هي وإياه من أصل واحد هو التراب: وَمن هذه النفس الواحدة بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً. وقد سبق لنا أن بينا معنى الزوجية في القرآن [58] ، وكيف أن جميع مخلوقاته تنتظمها الدورة الزوجية، الثنائية، التي لا فضل ولا امتياز لزوج منها على آخر إلا بالتقوى. وقد جمعت هذه المقدمة في عبارة واحدة بين الله والأرحام من زاوية أن العرب كانوا يعظمون الأرحام ويقسمون بها : هذه الإشارة إلى النفس التي خلق الله منها زوجها مصحوبة بالتذكير بالاحترام الذي يوليه الناس للأرحام (الوالدان والأقربون نسبا)، تنبئ بالموضوع الرئيس في السورة : موضوع الزوجات من جهة والأرحام من جهة أخرى (الإرث).

2- تبدأ الفقرة الثانية (بعد المقدمة) بالحث على حفظ أموال اليتامى فتوجه الخطاب إلى أوصيائهم طالبة منهم عدم المس بها فهي أمانة في عنقهم، حتى إذا بلغ الصغار سن الرشد سلموها إليهم، وبما أن زمن نزول هذه السورة كان زمن حرب بين المسلمين بقيادة النبي عليه السلام وبين مشركي قريش، وبما أنه كان من عادة بعض العرب التزوج بالنساء اللاتي مات عنهن أزواجهن، رغبة في الوصاية على أولاهن، خصوصا إذا ترك آباؤهن المتوفون أموالا، فقد كان لابد من إعادة تنظيم هذه الظاهرة وفق الخلقية الإسلامية. وهكذا جاءت الفقرة الأولى من هذه السورة، لا لتلغي هذا العرف بالمرة، بل لتشجع عليه -ضمنيا على الأقل لأنه كانت هناك بنات يتمتهُن الحرب بين النبي وقريش- بل جاءت (السورة) لتنظم العلاقات بين الأطراف المعنية بهذه الظاهرة الجديدة على أساس الخلقية الإسلامية المبنية على الحث على العدل والإنصاف. ولا يستبعد أن يكون بعض الصحابة قد تحرجوا من الزواج بأمهات اليتامى خوف الجنوح إلى الإضرار بهم أو بأمهاتهن.

58- الله جعل مخلوقاته كلها مبينة على الدورة الزوجية: سماء وأرض، ليل ونهار، صيف وشتاء، عسر ويسر، ذكر وأنثى وحياة وممات، وموت فبعث الخ. أنظر القسم الثاني : سورة الروم، تعليق

مع أن الزواج منهن كان يخفف، من بعض الوجوه من ظاهرة الترمل واليتم. وكما رأينا في الاستطراد الذي ختمنا به كلامنا عن سورة الأحزاب فقد تزوج النبي نساء مُسنات ولهن أولاد استشهد أزواجهن في بعض الغزوات. ذلك هو السياق العام: التاريخي والاجتماعي والأخلاقي، الذي نزلت فيه الآية التالية : "وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ (حل) لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا أن لا تعدلوا). ومع أن الصيغة اللفظية لهذه الآية تدل على أن الخطاب خطاب لـ"العموم"، ومع أن تعدد الزوجات كان قائما قبل الإسلام وحين قيامه، فلا شيء يمنع من فهم هذه الآية على مستوى "الخصوص"، بمعنى أن الخطاب فيها كان موجها للصحابة الذين ربما كانوا يتحرجون من الوصاية على اليتامى: فلقد أوصى القرآن مرارا باحترام أموال اليتامى وتوعد الذين يأكلون أموالهم، من ذلك قوله تعالى : "وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا" (الإسراء-34ا). وبهذا النوع من الفهم يمكن فك العقدة التي استعصت على المفسرين، أعني فَهْم العلاقة بين اليتامى وإباحة تعدد الزوجات إلى أربع (انظر الهامش رقم 2 أعلاه).

3- نأتي الآن إلى الفقرة الثالثة وموضوعها كيفية توزيع الإرث أو "الفرائض" بالاصطلاح الفقهي، (لأن موضوعها بيان ما فرض الله لكل وارث، أي تحديد نصيبه من الميراث). ولنا في هذا الموضوع ملاحظتان رئيسيتان: أولاهما هي أن موقف القرآن في هذا الموضوع قد جاء مخالفا، إن لم يكن مناقضا تماما، لما ورد في الروايات التي تتحدث عن الأعراف العربية قبل الإسلام في هذا المجال. لقد احتفظ القرآن كما هو معلوم بكثير من العادات والأعراف والتقاليد التي تنسب إلى العرب قبل الإسلامية إما بعد تعديلها أو بدون تعديل، حسب قربها أو بعدها من الخلقية الإسلامية كما هو الحال في شعائر الحج والجنايات الخ. أما هنا، في مسألة الإرث فالأمر يختلف. ومع أن المسألة برمتها تقع ضمن إطار "القبيلة"، إطار "ذوي القربى" والأرحام، وهذا شيء طبيعي لأن الإرث هو انتقال مال المتوفى إلى ورثته كل حسب درجة قربه، فإن ما يتميز به نظام الإرث، كما حدده القرآن في الآيات التالية، هو إدخال المرأة في الحساب ضدا على ما سائدا في كثير من القبائل العربية. وقد يرجع هذا في جزء منه إلى الامتياز الذي كان للمرأة في المدينة ولم يكن لأختها في مكة، بمعنى أن درجة "الذكورية" في المدينة كانت أخف منها في مكة. لكن هذا لا يخفي حقيقة أساسية وهي أن القرآن المكي قد ساوى في خطابه

بين الذكر والأنثى" إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (البروج 10) "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا، وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (نوح 28) " مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40 غافر)، أضف إلى ذلك أننا لا نعثر فيه قط على ما يمكن أن يعتبر حطا من قيمة المرأة. ومع ذلك كله، فإن نظام الإرث كما حدده القرآن في هذه السورة (مع غض النظر عن تفريعات وتأويلات بعض الفقهاء الذين يلاحظ لديهم ميل لاشعوري نحو الحط من قيمة المرأة)، يبدو وكأنه يوفق بين ما جرت به العادة من طغيان الذكورية لدى قريش، وبالتالي ما حمله المهاجرون المكيون معهم إلى المدينة من بعض مظاهر هذه العادة، وبين ما كانت تتمتع به المرأة في المدينة من قوة الشخصية وحق "المراجعة" للرجال بما فيهم زوجها وأقاربها. إننا نلمح هنا نفس الإنصاف الذي عالج به القرآن ذلك التوتر الذي حدث بين النبي وزوجاته. وهكذا يعطيها القرآن الحق في الإرث –الشيء الذي لم يكن لديها قبل– وفي نفس الوقت يضع مسؤولية النفقة والإسكان الخ على الرجل، مع الاحتفاظ لها بمالها الخاص كحق لها وحدها دون زوجها.

– ذلك هو المبدأ الأول الذي تقرره السورة التي نحن ضيوف عليها : "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ (المتوفون) وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ، نَصِيبًا مَفْرُوضًا[7]. وهذا النصيب يتدرج كما يلي: " يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ. فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ (ذكرا كان و أنثى، واحدا أو جماعة)، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ (وللأب الثلثان) ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ (تنفيذ) وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ (قضاء) دَيْنٍ" الخ. هكذا يتوزع الإرث على أساس "للذكر مثل حظ الأنثيين"، على ستة أجزاء: النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس. فالنصف مثلا فرض (نصيب) خمسة: ابنة الصلب، وابنة الابن، والأخت الشقيقة، والأخت للأب، والزوج. والربع والثمن الخ فرضُ آخرين بينتهم الآية أعلاه.

– أما المبدأ الثاني فهو المعبر عنه بـ "الحجب". وهو مبدأ يتحكم في التوزيع السابق فيسقط حق بعض الورثة كليا أو ينزل به إلى أدنى مما هو في الأصل. وقد حدد الفقهاء عدد من لهم حق الحجب كما يلي: الأخ الشقيق يحجب الأخ

للأب، والأخ للأب يحجب بني الأخ الشقيق، وبني الأخ الشقيق يحجبون أبناء الأخ للأب، وبنو الأخ للأب أولى من بني ابن الأخ للأب والأم، وبنو الأخ للأب أولى من العم أخي الأب، وابن العم أخي الأب الشقيق أولى من ابن العم أخي الأب للأب. وكل واحد من هؤلاء يحجبون بَنِيهم، ومن حَجب منهم صنفا فهو يحجب من يحجبه ذلك الصنف. ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار أن الإرث في المجتمع القبلي، كالمجتمع العربي، يتحرك على مستوى النسب عموما، وعلى مبدأ الأقرب فالأقرب على مستوى "القبيلة". فالزوج والزوجة طرفان، ينتمي كل منهما إلى فرعين مختلفين داخل القبيلة الواحدة، أو ينتميان إلى قبيلتين ... وتحرك الزوجات (أو تبادل الزوجات) بين فروع القبيلة أو القبائل يكون مصحوبا دوما بتحرك المال على مستوى الصداق كما على مستوى الإرث، وقد سبق أن رأينا كيف اشتكت لدى النبي عليه السلام، امرأة مات زوجها مخلفا ابنتين فجاء أخ الزوج (عم البنتين) فاستولى على تركة أخيه كلها، ولم يترك للبنتين شيئا، فاحتجت الأرملة أم البنتين قائلة : "إنما تنكح النساء على أموالـــهن". ومال المرأة : صداقها وما ترثه من أبيها. والمرأة قبل أن تتزوج لا تملك إلا مصدرا واحدا للمال هو الإرث، وحين يكون الإرث جالبا للزوج فهو يجلب الصداق أيضا. فالعلاقة الزوجية والعلاقة الاقتصادية والعلاقة القبلية هي علاقات متداخلة. وهي أيضا علاقة سياسية، إذ من المبادئ التي تبنى عليها العلاقات الاجتماعية السياسية في المجتمع القبلي، مبدأ "أكسره" : فحينما تكون هناك مشكلة اجتماعية أو سياسية بين رجل وآخر ينتميان لقبليتين أو لفرعين في القبيلة الواحدة، يُنصَح زعيم أحدهما بالعمل بإستراتيجية : "أكسر صاحبك" أي تزوج ابنته، فتنقلب الخصومة بينهما مودة.

وكمثال على ذلك نذكر أن أبا سفيان الذي تولى زعامة قريش، بعد مقتل أبو جهل في غزوة بدر، والذي كان زعيم بني أمية المتنافسين مع بني هاشم بوصفهم بني عمومة يجمعهم النسب عند جدهم الأعلى عبد مناف، أقول إن أبا سفيان قد تغير موقفه المعادي للنبي، عندما بادر عليه السلام إلى الزواج من أم حبيبة ابنة أبي سفيان التي كانت قد أسلمت وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتنصر هناك. وعندما علم أبو سفيان بزواج النبي بابنته "لانت عند ذلك عريكته واسترخت شكيمته في العداوة"، وقال عن النبي (ص) عندما عيَّره بعض القرشيين بكونه رضي أن تتزوج ابنته خصمه محمدا عليه السلام رد بقوله : "ذلك الفحل لا يقدع أنفه"[59]. ويبارك

59 – الزمخشري، الكشاف. ج4، ص 91.

القرآن هذه البادرة بقوله تعالى : "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة..." (الممتحنة 10). وبعد ذلك بقليل تبرم قريش، بزعامة أبي سفيان، "صلح الحديبية" مع النبي عليه السلام، ويأتي الوحي، والمسلمون في طريق عودتهم من الحديبية إلى المدينة بعد إبرام الصلح، يأتي الوحي بسورة تبشر النبي بـ"الفتح". فتح مكة، مستعملة صيغة "الماضي" مكان المستقبل إشارة إلى أن المسألة قد أصبحت الآن مسألة وقت فقط، قال تعالى : "إنا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصرا عزيزا" (الفتح 1/48-3). وقد سجلنا، سابقا، في موقف أبي سفيان تحولات في هذا الاتجاه في كل من غزوة أحُد وغزو الأحزاب (انظر التقديم في سورة الأحزاب). وإذا استحضرنا من جهة أخرى موقف العباس بن عبد المطلب عم النبي على السلام الذي بقي في مكة تاجرا من شخصيات قريش المرموقة وصديقا لأبي سفيان، وأنه كان يزود النبي بالأخبار -ولذلك أطلق سراحه يوم تم أسره في موقعة بدر- وأنه هو الذي فاوض أبا سفيان نيابة عن النبي يوم ذهب لفتح مكة، وأنه هو الذي سلمها له بدون قتال، إذ استسلمت تحت نداء "ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن" الخ، وإذا أضفنا إلى ذلك تعيين ابنه معاوية ضمن كتاب الوحي للنبي ثم تعيينه واليا على الشام فيما بعد، سهل علينا أن نفهم كيف أن أكبر دولتين في الإسلام هما:" دولة بني أمية ثم دولة بني العباس. إن "القضية" بدأت يوم تزوج النبي عليه السلام أم حبيبة بنت أبي سفيان ...

4- لنغادر الفقرة الثالثة التي فصّلت القول في مسألة الإرث والوصية ولننتقل إلى الفقرة الرابعة التي اهتمت بما يخص العلاقة الزوجية، وبالتحديد قضية الزنا. قال تعالى: "وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا. إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا". لقد شرحنا هذه الآية وزودنا شرحنا بهامش يوضح فهمنا لها، ونريد هنا أن نفصل قليلا في الفهم الذي اقترحناه بعيدا عن تأويلات المفسرين المتناقضة فنقول: المقصود بـ"اللاتي يأتين بالفاحشة" هن من اشتهر ذلك عنهن، سواء كن "باغيات" معروفات أو يمارسن البغاء بنوع من التخفي. وهنا تصبح شهادة أربعة شهود ممكنة، وحكمهن ما ذكر، وهو "السجن" وهو حكم مناسب. ويجب أن لا ننسى أن هذه الآية نزلت في بداية التشريع، في وقت كانت فيه دور البغاء موجودة ومعروفة في مكة والطائف المدينة ... أما قوله تعالى "وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ"، أي

المسلم والمسلمة، اللذان يزنيان أحدهما مع الآخر، في إطار العلاقات الفردية وخارج نطاق البغاء، فالحكم هو "فَآذُوهُمَا : أي ألحقوا الأذى بهما، ولم يتحدد نوع الأذى، ونحن نرجح أن مجرد إدانتهما مع النهي الصريح عن هذا العمل كانا يكفيان في هذه المرحلة، تماما كما كان كافيا في ذلك الوقت النهي عن تناول الخمر حين الصلاة في قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى، حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ". يؤيد هذا الذي ذهنا إليه بصدد هذين "اللذين يأتيان بالفاحشة" قوله تعالى : "فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمً".

5- وتختص الفقرة الخامسة بمسألة العضل وقد بينا طريقة فهمنا لهذه الآية في الهامش على الشرح، ونريد هنا أن نبين كيف تأدينا إلى ذلك الفهم من خلال تأمل تركيب عبارات الآية الخاصة بالموضوع، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (ورثة الميت) لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ (الزوجات) كَرْهًا (بأن تتزوجوا زوجات المتوفين غير راضيات). وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ (لا تمنعوا النساء زوجاتكم) لِتَذْهَبُوا (لتطالبوا) بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ. وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (بدون رد فعل على تلك الفاحشة -زنا كانت أو نشوزا- يزيد الموقف توترا، بل يجب أن تكون معاشرتكم لهن عادية)، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ (لم تعودوا راغبين فيهن كزوجات فتثبتوا ولا تتعجلوا بالطلاق)، فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا[19]! وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ (أي إذا أردتم الطلاق بدون سبب إلا الرغبة في الاستبدال) وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا (وكنتم قد أعطيتم مهرا كبيرا للتي تريدون تطليقها) فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا" (كذبا ومعصية)؟! "وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ (وقد كان بموافقة منكما ورضا) وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا[21] (لأنه منصوص عليه في عقد الزواج كفريضة لها)... وقد اختلف المفسرون في فهم تركيب هذه الآية فجعلوا الضمير في "ولا تعضلوهن" يعود إلى النساء في "أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا"، وكأن نفس النساء المنهي عن ورثتن كرها هن أنفسهن المنهي عن عضلهن، فوقعوا في اضطراب لا مخرج منه. هذا في حين أن الأمر على خلاف ذلك. فقوله تعالى : "إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ. وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا"، ينصرف معناه إلى الزوجات اللاتي في عنق أزواج أحياء كما هو واضح. وإذن فالآية التي نحن بصددها قسمان: القسم الأول هو قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (ورثة الميت) لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا (والمقصود زوجات المتوفين من أقاربكم الذين أنتم ورثتهم). والقسم الثاني هو قوله "وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ

لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ" الخ. القسم الأول يخص زوجات المتوفين وما كان من التحايل على الاستيلاء على إرثهن كما هو مشروح في الهامش على الشرح، أما القسم الثاني فيخص زوجات رجال أحياء، يكرهون زوجاتهم ويفارقوهن في المضاجع، ويتركوهن هكذا حتى يمتن أو يطلبن الطلاق ليكون من حق الزوج مطالبتهن برد صداقهن إليه.

6- وتأتي الفقرة السادسة من السورة لتبين من يحل ومن لا يحل للمسلم الزواج بهن، فتميز بين ثلاثة أنواع من الزيجات:

أ- الزواج الشرعي بشروطه : ويحرم فيه الزواج بنساء الآباء (والمفهوم في حالة وفاتهم)، "إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ" حين نزول هذه الآية (أي باستثناء ما تم من هذا الزواج بين المسلمين والمسلمات قبل الإسلام، إلى نزول هذه الآية). أما ما عدا ذلك فالآية تحدد لائحة المحرمات كما يلي: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ، وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ..." الآية. وتضيف الآية: أُحِلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ (أي من غير المحرمات المذكورة، وفي إطار: من واحدة إلى أربع) : أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ (زوجات) مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (غير زانين).

ب- زواج المتعة وقد نصت عليه الآية في قوله تعالى "فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (مهورهن) فَرِيضَةً، أي واجبة لهن حسب ما هو منصوص عليه في عقد الزواج الذي وافق عليه الزوج والزوجة وهو عقد إلى أجل. وتضيف السورة : إنه يجوز لهما أن ينقصوا برضاهما من مقداره الأجر إذا تعرض الزوج لضائقة مالية، وقيل يجوز لهما أيضا أن يزيدا في أجله. لنكتف هنا بهذا التذكير فسنخصص بعد قليل استطرادا لزواج المتعة.

ج – الزواج من الإماء لمن لا يملك من المال ما يدفع به الصداق للحرائر، شرط أن تكون الزوجة/الأمَة مسلمة محصنة وأن يكون ذلك بصداق مهما قلت قيمته وبإذن أهلهن. على أن لا يكن باغيات أو ذوات أصحاب "فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ (الحرائر) مِنَ الْعَذَابِ" (العقاب)، ذَلِكَ (أي التزوج بالإماء مباح) لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ (خاف من الزنا وعقوبته)؛ وَأَنْ تَصْبِرُوا (فلا تتزوجوا الإماء) خَيْرٌ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ". وبما أن العصر الحاضر هو عصر إلغاء الرق. إذ لم يبق منه في بلاد المسلمين إلا ما هو في إطار السرية، فإن إباحة الزواج بـ "الإماء" للمضطر في وقت كان فيه الرق سائدا وعاديا، يمكن -في وقت لم يعد فيه مقبولا- أن يتخذ دليلا ومرشدا في حالة اضطرار كما سنقول في الاستطراد.

7- تواصل السورة في الفقرة السابعة الكلام في موضوع النساء لتطرح مسألة المساواة بينهما خصوصا ما أثارته بعض زوجات النبي عليه السلام من تساؤلات حول مبدأ "للذكر حظ الأنثيين" (60) وحول قوله تعالى: "الرجال قوامون على النساء"، الشيء الذي يفهم منه في "الظاهر" أن الدين الجديد يضع المرأة في مرتبة أدنى من مرتبة الرجل. ولما كان مضمون تساؤلات النساء في هذا الموضوع يتعلق بـــ "السلطة" على صعيد الأسرة كما على صعيد المجتمع (السلطة السياسية لم تكن مطروحة لأن القيادة كانت للرسول عليه السلام)، فإن من جملة ما كان يثوي وراء هذه التساؤلات : الحقوق الاقتصادية. ولابد من التذكير هنا بكون وضعية المرأة كانت في المدينة أقوى مما كانت عليه في مكة (61).

انطلقت الفقرة في معالجة المسألة المطوحة من الزاوية الاقتصادية فنهت المؤمنين عن التعامل غير المشروع في مجال المال "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا

---

60 - قيل: "لما نزل: "لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ" جرى نقاش في الموضوع فقالت النساء: كذلك على الرجال صيبان من الذنوب، كما لهم نصيبان من الميراث. وقال النساء: لو كان جعل أنصبتنا في الميراث كأنصبة الرجال! وقال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة، كما فضلنا عليهنّ في الميراث! فأنزل الله: "لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ"، وبالتالي: المرأة تجزى بحسنتها عشر أمثالها كما يجزي الرجل، قال الله تعالى: "وَسْـــَٔلُوا ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِ"! وقال بعضهم : "للرجال نصيب مما ورثوا، وللنساء نصيب مما ورثن"؛ وقد رد الطبري على هذا الرأي الأخير بقوله إن معنى الآية: "أن لكلّ فريق من الرجال والنساء نصيبا مما اكتسب، وليس الميراث مما اكتسبه الوارث، وإنما هو مال أورثه الله عن ميت لقريبه بغير اكتساب، وإنما الكسب : العمل، والمكتسب: المحترف". (الطبري). وهذا النوع من التوزيع للإرث قد جاء ضد العرف الذي كان سائدا قبل الإسلام، على الأقل لدى بعض القبائل العربية، والذي بمقتضاه: "كان الرجل في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول: دمي دمك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك؛ فلما جاء الإسلام، بقي منهم ناس، فأمروا أن يؤتوهم نصيبهم من الميراث وهو السدس". وذلك قبل إلغاء هذا العرف بقوله تعالى: "وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ"، قالوا هذه الآية نسخت ذلك العرف، وما هو بنسخ، بل هو تشريع جديد حل محل العرف القديم.

61 - نذكر هنا بقولة عمر بن الخطاب يوم ذهب إلى النبي لاستطلاع أسباب التوتر بينه عليه السلام وبين زوجاته حتى هددهن بالطلاق، فقال (عمر) : "كنا معاشر قريش بمكة نغلب على النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساءهم، فطفق نساؤنا يتعلمن منهن". ويدخل في هذا الإطار ما يحكى من أن النبي عقد على امرأة فدعاها إليه فردت عليه قائلة: "إنا قوم نؤتى ولا نأتي! فردها إلى أهلها".

أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ"، وبينت مجال المعاملة المشروعة، وهو المبادلات التجارية القائمة على التراضي دون ضغط أو غش أو ربا، مما يولد الحنق والنزاع وغير ذلك مما يمكن أن يفهم من هذه العبارة العامة.

من هنا توجهت السورة إلى تعميم هذا الأمر "لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ... وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ"، لتجعله ينطبق كذلك على المعاملة بين الرجال والنساء. قال تعالى موجها الخطاب إلى النساء والرجال: "وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ (في الرزق والثروة): لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ"[62]. ففي هذا المجال، مجال العمل والكسب المشروع بالتجارة أو غيرها، لا فرق مطلقا بين الرجل والمرأة، فليس من حق الرجل أن يأخذ مما اكتسبته المرأة بجهدها كما أنه ليس من حق المرأة الأخذ مما كسبه الرجل إلا أن يكون ذلك مهرا أو هبة أو عطاء بالتراضي. ومع ذلك فإن على الزوج القيام بما هو واجب عليه نحو زوجته من نفقة وحماية الخ. وهذا القيام بما يجب على الرجال من واجبات نحو نسائهم هو "القوامة"، وهو معنى قوله تعالى: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ".

فسر الطبري هذه الآية كما يلي: "الرجال أهل قيام على نسائهم في تأديبهن والأخذ على أيديهن، فيما يجب عليهنّ لله ولأنفسهم؛ "بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ" : يعني بما فضل الله به الرجال على أزواجهم من سوقهم إليهنّ مهورهنّ، وإنفاقهم عليهنّ أموالهم، وكفايتهم إياهن مؤنهن. وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهن، ولذلك صاروا قوّاما عليهنّ، نافذي الأمر عليهنّ فيما جعل الله إليهم من أمورهنّ". والحق أنه ليس في الآية ما يفيد أن الله جعل الرجال قوامين على النساء "في تأديبهن"، والتأديب يشمل الضرب. ولكي يزكي الطبري والقائلون بأن القوامة تشمل التأديب والضرب ساقوا أخبار مؤداها أن هذه الآية نزلت لتبطل حكما نطق به النبي عليه السلام في رجل لطم امرأته، فاشتكته إليه فحكم لها بالقصاص من لطمة زوجها. وفضلا عن أن إقحام "سبب نزول" من هذا النوع في آية مندرجة

---

62 – نذكر بما روي من أن روي أن أم سلمة (ابنة أبي أمية بن المغيرة)، إحدى زوجات النبي عليه السلام، قالت: يا رسول الله (نحن النساء) لا نعطى الميراث (إلا نصف ما أعطي للرجل)، ولا نغزو في سبيل الله فنقتل (فتكون لنا الشهادة)، فنزلت "ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض". ومع أن سياق الفقرة أعلاه لا يحتاج إلى هذا الرواية كـ "سبب نزول"، إلا أن مضمونها يتسق مع ما ذكرناه قبل من "تساؤلات النساء" و"مراجعتهن" للرجال من أزواجهن وآبائهن فضلا عن إخوانهن، في إطار المطالبة بالمساواة.

في سياق متماسك هو "عزل" لهذه الآية مع العلم أن مكانتها توقيفي... ومما يوهن من هذه الأخبار كون بعضهم يقول إنه بهذه المناسبة نزل أيضا قوله تعالى: "وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ" (طه 114)، وهذا خلط بين الأمور كما لا يخفى: فهذه الآية من سورة طه وقد نزلت في مكة قبل الهجرة.

لكن العلاقة بين المرأة والرجل لا تنحصر في مجال الإرث والكسب فحسب، بل هناك مجال آخر هو العلاقة الزوجية التي تتجاوز المعاملات الظاهرة إلى العلاقة الحميمية. وهي في القرآن مبنية على التساوي : فعلى الزوجة أن تشبع الرجل حاجته الجنسية (الجماع) وعلى الزوج الشيء نفسه. والعلاقة الزوجية مبينة أساسا على الحب أي الميل العاطفي، فضلا عن التراضي. ولكن قد يحدث لسبب من الأسباب أن يجمد هذا الميل العاطفي فينقلب إلى هجر وكراهية ونشوز. وقد طرحت الفقرة التي نتحرك فيها هذه المسألة بوضوح ورسمت لها حلولا على أساس المساواة. وما يهمنا هنا التركيز عليه، بعدما قلناه أعلاه في الهوامش الخاصة بهذه المسألة، هو ما أثير ويثار حول تنصيص الآية الخاصة بنشوز المرأة على "ضرب الزوجات". وقد فهم كثير من القدماء والمحدثين "الضرب" كما يفهم في حال الخصومة، أي اللكم والإيذاء باليد أو بالعصا وما أشبه، وذلك نتيجة عدم ربط هذه الكلمة بسياقها ولا بما روي في شأنها من أخبار تحدد معناها. إن "الضرب المطروح هنا ليس هو "الاعتداء بالضرب" بمعناه الذي يفهم عند الخصومة والعداوة. كلا، هذا لا وجود له في القرآن. إن الضرب المنصوص عليه في هذه الآية ليس من ذلك النوع بل هو وسيلة للتخفيف من نشوز المرأة وإعراضها عن تلبية رغبة الرجل في المضاجع، رغبته في الجماع. قال تعالى : "وَاللَّاتِي تَخَافُونَ (تعانون من) نُشُوزَهُنَّ (من استعلائهنّ عليكم، وكراهتهن لكم كأزواج، وامتناعهن عليكم في فراش الزوجية) فَعِظُوهُنَّ (اطلبوا منهن بلطف الرجوع إلى المضجع)، وَ(إن امتنعن) فـ"اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ (لا تجامعوهن بالقوة) وَاضْرِبُوهُنَّ (هناك في المضاجع ضربا غير مبرح: وقد رويت عدة أخبار في تحديد معنى الضرب غير المبرح، منها حديث نبوي ورد فيه، عندما سئل النبي عن معنى الضرب هنا، قوله : "الضرب غير المبرح هو مثل الضرب بالسواك ونحوه"، غير مؤثر؛ ونسبوا مثل هذا إلى ابن عباس أيضا. وفي لسان العرب : "السِّواكُ ما يُدَلَكُ به الفَمْ من العيدان". وأيضا: "السِّواكُ والتَّساوُكُ : السير الضعيف". تقول العرب "جاءت الغنم هزلى تساوكُ أي تتمايل من الهزال والضعف في مشيها". وفي الحديث: من جهات متعددة: "خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ... ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ، فَوَعَظَهُمْ

(الرجال) فِيهِنَّ، فَقَالَ: عَلَامَ يَجْلِدُ أَحَدُكُمُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ، وَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ... وَقَالَ لِمَ يَضْرِبُ أَحَدُكُمُ امْرَأَتَهُ ضَرْبَ الْفَحْلِ، ثُمَّ لَعَلَّهُ يُعَانِقُهَا". إذن فالضرب المعني هنا ليس من النوع الذي يجعل المرأة تخاف وتذعن، بل هو من قبيل "التسوك" (دلك الفم بالسواك) وهو بحركة السير الضعيف أشبه. وإذن: ألا يعني ذلك نوعا من المداعبة الهادئة على الفراش لاستثارتهن وجعلهن يُقبلن على الجماع أو يطلبنه بالأحرى؟

وهذا النوع من الفهم يجد ما يزكيه في السياق تزكية تامة. ذلك أن الآية قد استعملت لفظ الضرب بعد لفظ "الوعظ" (فَعِظُوهُنَّ) ثم أردفت "فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ" بعد ذلك النوع من "الضرب" الذي هو مثل دلك الفم بالسواك، أي بعد مداعبتهن (ومن المداعبة بالضرب الخفيف ما يثير المرأة ويهيج الغريزة الجنسية فيها) فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا أي لا تطلبوا منهن أكثر من ذلك، كأن ينجذبن إليهم انجاب الحب والغرام فذلك ليس يقع تحت الإرادة والتصرف الذي تحكمه الإرادة، وبالأحرى لا تعاقبوهن على نشوزهن. وإن استمر النزاع بينهما إلى الدرجة التي قد تجرهما إلى الطلاق فالواجب على أهلهما أن يبادروا إلى المصالحة بينهما بتعيين حكم مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَم مِنْ أَهْلِهَا، فإذا مالا إلى المصالحة فالله "يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا".

إلى هنا ينتهي القسم الذي خصصته السورة للنساء، أما الفقرات الباقية وهي من الثامنة إلى الخامسة عشرة فتتناول قضايا متعددة: الإحسان إلى الوالدين والنفقة على المساكين، والنهي عن شرب الخمر وقت الصلاة، و"الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك"، وفضح سلوك المنافقين والتشهير به، وقضية المسلمين الذين بقوا في مكة ولم يهاجروا وما قد يحدث من تعقيدات في هذه الوضع كالقتل، خطأ أو عمدا، وصلاة الخوف حين المعركة مع العدو، والأمر بالعدل في أداء الشهادة، والرد على اليهود الذين تحدوا النبي بأن طالبوه بأن يَنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كتابا من السماء. وأخيرا تأتي الخاتمة لتجدد الدعوة إلى الناس لتقوى الله، والإيمان بما جاء به رسول الله، وهذه الدعوة موجهة لليهود والنصارى والذين آمنوا بمن الرجال والنساء والمؤمنين الصادقين والمؤمنين المترددين، وهم المنافقون.

استطراد : حول زواج المتعة

نخصص هذا الاستطراد لمسألتين لعلهما من أكثر المسائل إثارة للجدل بين المفسرين والفقهاء في موضوع الزواج، وهما : زواج المتعة من جهة، والزواج من الإماء من جهة أخرى. ومع أننا قد تعاملنا مع هذين الموضوعين حين الشرح بنوع من التفصيل فقد ارتأينا أن نجمل هنا أبرز مع قيل في الموضوع لنذلي نحن بناء على ذلك برأينا في الموضوع. لنبدأ باستعادة الآية التي شرعت لموضوع زواج المتعة أولا. قال تعالى بعد ذكر ما حرم من النساء على المسلمين: "وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ (أي من غير المحرمات المذكورة، وفي إطار: من واحدة إلى أربع) أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ (نساء)، مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (غير زانين)، فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (مهورهن) فَرِيضَةً، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا"[24].

وابتغاء النساء بالأموال (أي بدفع أجور لهن) يكون إما بالزواج الكامل : مهر وعقد إلى غير أجل، وإما بزواج المتعة الذي يكون بمهر وعقد إلى أجل. وإما بالونا وهذا محرم.

زواج المتعة وهو موضوعنا هنا. وسنعرض ما قيل فيه من وجهة نظر أهل السنة. أما الشيعة الإمامية فهو معمول به عندهم ولهم في ذلك مستندهم خصوصا ما روي عن علي بن أبي طالب، وسنذكر ما ترويه عنه المصادر السنية.

الاستمتاع، والمواقف من زواج المتعة

قال القرطبي في بيان معنى الاستمتاع والأجر المنصوص عليهما في الآية السابقة ("فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً") : "الاستمتاع التلذذ. والأجور المهور؛ وسُمِّيَ المهر أجراً لأنه أجر الاستمتاع، وهذا نصٌّ على أن المهر يسمى أجراً، و(ذلك) دليل على أنه في مقابلة البُضع؛ لأن ما يقابل المنفعة يُسمى أجراً. وقد اختلف العلماء في المعقود عليه في النكاح ما هو: بَدَنُ المرأة، أو منفعة البُضع، أو الحِلّ: ثلاثة أقوال، والظاهر المجموع، فإن العقد يقتضي كل ذلك".

هذا عن الاستمتاع والأجر من الناحية اللغوية. لكن المقصود بالاستمتاع في الآية المذكورة موضوع خلاف كبير. بعضهم فسر قوله "فما استمتعتم به منهن" بالقول : "فما نكحتم منهنّ فجامعتموهنّ"، ومعلوم أن النكاح على معنيين: الجماع

والتزويج بعقد ومهر وشهود الخ (الزواج الشرعي). والاستمتاع في إطار هذا النكاح موضوع الحكم في الآيات السابقة هو استمتاع الزوج بزوجته في كل ما يخص العلاقة الزوجية. وهذا النوع من الفهم غير مسلم به لوجود أدلة على أن المقصود شيء آخر. هو : ما تمتعتم به منهنّ بأجر، "تمتع اللذة، لا بنكاح مطلق على وجه النكاح الذي يكون بوليّ وشهود ومهر"، وهذا هو المسمى "زواج المتعة"، وحوله خلاف كثير وآراء متباينة متناقضة.

روى الطبري عن السُّدي (وهو من المرجعيات الرئيسية في التفسير عند أهل السنة) أنه قرأ هذه الآية كما يلي: "فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إلى أجَلٍ مُسَمًّى فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الفريضَةِ"، وقال : "فهذه (هي) المتعة : الرجل ينكح المرأة بشرط إلى أجل مسمى، ويُشهد شاهدين، وينكح بإذن وليها، وإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل وهي منه بريئة، وعليها أن تستبرئ ما في رحمها (تحيض، علامة على خلو رحمها من الحمل)، وليس بينهما ميراث، ليس يرث واحد منهما صاحبه". وقيل إن الآية وردت في مصحف أبي هكذا: "فَما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إلى أجل مسمّى". وعن ابن عباس كذلك، أي بإضافة "إلى أجل مسمى"، وروي أن سعيد بن جبير كان يقرأ: "فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إلى أجَلٍ مُسَمًّى فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ". ونسب إلى علي بن أبي طالب قوله: "لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي"، كما نسب إلى ابن عباس قوله: ما كانت المُتْعة إلاّ رحمة من الله تعالى، رحم بها عبادَه، ولولا نهْيُ عمر عنها ما زَنى إلاّ شَقِيّ".

وفي مقابل هذا الموقف المجيز لزواج المتعة، هناك آراء أخرى تقول العكس. يقول القرطبي "وقال الجمهور: المراد (في الآية) نكاح المتعة الذي كان في صدر الإسلام. ثم نهى عنه النبيّ (ص). وقال سعيد بن المسيب: إن الآية السابقة نسختها آية الميراث؛ إذْ كانت المتعة لا ميراث فيها. ونسب إلى عائشة وغيرها القول بتحريم زواج المتعة استنادا إلى قوله تعالى: "وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إلا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ" (المؤمنون: 5- 6)، "وليست المتعة نكاحاً ولا مِلكَ يَمين". كما روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: نهى رسول الله (ص) عن المتعة، مضيفا وإنما كانت لمن لم يجد، فلما نزل النّكاح والطّلاق والعِدّة والميراث بين الزوج والمرأة نُسخت. ونسب إليه أيضا قوله: نَسخ صوم رمضان كلّ صوم، ونسخت الزكاةُ كلّ صدقة، ونسخ الطلاقُ والعدّةُ والميراث

المتعةَ، ونسخت الأُضحِية كلّ ذَبْح. كما نسب إلى ابن مسعود أنه قال: المتعة منسوخة، نسخها الطلاق والعدّة والميراث.

ويضيف القرطبي: "واختلف العلماء كم مرّة أُبيحت ونُسخت؛ ففي صحيح مُسْلم عن عبد اللـــه قال: كنا نَغْزُو مع رسول اللـــه (ص) وسلّم ليس لنا نساء؛ فقلنا: ألا نَسْتَخْصِي ؟ فنهانا عن ذلك، ثم رَخّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجَل. ونقل عن أبي حاتم البُسْتِيّ في صحيحه قوله : إن سؤالهم "ألا نستخصي؟" دليل على أن المتْعة كانت محظورة قبل أن أُبيح لهم الاستمتاع، ولو لم تكن محظورة لم يكن لسؤالهم عن هذا معنًى، ثم رخّص لهم في الغزو أن ينكحوا المرأة بالثوب إلى أجل، ثم نهى عنها عامَ خَيْبَر، ثم أذن فيها عامَ الفتح، ثم حرّمها بعد ثلاث، فهي محرّمة إلى يوم القيامة"(هل هو طلاق بائن!؟ وكيف؟ كلام فيه تحكم ولا سند له). وقال ابن العربيّ: "وأما مُتعة النساء فهي من غرائب الشريعة؛ لأنها أُبيحت في صدر الإسلام ثم حُرّمت يومَ خيبر، ثم أُبيحت في غزوة أوْطاس، ثم حُرّمت بعد ذلك واستقرّ الأمر على التحريم". وقال غيره ممن جمع طرق الأحاديث فيها: إنها تقتضي التحليل والتحريم سبع مرّات.

قلت (الجابري): أما ما ذكروه من كون هذه لآية نسخت ثم عاد العمل بها ثم نسخت سبع مرات، أو أقل أو أكثر، فدليل على أن مفهوم "النسخ" لا معنى له ولا أصل! فكيف يعقل أن تنسخ آية حكم أخرى ثم يعود العمل بالأولى نسخا للنسخ الأول، وهكذا دواليك؟ ثم إننا نشك في صحة ما روي عن النبي والصحابة من كونهم استعملوا كلمة "نسخت" بكثرة في هذه المسألة، بينما لم يرد عنهم –حتى عند المروجين لهذا اللفظ– أنهم استعملوا هذا اللفظ في أمور أخرى استعمل فيها الفقهاء فيها مفهوم "النسخ". هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن هذا الذي قلناه يدل على أن الترويج لمفهوم النسخ في هذه المسألة كان متأخرا، وأنه كانت وراءه دوافع مذهبية خصوصا عندما تمسكت الشيعة بهذا النوع من الزواج : زواج المتعة. أما ما نراه نحن ويستفاد من أقوالهم جميعا فهو أن زواج المتعة كان بسبب ظروف خاصة، كلما انتفت تلك الظروف تم العدول عنه، وإذا تجددت كانت العودة إليه.

وبناء على هذا فنحن نؤيد موقف الرازي حين سئل عن زواج المتعة، خصوصا جوابه الأخير: فقد سئل عدة مرات فكان جوابه مرة : القول بالإباحة المطلقة، : وسئل : أسفاح هي أم نكاح؟ قال: لا سفاح ولا نكاح. هي متعة كما قال تعالى. وسئل هل لها عدة؟ فقال نعم عدتها حيضة، وسئل : هل يتوارثان؟ قال: لا. وقد استنكر أناس هذه الإجابات حتى إن بعضهم قال فيه شعرا (من نوع الهجاء)

فكان رد فعله أن قال: "قاتلهم الله إني ما أفتيت بإباحتها على الإطلاق، لكني قلت: "إنها تحل للمضطر كما تحل الميتة والدم ولحم الخنزير له".

ونحن نرى أن في عصرنا ما يحمل على النظر إلى زواج المتعة على أنه "يحل للمضطر"، فغلاء المهور، والصعوبات التي يواجهها معظم شباب اليوم في العثور على سكن مقبول وبثمن مقبول الخ، مما يضطره إلى الزنا أو إلى ما يسمى بـ"الزواج العرفي" أو بغيره من الأسماء التي في معناه ... كل ذلك يبرر العودة إلى العمل به، بوصفه من المباح للمضطر.

<u>من لم يستطع طولا:</u>

ونحن نعتقد أن الحل الذي قررته الآية التالية لآية "نكاح المتعة" تفسح المجال لعقد مقارنة تزكي ما ذهبنا إليه. يقول تعالى، بعد الآية السابقة مباشرة: "وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا (ليس له من المال ما يمكنه من) أَنْ يَنْكِحَ (يتزوج الحرائر) الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَـ(ليتزوج) مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ (إمائكم) الْمُؤْمِنَاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ (مالكيهن)، وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (مهورهن) بِالْمَعْرُوفِ، (على أن يكن) مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ (باغيات) وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ" (من ذوات "الأصحاب").

ومع أن الاتجاه العام والمبدئي في القرآن هو تحرير الإماء والعبيد وعتقهن (وقد حض على ذلك مرارا وجعله من الكفارات، بل من طرق النجاة "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ : فَكُّ رَقَبَةٍ (البلد 11-13) فإنه أباح زواج الإماء لمن لا يملك المال الذي يمكنه من الزواج بالحرائر. إنه زواج المضطر، ويقع في سياق تحرير الرقيق... وبما أن الرق قد صار اليوم محرما دوليا، وهذا ينسجم مع التوجه القرآني. فإن باب الإباحة الذي فتح لزواج المضطر من الإماء، وهو مغلق الآن بمنع الرق، يجب أن يفتح في وجه زواج المتعة. وإلا فإن الزنا بـ "الرقيق الأبيض" سيبقى مفتوحا ينتج مزيدا من الزناة ومزيدا من الرقيق الأبيض.

98- سورة الحديد

- تقديم

اختلاف كبير حول كون هذه السورة مكية أو مدنية، لكن "الجمهور على أنها مدنية". ويفهم من بعض الروايات انها نزلت على الأرجح في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة. أما رتبتها في لوائح ترتيب النزول فقد وردت مع المدني برتبة 94 في الأكثر، بعد الزلزلة والنساء. وبما أننا قد رجحنا ترتيب الزلزلة مع القرآن المكي، فرتبة هذه السورة تأتي بعد سورة النساء مباشرة.

هذا وسنخصص قسما كبيرا من التعليق لمناقشة مصداقية المرويات التي وردت حول هذه السورة.

- نص السورة

1- مقدمة : وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[1]؛ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[2]. هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ (1)، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[3]. هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

1- قال الطبري في تفسير هذه الآية: "هو الأول قبل كل شيء بغير حدّ ... والآخر بعد كل شيء بغير نهاية. وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه كان ولا شيء موجود سواه، وهو كائن بعد فناء الأشياء كلها، كما قال جلّ ثناؤه: كُلُّ شَيْءٍ هالكٌ إلاّ وَجْهَهُ. وقوله والظَّاهِرُ : هو الظاهر على كل شيء دونه، وهو العالي فوق كل شيء، فلا شيء أعلى منه. وهو الباطن لجميع الأشياء، فلا شيء أقرب إلى شيء منه، كما قال: وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ". وهذا الذي قال به الطبري هو الحد الأقصى لما يسمح به مذهب أهل السنة في هذا المجال. أما المتصوفة والشيعة ومختلف أصناف الباطنية فإن ما قاله الطبري هنا هو عندهم "المعنى الظاهر"، يبقى بعد ذلك "المعنى الباطن" الذي "يختصون" به. وهذه الآية يستدلون بها على=

وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[4]. لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ[5]، يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[6].(2)

2- آمنوا بالله ورسوله، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه...

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ (3): فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا، لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ[7]. وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ، وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[8]؟ (4) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ

مشروعية التأويل الباطني ومصداقيته. انظر تفاصيل أوفي عن التفسير الباطني وأنواعه في كتابنا "بنية العقل العربي" : قسم العرفان...

2 - استند الذين قالوا بأن هذه السورة مكية على هذه المقدمة التي تشبه القرآن المكي في مضمونها وأسلوبها، ولكن إذا نحن اعتبرنا ما يطبع مقدمات كثير من السور المكية والمدنية من كون كثير منها تأتي في صيغة دعاء، أو في صيغة الافتتاح بالتأكيد على ثوابت العقيدة. سهل علينا تجاوز القول بأنها مكية. انظر تفاصيل عن الموضوع في التعليق.

3 - قال الطبري: "وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه: أنفقوا مما خولكم الله من المال الذي أورثكم عمن كان قبلكم، فجعلكم خلفاءهم فيه في سبيل الله". أما الزمخشري فيقول: "يعني أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها، وإنما مولكم إياها، وخولكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي بأموالكم في الحقيقة. وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنوّاب، فأنفقوا منها في حقوق الله، وليهُن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه". ثم ذكر المعنى الذي ذكره الطبري. ونحن نفهم من الحث على النفقة في هذه الآية أن المطلوب هو النفقة على تجهيز سرايا وجند النبي عليه السلام، فالظرف هو ظرف الصراع المسلح مع قريش، كما سيتبين بعد قليل، ومناسبة هذه الفقرة مع المقدمة واضحة. فالتذكير هنا بجميع ما ورد في المقدمة من قوله "سبح لله ما في السماوات والأرض إلى قوله "وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"، كل ذلك يشعر بأن موضوع السورة هو الدعوة للعمل في سبيل الله، وبالتالي النفقة في سبيل الله عن عقيدة وإيمان، فالله يعلم تسبيح السماوات والأرض "و عليم بذات الصدور"، يعلم من انفق عن إيمان صادق، ومن أنفق رياء، كما يعلم ما تخفيه صدور الذين يتخذون أعذارا واهية لكي لا ينفقون. وهذا كله وارد في سور سابقة وسيرد بصيغ أخرى في هذه السورة.

4- يقول الزمخشري: "وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان: حيث ركب فيكم العقول، ونصب لكم الأدلة، ومكنكم من النظر، وأزاح عللكم، فإذ لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول=

(محمد) آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ[9]. وَمَا لَكُمْ أَلَّا (في أن لا) تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (أنفقوا ليكون ذلكم لكم سبيلا إلى استحقاق الغنيمة بعد النصر في الغزوات القادمة فضلا عن الوعد بالجنة)؟ لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ [5] وَقَاتَلَ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً (في الدنيا والآخرة) مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[10]. مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ[11] (وهذا الأجر هو أنه) : يَوْمَ (القيامة) تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ (من جهة اليمين، يقال لهم)، بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[12]. يَوْمَ (القيامة) يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا: انْظُرُونَا (انتظرونا) نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ! قِيلَ (لهم) ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا، فَـ (لما رجعوا وراءهم) ضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ، بَاطِنُهُ (داخله) فِيهِ الرَّحْمَةُ (وهو مقام المؤمنين) وَظَاهِرُهُ (في الخارج منه) مِنْ قِبَلِهِ (في الجهة الموازية) الْعَذَابُ[13] (جهنم)! (والمنافقون) يُنَادُونَهُمْ: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ (انحرفتم بها)، وَتَرَبَّصْتُمْ (ترددتم وقعدتهم) وَارْتَبْتُمْ (في النصر) وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ (أمانيكم في أن لا ينتصر المؤمنون) حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ (بالنصر)، وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ[14] (غركم الشيطان بأن لا عذاب). فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ (ولا كفارة

وتنبيه الرسول، فما لكم لا تؤمنون "إن كُنتُم مُؤْمِنِينَ" لموجب مَا. أما الطبري فذكر أن المعنى: "أخذ منكم ربكم ميثاقكم في صُلب آدم، بأن الله ربكم لا إله لكم سواه". أما نحن فنرى خصوص إلى جانبي هذا العموم، فقوله تعالى: "وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ، إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِين"، خطاب موجه إلى المسلمين في المدينة، وبالتحديد، للمنافقين أو لمن هم على هواهم، يذكرهم بميثاق بيعة العقبة، وبميثاق الصحيفة التي عقدها النبي مع جميع سكان المدينة مسلمين ويهود، والتي تنص على التزام الجميع بالدفاع عن المدينة التي أصبحت الآن مهددة بغارات الأعراب وبجيوش قريش و"الأحزاب". وإذن فهذه الآية لا يستقيم مضمونها مع القول إنها مكية. فهاهنا عتاب وتعريض بالمنافقين في المدينة. والآيات التاليات تؤكد هذا.

5- رجح معظم المفسرين أن المقصود بـ"الفتح" فتح مكة وبعضهم قال "صلح الحديبية"، وهذه السورة سابقة على هذين الحدثين، فلماذا الخلط بين الأزمنة والأحداث بدل فهم الكلمة في معناها العام الذي يعني "النصر" والنبي كان يخوض حربا ضروسا مع مشركي مكة وكان يدعو إلى النفقة في سبيل الله أي يدعو إلى الانخراط في السرايا والغزوات القادمة وتجهيزها.

تمحو الذنب)، وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ (أولى بكم) وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[15].

3- وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[23]، الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ.

أَلَمْ يَأْنِ (ألم يحن الوقت) لِلَّذِينَ آَمَنُوا (ولم يجعلوا إيمانهم الظاهري معبرا عن إيمان داخلي حقيقي: الخطاب إلى المنافقين) أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ؟ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ[16]! اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (تيقنوا بالبعث والحساب)، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[17]. إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ (للنبي والقرآن بألسنتهم وقلوبهم)، وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (أنفقوا من أجل تجهيز رجال السرايا والغزوات)، يُضَاعَفُ لَهُمْ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ[18]. وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ (أي في أعلى درجات التصديق). وَالشُّهَدَاءُ (القتلى في سبيل الله) عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ[19]. اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ، وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا! وَفِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيد (للكفار) وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ (للمؤمنين)، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ[20]. سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[21]. مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا (أن نحدث تلك المصيبة)، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ[22]، (وهذا نقوله) لِكَيْ لَا تَأْسَوْا (تحزنوا) عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آَتَاكُمْ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[23]، (=المختالون الفخورون) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ[24].

4- لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ (بالحجج والدلائل) وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ (ميزان العقل) لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (لتقوم العلاقات بين الناس على العدل فلا يكون هناك طغيان كطغيان قريش)، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (تصنع منه السيوف للحرب كما تصنع منه الفؤوس والمناجل

للحرث)، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ (يؤمن به) وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ (لا يطلبون أن يروا الله بأبصارهم كما طلبت اليهود من موسى، بل يؤمنون به من خلال استخلاص الأدلة من صنع الله كالحديد الذي قد يكون سيفا وقد يكون فأسا)، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ[25]. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ[26]، ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا، وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ (نصروه) رَأْفَةً وَرَحْمَةً، وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ (ولكن زادوها على ما طلبنا منهم، وما فعلوا ذلك) إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ[27].

5- خاتمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ (نصيبين) مِنْ رَحْمَتِهِ (نصيب في الدنيا بالنصر والغنائم بعد النفقة على السرايا والمقاتلين، ونصيب في الجنة)، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (مهتدين لا ضالين)، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[28]، لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (نجعل لكم هذا النور ليبقى اليهود على جهل بأنهم لا يقدرون على شيء)، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[29].

- تعليق

لعل القارئ يتفق معنا على أن هذه السورة مدنية من ألفها إلى يائها فهي حث على النفقة على تجهيز السرايا والمقاتلين في سبيل إيقاع الهزيمة بمشركي مكة ومن يتحالف منهم، وبالتالي فلا شيء فيها يشكك في كونها مدنية جملة وتفصيلا. وبهذا المناسبة نخصص هذا التعليق على المرويات التي تجعل منها أو من بعض أجزائها نص مكيا.

كتب ابن عاشور في تقديم هذه السورة ما يلي: "وفي كون هذه السورة مدنية أو مكية اختلاف قوي لم يختلف مثله في غيرها". ونحن سنذكر هنا ما جمعه من المرويات، ومع أنه ذو حس نقدي فقد انساق مع طريقة المفسرين في التعامل مع القرآن كـ "آيات" بل كألفاظ وعبارات دون إيلاء كبير اهتمام للسياق، فضلا عن أنهم جميعا لا يتعاملون مع كل سورة كوحدة مستقلة مكتملة، بل

ينساقون مع "تداعي" الألفاظ والمرويات فينسون السورة وبنيتَها ووحدة الموضوع فيها. وسنقدم للقارئ من خلال ما جمعه ابن عاشور حول " أسباب نزول" هذه السورة و"تاريخ نزولها" وانقسام آياتها إلى مكي ومدني، في زعمهم، نموذجا يمكن مقارنته مع منهجنا...

نقرأ، إذن، في تفسير ابن عاشور عن هذه السورة ما يلي: قال: "قال الجمهور: مدنية. وحكى ابن عطية عن النقاش: أن ذلك إجماع المفسرين. وقد قيل: إن صدرَها مكي لما رواه مسلم في "صحيحه" والنسائي وابنُ ماجه عن عبد اللـــه بن مسعود أنه قال: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا اللــه بهذه الآية "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ" إلى قولـــه: "وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ" (الحديد: 16) إلا أربع سنين. وعبد اللـــه بن مسعود من أول الناس إسلاماً، فتكون هذه الآية مكية".

ويضيف ابن عاشور قائلا: "وهذا يعارضه ما رواه ابن مردويه عن أنس وابنِ عباس: أن نزول هذه الآية بعد ثلاث عشرة سنةً أو أربع عشرة سنة من ابتداء نزول القرآن، فيصار إلى الجمع بين الروايتين أو الترجيح. ورواية مسلم وغيره عن ابن مسعود أصح سنداً، وكلامُ ابن مسعود يرجّح على ما رُوي عن أنس وابن عباس لأنه أقدم إسلاماً وأعلم بنزول القرآن، وقد علمت آنفاً أن صدر هذه السورة كان مقروءاً قبل إسلام عمر بن الخطاب. قال ابن عطية "يشبه صدرها أن يكون مكياً واللـــه أعلم، ولا خلاف أن فيها قرآناً مدنياً". وروي أن نزولـــها كان يوم ثلاثاء استناداً إلى حديث ضعيف رواه الطبراني عن ابن عمر ورواه الديلمي عن جابر بن عبد اللـــه". ثم يضيف: "وأقول: الذي يظهر أن صدرها مكي كما توسمه ابن عطية وأن ذلك ينتهي إلى قولـــه: "وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} (الحديد: 9) وأن ما بعد ذلك فبعضه نزل بالمدينة كما تقتضيه معانيه مثل حكاية أقوال المنافقين، وبعضه نزل بمكة مثل آية "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ" (الحديد: 16) الآية كما في حديث مسلم. ويشبه أن يكون آخر السورة قولـــه: "إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" (الحديد: 25) نزل بالمدينة، ألحق بهذه السورة بتوقيف من النبي صلى اللـــه عليه وسلم في خلالـــها أو في آخرها". ويقول: "قلت: وفيها آية "لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ"" (الحديد: 10) الآية، وسواء كان المراد بالفتح في تلك الآية فتح مكة أو فتح الحديبية، فإنه أُطلق عليه اسم الفتح وبه سميت "سورة الفتح"، فهي متعينة لأن تكون مدنية فلا ينبغي الاختلاف في أن معظم السورة مدني".

ثم يضيف: وقد عدت السورة الخامسةَ والتسعين في ترتيب نزول السور جرياً على قول الجمهور: إنها مدنية فقالوا: نزلت بعد سورة الزلزالة وقبل سورة القتال (سورة محمد)، وإذا روعي قول ابن مسعود: إنها نزلت بعد البعثة بأربع سنين، وما روي من أن سبب إسلام عمر بن الخطاب أنه قرأ صحيفة لأخته فاطمة فيها صدر سورة الحديد [6] لم يستقم هذا العدّ لأن العبرة بمكان نزول صدر السورة لا نزول آخرها فيُشكِل موضعها في عد نزول السورة. وعلى قول ابن مسعود يكون ابتداء نزولــها آخر سنة أربع من البعثة فتكون من أقدم السور نزولاً فتكون نزلت قبل سورة الحجر وطه وبعد غافر، فالوجه أن معظم آياتها نزل بعد سورة الزلزلة".

ذلك ما ذكره ابن عاشروه من آراء الأقدمين. أما رأيه هو فقد اعتمد فيه نفس المخرج الذي يلجأ إليه الأقدمون عندما يكونون أمام تعارض الروايات، وهذا المخرج هو القول بــ "الجمع بين الروايتين" المتعارضتين بالاعتماد على أخرى تصلح في نظرهم أن تكون جسرا بينهما.

نحن نعتقد أن جميع ما تقدم هو مجرد تخمينات. وفي نظري أنه من المفيد الاطلاع عليه ولكن دون الانسياق مع ما يروى، ولا معنى لطرح صحة سندها أو عدم صحته، فالمعول عليه هنا هو نص السورة، وليس السند. فلا يجوز إخضاع نص السورة أو الآية وتطويعه ليقترب لما تقوله المرويات، بل العكس هو الذي يجب أن يحصل. خصوصا وهذه الاختلاف الكبير منفيٍ عن القرآن بصريح قوله تعالى: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (النساء 82).

والحق أن تدبر القرآن –بالعقل وبالعقل النقدي خصوصا وليس بالروايات وحدها- يقودنا إلى ما يلي: إن "صدر السورة" الذي جعلهم يقولون إن السورة مكية أو على الأقل "صدرها مكي"، هو ما ندعوه بــ "مقدمة السورة". وقد سبق أن بينا في مكان آخر كيف أن جميع سور القرآن –باستثناء بعض القصار منها- ذات بنية واحدة: المقدمة، التحليل والتفصيل، ثم الخاتمة. المقدمة تطرح بصورة إجمالية موضوع السورة من خلال التأكيد على أركان العقيدة، أو بعضها، (نبوة محمد عليه السلام والكتاب الذي أنزل إليه، والتوحيد، والبعث)، وهذا التأكيد يكون تارة بعبارات مباشرة قوية تستعيد نمط الآيات المكية في الموضوع، كما نبهنا

6 – رواية مصنفة مع الضعيف من الروايات.

على ذلك في الهامش الذي كتبناه أسفل المقدمة، ويكون تارة بالإشارة أو بالمثل الخ. والعلاقة بين المقدمة والتحليل تبقى عضوية مهما تنوعت موضوعات السورة. ثم تأتي الخاتمة لتستعيد المقدمة ولترتفع بها إلى مستوى يجعلها كنتيجة للتحليل، وأحيانا تأتي أيضا كتمهيد أو إشعار بموضوع السورة التالية. إن تدبر معاني السورة بوصفها وحدة مكتملة، لها مقدمة وتحليل وخاتمة، يجعل كثيرا - وأحيانا جميع- المرويات حولها غير ذات موضوع، كما هو الحال في هذه السورة.

99- سورة محمد

- تقديم

وهذه سورة اختلفوا فيها أيضا حول كونها مدنية أم مكية مع أن كل شيء فيها يشير إلى أنها مدنية حتى الاسم الثاني الذي عرفت به وهو "سورة القتال". أما لوائح ترتيب النول فتضعها في المدني بعد سورة الحديد، وهو مكان مناسب تماما.

- نص السورة

1- مقدمة : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّه أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا (مشركو قريش) وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ (الله) أَعْمَالَهُمْ[1]، وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ[2] (شأنهم). ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ، وَأَنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ[3] (تصنيفهم إلى كفار ومؤمنين).

2- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ...

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا (الذين أنتم معهم في حرب) فَضَرْبَ الرِّقَابِ (فقاتلوهم) حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ (غلبتموهم وانتصرتم عليهم وتوقفت الحرب) فَشُدُّوا الْوَثَاقَ (قيدوا من بقي منهم أحياء، حتى لا يستغفلونكم فيهاجموكم، وبعد ذلك): فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ (إطلاق سراحهم بدون مقابل)، وَإِمَّا فِدَاءً [1] (وإما مقابل

---

1 - بعض المفسرين قالوا إن هذه الآية منسوخة بآية أخرى. أما الطبري فيرى أنها لا ينطبق عليها النسخ كما حدده من وجهة نظره: قال: " والصواب من القول عندنا في ذلك=

فدية يدفعونها) حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا (تنتهي الحرب بينكم وبينهم) ؛ ذَلِكَ، وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ (الله) أَعْمَالَهُمْ[4]، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ[5]، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ[6] (جعلهم على بينة منها). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ (تقاتلوا في سبل الله) يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ[7]؛ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ (خزي) وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ[8]، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ[9]. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛ وَلِلْكَافِرِينَ (مشركي مكة) أَمْثَالُهَا[10] (ذلك التدمير)، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ[11]. إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ (في الدنيا) وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ، وَالنَّارُ مَثْوًى (مسكن) لَهُمْ[12]. وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ (مكة) الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ (أهلكنا أهلها)، فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ[13]. أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (هو الرسول عليه السلام) كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (وهم مشركو

أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ، ما قد بيّنا في غير موضع في كتابنا، إنه ما لم يجز اجتماع حكميهما في حال واحدة، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر، وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المنّ والفداء والقتل إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة، وإن لم يكن القتل مذكورا في هذه الآية، لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى، وذلك قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ. الآية، بل ذلك كذلك، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كذلك كان يفعل فيمن صار أسيرا في يده من أهل الحرب، فيقتل بعضا، ويفادي ببعض، ويمنّ على بعض، مثل يوم بدر قتل عقبة بن أبي مُعَيط وقد أُتي به أسيرا، وقتل بني قُرَيظة، وقد نزلوا على حكم سعد، وصاروا في يده سلما، وهو على فدائهم، والمنّ عليهم قادر، وفادى بجماعة أسارى المشركين الذين أسروا ببدر، ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفيّ، وهو أسير في يده، ولم يزل ذلك ثابتا من سيره في أهل الحرب من لدن أذن الله له بحربهم، إلى أن قبضه إليه صلى الله عليه وسلّم دائما ذلك فيهم، وإنما ذكر جلّ ثناؤه في هذه الآية المنّ والفداء في الأسرى، فخصّ ذكرهما فيها، لأن الأمر بقتلهما والإذن منه بذلك قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكرّرا". وأضاف القرطبي: قال غيرهم إنها محكمة" أي الآية محكمة، والإمام مخيّر في كل حال؛. وهو الاختيار (اختيار القرطبي)؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلّم والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك". وما يستفاد من هذا أنه لا ناسخ ولا ناسخ هنا، فالأخذ بحكم دون آخر، من جملة أحكام نزلت في أحوال متطابقة أو متشابهة، يرجع إلى الإمام يختار ما فيه المصلحة كما كان الرسول يفعل.

مكة)، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ[14]؟! مَثَلُ الْجَنَّةِ [(2)] الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ: فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (غير نتن، غير فاسد)، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ؛ (أَمَن هو في مثل هذه الجنة) كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا (شديد السخونة) فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ[15].

3- وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ...

وَمِنْهُمْ (من المنافقين) مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: مَاذَا قَالَ آنِفًا؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ[16]. وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ[17]. فَهَلْ يَنْظُرُونَ (ينتظرون) إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً؟ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا (علاماتها)، فَأَنَّى لَهُمْ (لا ينفعهم) -إِذَا جَاءَتْهُمْ (الساعة)- ذِكْرَاهُمْ[18] (اتعاظهم وتوبتهم)؟ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ (تقلب الأحوال بكم) وَمَثْوَاكُمْ[19] (واستقراركم). وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا (هلا) نُزِّلَتْ سُورَةٌ (تدعونا للجهاد والقتال)؟ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ (لا لبس فيها) وَذُكِرَ فِيهَا (الدعوة إلى) الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (هم المنافقون) يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ (خوف) الْمَوْتِ -فَأَوْلَى لَهُمْ[20] (وعيد لهم)- (ويردون قائلين) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ، فَإِذَا عَزَمَ (جاء) الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ[21]. فَهَلْ عَسَيْتُمْ (ومن يدري؟! -استفهام إنكاري- فربما) إِنْ تَوَلَّيْتُمْ (وأعرضتم عن الاستجابة لأمر القتال) أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ[22]. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ[23]. أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ (ألا يتعظون ببيان القرآن: الخطاب لهؤلاء المنافقين) أَمْ عَلَى قُلُوبٍ

---

2 – قالوا: "مثل الجنة": معناه صفة الجنة أو وصفها. لكن لفظ "المثل" في القرآن غالبا ما يأتي بمعنى الشبيه، وعبارة : "ضرب الله مثلا" كثيرة في القرآن، ومعناها: أتى بمثال للتوضيح، ذكر شبيها أو تصويرا للشيء بهدف تقريبه للأذهان. وعلى هذا فليست الجنة هي الأنهار والأشجار الخ، بل هي رمز للتمتع والسعادة، كما أن النار رمز للعذاب والشقاء. انظر استطرادا في الموضوع في آخر سورة القمر: فهم القرآن القسم الأول. وانظر كذلك آخر فقرة في خاتمة القسم الثاني بعنوان : "الآخرة من أجل الدنيا وليس العكس"!

(قلوبهم) أَقْفَالُهَا[24]. إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ (كفارا) مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ[25]؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا (للمنافقين) لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ (من الأمر بالقتال) سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ [26](ما يتسارون به)، فَكَيْفَ (لا يعلم حالهم) إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ (وهم) يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ[27]. ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ[28]. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ[29] (أحقادهم)، وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ، فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ (بعلامات النفاق التي تبدو عليهم) وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ (أي من خلال كلامهم لما فيه من التواء وتردد)! وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ[30]. وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ (نختبركم أيها المؤمنون عندما تدعون إلى القتال) حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ[31]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا(عصوا) الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ[32].

4- خاتمة: هَا أَنْتُمْ تُدْعَوْنَ .. لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ!

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ (مكة) الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ (أهلكنا أهلها)، فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ[13]. أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (هو الرسول عليه السلام) كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (وهم مشركو مكة)، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ[14]؟

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا (ثواب) أَعْمَالَكُمْ[33] (بالتردد والشك). إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ[34]، فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ (يضيع) أَعْمَالَكُمْ[35]. إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ (لا يطلب) أَمْوَالَكُمْ[36]، إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ (فيلح في الطلب) تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ[37] (حقيقة ما بأنفسكم). هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ[38].

- تعليق

هذه السورة مكملة للسابقة أعني أنها تتحرك في نفس الموضوع الذي تحركت فيه السورة السابقة، وهما على نفس الخط الذي تحركت فيه الفقرات الأخيرة من سورة النساء، التي تفضح المنافقين وتشرع للعلاقات الحربية بين المسلمين ومشركي قريش. ويجب أن لا ننسى أن غزوة "الخندق" التي تحالفت فيها قريش والقبائل واليهود ضد المسلمين والتي خرج منها المسلمون سالمين بفضل ريح باردة هبت في الليل فزرعت الخوف في صفوف الأحزاب مما دفعهم إلى العودة إلى أوطانهم دون الدخول في حرب مع المسلمين. ولا بد أن يكون الرسول يفكر في احتمال عودة الأحزاب، وبالتالي لابد أن يعمل على الاستعداد للمفاجأة المحتملة، خصوصا وقد سبق لسورة الأنفال أن طلبت من المسلمين البقاء على حذر واستعداد : "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ (وهم المنافقون) وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (الأنفال .(60.

ثلاثة أشياء نبهت إليها آية الأنفال: أ) الحرب مع مشركي قريش، ب) خذلان المنافقين الذين هم في صفوف المؤمنين والذين يتجنب الرسول القطيعة معهم حتى لا ينضموا نهائيا للخصوم، ج) الحث على النفقة من أجل التجهيز العسكري والمادي. وتلك هي الموضوعات الرئيسية في هذه السورة وفي التي قبلها.

تشتمل هذه السورة على أربع فقرات: مقدمة، وفقرتين، فخاتمة.

1- في المقدمة تذكر السورة بما حدث للمشركين في الغزوات السابقة، -خصوصا غزوة الأحزاب- لقد أضل الله في هذه الغزوات أعمال المشركين فضاعت حملاتهم وكانت بغير نتيجة. أما المؤمنين، وإن كانوا لم يحققوا نصرا معتبرا، فقد كفر الله عن سيئاتهن، أي عن الأخطاء التي ارتكبوها في غزو أحد. وأصلح "بالهم"، أي شأنهم المادي والمعنوي.

2- أما الفقرة الثانية فهي توجه نداء صريحا إلى المؤمنين : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ"، إن تنصروا الله بتجهيز الجيش لمواجهة مشركي قريش وبإنفاقكم عليه، فالله سيثبت أقدامكم ويجعلكم تحققون النصر المبين. وتخاطب الرسول ومن ورائه المؤمنين لتذكرهم بأن الله

أهلك قرى كانت أشد وأقوى من أهل مكة، وكذلك سيكون مصير هـؤلاء. إنهـم سينهزمون وستنتصرون، لأنه يمكن أن يكون من هو "عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ .. كمن اعتقد في صواب عمله وهو خطأ فترك الحق واتبع هواه.

3- وتأتي الفقرة الثالثة لتواصل فضح المنافقين وتسفه سلوكهم المتخاذل كلما دعوا للخروج لقتال خصوم الدعوة المحمدية من مشركي مكة أو لجعل حـد لتحديات اليهود ومخاتلتهم.

4 ثم تأتي الخاتمة لتستعيد المقدمة على مستوى أعلى : "يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا (ثواب) أَعْمَالَكُمْ"[33] (بالتردد والشك). إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ"[34]، فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ (يضيع) أَعْمَالَكُمْ"[35].

100- سورة الطلاق

- تقديم

في صحيح مسلم أن ابن عمر طلق امرأته حائضاً على عهد الرسول (ص) فسأل الرسولَ فطلب منه أن يراجعها ، فردّها. وقال: إذا طهرت فلتطلق أو لتيُمسك. "قال ابن عمر وقرأ النبي: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ" (الطلاق: 1). وقيل إنها "نزلت بسبب أن النبي صلى الله عليه وسلم طلق حفصة". واستندوا في ذلك إلى الآية الأولى من هذه السورة التي ورد فيها : "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ. وجزم أبو بكر بن العربي بأن شيئاً من ذلك لم يصح وأن الأصح أن الآية نزلت بياناً لشرع مبتدأ.

-نص السورة

1- مقدمة: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ (طاهرات من الحيض ومن غير جماع) وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ (احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق)، وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ. لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ (لا تخرجوا من طلقتم من نسائكم لعدتهنّ من بيوتهنّ التي كنتم أسكنتموهنّ فيها قبل الطلاق حتى تنقضي عدتهنّ)، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ [1]وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ. لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا[1]. [2]

---

1 - اختلفوا في المقصود بـ "الفاحشة" هنا، بعضهم قال : الزنى ورتب على ذلك أحكاما منها أن هذه الآية تنسخ آيات سابقة بخص ص زنى المحصنات الـخ، وبعضهم قال إن المقصود هو إيذاء أهل زوجها، وآخرون قالوا إلى الفاحشة هنا هي المعصية أيا كانت. أما الطبري فقد اختار هذا القول الأخير بعد أن استعرض ما قيل في الموضوع. قال: "والصواب

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ (أي من غير الإضرار بهن كتطويل العدة والنقصان منها) وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ (بشهدان على الرجعة أو الفراق) [3]، وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ. ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ

من القول في ذلك عندي قول من قال: عنى بالفاحشة في هذا الموضع: المعصية، وذلك أن= الفاحشة هي كلَ أمر قبيح تعدّى فيه حدّه، فالزنى من ذلك، والسرقة والبذاء على الأحماء،وخروجها متحولّة عن منزلها الذي يلزمها أن تعتدّ فيه منه، فأيّ ذلك فعلت وهي في عدتها، فلزوجها إخراجها من بيتها ذلك، لإتيانها بالفاحشة التي ركبتها". القرطبي: "روى الدّارَقُطنيّ من حديث عبد الرزاق أخبرني عَميّ وهب بن نافع قال: سمعت عكرمة يحدّث عن ابن عباس يقول: الطلاق على أربعة وجوه: وجهان حلالان ووجهان حرامان؛ فأما الحلال فأن يطلقها طاهراً عن غير جماع وأن يطلقها حاملاً مُستبيناً حَمْلُها. وأما الحرام فأن يطلقها وهي حائض، أو يطلّقها حين يجامعها، لا تدري اشتمل الرّحم على ولدٍ أم لا". وأضاف القرطبي: "من طلّق في طُهْر لم يجامع فيه نفذ طلاقه وأصاب السُنّة. وإن طلقها حائضاً نفذ طلاقه وأخطأ السُنّة. وقال سعيد بن المسيّب: لا يقع الطلاق في الحيض لأنه خلاف السنة. وإليه ذهبت الشيعة. وفي الصحيحين واللفظ للدّارَقُطْنيّ : عن عبد الله بن عمر قال: طلقت امرأتي وهي حائض؛ فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ فتغيّظ رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال: «ليراجعها ثم ليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التي طلّقها فيها فإن بدا له أن يطلّقها فليطلقها طاهراً من حيضتها قبل أن يَمَسّها فذلك الطلاق للعِدة كما أمر الله». وكان عبد الله بن عمر طلّقها تطليقة، فحسبت من طلاقها وراجعها عبد الله بن عمر كما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلّم. في رواية عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «هي واحدة». وأضاف: "طلاق السنة ما جمع شروطاً سبعة: وهو أن يطلقها واحدة، وهي ممن تحيض، طاهراً، لم يمَسّها في ذلك الطهر، ولا تقدّمه طلاق في حيض، ولا تبعه طلاق في طُهْر يتلوه، وخلا عن العوض. وهذه الشروط السبعة من حديث ابن عمر المتقدّم

2 – القرطبي: "وقال جميع المفسرين: أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة. ومعنى القول: التحريض على طلاق الواحدة والنهي عن الثلاث؛ فإنه إذا طلّق ثلاثاً أضرّ بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة في الارتجاع، فلا يجد عند الرجعة سبيلاً. وقال مقاتل: «بَعْدَ ذَلِكَ» أي بعد طلقة أو طلقتين «أَمْراً» أي المراجعة من غير خلاف".

3 – قالوا : "وفائدة الإشهاد ألاّ يقع بينهما التجاحد، وألاّ يُتّهمَ في إمساكها، ولئلا يموت أحدهما فيدّعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث". قالوا في الرجعة: "إذ قبّل أو باشر أو لامس بشهوة فهو رجعة. والوطء "مراجعة على كل حال، نواها أو لم ينوها"،

كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا[2] (من كل شدة)، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ. إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا[3]. وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ، إِنِ ارْتَبْتُمْ (في طبيعة الدم الذي ينزل منها هل هو حيض أو غيره) فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ (وقيل: لا تخرجوهن من بيوتهن إن ارتبتم في انقضاء العدّة" [4]. وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ. وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا[4]. ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا[5]. أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ، وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ، وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى[6]. لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا[7].

3- قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا: رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا[8]، فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا[9]. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا[10]. رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ (شريعته) مُبَيِّنَاتٍ، لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا[11].

4- خاتمة: ... وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا[12]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ، يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا[12].

---

4 – وقد اختلفوا في عدة المرتابة فجعل بعضهم عدتها سنوات! لأنه لم يكن من الممكن التعرف على خلوها من الحمل، أما اليوم فالمشكل لم يعد مطروحا فالطبيب يعرف ذلك وأكثر.

– تعليق

مما ورد في موضوع الطلاق:

القرطبي: روى الثَّعلبيَ من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "إن من أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق". وعن عليّ: عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال: "تزوّجوا ولا تطلّقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش". وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله عز وجل لا يحب الذوّاقين ولا الذوّاقات". وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق". وروى الدّارقُطنيّ عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «يا معاذ ما خلق الله شيئاً على وجه الأرض أحبّ إليه من العِتاق ولا خلق الله شيئا (على وجه الأرض) أبغض من الطلاق. فإذا قال الرجل لمملوكه أنت حرّ إن شاء الله فهو حرّ ولا استثناء له (لا اعتبار لقوله إن شاء الله). وإذا قال الرجل لامرأته أنتِ طالق (إن شاء الله) فله استثناؤه ولا طلاق عليه". وفي حديث آخر: "ما أحلّ الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق".

101- سورة البينـة

- تقديم

اختلفوا في مكان نزولها هل في مكة أم في المدينة،كما اختلفوا في تاريخ نزولها. أما لوائح ترتيب النزول فتضعها مع مدنيات تحت رقم 101، وسنرى أن مضمونها يحتم كونها مدنية.

- نص السورة

1- مقدمة : البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (يهود المدينة) وَالْمُشْرِكِينَ (قريش مكة) مُنْفَكِّينَ (لم يكونوا ليتفرقوا ويختلفوا) حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ[1]، (وهذه البينة هي) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً[2]، فِيهَا كُتُبٌ (نصوص) قَيِّمَةٌ[3] (ناطقة بالحق لا اعوجاج فيها، والمقصود: القرآن) (1).

2- لما جاءتهم تفرقوا... فمصيرهم جهنم

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (يهود المدينة) إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ[4] (الرسول الذي كذبوه مع تبشير التوراة به). وَمَا أُمِرُوا (في التوراة) إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، حُنَفَاءَ (ملتزمين بالدين الحنيف، دين إبراهيم)، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَذَلِكَ دِينُ (الملة) الْقَيِّمَةِ[5]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ

---

1 - اختلف المفسرون في شرح هذه الآيات وقد اخترنا ما قاله الزمخشري لكونه أقرب إلى دلالة الكلمات، قال: "كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم: لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال: "وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ". يعني أنهم كانوا يعدون باجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم.

أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ[6] (شر المخلوقات. من برأ الله الخلق: أوجدهم).

3- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ[7] جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ[8]

- تعليق

كتب الزمخشري يقول في شرح هذه السورة: "كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلّم: لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يُبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل، وهو محمد صلى الله عليه وسلّم، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال: "وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ" يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرّهم على الكفر إلاّ مجيء الرسول صلى الله عليه وسلّم؛ ... والمعنى: أنهم متشبثون بدينهم ولا يتركونه إلاّ عند مجيء البينة. و"الْبَيِّنَةُ" الحجة الواضحة. و"رَسُولٌ" بدل من البينة. وفي قراءة عبد الله: «رسولا» حالاً من البينة {صُحُفًا} قراطيس "مُطَهَّرَةً" من الباطل. "فِيهَا كُتُبٌ" مكتوبات "قَيِّمَةٌ" مستقيمة ناطقة بالحق والعدل؛ والمراد بتفرقهم: تفرقهم عن الحق وانقشاعهم عنه. أو تفرقهم فرقاً؛ فمنهم من آمن، ومنهم من أنكر، وقال: ليس به؛ ومنهم من عرف وعاند. فإن قلت: لم جمع بين أهل الكتاب والمشركين أوّلاً ثم أفرد أهل الكتاب في قوله: "وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ" ؟ قلت: لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم، فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف"

"وَمَآ أُمِرُوا" يعني في التوراة والإنجيل إلاّ بالدين الحنيفي، ولكنهم حرفوا وبدلوا " "ذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ" أي: دين الملة القيمة. وقرئ: "وذلك الدين القيمة" على تأويل الدين بالملة. فإن قلت: ما وجه قوله: "وَمَآ أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللّهَ" ؟ قلت: معناه: وما أمروا بما في الكتابين إلاّ لأجل أن يعبدوا الله على هذه الصفة. وقرأ ابن مسعود: «إلا أن يعبدوا»، بمعنى: بأن يعبدوا. قرأ نافع: «البريئة» بالهمز؛ والقرّاء على التخفيف. والنبيّ، والبرية: مما استمر الاستعمال على تخفيفه

ورفض الأصل وقرئ: «خيار البرية» جمع خير، كجياد وطياب: في جمع جيد وطيب".

لست أدري هل استوعب القارئ هذا الشرح، أما الرازي الفيلسوف المتكلم فقد ابتدأ شرحه لهذه لآية بقوله: "المسألة الأولى: قال الواحدي في كتاب البسيط: هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء، ثم إنه رحمه الله تعالى لم يلخص كيفية الإشكال فيها. وأنا (الرازي) أقول: وجه الإشكال أن تقدير الآية: "لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ" التي هي الرسول، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عن ماذا لكنه معلوم، إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه، فصار التقدير: لم يكن الذين كفروا منفكين، عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول، ثم إن كلمة حتى لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول، ثم قال بعد ذلك: "وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ" وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول عليه السلام، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية مناقضة في الظاهر، هذا منتهى الإشكال فيما أظن". ثم راح يشرح هذا "التناقض" يقترح حلولا في صفحات طويلة، ضاربا ذات اليمين وذات الشمال.

ونحن نعتقد أن استحضار ظروف نزول هذه الآية يجعل كل ما قاله الزمخشري والواحدي والرازي غير ذي موضوع. فالظروف التي نزلت فيها هي نفس الظروف التي كان النبي عليه السلام يخوض فيها صراعا مع كل من مشركي مكة ويهود المدينة، وكانت غزوة الأحزاب التي تجند لها مشركو قريش واليهود في صف واحد (الأحزاب) ثم تفرقوا .. ثم تنازع اليهود بعضهم مع بعد، أقول كانت هذه الغزوة المعبر الرئيس عن هذه الظاهرة: التحالف والانفكاك. ويمكن أو نوسع نظرتنا إلى هذا الصراع بالرجوع قليلا إلى الوراء:

1- فالمقدمة : تقرر أن مشركي مكة ويهود المدينة الذين كانوا قبل الهجرة مرتبطين بعضهم ببعض، وأن مشركي مكة كانوا يبعثون إلى يهود المدينة يطلبون منهم ما به يحرجون الرسول، لكونهم أهل كتاب، وأن اليهود كانوا يقترحون عليهم إحراجه بأسئلة من نوع تلك التي تخص "أهل الكهف" وذي القرنين والروح" الخ. لكن هذه الارتباط والتحالف بين مشركي مكة ويهود المدينة لم يدم، فقد كانت إجابات القرآن واضحة، بينت لليهود أن القرآن الذي جاء به

محمدا بن عبد الله قد جاء مصدقا لما في التوراة، وأكثر من ذلك فضحهم وأدانهم بإخفاء التبشير الذي حملته التوراة بمجي نبي هو محمد عليه السلام.

2- وتأتي الفقرة الثانية، بعد أن بينت المقدمة كيف فك الارتباط بين المشركين واليهود، لتبين من جهة أخرى أن ما حصل بين المشكرين، من الفرقة، قد حصل أيضا بين اليهود، بعضهم مع بعض. فلقد أدركوا من خلال مخاطبة القرآن إياهم وسرد وقائع تاريخهم المليء بالتمرد على الله وعلى موسى نبيهم، أن "البينة" (القرآن) المنزل على محمد لم تأمرهم بالتعامل مع المشركين والتعاون معهم، وإنما أمرتهم بشيء واحد هو أن يَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ (ملتزمين بالدين الحنيف، دين إبراهيم)، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ[5] (ملة إبراهيم الفطرية المستقيمة). وهكذا فإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، أي الذين لم يلتزموا بدين شيخ أنبيائهم إبراهيم هم ومشركو مكة سواء، لكونهم لم يلتزموا هم أيضا بدين جدهم إبراهيم. كلاهما انحرف عن دين إبراهيم. وكلاهما سيكون مصيره جهنم خالدين فيها... أولئك هم شر المخلوقت.

3- وتأتي الخاتمة: لتقرر أنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بالرسول والقرآن وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ همهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ[7] : جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ[8]

102- سورة الحشر

- تقديم

سميت بهذا الاسم لكونها ذُكر فيها إخراج الرسول يهود بني النضير من ديارهم أي من قريتهم المسماة الزهرة قريباً من المدينة. فخرجوا إلى بلاد الشام إلى أريحا وأذرعات، وبعضُهم خرجوا إلى خيبر، وبعضهم إلى الحِيرة. وهي تسمى أيضا "سورة بني النضير"، والقصة كما يلي: بعدِ موقعة أحُد التي انهزم فيها المسلمون قام الرسول (ص) بتنظيم عدة حملات على الأعراب خارج المدينة دفعا لطمعهم في النيل من المسلمين بعد هزيمتهم تلك ولم يحصل اصطدام، ولكن حصل المسلمون على غنائم فضلا عن الفوائد المعنوية. ثم حدثت حادثة إجلاء يهود بني النضير، وذلك عندما هموا على الغدر بالنبي (ص) حينما ذهب إليهم يطلب منهم، طبقا للصحيفة/المعاهدة، المساهمة في دفع دية رجلين كان قد أعطاهما الأمان وقتلهما أحد المسلمين دون أن يعرف بذلك، فاظهر اليهود الموافقة ثم تآمروا على اغتياله.

قال ابن إسحاق: "ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير، يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف. فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية ذينك القتيلين، قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه – ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد – فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة. لكن المؤامرة فشلت. والقصة كما رواها ابن إسحق كما يلي:

فلما استلبث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، قام أبو بكر وعمر في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلا المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى انتهوا إليه صلى الله عليه وسلم،

فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم.قال ابن إسحاق: فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهي عن الفساد، وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها.

وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عدو الله عبد الله بن أبي سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل، وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة. ففعل. فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه،فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام. قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث: أنهم استقلوا بالنساء والأموال، معهم الدفوف والمزامير، والقيان يعزفن خلفهم، وإن فيهم لأم عمرو صاحبة عروة بن الورد العبسي، التي ابتاعوا منه، وكانت إحدى نساء بني غفار، بزهاء وفخر وما رئي مثله من حي من الناس في زمانهم. ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان يامين بن عمير، أبو كعب بن عمرو بن جحاش؛ وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها".

- نص السورة

1- مقدمة : القوي الشديد في انتقامه الحكيم في تدبيره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[1] (العزيز أي القوي في انتقامه من بمي النضير ، الحكيم في تدبير إجلاء هم دون قتلهم).

2- وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (يهود بني النضير) مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ؛ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ،

فَأَتَاهُمُ (أمر) اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ: يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ[2]. وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ، لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا (بالقتل والسبي، ولكنه رفع عنهم ذلك وجعل عذابهم الجلاء) [(1)] وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ[3]. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ (انشقوا ولم يلتزم بالمعاهدة/الصحيفة التي كانت تنص على أن يشاركوا في الديات)، وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[4].

3- كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ...

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ (نخلة) أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ[5] [(2)]. وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ (ما رد الله) عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ (من أموال بني النضير)، فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ (لم تحملوا عليهم ولم تقاتلوهم)، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ (هنا: بني النضير) وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[6]. مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى (وهذا ومثله مما رد الله إلى رسوله من أموال أهل القرى دون قتال) فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ (فهو للرسول) وَلِذِي الْقُرْبَى (قرابة النبي) وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ (وحدهم دون غيرهم)، (وقد خصه الله بهؤلاء) كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ (يتداولون بينهم فيزيدهم غنى)؛ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (وهذا رد على من كان يطالب بتوزيعه على الجميع)، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ[7]. (وأيضا: هذا الفيء خاص) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ[8] (فهم أحوج الناس

---

1 – عن ابن عباس أنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم ويسيرهم إلى أذرعات الشام وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء". لم يقتلهم مع أنه العزيز القوي، ولكن فاوضهم على الجلاء وذلك تدبير حكيم.

2 – اللينة : "ضَرْبٌ من أجْوَدِ التَّمر بالمدينة ونَخلتُها تسمى لِينَة"؛ وذكروا أن هذه الآية تشير إلى ما حدث من نقاش حول قطع النخل عند محاصرة النبي عليه السلام لبني النضير، فقد روي "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قطع نخل بني النضير وحرقها قالت بنو النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنك كنت تنهى عن الفساد وتعيبه فما بالك تقطع نخلنا وتحرقها، فأنزل الله هذه الآية فأخبرهم أن ما قطع من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ترك فعن أمر الله فعل. وقال آخرون بل نزل ذلك لاختلاف كان من المسلمين في قطعها وتركها ..." (الطبري). ونحن نرى أنه يمكن الجمع بين الروايتين في هذه النازلة. فالواحدة منهما تكمل الأخرى.

إليه). وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ (سكنوا المدينة) وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ (وهم الأنصار فهم) يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا (ما أعطي للمهاجرين)، وَيُؤْثِرُونَ (يقدمون المهاجرين) عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ (ميلها الغريزي إلى البخل) فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[9]. وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ (أسلموا من بعد هؤلاء وأولئك) يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا (حقدا) لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[10].

4- تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى...

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا (جماعة من المنافقين) [3] يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (من يهود المدينة، وهم بنو النضير) : لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ (لئن أخرجكم المسلمون من دياركم) لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا (ينهانا أو يصدنا عنكم)، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ (قاتلكم الرسول) لَنَنْصُرَنَّكُمْ! وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ (أي هؤلاء المنافقين) لَكَاذِبُونَ[11]. لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ (يتركونهم ويهربون) ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ[12] (لا يتم النصر لليهود). لَأَنْتُمْ (أيها المسلمون) أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ (يرهبونكم أكثر مما يخافون الله)، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ[13] (لا يتصورون قدر عظمة الله). لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا (مجتمعين) إِلَّا (وهم) فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ (جدران قراهم تلك)، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ (استقواء بعضهم على بعض) شَدِيدٌ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى (متنازعون، متخاصمون)، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ[14] (يتصرفون بأهوائهم لا بعقولهم). كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[15] (الإشارة إلى إخوانهم بني قنيقاع)[4]. (مثل أولئك المنافقين الذين وعدو بني النضير بالقتال معهم) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ! فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ[16]. فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ[17].

---

3 – روي أنهم "عبد الله بن أبيّ ابن سلول، ووديعة، ومالك ابنا نوفل وسُويد وداعس بعثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للحرب أن اثبتُوا وتمنعوا، فإنا لن نُسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم، خرجنا معكم. فتربصوا لذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم، ويكفّ عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة".

4 – انظر تفاصيل عن صراع النبي مع يهود المدينة في مقدمة الكتاب.

5- خاتمة: لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ (خافوا الله ولا تكونوا كأولئك المنافقين) وَلْتَنْظُرْ (كل نفس) نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ (ليوم الحساب)، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[18] (حتى في الخفاء)، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[19]. لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ[20]. (كيف يتصور أن تنسوا الله ولا تخافوه والحال أننا) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآَنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ! وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[21] (وهذا من الأمثال التي نريد بها تنبيه الناس).

- تعليق

- تشتمل هذه السورة على خمس فقرات، تدور كلها حول إجلاء يهود بني النضير من مساكنهم في المدينة وما ترتب عن ذلك من مسائل تخص توزيع الأموال التي أخذت منه وهي المسماة بـ"الفيء".

1- فالمقدمة تقرر أن الله قوي شديد في انتقامه، من يني النضير الذين أرادوا اغتيال نبيه عليه السلام، ولكنه في الوقت نفيه حكيم في تدبيره فلم يقتلهم ولم يسبي نساءهم وإنما اقترح عليهم "الجلاء"، أي مغادرة مساكنهم في المدينة إلى جهة أخرى حتى لا تتكرر محاولاتهم الهادفة إلى اغتيالهم الرسول والإساءة إلى المسلمين.

2- وفي الفقرة الثانية تؤكد السورة أن ذلك (الإجلاء) هو مصير كل من يشاقق الله ورسوله، أي ينصب نفسه عدوا لله ورسوله، والخطاب موجه هنا بالخصوص إلى القبائل اليهودية المتبقية في المدينة وما حولها كما سيرد لاحقا في سور أخرى.

3- أما الفقرة الثالثة فتتحدث عن توزيع أموال بني النضير، وكان بعض المسلمين قد طالبوا بقسمتها على الجميع، فجاء الرد من القرآن في آية واضحة صريحة: قال تعالى: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى (مما رد الله إلى رسوله من أموال أهل القرى دون قتال) فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ (فهو للرسول) وَلِذِي الْقُرْبَى (قرابة النبي) وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ (وحدهم دون غيرهم)، (وقد خصه الله بهؤلاء) كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ (يتداولون بينهم فيزيدهم غنى)؛ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا".

وقد أسهب المفسرون في شرح هذه الآية، فأبرزوا كيف أن الله جعل أموال بني النّضير للنبيّ صلى الله عليه وسلّم خاصّةً يضعها حيث شاء؛ وقد قسمها النبيّ عليه السلام بين المهاجرين. قال الواقدىّ: ورواه ابن وهب عن مالك؛ ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر محتاجين؛

وفي صحيح مسلم عن عمر قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، وكانت للنبيّ صلى الله عليه وسلّم خاصّةً، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنة، وما بقى يجعله في الكُرَاع والسلاح عُدّةً في سبيل الله. واحتج بعضهم أنه لما ترك بنو النّضير ديارهم وأموالهم طلب المسلمون أن يكون لهم فيها حظ كالغنائم؛ واحتجوا بأنه قد جرى ثَمّ بعضُ القتال؛ لأنهم حوصِروا أياماً وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء، فبيّن الله تعالى أنها فَيْءٌ، ولم يكن قتال على التحقيق، بل حصار.

ومعنى قوله تعالى: لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغنياء مِنكُمْ" : كيلا يكون الفيء الذي حقّه أن يعطي الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها، بينما الأغنياء يتكاثرون به. أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم. ومعنى الدولة الجاهلية: أن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة.

قالوا المراد بذي القربى قرابته صلى الله عليه وسلّم، والمراد بهم بنو هاشم، وبنو المطلب لأنه (ص)وسلّم وضع السهم فيهم دون بني أخيهما شقيقهما عبد شمس، ومن ذريته عثمان، وأخيهما لأبيهما نوفل مجيباً عن ذلك بقوله عليه السلام نحن : "نحن وبنو المطلب شيء واحد"، وشبك بين أصابعه، رواه البخاري، أي لم يفارقوا بني هاشم في نصرته (ص) جاهلية ولا إسلاماً، وكأنه لمزيد تعصبهم وتوافقهم ــ حتى كأنهم على قلب رجل واحدــ قيل: "لذي القربى دون لذوي بالجمع". وروي أن عمر بن الخطاب خطب بالجابية فقال: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أُبَيّ بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني؛ فإن الله تعالى جعلني له خازناً وقاسماً. ألاَ وإني بادٍ بأزواج النبي صلى الله عليه وسلّم فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين؛ أنا وأصحابي : أُخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا".

4- وفي الفقرة الرابعة تفضح السورة موقف المنافقين من يهود بني النضير: لقد واعدوهم إن أمر الرسول بإخراجهم سيخرون معهم ويقاتلون إلى

جانبهم. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، بل لقد كان موقفهم مع بني النضير هو نفس موقفهم من قبل مع بني قينقاع؟

5- وتأتي الخاتمة لتذكر المسلمين بأخذ العبرة من كل ذلك وألا يكونا" كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ":نسوا حق الله فجعلهم ناسين حق أنفسهم حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده الثاني: "فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ" أي أراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم، كقوله: "لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ" (إبراهيم: 43) "وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى" (الحج: 2).

103- سورة النور

- تقديم

تتميز هذه السورة بخاصية لا نجدها في غيرها من السور وهي استهلال مقدمتها بكلمة "سورة" بمعنى هذه سورة (مبتدأ) "أنزلناها وفرضناها" (خبر). وهناك قراءتان لقوله تعالى: "فرضناها": بالتخفيف وبالتشديد". قال الطبري: وأما قوله: وفرضْناها فإن القرّاء اختلفت في قراءته، فقرأه بعض قرّاء الحجاز والبصرة: "وفرَّضْناها" بالتخفيف ويتأوّلونه: وفصّلناها ونزّلنا فيها فرائض مختلفة" (والمقصود أحكاما مختلفة منها ما هو في العقيدة ومنها ما في الشريعة). وقال القرطبي: وقرأ أبو عمرو: "وفرّضناها" بالتشديد أي قطعناها في الإنزال نُجُماً نُجُماً. والفرض القطع؛ ومنه فُرْضة القوس. وفرائض الميراث وفرض النفقة". وقال الزمخشري: والتشديد للمبالغة في الإيجاب وتوكيده. أو لأنّ فيها فرائض شتى. وفي رأي الطبري : "أنهما قراءتان مشهورتان قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. وذلك أن الله قد فصلها، وأنزل فيها ضروبا من الأحكام، وأمر فيها ونهى، وفرض على عباده فيها فرائض، ففيها المعنيان كلاهما: التفريض، والفرض فلذلك قلنا بأية القراءتين قرأ القارئ فمصيب الصواب". ونحن نرجح القراءة بالتشديد لأنها أنسب لمضامين السورة، لأنها تشتمل على أحكام مختلفة في ميادين متنوعة : بعضها في الشريعة وبعضها في العقيدة وأخرى في الأخلاق الخ، ولكنها مع ذلك تشكل وحدة متكاملة.

ولا عبرة للقول هنا إنها نزلت مفرقة في مدد مختلفة. فالتنصيص على أنها "سورة" والإشارة إليها بوصفها كذلك "أنزلناها وفرضناها" يدل على أنها نزلت مرة واحدة. وقد وردت كلمة "سورة" داخل بعض السورة دن أن تكون اسما لها مثل "قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ" وقوله : "فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ" الخ. أما استهلال السورة بلفظ "سورة" بمعنى هذه سورة فشيء تختص به هذه السورة مما يؤكد كونها وحدة متكاملة مع أنها متعددة الموضوعات الخ. أما تاريخ نزولها فيستفاد

من ورود قصة الإفك فيها المرتبطة بغزوة بني المصطلق، التي جرت في السنة السادسة، فتكون قد نزلت في أواخر هذه السنة قبل صلح الحديبية.

نص السورة

1- مقدمة : سورة فرضناها...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(هذه) سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا (1) وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ (إحكاما واضحة) لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[1].

2- الخيانة والقذف... في الحياة الزوجية

(من هذه الأحكام :) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ (لا تتساهلوا معهم) إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (2)، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا (عقابهما) طَائِفَةٌ (ممن حضر) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[2]. الزَّانِي لَا يَنْكِحُ (يتزوج) إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ[3] (3). وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ (يتهمون

1- انظر التقديم أعلاه.

2 - قالوا: يكون الجَلد بسوط من جلد، متوسط اللين، ويكون على الظهر. قال الزمخشري: وفي لفظ الجلد إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم جلد الجسم إلى اللحم". قالوا: وعلى الضارب أن لا تفارق يدُه إبطَه عند الضرب، فلا يحدث عاهة أو إضرارا بالجسم، ولا يقيم الجلد إلا الإمام (قسم القضاء في الدولة) ... أما عن "الرجم" فيرى بعضهم أنه "ليس في كتاب الله الرجم، فلا رجم"، وقال آخرون ثبت الرجم زمن النبي، وقالوا "حد الزاني المحصن الرجم". فعلا، ثبت أن النبي عليه السلام حكم بالرجم على يهودي بناء على ما ورد في التوراة عندما تحاكم إليه أهل ذلك اليهودي آملين أن لا يكون هناك رجم، لكن الرسول عليه السلام طلب منهم الحكم المنصوص عليه في كتابهم فتبين أنه الرجم فطبق عليهم ما في التوراة، وسيرد تفصيل ذلك لاحقا. والذين قالوا بالرجم من الفقهاء بناء على هذه الحادثة مع عدم وجود نص من القرآن بنوا ذالك على أن السنة نسخت ما في سورة النور... وهذا على رأي من يقول إن السنة تنسخ القرآن وهذا غير مسلم.

3 - اختلف المفسرون اختلافا كبيرا حول هذه الآية: ذكر الطبري رواية مفادها أن هذه الآية نزلت في بعض من استأذن رسول الله (ص) في نكاح نسوة كنّ معروفات بالزنى من أهل الشرك، وكنّ أصحاب رايات، يُكْرين أنفسهنّ، فأنزل الله تحريمهنّ على المؤمنين،=

فقال: الزاني من المؤمنين لا يتزوّج إلاّ زانية أو مشركة، لأنهنّ كذلك، والزانية من أولئك البغايا لا ينكحها (يتزوجهن) إلاّ زان من المؤمنين أو المشركين أو مشرك مثلهن، لأنهنّ كنّ مشركات. وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فحرّم الله نكاحهنّ في قول أهل من قال بهذه المقالة في هذه الآية. أما في القرطبي فنقرأ كلاما طويلا واختلافات لا حد ولا نهاية لها حول هذه الآية"، منها قوا من قال إن هذه الآية منسوخة وبالتالي فالتزوج بالزانية صحيح. فإذا زنت زوجة الرجل لم يفسد النكاح، وإذا زنى الزوج لم يفسد نكاحه مع زوجته؛ وأضاف : وقال قوم من المتقدمين: الآية محكمة غير منسوخة، وبناء عليه : فإذا زنى الرجل فسد النكاح بينه وبين زوجته، وإذا زنت الزوجة فسد النكاح بينها وبين زوجها. وقال قوم من هؤلاء: لا ينفسخ النكاح بذلك، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت، ولو أمسكها أثِم، ولا يجوز التزوّج بالزانية ولا من الزاني. لكن لو ظهرت التوبة فحينئذٍ يجوز النكاح. قلت (الجابري) : يبدو لي أن هذه الآية قد جاءت مكملة للآية السابقة في سورة النساء وهي قوله تعالى: "وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ (الباغيات من نساء المدينة) فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ (اسجنوهن) حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا"[15]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى : "وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا (الفاحشة) مِنْكُمْ (المؤمنين والمؤمنات) فَآذُوهُمَا (ولم يتحدد نوع الأذى في سورة النساء) فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا"[16]. وكما قلنا في سورة النساء فهذه الآية قسمان: "اللاتي يأتين الفاحشة"، وهن التي ذكر الطبري في الرواية أعلاه، وحكمهن في آية النساء واضح حاسم وهو "السجن حتى الموت (أو يجعل الله لهن سبيلا كأن يسلمن ويتبن ويبقين على التوبة). ومضمون هذا الحكم هو وجوب إغلاق دور البغاء بحبس المتعاطيات للبغاء فيها حتى الوفاةأ أو... أما القسم الثاني من آية النساء فهو قوله تعالى: "وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ" (أي الزاني والزانية من المسلمين) فَآذُوهُمَا (ولم يتحدد نوع الأذى). وقد جاء التحديد في هذه السورة – سورة النور– وهو قوله تعالى : "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ". فهو تحديد لنوع الأذى وهو الجلد مائة جلدة على النحو الذي ذكرناه. أما قوله "الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"، فواضح أن الحكم في هذه الآية هو "حرم ذلك على المؤمنين". وما قبلها معناه أن الباغيات لا يتزوجهن إلا أمثالهن من الرجال الذين يمارسون البغاء، وعطف "المشرك" على هذا النوع لجعلهما سواء : بمعنى أن استباحة البغاء من أوصاف المشركين فكل من فعل فعلهم كان مثلهم. أما ما نسبه القرطبي إلى القائلين بأن هذه الآية منسوخة، وأنه بناء عليه يكون التزوج بالزانية صحيح الخ، فهذا لا وجه له من الصحة، والصحيح هو ما نسبه لبعض المتقدمين، سواء الذين قالوا بأن الآية محكمة غير منسوخة، وبالتالي فالزنى يفسخ الزواج سواء كان الزاني هو الزوج أو الزوجة، أو الذين قالوا "لا ينفسخ النكاح بذلك، ولكن يؤمر الرجل بطلاقها إذا زنت، ولو أمسكها أثِم، ولا يجوز التزوّج بالزانية ولا من الزاني، بل لو ظهرت التوبة فحينئذٍ يجوز النكاح. وهكذا نرى أنه=

بالزنى الزوجات المحصنات) ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[4]، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[5]. وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ (بالزنى) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ، فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ[6]، وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ[7]. وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ (العقاب عن الزوجة المتهمة) أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ[8]، وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ[9]. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ[10]. (وهذه هي الملاعنة، أو اللعان).

3- قضية الإفك ... تبرئة وعتاب

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ (4)، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ؛ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ (أي أتى باتهام عائشة والمقصود عبد الله بن أبي) لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ[11]. لَوْلَا (هلا) إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا، وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ[12]. لَوْلَا (هلا) جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ[13]. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ (من الكذب على عائشة) عَذَابٌ عَظِيمٌ[14]. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ، وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ[15]. وَلَوْلَا (هلا) إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ[16]. يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[17]، وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[18]. إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا

بربط هذه الآية بآية "اللذان..." (في سورة النساء) ترتفع جميع الإشكالات التي أثارها المفسرون حول هذه الآيات. وهذا وفاقا مع قوله تعالى عن هذه السورة : "فرضناها" أي جعلناها تعالج مسائل متنوعة من بينها مسائل لم يكن قد حسم فيها من قبل.

4 – الإفك: الكذب والبهتان. قال الطبري عن ابن عباس: "قوله: جاءُوا بالإفك عُصبَةٌ منكُمْ. الآية، الذين افتروا على عائشة: وعلى رأسهم عبد الله بن أبَيّ. ذلك أنهم اتهموا عائشة زوج النبي بالخلوة مع صفوان بن المُعَطَّل وإتيان الفاحشة معه" عند العودة من غزوة بني المصطلق ، وروجوا ذلك في المدينة مما أساء إلى النبي كثيرا، حتى جاءت الآيات أعلاه تثبت براءتها وتعاتب الذين تحدثوا في هذا الموضوع من المؤمنين (انظر تفاصيل قصة الإفك، كما روتها عائشة، في الاستطراد في هذه السورة)

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[19]، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ(لكان مصيركم العذاب)، وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[20]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا (اهتدى) مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[21]. وَلَا يَأْتَلِ (لا يحلف ويقسم) أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا (أن لا يعطوا) أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا(5)، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[22]. إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ (العفيفات) الْغَافِلَاتِ (عن الفواحش) الْمُؤْمِنَاتِ، لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[23]، يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[24]، يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ[25]. الْخَبِيثَاتُ (ذوات السلوك الخبيث) لِلْخَبِيثِينَ (من الرجال) وَالْخَبِيثُونَ (وذوو السلوك الخبيث من الرجال) لِلْخَبِيثَاتِ (من النساء)، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ، أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[26].

4-قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا (تستأذنوا)(6) وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[27]. فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا (يأذن لكم) فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ، وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا، هُوَ أَزْكَى لَكُمْ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ[28]. لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ، فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ (7)، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ[29]. قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ (8) وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ (من الزنى)، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ

---

5 – قال الطبري: المعني هنا هو أبو بكر في حلفه بالله لا ينفق على مسطح، وهو ابن خالته. وكان مسطح من الذين روجوا لحادثة الإفك، إذ كان من المرافقين لها وكان فقيرا محتاجا. وهو من الذين هاجروا، وشهد بدرا...

6 – قال ابن عباس وغيره هي "وتستأذنوا" وأخطأ الكاتب فكتب "تستأنسوا". وقال آخرون هي "تستأنسوا" بمعنى تشعروا أهل الدار بوجودكم بالتنحنح أو ما أشبه.

7 – قالوا هي بيوت في طرق المدينة كان المسافرون يضعون فيها أمتعتهم ...

8 – الغض: صرف المرء بصره عن التحديق في الشيء وتثبيت النظر فيه. قلت (الجابري): جميع ما قاله المفسرون والفقهاء حول الحجاب أساسه الشرعي "غض البصر". ولكنهم=

خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ[30]. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا (ما يظهر في العادة الجارية) [9]، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ [10]؛ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ، أَوْ آبَائِهِنَّ، أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ، أَوْ أَبْنَائِهِنَّ، أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ، أَوْ إِخْوَانِهِنَّ، أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ، أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ [11]، أَوْ نِسَائِهِنَّ (أي غيرهن من النساء)، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ (من عبيد وإماء)، أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ (غير ذوي الرغبة الجنسية) مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا (لم يبلغوا ولا شهوة لهم مع النساء) عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ (ليلفتن الانتباه إليهن) لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ. وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[31]. وَأَنْكِحُوا

اهتموا فقط بالمرأة واعتبروها وحدها مصدر الفتنة. إن تطبيق الشريعة في هذا المجال كما في المجالات الأخرى يقتضي تطبيق الحكم على الرجل والمرأة إذا جاء شاملا لهما معا، وإذن فالواجب أن يغض الرجل بصره حتى لا يرى ما يعتبر فتنة في المرأة، وعلى الرجل أن لا يبدي من الزينة ما يمكن أن يفتن المرأة. المفسرون والفقهاء يفهمون الآية وكأنها خاصة بالمرأة وحدها، والحال أن الأصل الذي بني عليه كل شيء في هذه المسألة هو قوله تعالى: "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ" ثم "وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ". هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالغض من الأبصار مقرون سواء بالنسبة للرجل أو للمرأة بـ "حفظ الفرج" وهو المقصود. فلماذا كثرة الكلام في الحجاب والسكوت عن "حفظ الفرج". أليس حفظ الفرج مع السفور أهم من الحجاب مع "عدم حفظ الفرج"؟ وبعد، فنحن لا نقول هذا طعنا في نوايا الرجال الفقهاء، وإنما نقوله تنبيها إلى أن مسألة الحجاب مظهر يختلف من بلد إلى بلد حسب العرف والعادة، أما "حفظ الفرج" فهو ثابت لا يتغير.

9 – الرازي: "فأمروا بستر ما لا تؤدي/الضرورة إلى كشفه ورخص لهم في كشف ما اعتيد كشفه وأدت الضرورة إلى إظهاره". وأضاف: اتفقوا على تخصيص قوله: "وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا" بالحرائر دون الإماء، والمعنى فيه ظاهر، وهو أن الأمة مال فلا بد من الاحتياط في بيعها وشرائها، وذلك لا يمكن إلا بالنظر إليها على الاستقصاء بخلاف الحرة"!

10 – "قال المفسرون: إن نساء الجاهلية كن يشددن خمرهن من خلفهن، وإن جيوبهن كانت من قدام فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن، فأمرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب ليتغطى بذلك أعناقهن ونحورهن وما يحيط به من شعر وزينة من الحلي في الأذن والنحر وموضع العقدة منها".

11 – قال الرازي أما السبب في إباحة نظر هؤلاء إلى زينة المرأة فلأنهم مخصوصون بالحاجة إلى مداخلتهن ومخالطتهن ولقلة توقع الفتنة بجهاتهن، ولما في الطباع من النفرة عن مجالسة الغرائب، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم في الأسفار وللنزول والركوب. قلت: (الجابري) وهذا ينطبق اليوم على المرأة عموما، فهي تدرس وتشتغل وتذهب إلى السوق...

(زوّجوا) الْأَيَامَى [12] مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"[32]. وَلْيَسْتَعْفِفِ (ليتمسك بالعفة) الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا (بسبب غلاء المهور مثلا) حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ (أي العبد الذي يريد أن يشتري حريته من سيده بمبلغ من المال يدفعه له أقساطا). فَكَاتِبُوهُمْ [13] إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا، وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ (تنازلوا لهم ببعض ما كاتبتموهم عليه). وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ (إماءكم) عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[33].

5- اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ (علامات وظواهر كونية تبين لكم أن الله خالق السماوات والأرض الخ)، وَمَثَلًا (بمعنى أمثالا ضربناها لكم) مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ (من الأقوام السابقة)، وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ"[34] (أنزلنا تلك الآيات والأمثال، لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور، ذلك أن) : اللَّهُ نُورُ[14]، (هو الهادي لـ) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (والمدبر لشأنهما)، مَثَلُ نُورِهِ (مثل هدايته وتدبيره للكون والإنسان ولجميع المخلوقات) كَمِشْكَاةٍ (كوة، فتحة في جدار) فِيهَا مِصْبَاحٌ (مصدر النور والهداية الوحي)، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ (القرآن، الكتاب)، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ (القرآن في بيانه مثل كوكب مضيء) يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ

---

12 - "كل ذكر لا أنثى معه وكل أنثى لا ذكر معها"

13 - "الكتابة أن يقول لمملوكه كاتبتك على كذا ويسمى مالاً معلوماً يؤديه في نجمين أو أكثر (يعني قسطين أو أقساطا)، ويبين عدد النجوم وما يؤدي في كل نجم، ويقول إذا أديت ذلك المال فأنت حر، أو نوى ذلك بقلبه ويقول العبد قبلت".

14 - جرت عادة المتصوفة على الفصل بين هذه الآية وما قبلها ليعطوا لقوله تعالى "الله نور السماوات والأرض..." دلالة خاصة، تجعل من النور "حقيقة الذات الإلهية" في حين أن القرآن يستخدم لفظ "النور" بمعناه المتعارف عليه لدي العرب وغيرهم أي بمعنى المعرفة والسعة في مقابل الجهل الظلمة والظلمات" : "يخرجكم من الظلمات إلى النور". أما حقيقة الذاتي الإلهية فيعرفها القرآن بقوله تعالى: "ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير" وأيضا "هو الله أحد الله الصمد ... ليس له كفوًا أحد". وقد ذهب الغزالي في تأويل آية النور هذه على طريقة المتصوفة الإشراقيين، مذهبا قصيا، وذلك في كتابه "مشكاة الأنوار" الذي انتهى فيه إلى القول بوحدة الوجود.

مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ (شجرة المعرفة، علم الله)، لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ، (ليست يهودية ولا نصرانية) يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ (بالعقل وحده) وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ (ولو لم يكن هناك رسول)! نُورٌ (بيان بدون رسول هو نور العقل المتأمل لخلق السماوات والأرض) عَلَى نُورٍ (على بيان الرسول)! يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ (البيان القرآن) مَنْ يَشَاءُ. وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ (كما في مثال النور والمشكاة والزجاجة والكوكب الدري ...)، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[35]. (يهدي الله لنوره أي لبيان القرآن) فِي بُيُوتٍ (في مساجد) أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ (تبنى) وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ (إشارة إلى قوله تعالى: "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ" الخ. البقرة 127)؛ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[36] رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَ(ولا عن) إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ"[37] (يوم القيامة)، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[38]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (أرض مستوية) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ[39]، أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ (كبير عميق) يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ : ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ[40]. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ[41]. وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ"[42]. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي (يسوق) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ (المطر) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ (ينزل من السماء من برد يتجمع منه مقدار جبال)، فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ (برق السحاب) يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ[43]. يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ[44]. وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ؛ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[45]. لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[46]. (آخر هذه الفقرة يذكر بأولها: "وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ" الخ. وهذا يزكي اختيارنا جعلها فقرة واحدة).

6- وَيَقُولُونَ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ ...

وَيَقُولُونَ (والمقصود: المنافقون الذين لم يهتدوا هداية كاملة بالآيات التي أنزلها الله): آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا، ثُمَّ يَتَوَلَّى (يتراجع ولا يلتزم) فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ[47]. وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ[48] (عن الدعوة). وَإِنْ يَكُنْ (ولو كان) لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ[49] (مسرعين. فما المانع لهم من تلبية الدعوة). أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (شك)، أَمِ ارْتَابُوا، أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ (أن يشدد عليهم) عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[50]. إِنَّمَا كَانَ (ينبغي أن يكون) قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[51]. وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ[52]. وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ (معك لقتال المشركين)! قُلْ لَا تُقْسِمُوا، (فهذه) طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ (منكم، وهي كذب)! إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[53]. قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا (تتراجعوا: تمتنعوا) فَإِنَّمَا عَلَيْهِ (على الرسول) مَا حُمِّلَ (بتبليغه)، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ (القيام بما أمركم به)؛ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا. وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[54]. وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا: يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا. وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[55]. وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[56]. لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ (الله إذا أراد عقابهم) فِي الْأَرْضِ (في الدنيا)، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ[57].

7- خاتمة: من آداب المعاشرة...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ (ليستأذن في الدخول عليكم عبيدكم وإماؤكم، وأطفالكم فلا يدخلوا عليكم في غرفكم حين خلوكم بزوجاتكم، وذلك في الأوقات الثلاث التالية)، مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ (لأنكم تضعون فيها ثيابكم وتخلون بأهليكم). لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ (الأولاد والخدم) جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ (بعد تلك الأوقات فهم) طَوَّافُونَ

عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[58]. وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا (في كل وقت) كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (من الكبار)، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[59]. وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ (ينزعن) ثِيَابَهُنَّ (الذي يحتجبن به) غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ، وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ (يلبسنها) خَيْرٌ لَّهُنَّ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [60]. لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ، وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا. فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ، تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[61]. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ (مجتمعين مع النبي) عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ (يهم الجماعة) لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ (في الذهاب والمغادرة للاجتماع). إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[62]. لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ (حديثكم إليه) كَدُعَاءِ (كحديث) بَعْضِكُم بَعْضًا، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا (ينصرفون عن النبي خفية)، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[63]. أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[64].

تعليق

تشتمل هذه السورة كسابقاتها على مقدمة وتحليل موضوعات ثم خاتمة.

1- جرت العادة أن تشتمل المقدمة على فكرة تلخص مضمون السورة أو المجال الذي تتحرك فيه. ثم يأتي التحليل والتفصيل في نفس الإطار. هنا في هذه السورة جاءت المقدمة فريدة، فهي تقتصر على التعريف بهذه السورة دون الدخول في تفاصيل موضوعاتها. وهذه أول مرة يتناول فيها استهلالها التعريف بها: هذه سورة أنزلناها كغيرها من السور، ولكن "فرضناها" أي جعلناها أحكاما

موزعة على قضايا مختلفة متنوعة، فيها شريعة وفيها عقيدة وفيها آداب المعاشرة...

2- في هذا الإطار جاءت الفقرة الثانية لتطرح قضية الزنى، وكانت هذه القضية قد طرحت من قبل في سورة النساء، حيث تم التنصيص على عقوبة الزانيات المحترفات صاحبات البيوت بسجنهم إلى الموت... من جهة، وعلى إلحاق الأذى (بدون تحديد) على الزاني والزانية من المؤمنين والمؤمنات من جهة أخرى. وقد جاءت هذه السورة لتحدد نوع الأذى وهو الجلد مائة جلدة. أما الزواج بالزانيات المحترفات -وهو موضوع طرح من خلال الرجل الذي سأل الرسول في حكم ذلك- فقد أوضحت السورة الحكم فيه، وهو أنه لا يجوز ذلك للمؤمنين: فقد روي أن رجلاً من المسلمين استأذن النبيّ في امرأة يقال لها أمّ مهزول، كانت تسافح الرجل وتشترط له أن تنفق عليه، وأنه استأذن فيها النبيّ (ص) وذكر له أمرها، قال: فقرأ النبيّ عليه السلام: الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إلاّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ" الآية.

3 – تأتي بعد ذلك الفقرة الثالثة لتفصل في قضية الإفك، قضية اتهام السيدة عائشة. وسنشرحها بتفصيل في الاستطراد ويأتي الكلام في هذه الحادثة في مركز آيات التشريع في السورة . ومما يلفت النظر أن حادثة توتر العلاقة بين النبي زوجاته ذكرت في قلب الآيات التي حددت للنساء ما لهن وما عليهن، ومن بين ذلك الحشمة في اللباس، كما أن حادثة الإفك طرحت هنا كذلك في سياق بيان الموقف من الزنى وتحديد عقوبته، مع تأكيد الأمر بالحشمة والارتفاع به إلى "غض الأبصار" : الرجل إزاء النساء، والنساء إزاء الرجال، وأضافت إلى ذلك الأمر بتغطية الصدر وعدم إظهار المرأة زينتها إلا للمحارم الخ.

5 – في الفقرة الخامسة تطرح السورة موضوعا له علاقة بالموضوع السابق. لقد بينت السورة إلى حد الآن جملة أحكام فيها بيان للمؤمنين وهداية لهم إلى سبيل الرشاد على مستوى السلوك الفردي والعلاقات الاجتماعية. وقد أردت السورة أن تبين طريق الهداية وأسبابه. وهكذا فما أن الله هو خالق السماوات وما بينهما والأرض وما عليها، فهو الذي يدبر أمور جميع المخلوقات أي يرسم لها الطريق ويهديها إلى الصراط المستقيم. يدخل في ذلك ما يشرعه من أوامر ونواه للناس ليستقيم سلوكهم وتنضبط العلاقات بينهم ذكورا وإناثا. ولكي تبين كيف تتم الهداية الإلهية. جاءت بمثال "المصباح المشكاة" والنور المنبعث منها : نور النبوة (الوحي، القرآن) نور العقل. الذي هو مثل الكوكب الدري...

6- وتختص الفقر السادسة بفضح المنافقين والكشف عن تخاذلهم واهتمام بالغنائم وحدها الخ، حينما يدعون إلى الخروج مع المسلمين، وترد عليهم بأن الله سيفي بوعده للمؤمنين سواء شارك المنافقون في الجهاد ضدا على المشركين وحلفائهم أم لم يشاركوا : "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا: يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا".

7- وتأتي الخاتمة : لتركز على موضوع آداب المعاشرة داخل العائلة وأدام الاجتماع مع النبي في جلساته التي يقوم فيه بمشاورة المؤمنين والاستعداد للمستجدات...

استطراد : قصة الإفك

روى كل من البخاري والطبري وغيرهما من جهات متعددة جملة روايات متكاملة حول قضية الإفك أشهرها رواية الزهري نوردها فيما يلي: قال الزهري: "زعموا أن عائشة قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج مسافرا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاة غزاها (غزاة بني المصطلِق" [15] فخرج سهمي فخرجت معه، بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أحمَل في هودج وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت (لقضاء الحاجة) حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يرحلون بي، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن، ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه، وكنت جارية حديثة السن (**14** سنة)، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منزلهم (المكان الذي كانوا فيه) وليس فيه أحد، فأممت منزلي الذي كنت به، فظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش (مكلفا بما يسقط من الحملة)،

15- غزوة بني المُصطلَق جرت في السنة السادسة وعمر عائشة لا يتجاوز حوالي أربعة عشر عاما. ذلك أن الحارث بن أبي ضرار، سيدَ بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين في أُحُد، كان قد أخذ يجمع الجموع لحرب المسلمين ، فخرج له عليه الصلاة والسلام في جمع كثير، معه ناس من المنافقين، ولما بلغ الحارث مجيء المسلمين لحربه، أصابه هو وجنده خوفا شديداً حتى تفرق عنه بعضهم عن بعض. ولما وصل المسلمون إلى مكان يقال له المُرَيْسِيع تَصَافَّ الفريقان للقتال، ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فلم يتركوا لهم مجالاً للهرب، فقتلوا منهم وأسروا النساء والذرية، واستاقوا الإبل والشياه، قيل: وكانت الإبل ألفي بعير، والشياه خمسة آلاف، وكان في نساء المشركين بَرَّة بنت الحارث سيد القوم، فتزوجها الرسول وسماها جويرة فقال المسلمون: أصهار رسول الله لا= ينبغي أسرهم في أيدينا فمنّوا عليهم بالعتق، فأسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم. وفي الرجوع من هذه الغزوة حدثت قصة الإفك.

فأصبح عند منزلي(مكاني)، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه، حين أناخ راحلته، فوطئ يده فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت (مرضت) بها شهرا، يفيضون من قول أصحاب الإفك، ويريبني في وجعي: أني لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، وإنما يدخل فيسلم، ثم يقول: (كيف تيكم). لا أشعر بشيء من ذلك حتى نقهت. فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع، فتبرزنا، لا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمرُنا أمر العرب الأول في البرية، أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي، فعثرت في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلا شهد بدرا، فقالت: يا هنتاه ألم تسمعي ما قالوا، فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم، فقال: (كيف تيكم). فقلت: ائذن لي إلى أبوي، (قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما)، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت أبوي، فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنية، هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت= امرأة قط وضيئة، عند رجل يحبها، ولها ضرائر، إلا أكثرن عليها. فقلت: سبحان الله، ولقد يتحدث الناس بهذا؟! قالت عائشة: فبت الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة ابن زيد، حين استلبث الوحي (أبطأ)، يستشيرهما في فراق أهله (طلاقي)، فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله ولا نعلم والله إلا خيرا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: يا بريرة، هل رأيت شيئا يريبك. فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن العجين، فتأتي الدواجن فتأكله. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه، فاستعذر (تبرأ) من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي". فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك

منه: إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد ابن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلا صالحا، ولكن احتملته الحمية، فقال: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد بن الحضير فقال: كذبت لعمر الله، والله لتقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان: الأوس والخزرج، حتى هموا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فنزل فخفضهم، حتى سكتوا وسكت، وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي، قد بكيت ليلتين ويوما، حتى أظن أن البكاء فالق كبدي، قالت (عائشة): فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي، إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها، وقد مكث شهرا لا يوحى إليه في شأني شيء. قالت: فتشهد، ثم قال: "يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بشيء فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه.

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، قلت لأبي: أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم إني لبريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني بريئة، لتصدقني، والله ما أجد لي ولو مثلا إلا أبا يوسف إذ قال: "فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون". ثم تحولت إلى فراشي، وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحي، ولأني أحقر في نفسي من أن يتكلم القرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله، فوالله ما رام مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات، فلما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: "يا عائشة، احمدي الله، فقد برأك الله". فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، فأنزل الله تعالى: "إن

الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم". الآيات، فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا، بعد ما قال في عائشة. فأنزل الله تعالى: "ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة - إلى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم". فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يُجري عليه (النفقة). وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: "يا زينب، ما علمت، ما رأيت"؟. فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرا. قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع."

تلك هي قصة الإفك كما رواها البخاري عن الزهري.

104- سورة المنافقون

- تقديم

يرجح كتاب المغازي وبعض المفسرين أن هذه السورة نزلت في غزوة بني المصطلق، جوابا على قول زعيم المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول: «ليُخْرجن الأعز منها الأذل»، وذكروا روايات (أوردها الطبري) تختلف في بعض ألفاظها، منها الرواية التالية : « عن زيد بن أرقم أنه قال: كنا في غزا، فكسع رجل من المهاجرين (ضرب برجله) رجلاً جُهَنِيًّا حليفاً للأنصار، فقال الجهني: يا للأنصار؟! وقال المهاجري: يا للمهاجرين؟! فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: كسَع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: «دَعُوها فإنها مُنْتِنَة» (أي دعوا دعوة الجاهلية فإنها كريهة). سمع عبد الله بن أُبيّ زعيم المنافقين بالحادثة فقال: أقد فعلوها؟ أمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجن الأعزّ منها الأذَل». وقال: لا تنفقوا على مَن عندَ رسول الله حتى ينفضوا من حوله. قال زيد بن أرقم: فسمعت ذلك فأخبرت به عَمي فذكره للنبي صلى الله عليه وسلّم فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله إلى عبد الله بن أُبيّ وأصحابه فحلفوا ما قالوا ذلك، فكذّبني رسول الله وصدّقه، فأصابني همّ لم يصبني مثلُه. فقال عمّي: ما أردتَ إلا أن كذبك رسول الله، فلما أصبحنا قرأ رسول الله "سورة المنافقين" وقال لي: "إن الله قد صدقك".

- نص السورة

1- مقدمة: وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا (بظاهر لسانهم) نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ (حقا)، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ[1].

2- هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً (اتخذوا قسمهم ذاك سترة لكفرهم الذي في قلوبهم) فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (أعرضوا عن دين الله)، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2] : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ (لم يعد بإمكانهم الرجوع إلى الإيمان) فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ[3] (ولم يعودوا يفرقون بين الحق والباطل). وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ (فهي كأجسام الناس ليس فيها عيب)، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ (فهو كأقوال الناس ليس فيه خلل، ولكنهم في الحقيقة صور وأشباح بلا عقول)، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ (مجسمات في صور إنسان)، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ (ولكنهم كلما سمعوا كلاما للمسلمين اعتقدوا أنه يعنيهم ويتوعدهم، هم يسيئون الظن بالنبي والمسلمين)! هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ (أخزاهم)، أَنَّى يُؤْفَكُونَ[4] (إلى أين يهربون منه). وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ، وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ[5]. سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[6]. هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ (لأصحابهم) لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ (من المهاجرين) حَتَّى يَنْفَضُّوا (كي يتفرقوا عنه)، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ[7]. يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ (القوي) مِنْهَا الْأَذَلَّ : (الضعيف، انظر التقديم)، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ[8]. (والفقرة التالية ترد عليهم في دعواهم الناس إلى الكف عن الإنفاق على المهاجرين).

3- خاتمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[9]. وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ[10]. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[11].

- تعليق

إن نزول سورة خاصة في المنافقين دليل على أن محاربتهم للرسول قد بلغت أوجها، وأنها صارت علانية ودعوة مضادة. وهذا ما أبرزته السورة بوضوح:

1- في المقدمة : تكذيب صريح لهم في دعواهم أنهم يؤمنون بالرسول وبرسالته.

2- وفي الفقرة الثانية تفضح كيف أنهم اتخذوا دعواهم بالإيمان بالرسول سبيلا للتمكن من محاربته من الداخل: يشككون ويستهزئون ويتوعدون ويصدون الناس عن النفقة في تجهيز جند الرسول، وفي الوقت نفسه يحرصون على إظهار مشاركتهم في غزواته لينسحبوا بغرض التسبب في هزيمة، أو يسايرون الحملة حين يبدو لهم أن النصر للمسلمين، لينالوا نصيبا من الغنائم...

3- وفي الفقرة الثالثة التي هي الخاتمة تدعو السورة المؤمنين، بعد أن فضحت المنافقين وأهدافهم، إلى الرد عليها بالنفقة على تجهيز جند النبي عليه السلام لنشر الإسلام ومحاربة المشركين.

ومن أجل التعريف بالمنافقين وبأعدادهم وتغلغلهم في المدينة وعلاقاته مع اليهود ننقل في الاستطراد التالي ما ذكره عنهم ابن اسحق فيما جمعه من روايات.

- استطراد : أخبار عن المنافقين

2- زعيما المنافقين

قال ابن إسحاق: وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيدُ أهلها عبد الله بن أبي بن سلول العوفي ... لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان. لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل غيرِه، من أحد الفريقين، حتى جاء الإسلام. وكان ومعه في الأوس رجل، هو في قومه من الأوس شريف مطاع، أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح، وكان يقال له: الراهب. فشقيا بشرفهما وضرِّهما.

فأما عبد الله بن أبي فكان قومه قد نظموا له الخرز ليُتَوِّجوه ثم يُملِّكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم، وهم على ذلك. فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن، ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه ملكا. فلما رأى قومَه قد أبَوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن. وأما أبو عامر فأبى إلا الكفرَ والفراقَ لقومهِ حين اجتمعوا على الإسلام، فخرج منهم إلى مكة ببضعةَ عشرَ رجلاً مفارقاً للإسلام ولرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... لا تقولوا : الراهب، ولكن قولوا الفاسق. وروى ابن إسحق أن أبا عامر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة، قبل أن يخرج إلى مكة فقال : ما هذا الدين الذي جئتَ به؟ فقال جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال : فأنا عليها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لستَ عليها، قال، بلى، قال : إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها، قال : ما فعلت، ولكني جئت بها بيضاء نقية، قال : الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً - يعرض برسول الله صلى الله عليه وسلم - أي أنك جئتَ بها كذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل، فمن كذب ففعل الله تعالى ذلك به، فكان هو ذلك عدو الله، خرج إلى مكة، فلما افتتح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكةَ خرج إلى الطائف. فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام. فمات بها طريداً غريباً وحيداً.

قال ابن إسحاق : وأما عبد الله بن أبي فأقام على شرفه في قومه مترددا حتى غلبه الإسلام، فدخل فيه كارهاً.

قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن مسلم الزهري، عن عُروة بن الزبير، عن أسامة بن زيد بن حارثة، حِبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى سعد بن عُبادة يعوده من شكو أصابه على حمار عليه إكاف (بردعة)، فوقه قطيفة فَدَكِية (من قرية فدك)، مُختَطمة (معها لجام) بحبل من ليف، وأردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه : قال : فمر بعبد الله بن أبي، وهو في ظل مُزَاحمَ أطُمِه (حصنه)، وحوله رجال من قومه. فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تَذَمم (استحيا) من أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلَّم ثم جلس قليلاً، فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل، وذكر بالله وحذَّر، وبشَّر وأنذر قال : وهو زَامُّ لا يتكلم، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقالته، قال : يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تَغُتَّه (تثقل عليه) به، ولا تأته في مجلسه بما يكره منه. قال : قال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين : بلى، فاغشَنا به، وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله ما نحبُّ. ومما أكرمنا الله به وهدانا له، فقال عبد الله بن أبي حين رأى من خلاف قومه ما رأى: وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل على سعد بن عبادة، وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أبيّ، فقال : والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً، لكأنك سمعت شيئاً تكرهه، قال أجل، ثم أخبره بما قال ابن أبي : فقال سعد : يا رسول الله ! ارفق به. فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظِمَ له الخرز لنتوِّجَه. فوالله إنه ليرى أن قد سَلَبْتَهُ مُلكاً.

2- أسماء المنافقون في المدينة

قال ابن إسحاق : وكان ممن انضاف إلى يهود ممن سمى لنا من المنافقين من الأوس والخزرج، والله أعلم :

- من الأوس، من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، ثم من بنى لَوذان بن عمرو بن عوف : زُوَيّ بن الحارث.

- ومن بني حُبيب بن عمرو بن عوف : جُلاس بن سُوَيْد بن الصامت وأخوه الحارث بن سُوَيْد. وجُلاس الذي قال - وكان ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك - "لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحُمُر"، فرَفَع ذلك من قوله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عميرُ بنُ سعد، أحدهم، وكان في حِجر جُلاس، خَلَفَ جُلاس على أمه بعد أبيه، فقال له عُمَيْر بن

سعد : والله يا جُلاس، إنك لأحبُّ الناس إليَّ، وأحسنهم عندي يداً، وأعزهم عليَّ أن يصيبه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن رفعتُها عليك لأفضحنّك، ولئن صمت عليها ليهلكن ديني، ولإحداهما أيسرُ عليَّ من الأخرى. ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر له ما قال جُلاس، فحلف جُلاس بالله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد كذب عليَّ عُمَيْر، وما قلتُ ما قال عُمَيْر بن سعد. فأنزل الله عز وجل فيه : "يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ " (التوبة: 74). قال ابن إسحاق : فزعموا أنه تاب فحسُنت توبته، حتى عُرفَ منه الخيرُ والإسلام.

وأخوه الحارث بن سُوَيْد، الذي قتل المجذَّرَ بنَ زِياد البلوي، وقيسَ بن زيد، أحد بني ضُبَيْعة، يوم أحد. خرج مع المسلمين، وكان منافقاً، فلما التقى الناس عدا عليهما، فقتلهما ثم لحق بقريش. قال ابن إسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما يذكرون - قد أمر عمر بن الخطاب بقتله إن هو ظفر به، ففاته، فكان بمكة، ثم بعث إلى أخيه جُلاس يطلب التوبة، ليرجع إلى قومه . فأنزل الله تبارك وتعالى فيه - فيما بلغني عن ابن عباس: " كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (آل عمران: 86) إلى آخر القصة.

- ومن بني ضُبَيْعة بن زيد بن مالك بن عَوْف بن عمرو بن عوف : بِجَاد بن عثمان بن عامر.

- ومن بني لَوْذان بن عَمْرو بن عَوْف : نَبْتَل بن الحارث، وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم- فيما بلغني - : من أحبَّ أن ينظر إلى الشيطان، فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث، وكان رجلاً جسيماً أذلم (مسترخي الشفتين) ثائر شعر الرأس، أحمر العينين أسْفَع الخدَّين (عليهما حمرة تضرب إلى السواد) ، وكان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث إليه فيسمع منه، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، وهو الذي قال : إنما محمد أذن، من حدّثه شيئاً صدقه. فأنزل الله عز وجل فيه : "وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(61) " (التوبة: 61). ...

– ومن بنى ضُبَيعة : أبو حبيبة بن الأزعر، وكان ممن بنى مسجدَ الضرار، وثعلبة بن حاطب، ومُعَتِّب بن قُشير، وهما اللذان عاهدا الله لئن أتانا من فضله لنصدَّقَنَّ ولنكونن من الصالحين الخ القصة. ومُعَتِّب الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا. فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله "وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا " (آل عمران: 154) إلى آخر القصة. وهو الذي قال يوم الأحزاب : كان محمد يَعِدُنا أن نأكلَ كنوزَ كسرى وقيصر، وأحدُنا لا يأمن أن يذهَب إلى الغائط فأنزل الله عز وجل فيه : "وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا" (الأحزاب: 12).

قال ابن إسحاق : وعَبَّاد بن حُنَيف، أخو سهل بن حُنَيف وبَحْزَج، وهم ممن كان بنى مسجد الضرار[1]، وعمرو بن خِذَام، وعبد الله بن نَبْتَل. ومن بني ثعلبة بن عمرو بن عَوْف : جارية بن عامر بن العَطَّاف، وابناه : زيد ومُجمِّع، ابنا جارية. وهم ممن اتخذ مسجدَ الضرار. وكان مُجَمِّع غلاما حدثا قد جمع من القرآن أكثره، وكان يصلى بهم فيه، ثم إنه لما أخرب المسجدُ، وذهب رجال من بني عمرو ابن عوف، كانوا يصلون ببني عمرو بن عوف في مسجدهم، وكان زمان عمر بن الخطاب، كُلِّم في مُجَمِّع ليصلى بهم فقال : لا، أو ليس بإمام المنافقين في مسجد الضِّرار؟ فقال لعمر : يا أمير المؤمنين، والله الذي لا إله إلا هو، ما علمتُ بشيء من أمرهم، ولكني كنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا لا قرآنَ معهم، فقدموني أصلى بهم، وما أرى أمرَهم، إلا على أحسن ما ذكروا، فزعموا أن عمر تركه فصلى بقومه

– ومن بني أمية بن زيد بن مالك : وَديعة بن ثابت، وهو ممن بنى مسجدَ الضرار، وهو الذي قال : إنما كنا نخوض ونلعب . فأنزل الله تبارك وتعالى : " وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ" (التوبة: 65) إلى آخر القصة .

– ومن بني عُبَيد بن مالك : خِذام بن خالد، وهو الذي أخرج مسجد الضرار من داره، وبشرٍ ورافع، ابنا زيد.

– ومن بني التبيت: عمرو بن مالك ابن الأوس.

---

1 – مسجد بناه المنافقون يجتمعون فيه ويتآمرون على النبي والمسلمين

– ثم من بنى حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس: مِرْبع بن قَيْظِي، وهو الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجاز في حائطه (بستانه) ورسول الله صلى الله عليه وسلم عامد إلى أحد : لا أحِلّ لك يا محمد، إن كنت نبيا، أن تمر في حائطي، وأخذ في يده حفنة من تراب، ثم قال : والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوه، فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصيرة . فضربه سعد ابن زيد، أخو بنى عبد الأشهل بالقوس فشجّه . وأخوه أوس بن قَيْظى وهو الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق : يا رسول الله، إن بيوتنا عَوْرة، فأذَنْ لنا فلنرجعْ إليها. فأنزل الله تعالى فيه : "يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُون إِلَّا فِرَارًا" (الأحزاب: 13).

– ومن بني ظَفَر، واسم ظَفَر : كعب بن الحارث ابن الخزرج : حاطب بن أمية بن رافع، وكان شيخاً. جسيماً قد عَسَا (أسن) في جاهليته وكان له ابن من خيار المسلمين، يقال له يزيد ابن حاطب، أصيب يوم أحد حتى أثبتته الجراحات، فحُمل إلى دار بني ظفر. قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قَتادة أنه اجتمع إليه من بها من رجال المسلمين ونسائهم وهو بالموت فجعلوا يقولون أبشر يا بن حاطب بالجنة، قال : فنجم (ظهر) نفاقُه حينئذٍ، فجعل يقول أبوه : أجل جنة والله من حَرْمل، غررتم والله هذا المسكين من نفسهِ.

– وبُشَيْر بن أُبَيْرِق، وهو أبو طُعمَة، سارق الدِّرْعين، الذي أنزل الله تعالى فيه : "وَلَا تُجَادِلْ عَنْ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا" (النساء: 107) : وقُزْمان : حليف لهم. فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنه لمن أهل النار. فلما كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً حتى قتلَ بضعةَ نفر من المشركين، فأثبتته الجراحات، فحُمل إلى دار بنى ظَفر، فقال له رجال من المسلمين : أبشر يا قُزْمَانُ، فقد أبليتَ اليومَ، وقد أصابك ما ترى في الله . قال : بماذا أبشر، فوالله ما قاتلتُ إلا حميةً عن قومي، فلما اشتدت به جراحاته وآذته أخذ سهماً من كِنانتِه، فقطع به رواهش (عصب) يده، فقتل نفسَه.

– ولم يكن في بنى عبد الأشْهل منافق ولا منافقة يُعلم، إلا أن الضحاك بن ثابت، أحد بنى كعب، رهْط سعد بن زيد، وقد كان يُتهم بالنفاق وحُب يهود وكان جلاس بن سُوَيْد بن صامت قبل توبته – فيما بلغني– ومُعتِّب بن قُشَير، ورافع بن

زيد، وبشر، وكانوا يُدْعَوْن بالإسلام، فدعاهم رجال من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعوهم إلى الكهان، حكام أهل الجاهلية، فأنزل الله عز رجل فيهم : "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا " (النساء: 60) إلى آخر القصة .

– ومن الخزرج، ثم من بنى النجار : رافع بن وديعة، وزَيْد بن عَمرو، وعَمْرو بن قَيْس، وقَيس بن عَمْرو بن سَهْل.

– ومن بني جُشَم بن الخزرج، ثم من بني سَلِمَة : الجدُّ بن قَيْس، وهو الذي يقول : يا محمد، ائذن لي ولا تفتنى، فأنزل الله تعالى فيهم " وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ" (التوبة: 49) : إلى آخر القصة.

– ومن بني عَوْف بن الخزرج : عبدُ الله بنُ أبَيٍّ ابنُ سَلول، وكان رأس المنافقين، وإليه يجتمعون وهو الذي قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ، في غزوة بنى المصطَلق. وفي قوله ذلك، نزلت سورة المنافقين بأسرها. وفيه وفي وديعة – رجل من بني عوف – ومالك بن أبي قَوْقَل، وسُوَيْد، ودَاعس وهم من رهط عبد الله بنُ أبي ابن سَلُول : وعبد الله بن أبي ابن سلول . فهؤلاء النفر من قومِهِ الذين كانوا يدُسُّون إلى بني النضير حين حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن اثبتوا، فوالله لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قُوتِلتم لننصرنكم، فأنزل الله تعالى فيهم : "أَلَمْ تَرى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ " (الحشر: 11) ثم القصة من السورة حتى انتهى إلى قوله : " كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ" (الحشر: 16)

3– المنافقون من أحبار اليهود

قال ابن إسحاق : وكان ممن تعوَّذ بالإسلام، ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق، من أحبار يهود.

– من بنى قينُقاع : سعد بن حُنَيْف، وزَيْد بن اللُّصيت، ونعمان بن أوْفَى بن عمرو، وعثمان بن أوفى . وزيد بن اللُّصَيْت، الذي قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسوق بني قينقاع، وهو الذي قال، حين ضلت ناقةُ رسول الله

صلى الله عليه وسلم: يزعمُ محمد أنه يأتيه خبرُ السماء وهو لا يدري أين ناقته ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءه الخبر بما قال عدوُّ الله في رحله، ودَلّ الله،تبارك وتعالى رسولَه صلى الله عليه وسلم على ناقته : "إن قائلا قال : يزعمُ محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلّني الله عليها، فهي في هذا الشِّعْب، قد حبستها شجرة بزمامِها، فذهب رجال من المسلمين، فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما وصف . ورافع ابن حُرَيْملة، وهو الذي قال له الرسول صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنا - حين مات : قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين ورفاعة بن زَيْد بن التّابوت، وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هبت عليه الريح، وهو قافل من غزوة بنى المصْطَلَق، فاشتدت عليه حتى أشفق المسلمون منها فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخافوا، فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار. فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وجد رفاعة بن زيد بن التّابوت مات ذلك اليوم الذي هَبّت فيه الريح . وسِلْسِلة بنَ بِرْهام وكنانة بن صُوريا.

4- طرد المنافقين من المسجد :

وكان هؤلاء المنافقون يحضُرُون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين، ويَسْخَرون ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يوماً في المسجد منهم ناس، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم، خافضي أصواتهم، قَد لصق بعضُهم ببعضٍ، فأمر بهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فاخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً، فقام أبو أيوب، خالدُ ابنُ زيد بنُ كُلَيْب، إلى عُمر بن قَيْس، أحد بني غَنْم بن مالك بن النجار - كان صاحب آلهتهم في الجاهلية - فأخذ برجله فسحبه، حتى أخرجه من المسجد، وهو يقول : أتخرجني يا أبا أيوب من مرْبد بني ثعلبة، ثم اقبل أبو أيوب أيضاً إلى رافع بن وَدِيعة، أحد بني النجار فلبَّبه بردائه ثم نتره نترا شديداً، ولطم وجهَه، ثم أخرجه من المسجد، وأبو أيوب يقول له : أفٍّ لك منافقاً خبيثاً . أدراجَك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق : وقام أبو محمد، رجل من بنى النجار، كان بدْرياً، و أبو محمد مسعود بن أوس بن زيد بن أصْرم بن زيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار: إلى قَيْس بن عمرو بن سهل، وكان قيس غلاماً شابا، وكان لا يُعلم في المنافقين شاب غيره، فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد. وقام رجل من

بَلْخُدْرَة بن الخزرج، رهط أبي سعيد الخُدْري، يقال له : عبد الله بن الحارث حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراج المنافقين من المسجد إلى رجل يقال له : الحارث بن عَمْرو، وكان ذا جُمَّة، فأخذ بجُمته فسحبه بها سحباً عنيفاً،على ما مر به من الأرض، حتى أخرجه من المسجد. قال يقول المنافقُ : لقد أغلظْتَ يا بن الحارث فقال له : إنك أهل لذلك، أي عدوَّ الله لما أنزل الله فيك : فلا تقربنَّ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنك نَجِس وقام رجل من بنى عَمْرو بن عَوْف إلى أخيه زُوَيٍّ بن الحارث فأخرجه من المسجد إخراجاً عنيفاً، وأفَّف منه، قال : غلب عليك الشيطان وأمْرُهُ .

فهؤلاءِ من حضر المسجدَ يومئذ من المنافقين، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراجهم .

105- سورة المجادلة

- تقديم

الجمهور على أن هذه السورة مدنية نزلت بعد سورة المنافقين. وفي "سبب نزولها" روايات من جهات مختلفة ذكرها الطبري ومضمونها واحد، منها الرواية التالية عن ابن عباس، قال: "ذلك أن خولة بنت الصامت، امرأة من الأنصار، ظاهر منها زوجها، فقال: أنت عليّ مثل ظهر أمي! فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقالت: إن زوجي كان تزوّجني وأنا أحبّ، حتى إذا كبرت ودخلت في السنّ قال: أنت عليّ مثل ظهر أمي، فتركني إلى غير أحد، فإن كنت تجد لي رُخصة يا رسول الله تنعَشني وإياه بها فحدّثني بها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «ما أُمِرْتُ فِي شأنِكِ بشَيْءٍ حتى الآنَ، ولَكِنْ ارْجِعي إلى بَيْتِكِ، فإنْ أُومَرْ بِشَيْءٍ لا أَغْمِمْهُ عَلَيكِ إنْ شاءَ اللّهُ». فرجعت إلى بيتها، وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلّم في الكتاب رخصتها ورخصة زوجها: "قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الّتِي تجادِلُكَ فِي زَوْجِها" إلى قوله: وَللكافِرِينَ عَذَابٌ إليمٌ". فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى زوجها فلما أتاه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «ما أرَدْتَ إلى يَمِينِكَ الّتِي أقْسَمْتَ عَلَيْها؟» فقال: وهل لها كفّارة؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تُعْتِق رَقَبَةً؟» قال: إذن يذهب مالي كله، الرقبة غالية وأنا قليل المال، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَين؟» قال: لا والله لولا أني آكل في اليوم ثلاث مرّات لكلّ بصري، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «هَلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تُطْعِمَ سِتّينَ مِسكينا؟ قال: لا والله إلا أن تعينني على ذلك بعون وصلاة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «إنّي مُعِينُكَ بِخَمْسَةَ عَشَرَ صَاعا، وأنا دَاعٍ لَكَ بالبَرَكَةِ» فأصلح ذلك بينهما".

وإذا صح أن ذلك كان سبب نزول هذه الآية فإنها لم تتناول هذا الموضوع وحده بل تناولت موضوعات أخرى كما سيتضح.

- نص السورة

1- مقدمة: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ[1] (1):

2- حكم الذين يظهرون من نسائهم...

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ (يحرّمونهن عليهم بقول الواحد منهم لزوجته "أنت علي كظهر أمي") مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ؛ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ[2]. وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا (يريدون أن يتراجعوا عما قالوا لتحليل ما حرّموا على أنفسهم، فكفارتهم :) فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا (قبل أن يمارسا الجماع، وقد خص بعضهم المنع في الفرج وحده)، ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[3]. فَمَنْ لَمْ يَجِدْ (رقبة، عبدا أو أمة، يحررها) فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا، ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ[4]. إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ (يخالفون أحكام) اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا (أصابهم خزي) كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؛ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ[5]. يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا، أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[6].

3- إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ ...

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ، وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[7]. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى (الحديث المسيء للنبي يجري

---

1 - انظر التقديم.

بين اليهود) ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ؟ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ (كانوا يقولون "السام" أي السم عليكم، وكان يرد عليهم بلفظ "عليكم" وحده)، وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا (هلا) يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ! حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ[8]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[9]. إِنَّمَا النَّجْوَى (مناجاة اليهود والمنافقين) مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[10].

4- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا (توسعوا ولا تتزاحموا) فِي الْمَجَالِسِ (مجلس الرسول)، فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ. وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا (أي ارتفعوا، وقوموا إلى قتال عدوّ، أو صلاة، أو عمل خير، أو تفرّقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقوموا)، فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"[11]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً (أعطوا صدقة للمساكين قبل دخولكم إليه)، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا (ما تتصدقون به) فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[12] (2). أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ؟ (بعضهم استثقل ذلك، فجاء الجواب) فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[13].

5- المنافقون اتخذوا اليهود أولياء وحلفاء

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ! (هم المنافقون اتخذوا اليهود أولياء وحلفاء ضد النبي والمسلمين)، مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[14]: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[15]. اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً (سترة) فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَلَهُمْ عَذَابٌ

---

2 – عن ابن عباس، قوله: فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً: وذلك أن المسلمين أكثروا السؤال على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه. فلما قال ذلك صبر كثير من الناس، وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فوسّع الله عليهم، ولم يضيق.

مُهِينٌ[16]. لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[17]. يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ[18]. اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ! أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ[19]. إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ (يخالفون ويعاكسون أمر) اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ[20] (المكتوب عليهم الذل والمهانة).

6- خاتمة: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي...

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ[21]. لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ (يتوادون مع) مَنْ حَادَّ (عادى) اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ، أُولَئِكَ (القوم المؤمنون حقا وصدقا) كَتَبَ (الله) فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ، وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ . أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[22].

– تعليق

تتناول هذه السورة كسابقاتها جملة من معطيات الحياة اليومية في المدينة زمن النبوة، وهي تدور كلها تقريبا حول الأحوال الشخصية والحياة الاجتماعية ومناورات اليهود والمنافقين وآداب مجالس الرسول.

- 1- في المقدمة : إشارة إلى المرأة التي جاءت تشتكي زوجها إلى الرسول. انظر التقديم.

2- وفي الفقرة الثانية تقرير حكم الله في زوج هذه المرأة وأمثاله الذين كانوا يقولون لزوجاتهم "أنت علي كظهر أمي" كما كانت العرب تفعل قبل الإسلام، يريدون بذلك فراقها وتطليقها. وقد ورد هذا المعنى في سورة النساء، في قوله تعالى : "وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ"، ولم يرد هناك تحريم ولا كفارة، وإنما مجرد نفي أن تكون زوجاتهم اللاتي يظاهرون منهن أمهاتهم بالفعل، وفي ذلك معنى النهي. أما هنا فنحن أمام نص على تحريم هذه الممارسة وإيجاب الكفارة على من يريد التراجع عن قوله ذاك. وإذن فلا معنى للقول إن آية هذه السورة نزلت قبل آية الأحزاب، بل العكس هو الصحيح، فالآية هنا

صريحة في التحريم والكفارة، بينما ذكرت آية الأحزاب هذه المسألة في إطار قوله تعالى :"مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِه"، الذي يقع تحته تحريم التبني وقضية زيد بن حارثة مولى النبي الخ.

3- في الفقرة الثالثة تندد السورة بما كان يقوم به اليهود من المنجاة بينهم حينما يرون الرسول إظهارا بأنهم يتحدثون عنه ويؤذونه بألسنهم، فتفضحهم السورة وتنبههم إلى أن ما يكون من نجوى إلا والله مع المتناجين، قلوا أو كثروا، ثم تتوعدهم...

4- وفي الفقرة الرابعة تتحدث السورة إلى زوار النبي الذي يتزاحمون على مجالسه يسألون ويتنافسون ويضيق بعضهم على بعض فتطلب منهم أن يستجيبوا لنداء النبي حين يدعوهم إلى أن يفسحوا ولا يضيقوا على بعضهم في مجالس النبي. وكان النبي قد طلب من الذين يردون حضور مجالسه أن يبادروا إلى إعطاء الصدقة على المساكين قبل الدخول عليه وذلك كتدبير يخفف من الزحام. ويبدو حسب الروايات أن هذه الصدقة قد جعلت كثيرا منهم يتقاعس عن حضور مجالس النبي فجاءت هذه السورة لتلغي إلزامهم بالصدقة ولتؤكد مطالبتهم بعدم التهاون في أداء الفرائض، "فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[13].

5- في الفقرة الخامسة تعود لتواجه المنافقين المتحالفين مع اليهود في إيذاء المسلمين فتنزع عنهم صفة المؤمن وتتوعدهم بالنار يوم القيامة، وتحذر المؤمنين من الثقة بهم : "لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[17]. يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ[18]"

6- وتأتي الفقرة الأخيرة لتؤكد أن الغلبة والنصر سيكونان في نهاية المطاف لله ورسوله، والذين يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يعرفون هذا، ولذلك فإنك لا تجدهم "يُوَادُّونَ أعداء الله من كفار ومنافقين حتى ولو كانوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...

106- سورة الحجرات

- تقديم

سورة مدنية باتفاق ورتبتها في معظم اللوائح 106، نزلت قبل المجادلة وقبل التحريم. موضوع آياتها في آداب السلوك مع النبي عليه السلام، في مجالسه وعند مناداته. وردت ست روايات كـ "أسباب نزول" لها، وليس ثمة ما يزكي الواحدة منها على الأخرى. ويكفي أن يقال : "قال العلماء: كان في العرب جَفاءٌ وسوءُ أدب في خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلّم وتلقيب الناس. فالسورة في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب"؛ وهذا خصوصا بعد أخذ الأعراب يتوافدون على المدينة بعد انتصار المسلمين في غزوة الأحزاب وغزوة المصطلق وتتابع سرايا النبي نحو القبائل.

- نص السورة

1- مقدمة: آداب التعامل مع النبي (ص)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (لا تقضوا أمرا دون رسول الله)(1)، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[1]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ (2)، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ

---

1 - الطبري: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله. وقال غيره: لا تقضوا أمرا دون رسول الله.

2 - الطبري: قيل: "قال: «أتى أعرابيّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم من وراء حجرته، فقال: يا محمد، يا محمد فخرج إليه النبيّ صلى الله عليه وسلّم فقال: «مالكَ مالكَ»، فقال: تعلم أنّ مدحي لزين، وأن ذمي لشين، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: «ذاكمُ اللّهُ»، فنزلت يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أصْوَاتَكُمْ فَوقَ صَوْتِ النّبِيّ».

(كأن تنادوه: يا محمد، بل يا نبي الله) أَنْ (حتى لا) تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ[2]. إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ[3]. إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ[4] (3). وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[5].

2- ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّه أَتْقَاكُمْ!

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ[6]. وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ (لنالتكم المشقة والعناء في كثير من الأمور)، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ[7]. فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[8]. وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ، وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ[9]. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[0] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ (لا يطعن بعضكم على بعض)، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ (كأن تقولوا : يا فاسق، يا فاجر)، بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ (قبيح أن يسمى الشخص فاسقا بعد أن صار من المؤمنين)، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[11]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ (السيئ بالمؤمنين) إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَلَا تَجَسَّسُوا (على بعضكم) وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا (لا تقوا في الغائب منكم ما يكره لو كان

---

3 – جاء أناس من العرب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيا فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكا نعش في جناحه! قال: فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فأخبرته بذلك، قال: ثم جاؤوا إلى حجر النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فجعلوا ينادونه. يا محمد، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلّم: إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ قال: فأخذ نبيّ الله بأذني فمدّها، فجعل يقول: «قَدْ صَدَقَ اللَّهُ قَوْلَكَ يا زَيْدُ، قَدْ صَدَقَ اللَّهُ قَوْلَكَ يا زَيْدُ».

حاضرا) (4)؛ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ"[12]. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ (5) لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"[13].

3- قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا! قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا،

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا! قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا (بمعنى: استسلمتم خوف السباء والقتل) (6)، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ. وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ (لا ينقص) مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[14]. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ"[15]. قُلْ (لهؤلاء الأعراب) أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ (بقولكم آمنا؟) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[16]. يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا! قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[17] (7). إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ"[18].

---

4 – في الحديث : "عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم قال: «هَلْ تَدْرُونَ ما الْغِيْبَةُ»؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: «ذِكْرُكَ أخاكَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ»، قيل له: أرأيت إن كان في أخي ما أقول له قال: «إنْ كان فِيهِ ما تَقُولُ فَقَد اغْتَبْتَهُ، وَإنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ما تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ».

5 – الشعب: الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة؛ فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل.. وسميت الشعوب بهذا الاسم لأنّ القبائل تشعبت منها.

6 – المعنى: قولوا : "دخلنا في السلم، وتركنا المحاربة والقتال بقولهم: لا إله إلاّ الله. وفي الحديث أن النبي عليه السلام قال: "«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتى يَقُولُوا لا إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا لا إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ إلاّ بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ على اللّه». وعلى هذا قالوا: الإسلام: القول، والإيمان : العمل.

7 – قيل نزلت في قوم من بني أسد امتنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقالوا: آمنا من غير قتال، ولم نقاتلك كما قاتلك غيرنا، فأنزل الله فيهم هذه الآيات.

تعليق

تعكس هذه السورة والتي قبلها واقعا جديد في المدينة بدأ يبرز منذ هزيمة الأحزاب،. هذا الواقع الجديد هو توافد الأعراب على المدينة لمجالسة النبي أو إعلان إسلامهم الخ. والمدينة مجتمع حضري، يعيش نوعا من "رقة الحضارة"، تسود فيه تقاليد مدينية مثل تبادل الاحترام وإنزال الناس منازلهم مع مراوغات ومناورات كما رأينا في سلوك المنافقين. أما الأعراب فكان سلوكهم مطبوعا بـ"خشونة البداوة " حسب عبارة ابن خلدون. وتكاد تختص هذه السورة في تعليم الأعراب الذين كانوا يأتونها آداب السلوك، وبالخصوص كيفية معاملة الرسول وهو رئيس المدينة، فضلا عن كونه رسول من الله وصاحب الدعوة والدولة.

1- في المقدمة تنهى السورة أصحاب النبي والوافدين عليه لحضور مجالسه عن المبادرة إلى الكلام والاقتراحات قبل الاستماع إلى النبي، فقد يكون لديه وحي يريد تبليغه أو أمر مما يختص به رؤساء القوم عادة. يتعلق الأمر إذن بمبدأ أساسي لتنظيم المشورة والحوار في مجالس النبي.

2- وفي الفقرة الثانية تطرح السورة كيفية بناء العلاقات داخل المجتمع الجديد. لقد خلق الله الناس من ذكر وأنثى فهم متساوون، ولكنهم يتمايزون بأنسابهم. والمجتمع العربي قبل الإسلام كان يعتمد في الترتيب الاجتماعي واعتبار منازل الناس على النسب. فجاءت السورة لتذكرهم بأن فائدة الأنساب هو تحديد الانتماء إلى "شعوب وقبائل"، تحديد النسب القريب والنسب البعيد. أما التفاضل بين الناس والتفاخر وتزكية الأفراد والجماعات فيجب أن يقوم على التقوى، على السلوك القيم والعمل الصالح: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم". وعلى هذا الأساس يجب أن يبنى تقدير الأشخاص. واعتبار مصداقية ما يقولون، وعلى هذا الأساس أيضا يجب الوقوف مع المظلوم في وجه الظالم، سواء كان الأمر يتعلق بالأفراد أو بالجماعات، واعتماد العدل والإنصاف. وتواصل السورة فتنهى عن ما يسبب النزاع في المجتمع، فتشجب سخرية البعض من البعض، والاغتياب البعض للبعض، والابتعاد عن التنابز بالألقاب، كما يجب تجنب سوء الظن بالناس والتزام حسن الظن بالمؤمنين.

3- وفي الفقرة الثالثة تعرّف الأعراب الفرق بين الإسلام والإذعان لسلطة جماعة المسلمين من جهة، وبين الإيمان الذي هو اعتقد داخلي يمليه ضمير الفرد ولا شيء غيره. كان من الأعراب من كان يرى أن كونه قد أسلم من دون

قتال يجعله يستحق منزلة أعلى من الذين أسلموا بفعل الحملات العسكرية. وترد عليهم السورة بأن المنازل في الإسلام تقوم على الإيمان، وليس على مجرد الاستسلام بدافع الخوف أو الطمع. إن المؤمن ليس هو من أعلن إسلامه بل "الْمُؤْمِنُونَ (هم) الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ"[15]

107- سورة التحريم

- تقديم

روى البخاري في صحيحه عن عائشة زوج النبي عليه السلام أن سبب نزول هذه السورة أنه (ص) شرب يوما عسلاً عند زينب بنت جحش إحدى نسائه، وكانت عند مولاه زيد بن حارثة، فعلمت بذلك عائشة فتواطأت هي وحفصة، (عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب وهما من أقوى زوجاته عليه السلام)، على أن أيّتهما دخل عليها تقول له: «إني أجد منك ريح مغافير، أكَلْتَ مغافير» (صمغ شجر رائحته كريهة)؛ وكان النبي عليه السلام يكره أن توجد منه رائحة. قيل: إنما تواطأتا على ذلك غيرة منهما أن يحتبس عند زينب زماناً يشرب فيه عسلاً. فدخل على حفصة فقالت له ذلك، فقال: بل شربتُ عسلاً عند فلانة ولن أعود له، أراد بذلك استرضاء حفصة في هذا الشأن وأوصاها أن لا تخبر بذلك عائشة، ومع ذلك أخبرت حفصة عائشة فنزلت الآيات التاليات. وضعف هذه الرواية في كونها لا تتطابق تماما مع الآيات الواردة في السورة.

وإلى جانب هذه الرواية هناك ما رواه الطبري في تفسيره من أن الأمر يتعلق بإبيتائه إحدى مملوكاته في بيت زوجته حفصة. من هذه الروايات ما يلي: قالوا: "كان ذلك مارية، مملوكته القبطية، حرّمها على نفسه بيمين أنه لا يقربها طالبا بذلك رضا حفصة بنت عمر زوجته، لأنها كانت غارت بأن خلا بها رسول الله صلى الله عليه وسلّم في يومها وفي حجرتها". وهذه الرواية غير صحيحة تاريخيا. ذلك أن هذه السورة نزلت قبل صلح الحديبية، ومارية القبطية كان قد أهداها له المقوقس حاكم الإسكندرية هي وجارية أخرى اسمها سيرن، وذلك في إطار هدايا أرسلها المقوس إلى النبي جوابا على رسالته إليه يدعوه إلى الإسلام بعد صلح الحديبية [1].

---

1 - انظر تفصيل ذلك في : المدخل إلى القرآن الفصل الثاني فقرة 4-و

وفي روية أخرى : "كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلّم فتاة، فغشيها، فبصُرت به حفصة، وكان اليوم يومَ عائشة، وكانتا متظاهرتين (متحالفين)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «اكْتُمي عَلَيَّ وَلا تَذْكُري لِعائِشَةَ ما رأيْتِ»، فذكرت حفصة لعائشة، فغضبت عائشة. فلم تزل بنبيِّ الله صلى الله عليه وسلّم حتى حلف أن لا يقربها أبدا، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يكفر يمينه، ويأتي جاريته".

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال: "يا أَيُّها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ"، إلى قوله: "وَهُوَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ"، قال: كانت حفصة وعائشة متحابتين وكانتا زوجتي النبيِّ صلى الله عليه وسلّم، فذهبت حفصة إلى أبيها، فتحدثت عنده، فأرسل النبيِّ صلى الله عليه وسلّم إلى جاريته، فظلت معه في بيت حفصة، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة، فرجعت حفصة، فوجدتهما في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها، وغارت غيره شديدة، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلّم جاريته، ودخلت حفصة فقالت: قد رأيت من كان عندك، والله لقد سُئْتَنِي، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: «واللَهِ لأُرْضِيَنَّكِ فإنّي مُسِرّ إلَيْكِ سِرا فاحْفَظِيهِ» قالت: ما هو؟ قال: «إنّي أُشْهِدُكِ أنَّ سُرِّيَّتِي هَذِهِ عَلَيَّ حَرَامٌ رِضا لكِ»، وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبيِّ صلى الله عليه وسلّم، فانطلقت حفصة إلى عائشة، فأسرّت إليها أن أبشري إن النبيَّ صلى الله عليه وسلّم قد حرّم عليه فتاته، وعلم النبي بأن حفصة أفشت السر لعائشة، فنزلت الآيات التي تتحدث عن الموضوع في صدر هذه الآية. وهذه الرواية أقرب إلى هذه الآيات.

- نص السورة

1- مقدمة : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ، تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[1] ؟ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ(2)، وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ[2].

---

2 – معنى الآية : لِمَ تحلف وتحرم على نفسك شيئا قد أحله الله لك وهو إيتاء ما ملكت يمينك؟ لماذا تفعل ذلك إرضاء لزوجاتك؟ "فأمره الله أن يكفر عن يمينه، وعوتب في ذلك،=

2- عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ...

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ (حفصة بنت عمر بن الخطاب) حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ (عائشة بنت أبي بكر) وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ (أعلمه الله بذلك) عَرَّفَ (أخبر النبي حفصة) بَعْضَهُ (بعض ذلك الحديث)، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ. فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ (لما أخبر حفصة بإفشائها السر لعائشة) قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا؟ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ[3]. إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ (فهو خير لكما) فَقَدْ صَغَتْ (مالت وزاغت) قُلُوبُكُمَا، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ (تتعاونان على الوقوف ضد النبي) فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ، وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ[4] (معينون له). عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ: مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا[5].

3- تحذير ووعد للمؤمنين ... ووعيد للكافرين والمنافقين...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ (تجنبوا أنتم وأهليكم) نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[6] (فلا تروجوا لكلام يؤذي النبي في عرضه وحياته الخاصة مع زوجاته). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا (وأنتم تفعلون ذلك سيقال لكم يوم القيامة) لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[7]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا (صادقة)، عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ، يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[8]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ (بالسيف) وَالْمُنَافِقِينَ (باللسان) وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ (بالوعيد) وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[9].

3- مثال الزوجات المؤمنات الصالحات، والزوجات الكافرات

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا: امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَقِيلَ (يقال لهما يوم القيامة) ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ[10]. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ

فقال: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ" الخ، أي جعل الله فيها كفارة يمين. قيل: إن النبيّ عليه السلام كفر يمينه، وأصاب جاريته".

فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[11]، وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ، وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ[12].

- تعليق

يطرح التشابه بين الآية الخامسة من هذه السورة، وهي قوله تعالى: "عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ: مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا"[5]، وبين الآية الثامنة والعشرين من سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا"[28]، أقول يطرح هذا التشابه مسألة العلاقة بين الآيتين. وقد سبق أن بينا في سورة الأحزاب أن الآية الثامنة والعشرين التي تخير نساء النبي بين البقاء معه وبين أن يسرحهن، كانت جواب على طلب زوجاته منه عليه السلام الزيادة في النفقة عليهن خصوصا بعد أن أفاء الله عليه أموال بني النضير وبني قريظة، وأنه عليه السلام غضب وهاجرهن شهرا، ثم تدخل كل من أبي بكر وعمر بن الخطاب ونزلت الآية المذكورة وأخرى في نفس الموضوع أعادت بناء العلاقة بين النبي وزوجاته بالصورة التي شرحناها هناك في سورة الأحزاب.

أما هنا في سورة التحريم فالأمر يتعلق، لا بطلب زوجاته الزيادة في النفقة، بل بغيرة زوجاته، بعضهن على بعض، وبالخصوص "عدم النظر بعين الرضا" من جانبهن إلى علاقته الجنسية مع "ما ملكت يمينه" من الجواري.

قلت: والذي يجب أن يأخذه المرء بعين الاعتبار بصدد زوجات النبي وعلاقة بعضهن ببعض، وغيرة بعضهن على بعض هو أنه عليه السلام لم يكن يتزوج دائما من أجل الشهوة أو العلاقات الجنسية، بل كثيرا ما كان يتخذ من علاقات المصاهرة وسيلة لضمان استمالة جهة من الجهات إلى الإسلام وتوطيد العلاقة مع جهات أخرى لهذا الغرض، وأحيانا أخرى كان يتزوج امرأة منعا لتشردها هي وأبناؤها بعد استشهاد زوجها في غزوة من غزواته عليه السلام.

وفي هذا الإطار نستحضر المعطيات التالية:

1- في المرحلة المكية لم يتزوج أكثر من واحدة هي زوجته الأولى خديجة بنت خويلد، تزوجها قبل النبوة، وكان عمرها حين تزوجها نحو 45 سنة،

وسنه هو نحو 25 سنة. وقد توفيت في السنة العاشرة للنبوة عن عمر يناهز الخامسة والستين.

1- بعد وفاتها خطبت له امرأة من معارفه عائشة بنت أبي وكانت صبية في السابعة أو التاسعة من عمرها. وتفيد بعض الروايات أنها كانت مخطوبة أو على وشك أن تتم خطوبتها مع شاب من معارف أهلها، ولكن أهلها لم يكونوا متحمسين له، فجاءت خطبة المرأة الوسيط كنوع من حل المشكل، ذلك أن المرأة الوسيط هي التي عرضت على الرسول الزواج بعد وفاة خديجة واقترحت عليه فتاة صغيرة لم تصل بعد سن الدخول عليها هي عائشة. ولا يستبعد أن تكون على علم بعدم ارتياح أبي بكر إلى العائلة التي خطبتها فتكون المرأة الوسيط قد تصرفت وهي تعرف ما تفعل... تعرف على الأقل أن عائشة الصبية لا يمكن أن تقوم في الحين مقام الزوجة.

2- وفي نفس الوقت تقريبا خطبت له هذه المرأة الوسيط امرأة أخرى مطلقة ومسنة هي سودة بنت زمعة، وكانت قبله عند ابن عمها، وكان قد هاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ثم رجع بها إلى مكة فمات عنها، فلما انقضت عدتها اقترحتها المرأة الوسيط على النبي فقبل الدخول بها في مكة -ربما حلا لمشكلتها بوصفها أرملة فقدت زوجها المسلم في الهجرة إلى الحبشة التي اضطر إليها كغيره من المسلمين المضطهدين من طرف قريش. تزوجها الرسول عليه السلام وهي مسنة وهاجر بها إلى المدينة، ولما شبت عائشة وقرر الدخول عليها عرض على سودة أن يطلقها فطلبت منه الإبقاء عليها عنده وأنها تتنازل عن ليلتها راضية لعائشة، لأنه لم يكن لها ملجأ آخر، خصوصا وقد بلغت من العمر ما لم يعد لها معه أمل في الزواج ثانية.

3- ثم تزوج عليه السلام حفصة بنت عمر بن الخطاب، ولم تكن شابة، بل كانت أرملة فقد زوجها خنيس بن خذافة السهمي، قيل في غزوة بدر وقيل في غزو أحد. ويمكن النظر إلى زواجه منها بكونه مبررا من ناحيتين، فهي بنت عمر بن الخطاب الرجل الثاني في الدعوة بعد أبي بكر، وأيضا لكونها ترملت في زوجها في غزوة من أجل انتصار الإسلام مثلها مثل سودة. وقد أصبحت صديقة لعائشة، وهذا مفهوم.

4- وتزوج عليه السلام، وفي نفس الإطار، زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصة، وكانت تسمى أم المساكين، لرحمتها إياهم ورقتها

عليهم، كانت تحت عبد الله بن جحش، وعندما استشهد في موقعة أحد تزوجها الرسول لنفس السبب.

5- بعدها تزوج عليه السلام أم سلمة، هند بنت أبي أمية، كانت تحت أبي سلمة، وله منها أولاد، فمات عنها في الحبشة وكان قد هاجر إليها ممن هاجر من المسلمين، هذا جانب وجانب آخر وهي أنها كانت من قبيلة بني مخزوم التي كانت من ألد خصوم الدعوة المحمدية وكان زعيمها أبو جهل قد قتل في بدر، فهذا زواج مصالحة ورد اعتبار.

6- وتزوج زينب بنت جحش بن رباب من بنى أسد بن خزيمة، وهي بنت عمته كانت تحت موله زيد بن حارثة تزوجها، في قصة سبق عرضها.

7- تزوج بعد ذلك جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة، كانت في سبي بنى المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبها، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابتها، وحررها وتزوجها وأصبح بنو المصطلق يفتخرون بكونهم أصبحوا أصهار رسول الله، فأعتق السلمون مائة أهل بيت من بني المصطلق، وقالوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يجوز اعتبارهم أسرى.

8- أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، كانت تحت عبيد الله بن جحش، فولدت له حبيبة فكنيت بها، وهاجرت معه إلى الحبشة، فارتد عبيد الله وتنصر، وتوفي هناك، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أميه الضمري بكتابه إلى النجاشي في المحرم سنة 7 هـ. خطب عليه أم حبيبة فزوجها فأصبح أبو سفيان زعيم قريش صهرا للنبي... والبقية تأتي..

فهذه ثمان نساء من أصل عشرة تزوج بهن بعد وفاة خديجة. وكما رأينا فقد كان زواجه منهن جميعا في إطار الدعوة وما اقتضته من تحالفات وتوطيد علاقات، وهن جميعا من قبائل مختلفة ووضعيات متباينة وقبائل متنوعة، ومنازل متفاوتة.

108- سورة التغابن

- تقديم

سورة مدنية في قول الأكثرين. وعن ابن عباس أن الآيتين 14-15 "نزلت في رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا الهجرة فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعُوهم يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلّم".

- نص السورة

1- مقدمة : منكم كافر ومنكم مؤمن، ويعلم ما تسرون وما تعلون !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (يعبدنه: يخضعون لتدبيره)، **لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[1]. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ، فَمِنْكُمْ كَافِرٌ** (منكر لخلقه إياكم) **وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ** (بذلك) **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"[2]. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ** (بما يحفظ لها نظامها وانتظام حركاتها)، **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ"[3]. يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**[4] (بالضمائر والنيات).

2- جزاء الذين كفروا من قبل ... فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ (عاقبة كفرهم) **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[5]: ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا؟ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا، وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ"[6]. زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا! قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ، ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ"[7]. فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا** (أي القرآن)، **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"[8]: يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ** (البعث)، **ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ** (شعور أهل النار بالغبن إزاء أهل الجنة)؛ **وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ**

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[9]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[10].

3- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (بتقديره)؛ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ (لليقين)(1). وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[11]. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[12]. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[13]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ، وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[14]. (2) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[15] (3).

4- خاتمة : وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ (من يتغلب على ميل نفسه نحو البخل) فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[16]. إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (تنفقوا في سبيل الله) يُضَاعِفْهُ لَكُمْ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ: عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[18].

– التعليق

تتناول هذه السورة موضوعا خاصا ، هو وضعية المسلمين الذي بقوا في مكة ولم يهاجروا.

---

1 – المصائبُ التي أصابت المسلمين من معاملة المشركين فأنبأهم الله بما يسليهم عن ذلك بأن الله عالم بما ينالهم. وقال القرطبي «قيل سبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب».

2 – في رواية ذكرها الطبري عن ابن عباس، في معنى قوله تعالى: "يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وأَوْلادِكم عَدُوّا لَكُمْ فاحذَرُوهُمْ" قال : كان الرجل إذا أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة تمنعه زوجته وولده، فقال الله: إنهم عدوّ لكم فاحذروهم واسمعوا وأطيعوا، وامضوا لشأنكم، فكان الرجل بعد ذلك إذا مُنِع وثُبط مرّ بأهله وأقسم، والقسم يمين ليفعلنّ وليعاقبنّ أهله في ذلك، فقال الله جلّ ثناؤه وَإِنْ تَعْفُوا وتَصْفَحُوا وتَغْفِرُوا فإن اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

3 – انظر التقديم.

1- في المقدمة نوع من التسلية للمؤمنين الذين اضطروا للبقاء مع المشركين في مكة، فترتفع بقضيتهم من مستوى الخاص إلى مستوى العام: كل ما في السماوات والأرض وما يجري فيهما من حركات وحوادث، ومما يسر الإنسان وما لا يسره، هو من تدبير الله. خلق الناس ذكورا وإناثا فمنهم كافر ومنهم مؤمن. خلق السماوات والأرض بالحق، أي بما يحفظ نظامها وحركاتها واتساق أجزائها نجوما وكواكب، فجاءت على أفضل ما يكون، وخلق الإنسان فصوره في أحسن صورة، يعلم ما تسرون وما تعلنون، وإليه المصير. مصير الكل.

2- وتأتي الفقرة الثانية لتنتقل من كتاب الطبيعة وما وراء الطبيعة إلى كتاب التاريخ وما وراء التاريخ: أقوام سابقون ظلموا وكذبوا رسلهم فلاقوا وبال أمرهم في الدنيا إذ جاءتهم الصواعق فأهلكتهم، وفي الآخرة سيكون مصيرهم جهنم. وإذا كان مشركو مكة ينكرون البعث فهم واهمون : إنهم سيبعثون كما سيبعث الذين آمنوا وحين الحشر والجمع سيشعر الكفار بالغبن عندما يرون المؤمنين يسارعون إلى الجنة بينما هم يساقون إلى النار.

3- وتأتي الفقر الثالثة بعد هذين التمهيدين لتطرح الموضوع طرحا مباشرا، فتخاطب المسلمين الذين بقوا في مكة وسط المشركين مضطرين : "مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (بتقديره)؛ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ" (لليقين). إذن: وضعيتهم ليست استثناء، إنها جزء من النظام الكوني الذي هو من تدبير الله وتقديره، فليتغلبوا على معاناتهم باستحضار هذه الحقائق العامة ومغالبة وضعهم الخاص باليقين. وإذا كان من أهليهم وأولادهم من لم يؤمنوا ولم يتحرروا من تهديدات وإغراءات مشركي مكة، الهادفة إلى استعمالهم للتأثير على آبائهم المؤمنين، فعلى هؤلاء أن ينتبهوا إلى هذا النوع من الضغوط ويحذروا من الاستسلام لها. وعليهم أن لا يردوا الفعل بصورة سلبية، بل عليهم أن يعفو ويصفحوا عن أهليهم الذين يستعملهم مشركو مكة للضغط عليهم. إن الأولاد والمال فتنة، تفتن الإنسان فتدفعه إلى اتخاذ قرارات متطرفة في هذا الاتجاه أو ذاك، فليتجنبوا السقوط فيها.

4- وتختم السورة بتوجه الخطاب إلى المؤمنين بكيفية عامة تدعوهم إلى اتقاء فتنة المال والأولاد : "فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[16].

109- سورة الصف

- تقديم

الأكثرون أن هذه السورة مدنية، وأنها نزلت بعد وقعة أحد. فقد روي من جهات مختلفة أن نَفَراً من أصحاب رسول الله (ص) تذاكروا فقالوا : "لو نعلم أيَّ الأعمال أحب إلى الله لعملناه" فأنزل الله تعالى: "سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[1]، يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولونَ ما لاَ تَفْعَلُونَ"[2]؟ قال الراوي: فقرأها علينا رسول الله" وأضافت رواية أخرى : "حتى ختمها أو فقرأها كلها". وفي رواية أخرى: "كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن اللـــه عزّ وجلّ دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر اللـــه أن أحب الأعمال: إيمان به، وجهاد أهل معصيته، الذين خالفوا الإيمان ولم يُقرّوا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم. فأنزل اللـــه سبحانه وتعالى: "يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ"، وفي رواية أخرى: "أنهم قالوا: لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى اللـــه لسارعنا إليها فنزلت "هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[10]" الآية، فابتلوا يوم أحد فنزلت "يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ" تعيّرهم بترك الوفاء.

- نص السورة

1- مقدمة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[1]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ[2]؟ كَبُرَ مَقْتًا (قولا كريها) عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ[3]؛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ[4].

2- زيغان قوم موسى وتكذيب قوم عيسى. ووعد للذين آمنوا وجاهدوا..

و(اذكر) إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ؟ فَلَمَّا زَاغُوا (مالوا عن تصديقه) أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (عن الحق) وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[5]. وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ. فَلَمَّا جَاءَهُمْ (عيسى) بِالْبَيِّنَاتِ (المعجزات) قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ[6]. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ؟! وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[7]. يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ[8] [1]. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ[9]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[10] [2]: تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[11]: يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[12]، وَأُخْرَى (منحة في الدنيا) تُحِبُّونَهَا (وهي) : نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ[13].

3- خاتمو: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ! فَآمَنَتْ

---

[1] – قيل: "وسبب نزول هذه الآية ما حكاه عطاء عن ابن عباس: أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أبطأ عليه الوحي أربعين يوماً؛ فقال كعب بن الأشرف: يا معشر اليهود، أبشروا فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتّم أمره؛ فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحي بعدها.

[2] – قال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون؛ وذلك أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم: لو أذنت لي فطلّقتُ خولة، وترهّبتُ واختصيْتُ وحرّمتُ اللحم، ولا أنام بليل أبداً، ولا أفطر بنهار أبداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «إنّ مِن سُنّتي النكاح ولا رهبانية في الإسلام إنما رهبانيةُ أمتي الجهادُ في سبيل الله وخِصاءُ أمتي الصومُ ولا تحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم. ومِنْ سُنّتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم فمن رغِب عن سُنّتي فليس مني». فقال عثمان: والله لوددْتُ يا نبي الله أي التجارات أحبّ إلى الله فأتّجر فيها؛ فنزلت. وقيل: "يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ (أي سأدلكم) عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ".

طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ[14] (غالبين منتصرين) [(3)].

- تعليق

تتميز هذه السورة عن سابقاتها بكونها تقوم بتعبئة المسلمين بصورة مباشر للاستعداد لعمل يتطلب تجهيزا وإنفاقا.

1- المقدمة: وجهت خطاب لوم وعتاب إلى الذين آمنوا : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ" ؟ والمقصود هنا هو أنهم يتعهدون ويتنافسون على صعيد القول بأنهم سيقاتلون عند استدعائهم لقتال المشركين وسيقومون قومة رجل ويحملون عليهم فلا يتركون لهم مجالا لا للكر ولا للفر! الشيء الذي تشكك فيه السورة فتدعوهم إلى القتال صفا واحدا، فعلا وليس قولا، وتؤكد "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ"[4].

2- وفي الفقرة الثانية تذكرهم بالموقف المتخاذل الذي وقفه كل من اليهود مع موسى، والنصارى مع عيسى، لتؤكد لهم أن الله بعث محمدا بالدين الحق ليظهره على الدين كله، وبالتالي فالدعوة المحمدية مستمرة على هذا الطريق، ونفسها طويل، فإذا هم يريدون حقا القيام بـ"تجارة" تنجيهم من عذاب أليم يوم القيامة، فالسبيل واضح : "تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"[11]. وهنا تكشف السورة عن جزاء آخر في الدنيا عبرت عنه بقوله تعالى: "وَأُخْرَى (منحة في الدنيا) تُحِبُّونَهَا (وهي) : نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"[13]. و"الفتح القريب" المعني هنا هو صلح الحديبية، الذي مهد لاستسلام أهل مكة. وستأتي سورة الفتح بعد السورة التالية لتتحدث عن هذا الفتح "القريب" حين يصير حقيقة واقعية، وبشرى مؤكدة.

3- وتختم السورة باستعادة سؤال عيسى حوارييه: "مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ"، وتوجه السؤال نفسه إلى الذين آمنوا برسالة النبي محمدا عليه السلام : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ". وتؤكد لهم أنهم إن انقسموا، كما انقسم بنو

---

[3] - سبق أن شرحنا ملابسات هذه المسألة في "المدخل إلى القرآن" الفصل الأول فقرة 3-أ

إسرائيل إزاء عيسى إلى طائفتين: طائفة نصرته وطائفة كذبته، فإن الله سيؤيد "الَّذِينَ آمَنُوا برسوله محمد عليه السلام، وسيكون النصر حليفهم، كما أيد الَّذِينَ آمَنُوا بعيسى عَلَى عَدُوِّهِمْ، "فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ"[14] (غالبين منتصرين).

110- سورة الجمعة

- تقديم

هذه السورة مدنية بالاتفاق. وجل ما ورد حولها من أخبار يدور حول الاسم الذي سميت به، أعني "الجمعة": معنى الجمعة، وصلاة الجمعة. سنتحدث هنا عن الموضوع الأول تاركين الثاني إلى التعليق. في المرويات التي تعرض لنسب النبي عليه السلام أن جده السابع كعب (بن لؤيّ بن غالب بن فهر الملقب بقريش)[1] كان يجمع قومه "يوم العروبة": أي يوم الرحمة الذي هو يوم الجمعة. ويقال إنه أول من سماه يوم الجمعة لاجتماع قريش فيه إليه، قيل: وكان بينه وبين مبعث الرسول خمسمائة سنة وستون سنة. وقيل إن كعباً هذا هو أول من قال "أما بعد" فكان يقول: أما بعد: فاسمعوا وافهموا، وتعلموا واعملوا، ليل ساج، ونهار صاح، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين، فصلوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم، وثمروا أموالكم، الدار أمامكم". قيل سمي كعبا لعوه وارتفاعه، (لأن كل شيء علا وارتفع فهو كعب، وقيل للكعبة كعبة). ولعلوه وارتفاع شأنه أرّخوا بموته، حتى كان عام الفيل فأرخوا به، ثم أرخوا بعد عام الفيل بموت عبد المطلب.

- نص السورة

1- مقدمة : هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِه ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

---

1 - هو: محمد بن عبد اللّه، بن عبد المطلب (واسم عبد المطلب : شَيْبَة)، بن هاشم (واسم هاشم : عمرو)، بن عبد مناف (واسم عبد مناف : المُغيرة)، بن قُصي، بن كِلاب، بن مُرّة، بن كعب، بن لُؤيّ ، بن غالب بن فهر (وهو الملقب بـ "قريش") ابن مالك، بن النَّضر، بن كنانة، بن خُزيمة، بن مُدْرِكة، (واسم مدركة:عامر)، بن إلياس، بن مُضر، ابن نزار، بن معد بن عدنان، بن أدّ (ويقال أدَد)، بن مُقوّم، بن ناحور، بن تيْرَح، بن يَعْرُب، بن يَشْجُب، بن نابت، بن إسماعيل، بن إبراهيم.

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ (الطاهر من كلّ ما يضيف إليه المشركون به") الْعَزِيزِ (القوي) الْحَكِيمِ[1] (يتصرف بحلم وحكمة). هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ (وهم العرب سمو بذلك لأنهم ليس لديهم كتاب من الله)[2] رَسُولًا مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ (القرآن) وَالْحِكْمَةَ (حسن الفهم والتصرف)، وَإِنْ كَانُوا (الأميين/العرب) مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[2]، وَآخَرِينَ مِنْهُمْ (من الأميين من غير العرب بُعث الرسول محمد إليهم كذلك) لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ (لم يلتحقوا بعد بالإسلام)، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[3]. ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ (إرسال الرسل) يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[4] [(3)].

2– مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ (اليهود، وهم الذين يسمون غيرهم بالأميين من "الأمم" لكونهم ليس لهم كتاب) ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا (لم يعملوا بها) كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا (كتبا لا يعلم ما فيها: فما استفادوا من الكتاب المنزل إليهم)، بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ (ما أقبح أن يشبه الإنسان بالحمار) وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[5]. قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا (اليهود) إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ (أحباء) لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[6] (لأنهم لو كانوا فعلا أحباء الله كما يقولون لكانت الجنة مضمونة لهم ولتمنوا الموت أي المسارعة إلى الجنة) ؛ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا (بسبب ما) قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (من مخالفة أوامر الله)، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ[7]. قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ، ثُمَّ تُرَدُّونَ

---

2 – ذكر القرطبي عن ابن عباس أنه قال: "الأميُّون العرب كلهم، من كتب منهم ومن لم يكتب، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب".

3 – قالوا: "إن الله أقام رسوله للناس بين العرب يدعوهم وينشر رسالته إلى جميع النّاس من بلاد العرب، والدلائل على عموم رسالته من القرآن كما في سورة الأعراف "قُلْ يأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً" وفي سورة سبأ "وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً". وروي عن أبي هريرة أنه قال: كنّا جلوساً عند النبي (ص) فأنزلت عليه سورة الجمعة فتلاها فلما بلغ "وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ" قال له رجل: من هم يا رسول الله"؟ قال الراوي: "فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، ووضع رسول الله يده على سلمان، وقال: لو كان الإيمانُ عند الثريا لناله رجال من هؤلاء"؟ قالوا: "وهذا وارد مورد التفسير لقوله تعالى: "وَآخَرِينَ"...

إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ (إلى الله الذي يعلم ما تسرون وما تعلنون) فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[8].

3- خاتمة: قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[9] (ذلك ما سيجعلكم مميزين عن أهل الكتاب الذين لا يعملون بما في التوراة). فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (بالعمل والتجارة)، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[10]. وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا (4) انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا! قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[11].

- تعليق

تشتمل السورة على ثلاث فقرات:

- الفقرة الأولى (المقدمة) تعلن أن الله بعث إلى "الأميين" (العرب) رسولا منهم، جاءهم بكتاب يرتفع به شأنهم من أمة لا كتاب لها إلى أمة لها كتاب، يتحدث إليهم بلغتهم وحسب معهودهم...

- الفقرة الثانية تتحدث عن اليهود الذين كانوا وحدهم "أهل الكتاب" وكيف أنهم لم يعودوا يعرفون ما في هذا "الكتاب" ولا يطبقون ما فيه من تعاليم، فصار حالهم أشبه بحال حمار يحمل أسفارا..

---

4 - ذكر القرطبي عن قتادة أنه: بينما رسول الله (ص) يخطب الناس يوم الجمعة، فجعلوا يتسللون ويقومون حتى بقيت منهم عصابة، فقال: كم أنتم؟ فعدّوا أنفسهم فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة ثم قام في الجمعة الثانية فجعل يخطبهم قال سفيان: ولا أعلم إلا أن في حديثه ويعظهم ويذكرهم، فجعلوا يتسللون ويقومون حتى بقيت عصابة، فقال: كم أنتم، فعدّوا أنفسهم، فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة ثم قام في الجمعة الثالثة فجعلوا يتسللون ويقومون حتى بقيت منهم عصابة، فقال كم أنتم؟ فعدّوا أنفسهم، فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة، فقال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوِ اتَّبَعَ آخِرُكُمْ أَوَّلَكُمْ لالْتَهَبَ عَلَيْكُمُ الوَادي نارا"، وأنزل الله عزّ وجلّ: "وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِما". و"عن جابر بن عبد الله، قال: كان الجواري إذا نكحوا (أي تجوزا وعرسوا) يمرّون بالكبر والمزامير فيسرع من في المسجد يصلون مع النبي ويتركونه قائما على المنبر، وينفضون إليها، فأنزل الله "وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا".

ووجه الصلة بين هذه الفقرة والتي سبقتها هو الرد على يهــود المدينــة الذين كانوا يكتمون ما ورد من التبشير بأن محمد بن عبد الله هو رسول من الله من جهة، ومن جهة أخرى لم يعد اليهود يعملون بما في التوراة مـن تـشريعات وأوامر نواه. لقد كلفوا بالعمل وفق ما ورد في التــوراة ولكــنهم تخلــوا عنهــا فأصبحوا كالحمار يحمل كتبا لا يعرف قيمتها ولا مضمونها...

3- وتأتي الخاتمة لتدعو المؤمنين أصحاب النبي عليه إلى احترام دينهم والعمل به وملازمة الرسول حين صلاة الجمعة إلى النهاية، فاضحة سلوك كثيرين منهم الذين كانوا إذا سمعوا ضجيج مقدم قافلة تجارية أو حفل عــرس يهرعــون إليه قاطعين الصلاة، تاركين النبي يقوم بالصلاة مع أفراد قليلين.

وبخصوص صلاة الجمعة نورد المرويات والأخبار التالية

ثَبت أن أهل المدينة (أعني الذين أسلموا منهم) قد أدوا صلاة الجمعة قبل قدوم الرسول عليه السلام مهاجرا إليها. ولما جاء المدينة ثبتها فقد رُوي عن ابن سيرين أن الأنصار جمَّعوا الجمعة قبل أن يقدمَ النبي (ص)المدينة قالوا: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه، وللنصارى يوم مثل ذلك، فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوماً لنا نذكر الله ونصلي فيه. وقالوا: إن لليهود السبت وللنصارى الأحد فــاجعلوه يــوم العَروبة. فاجتمعَوا إلى أسعدَ بنِ زُرَارةَ فصلى بهم يومئذٍ ركعتينِ وذكّرهم. وعندما هاجر الرسول إليهم ثبتها "فكان فرضها ثابتاً بالسنة قولاً وفعلاً".

وفي البخاري عن جابر بن عبد الله قال: "بينما نحن نصلّي مع النبي (ص) وهو يخطب يوم الجمعة إذْ أقبلتْ عير (قافلة) من الــشام تحمــل طعامــاً فانفتــل (انصرف) الناس إليها حتى لم يبق مع النبي (ص) إلا اثنا عشر رجلاً أنا فــيهم". وفي رواية أخرى: وفيهم أبو بكر وعمر، فأنزل الله فيهم هذه الآيــة التــي فــي الجمعة : "وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً".

وفي رواية أخرى: "كان النبي صلى الله عليه وسلّم يخطب فقدم دِحية بن خليفة الكلبي بتجارة فتلقاه أهله بالدفوف فخرج الناس". وفــي أخــرى "أن أهــل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد فقدم دحية بتجارة من زيت الشام وطعام وغير ذلك فخرج الناس من المسجد خشية أن يُسبقوا إلى ذلك".

هذا من جهة، ومن جهة أخرى : قال جابر بن عبد الله "كانت الجواري إذا نَكحن (تزوجن) يمرّرن بالمزامير والطَّبْل فانفضّوا إليها"، فلذلك قــال الله تعــالى: "وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئماً". قيل إن ذلك تكــرر ثــلاث مرات، فلا شك أن خروجهم كان تارة لأجل مجيء العِير، وتارة لحضور اللهو.

111- سورة الفتح

- تقديم

اتفقوا على أن هذه السورة نزلت عند رجوع النبي من صلح الحديبية أواخر سنة ست للهجرة. (تقع الحديبية على 22 ميلا على غرب مكة_على طريق جدة). وفيما يلي تفصيل لهذا الحدث التاريخي المهم كما روته مختلف المصادر:

أخبر عليه السلام المسلمين أنه يريد العمرة، "واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه، حذراً من أن تردَهم قريش عن عمرتهم، ولكن هؤلاء الأعراب أبطؤوا عليه لأنهم خافوا هزيمة المسلمين فاعتذروا قائلين: "شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا"، فخرج عليه السلام بمن معه من المهاجرين والأنصار في نحو ألفٍ وخمسمائة، وأخرج الهَدْيَ (للعمرة) ليعلم الناس أنه لا يقصد مكة محاربا بل معتمرا، "ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح إلا السيوف في القُرُب". سار جيش الرسول حتى وفي الطريق جاءه مخبروه بأن قريشاً قررت صده عن مكة واستعدوا لمحاربته، فاتخذ الرسول طريقا آخر غير معتاد إلى مكة إذ جاءها من أسفلها، الشيء الذي كان سيجعل المسلمين يهزمون قريشا لو هجموا عليهم، لكن الرسول فضل تجنب القتال حتى لا يقتل المسلمون إخوانا لهم في مكة يخفون إسلامهم. وهكذا أمر بالنزول في الحديبية. وهناك جاءه مبعوث من قريش يسأل عن سبب مجيء المسلمين، فأخبره عليه السلام بأنه يقصد العمرة، لا الحرب. رجع مبعوث قريش إليهم وأخبرهم بذلك فشكوا في صدقه لأنه من قبيلة محالفة للرسول، فبعثوا آخر من حلفائهم فأكد لهم ما جاء به الأول من أن "القوم أَتَوا معتمرين". ثم بعثوا ثالثا ليتأكد، وهو "سيد أهل الطائف"، فتعرف على الوضع وعاد ونصح قريشا بعد الحيلولة دون أداء العمرة التي جاء من المسلمون أجلها. فكان جوابهم "تردّه عامنا ويرجع إلى قابل". فقرر الرسول أن يبعث إليهم مبعوثا من عنده فاختار عثمان بن عفان لوجود أهله هناك (بنو أميةَ) يحمونه، ذهب عثمان في جوار أحد أكابر الأمويين، وأبلغ قريشا رسالة النبي، فرفضوا قبول دخوله عليهم عنوة، ثم إنهم حبسوه، فشاعَ عند المسلمين أن

عثمان قُتِلَ، فقرر عليه الصلاة والسلام حينما سمع ذلك خوض الحرب، ودعا أصحابه ومن جاء معه للبيعة على القتال فبايعوه على الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان، فشاعَ أمر هذه البيعة (بيعة الرضوان) في قريش فداخلهم منها رعب، ثم أرسلوا فرقة من مقاتليهم لاختبار المسلمين فأسروا.

عند ذلك مالت قريش إلى الصلح وبعثت مبعوثا منها إلى الرسول وقع معادة الصلح مع قريش وتنص على ما يلي:

- تبادل الأسرى.
- هدنة بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنوات.
- من جاء المسلمين من قريش يردّونه، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون ردّه.
- أن يرجع النبي من غير عمرة ذلك العام، ثم يأتي في العام المقبل فيدخل مكة بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش، فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القرب والقوس.
- من أراد من القبائل أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

قبل عليه والسلام كل هذه الشروط بينما استاء المسلمون منها، وقالوا: كيف نَرُدُّ إليهم من جاءنا مسلماً، ولا يردّون مَنْ جاءهم مُرتَدا؟ فقال عليه والسلام: «إنه من ذهب منّا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً». على أن أشد ما اغتاظوا منه هو صدُّهم عن الطواف بالبيت ذلك العام لأن الرسول كان أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت آمنين. ومضى الرسول يملي شروط الصلح بين الطرفين، وكان الكاتب علي بن أبي طالب، قال له عليه السلام اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال ممثل قريش: "اكتب باسمك اللهمّ" على عادة العرب، وهم لا يعترفون بـ "الرحمان الرحيم" فأمر الرسول عليا بكتابة ذلك. ثم أملى: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»... فقاطعه ممثل قريش قائلا: لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك، اكتب محمد بن عبد الله. فأمر عليه السلام علياً بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله، فامتنع، فمحاها الرسول بيده. وكتبت نسختان: نسخة لقريش ونسخة للمسلمين.

وبعد كتابة المعادة جاء بعض المسلمين كانت قريش قد منعتهم من الهجرة، يطلبون الانضمام إلى إخوانهم في المدينة فردهم الرسول وطلب منه الصبر وأوضح لهم أنه عقد مع قريش صلحا وأنه على ذلك وأنه لن يغدر بهم.

هذا، وقد دخلت قبيلة خُزاعة في عهد الرسول الله، بينما دخل بنو بكر في عهد قريش، وبينما نزاع موروث. وفي النهاية، أمر عليه السلام أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم، وينحروا الهدْي ليتحللوا من عمرتهم، فصعب ذلك على المسلمين حتى إنهم لم يبادروا بالامتثال، فتقدم عليه السلام إلى هَدْيِهِ فنحره ودعا بالحلاق فحلق رأسه، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدي فنحروه وحلقوا، ثم رجع المسلمون إلى المدينة، وقد أمن كلّ فريق الآخر.

وفي رجوعه عليه السلام من الحديبية نزلت عليه هذه السورة : سورة الفتح.

- نص السورة

1- مقدمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا[1] (الإشارة إلى اعتراف قريش بدعوته وتوقيعها معه معاهدة صلح هي المعروفة بـ "صلح الحديبية")، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ(1)، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا[2]، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا[3].

2- هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ...

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ (الاطمئنان) فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ (بسبب الصلح) لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ. وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (فصرف المشركين عنكم بالصلح)، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[4]: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا[5]. وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ (ظنوا أن المشركين سيخوضون حربا يهزمون فيها المسلمين)،

---

1 - اختلفوا في المقصود بالذنب هنا، قال بعضهم : ذنبه في الجاهلية، وقيل: ما ذكر حول ما أغار زوجاته عليه (سورة التحريم) حيث حرم على نفسه ما لم يحرمه الله عليه من جهة ومن اشتهائه زوجة زيد الخ.

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ (الهزيمة ستدور عليهم)، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا[6]. وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا[7]. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا (على قومك) وَمُبَشِّرًا (يحمل البشرى) وَنَذِيرًا[8] (ينذر ويتوعد)، لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ (تعظمون الله) وَتُوَقِّرُوهُ (وتجلوه) وَتُسَبِّحُوهُ (تصلون له) بُكْرَةً (صباحا) وَأَصِيلًا[9] (2). إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ (يوم الحديبية على أن يقاتلوا ولا يفروا) إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (قوته أكبر من قوتهم)، فَمَنْ نَكَثَ (من تخاذل ولم يلتزم بالبيعة) فَإِنَّمَا يَنْكُثُ (يتخاذل) عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا[10].

3- سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ: شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ...

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ (الذين لم يخرجوا معك): شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا. يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ (كذبوا في اعتذارهم، والحقيقة أنهم توقعوا الهزيمة)! قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[11]. بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ (الهلاك للمسلمين) وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا[12] (جبناء لا قيمة لكم). وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا (أعددنا) لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا[13]. وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا[14]. سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ (مغانم خيبر) لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ (الذي خص تلك المغانم بمن شاركوا في الحديبية)! قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا، كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ (أي قوله عنكم: تقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم)؛ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا (أن نصيب معكم نصيبا من الغنائم) بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا[15] (لا يفهمون أن غنائم خيبر مخصصة لأهل الحديبية). قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ (هوازن وغطفان يوم حنين)[3]، تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ، فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[16]. لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى

---

2 - كانت الصلاة في الأصل مرتين في اليوم: صبحا ومساء.

3 انظر مسلسل الأحداث والغزوات في مقدمة الكتاب.

الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ (في عدم الخروج) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا[17].

4- لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ...

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ (من الشعور بالغبن بسبب ما ورد في المعاهدة)، **فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**[18] (صلح الحديبية كان منطلقا لمسلسل سينتهي بعد أقل من عامين باستسلام مكة، وأثابهم كذلك) **وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**[19]. **وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا** (لو لم يقع الصلح ولم تم النصر بالقتال) **فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ** (=غنائم خيبر)، **وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ** (أي أيدي قريش بفضل الصلح)، **وَلِتَكُونَ** (عملية الصلح) **آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**[20]. **وَأُخْرَى** (غنائم مكة) **لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا** (بسبب الصلح) **قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**[21]. **وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا** (مشركو قريش) **لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ** (لفرّوا)، **ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا**[22]. (ولكن) **سُنَّةَ اللَّهِ** (تقديره للأشياء) **الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ** (اقتضت الصلح وعدم القتال)، **وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**[23]. **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ** (فلم يقع اصطدام مع أنهم كانوا فريسة سهلة للمسلمين) **مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**[24]. **هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَالْهَدْيَ** (سبعين بدنة: ناقة) **مَعْكُوفًا** (محبوسا ومنعوه من) **أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ** (محل نحره في مكة). **وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ** (كانوا في مكة وسط المشركين) **لَمْ تَعْلَمُوهُمْ** (لا تستطيعون تمييزهم وتجنب قتلهم) **أَنْ تَطَئُوهُمْ** (فتطؤون أجسامهم مع أجسام المشركين) **فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ** (فيعيركم الناس بأنكم قتلتم إخوانكم المؤمنين) **لِيُدْخِلَ اللَّهُ** (منهم) **فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ** (... لولا هؤلاء لما كف الله أيدكم عنهم). **لَوْ تَزَيَّلُوا** (لو تميزوا عن المشركين) **لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**[25] (بقتالكم إياهم). **إِذْ** (وحين) **جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ، حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ** (فامتنعوا من ذكر عبارة "رسول الله" في المعاهدة)، **فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ** (ولم يعطوا الفرصة للمشركين لينسحبوا من الاتفاق)، **وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى** (قبلوا عبارة "باسمك اللهم" ومعناها باسم الله، لا إله إلا الله) **وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا** (بعبارة "باسمك

اللهم" أي "باسم الله")، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا[26]. لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ (الرؤيا التي رآها في المنام وهو يدخل مكة. وفعلا) لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ (قبل تحقق الرؤيا) فَتْحًا قَرِيبًا[27] (هو اعتراف قريش بالنبي: معادة صلح الحديبية).

<u>5- خاتمة: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ ...</u>

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا[28] (تأكيد على أن الإسلام سيصير بعد صلح الحديبية هو الدين المنتصر). مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ؛ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ (تفرخ وتفرع) فَآزَرَهُ (قواه)، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ؛ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا[29].

- تعليق

واضح من السورة أن صلح الحديبية كان حدثا تاريخيا، فاصلا بين عهدين. لقد تم فيه اعتراف قريش بالرسول والمسلمين، فتعاملوا معهم معاملة الند للند. ومع أن شروط الحديبية قد بدت لجل المسلمين وكأن فيها غبن لهم، خصوصا وكانوا في وضعية إستراتيجية تمكنهم من النصر على جيش قريش، ومن غنائم كثيرة، فإن الرسول كان يرى شيئا آخر: لم تكن الغنائم بالنسبة له هدفا في ذاتها، ولا كان كسب معركة هو ما كان يسعى عليه. لقد هاجر من مكة بعد أن تعاقد مع أهل المدينة لنصرته من أجل هدف أسمى من القتل ومن الغنائم. وقد عبرت هذه السورة عن هذا الهدف بقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ"، الشيء الذي يعني أن الهدف هو انتصار الدعوة وليس انتصار جيوش. وهل هناك أعظم من اضطرار العدو إلى الاعتراف بصاحب الدعوة، صاحب القضية؟ ذلك أنه بعد هذا الاعتراف سيتحول كل شيء إلى "مسألة وقت". وما يرتبط بالوقت بابه مفتوح على إمكانيات لا تحصى...

وهكذا فالسنوات العشر التي نصت عليها المعاهدة كفترة هدنة، قد تقلصت فعلا إلى سنتين لا غير. لقد استسلمت مكة في السنة الثامنة.

ولكي يعطي الرسول لهذا النصر السلمي الاستراتيجي الذي حصل عليه في الحديبية أبعاده الإستراتيجية كاملة بادر إلى توجيه رسائل إلى ملوك وأمراء المنطقة بما فيهم هرقل الروم وكسرى فارس وحاكم مصر، فضلا عن رؤساء القبائل العربية الذين كانوا أمراء في مناطقهم جنوبا وشرقا وشمالا... وفي جميع هذه الرسائل دعوة إلى الإسلام، وليس إلى الاستسلام: دعوة إلى اعتناق عقيدة التوحيد، والارتباط الروحي بالرسول، بوصفه نبيا ورسولا، لا بوصفه فاتحا أو إمبراطورا. وهكذا كان كل رئيس أو أمير، اعتنق الإسلام دينا، يكتسب بهذا الدين، ومن خلاله، شرعية البقاء في مركزه السياسي أميرا أو ملكا الخ. (انظر رسائل الرسول إلى الملوك والأمراء في "المدخل الفصل الثاني الفقرة **4** أ-و)؟

بعد هذا التذكير ننقل كلمة موجزة حول مضمون السورة:

1- تبدأ السورة بمقدمة تصف ما حدث من صلح بالحديبية بأنه "فتح مبين" وخطوة إلى "نصر عزيز" قوي... سيكون استسلام قريش مكة.

2- وتأتي الفقرة الثانية لتؤكد أن القلق الذي أصاب بعض المسلين من شروط الصلح قد تبدد، إذ أنزل الله السكينة والاطمئنان في قلوب المؤمنين. أما مبايعة المؤمنين للرسول على القتال حتى الموت عندما استنفرهم لذلك، فهي في الواقع مبايعة لله وميثاق معه، ذلك أن أيديهم التي بايعوا الرسول بها، كانت فوقها يد الله وستبقى، بمعنى أن النصر بيد الله، ولذلك "فَمَنْ نَكَثَ (من تخاذل ولم يلتزم بالبيعة) فَإِنَّمَا يَنْكُثُ (يتخاذل) عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا"[10].

3- وتذكر السورة في الفقرة الثالثة بتخلف الأعراب واعتذارهم بالقول "شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا". وترد عليهم بأنهم: "يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِم)! ثم تخاطبهم: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ (الهلاك للمسلمين) وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا". ثم تخبرهم بأنهم سيتعرضون للامتحان قريبا عندما يدعون "إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ (هوازن وغطفان يوم حنين)[4]، تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ. فَإِنْ تُطِيعُوا

---

4 انظر مسلسل الأحداث والغزوات في مقدمة الكتاب. انظر أيضا استطرادا في الموضوع في آخر سورة النصر - لاحقا.

يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا". وتنتهي الفقرة إلى التنبيه إلى أن ما قيل في الأعراب وتخلفهم لا ينطبق على غيرهم ممن لهم أعذار حقيقة مقبولة : "لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ،وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ (في عدم الخروج).

4- تتجه السورة بعد ذلك إلى المؤمنين الذين بايعوا الرسول "بيعة الرضوان" فتثني عليهم، وتطمئنهم بأن المغانم التي كان من المتوقع أن يحصلوا عليها بانتصارهم على قريش في الحديبية، والتي جاء الصلح ليحول دونها، ستعوض بمغانم كثيرة آتية في الطريق، وأن غنائم خيبر التي حصلوا عليها عقب عودتهم من الحديبية هي مجرد "تسبيق" معجل. ومن جهة أخرى أكدت لهم السورة أن الرؤيا التي رآهم فيها الرسول وهم يقومون بشعائر العمرة في المسجد الحرام ستتحقق، قريبا، وبذلك بشرتهم بأن الفتح (فتح مكة) آت وأن المسألة هي مسألة وقت فقط.

5- وتختم السورة بتأكيد هذه البشرى بشرى استسلام مكة وسقوط الشرك، وانتصار دين الله على كل دين: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا".

112- سورة المائدة

- تقديم

هي مدنيّة باتّفاق، ولكنهم اختلفوا في تاريخ نزولها، فقد روي عن عبد الله بن عَمْر وعائشة أنّها آخر سورة نزلت، لكن الأغلبية على أن سورة التوبة هي آخر ما نزل من السور، وقيل: إنّها نزلت بعد النساء، وما نزل بعدها إلاّ سورة براءة، بناء على أنّ براءة آخر سورة نزلت، وقال آخرون إن هذه السورة نزلت في طريق الرسول عليه السلام إلى "حجّة الوداع" (السنة العاشرة)، لاشتمالها على آيات قيل إن الرسول قرأها خلال خطابه أثناء حجة الوداع وهي قوله تعالى: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ" الخ (المائدة: 3). أما نحن فنرجح نزولها عقب صلح الحديبية وأن ما ورد في الآيتين الأولى والثانية منها لا يرتبط بحجة الوداع التي جرت في السنة العاشرة، بل بـــ "عمرة القضاء" المنصوص عليها في صلح الحديبية والتي حدد تاريخها "العام القادم" أي السنة السابعة للهجرة. والجزء الأخير من الآية الثانية يشير إلى واقعة الحديبية بصيغة الماضي القريب: "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ (يحملنكم) شَنَآنُ (بغض) قَوْمٍ (بسبب) أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (في واقعة الحديبية) أَنْ تَعْتَدُوا (عليهم انتقاما)، وَ(وبدلا من ذلك) تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"[2]. وبناء عليه فتاريخ نزلها هو السنة السابعة، وما ورد فيها من ذكر لشعائر الحج ومن المحرمات الخ كان بمناسبة عمرة القضاء وليس بمناسبة حجة الوداع (انظر مزيدا من التفصيل في الهامش رقم 3 أدناه)

- نص السورة

1- مقدمة : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ (قال ابن عباس : "عقود الله التي أوجبها عليكم ، فيما أحل لكم وحرّم عليكم" ومنها ما يلي:).

2- ما حرم على المؤمنين وما أحل لهم...

أ- **أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ** (الإبل البقر والغنم، كبارها وصغارها وأجنتها إذا ذبحت باسم الله) **إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ** (إلا ما سيأتي ذكره)، **غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ** (ولا يحل لكم صيد الوحش) **وَأَنْتُمْ حُرُمٌ** (في حالة إحرام)؛ **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**[1].

ب- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا** (لا تستبيحوا لا تعتدوا على) **شَعَائِرَ اللَّهِ** (أي ما حرم عليكم)، **وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ** (قيل رجب، وقيل ذو القعدة، وهو الشهر الذي حرم الله القتال فيه)، **وَلَا الْهَدْيَ** (لا تغصبوا أو تمنعوا ما يهدى إلى بيت الله من الأنعام)، **وَلَا الْقَلَائِدَ** (قيل: كان الرجل، في الجاهلية، يأخذ لحاء شجرة من شجر الحرم فيتقلدها، أي يضعها في رقبته ورقاب والبهائم، ثم يذهب حيث شاء، فيأمن بذلك)، **وَلَا** (تستبيحوا أموال أناس وأنتم) **آمِّينَ** (قاصدين) **الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ** (ربحا في تجارة) **وَرِضْوَانًا. وَإِذَا حَلَلْتُمْ** (خرجتم من حال الإحرام) **فَاصْطَادُوا** (1)، **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ** (يحملنكم) **شَنَآنُ** (بغض) **قَوْمٍ** (بسبب) **أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** (في واقعة الحديبية) **أَنْ تَعْتَدُوا** (عليهم انتقاما وأخذا بالثأر)، **وَ**(بدلا من ذلك) **تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**[2].

ج- **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ** (2) **وَالدَّمُ** (المسفوح) **وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** (ما ذبح باسم غير الله)، **وَالْمُنْخَنِقَةُ** (الميتة اختناقا)، **وَالْمَوْقُوذَةُ** (الميتة بالضرب)، **وَالْمُتَرَدِّيَةُ** (الميتة بالسقوط من مكان عال أو في بئر)، **وَالنَّطِيحَةُ** (الميتة بالتناطح مع غيرها)، **وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ** (ما أكل منه) **إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ** (باستثناء ما أدركتم حيا من ذلك فذبحتموه باسم الله – ولا يدخل في الاستثناء: الخنزير وما ذبح باسم غير الله)، **وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ** (أي على الحجارة المتخذة أوثانا حرام عليكم كذلك)، **وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ** (لا تطلبوا من الأقداح أن تقسم لكم بما يحل بكم في السفر أو غيره) **ذَلِكُمْ فِسْقٌ. الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ** (أن ترتدوا عن) **دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ؛ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** (3)، **فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ**

---

1 -- كان قدر حرم الصيد من قبل في حالة الإحرام "غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ" الآية 1

2 – المقصود : "هو كل ما فارقته الحياة من دواب البر وطيره بغير تذكية مما أحل الله أكله".

3 – جل المفسرين إن لم يكن جميعهم يقولون إن الآيتين: "الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ؛ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ

(بسبب الجوع إلى أكل ما حرمت عليكم مما ذكر) غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ (أي متعمد تلبية رغبة في) أكل الحرام، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[3].

د- يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ؟ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ (أي ما أحل لكم من الذبائح المذكورة قبل)، وَ(أحل لكم كذلك) مَا عَلَّمْتُمْ (دربتم) مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ (طيورا أو كلابا) تُعَلِّمُونَهُنَّ (على الصيد) مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[4]. الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ. وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (مهورهن) مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (زانين) وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ (صاحبات وعاشقات). وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ[5].

دينًا" نزلتا بعرفة في حجة الوداع، وبعضهم أضاف أن الأخيرة منهما هي آخر ما نزل الخ. وهذا كله لا يستقيم مع السياق، فالكلام الذي قبلهما متصل بالذي بعدهما ومكمل له. فالفقرة ج، أي الآية رقم 3 نص واحد وسياق واحد. فبعد أن عدد الله ما حرم، قال إن ذلك يفصل بينكم وبين المشركين وبه لن تختلط شعائر الإسلام مع شعائر الجاهلية، وبذلك يكون دينكم (أي شعائركم في الحج قد كملت وانفصل عن ما كان في الجاهلية الخ، ثم أردف "فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ" الخ، بمعنى فمن اضطره الجوع اضطرارا إلى أكل بعض ما سبق ذكره، فلا جناح عليه، فالله غفور رحيم. ويستمر نفس الموضوع (ما حرم وما أحل) في الفقرة التالية. وواضح إذن جميع التأويلات التي أدلى بها الرواة والمفسرون (انظر الطبري مثلا) تخرق السياق وبالتالي تتدخل في المعنى بغير وجه صحيح. أما القول بأن الآيتين المشار إليهما نزلتا في حجة الوداع فيقتضي ضرورة أن تكون هذه السورة (المائدة) قد نزلت بعد سورة النصر (فتح مكة)، ففي السيرة أن فتح مكة كان في السنة الثامنة، أما حجة الوداع فقد كانت في آخر السنة العاشرة. لكن هذا يتعارض مع قوله في هذه السورة : فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (المنافقون) يُسَارِعُونَ فِيهِمْ، يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ؛ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ (بنصر: فتح مكة) أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ[52]. فالسورة إذن نزلت قبل فتح مكة سنة ثمانية، والذي نراه هو أن هذه السورة -المائدة- نزلت عقيب الحديبية في السنة السابعة للهجرة بمناسبة "عمرة القضاء"- كما قلنا في التقديم. وهذا الحضور الأول للرسول عليه السلام في مكة -بعد الهجرة- هو المناسبة التي اقتضت بيان شعائر الله، شعائر الحج، والتفصيل في الحلال والحرام الخ. من وجهة نظر الإسلام، وطرح قضية علاقة أهل الكتاب مع التوراة والإنجيل الخ. وبالتالي فهذه السورة هي للتشريع وليس في القصص أو العقيدة أو التعبئة من أجل هذه الغزوة أو تلك.

3- الوضوء والتيمم، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ(المقصود: الوضوء)؛ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا (على جنابة) فَاطَّهَّرُوا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ (جامعتموهن) فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا (ذلك هو التيمم) صَعِيدًا طَيِّبًا: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ. مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[6]. وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا (عندما أسلمتم وآمنتم)، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[7].

4- "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا"! اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ (نفذوا أوامر الله)، شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ (بالعدل)، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا (لا تحملنكم عداوة قوم على عدم التزام العدل معهم)! اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[8]. وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ[9]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ[10]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ (اليهود) أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ (حين هموا باغتيال الرسول والسيطرة على المسلمين) فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ (ففشلوا)، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[11].

5- اليهود نقضوا ميثاقهم، والنصارى "نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ"...

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا[4] وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ: لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ (نصرتموهم) وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (أنفقتم في سبيل الله) لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ[12]؛ فَبِمَا (بسبب) نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً (خشنة كالدرهم المغشوش)، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ (في التوراة) عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا (قسما) مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ (فيها)، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ (خيانة) مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، فَاعْفُ عَنْهُمْ (عن محاولتهم قتلك) وَاصْفَحْ (سمح) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[13]. وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ،

---

4 – انظر المدخل إلى القرآن: القصص في القرآن الكريم. 5- القصص في المدينة فقرة 9

فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ (بين كنائسهم ورهبانهم) الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ[14]. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا (محمدا) يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ! قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ (محمد: هاد يهدي إلى الحق) وَكِتَابٌ مُبِينٌ (القرآن)[15]، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ (الجهل والشقاق) إِلَى النُّورِ (الهداية) بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[16]. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ. قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا! وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[17]. وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ! قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ"[18]. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ (انقطاع) مِنَ الرُّسُلِ أَنْ (كي لا) تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[19].

<u>6- ... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا..</u>

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ[20]. يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ[21]. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ[22]. قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ، أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا، ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[23]. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ[24]. قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ[25]. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ[26]. وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ، قَالَ: لَأَقْتُلَنَّكَ. قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ[27]. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ[28]. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ[29]. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ[30]. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ! قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ[31]. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ

نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ؛ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ[32]. إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا (هم قطاع الطرق ومن في معناهم) : أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ[33]، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ؛ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[34]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[35]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[36]. يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ[37]. وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا (عقوبة) مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[38]، فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[39]. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[40].

7- لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ...

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ (هم المنافقون). وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا (اليهود) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ، سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ (من اليهود خارج المدينة) لَمْ يَأْتُوكَ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ (أحكام التوراة) مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ (من بعد وضع الله ذلك مواضعه): يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا [(5)]! وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ[41]. سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ، أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ (للرشوة)، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِنْ

---

5 – روي أنهم " اليهود، زنت منهم امرأة، وكان الله قد حكم في التوراة في الزنا بالرجم، فنفسوا أن يرجموها، وقالوا: انطلقوا إلى محمد فعسى أن يكون عنده رخصة، فإن كانت عنده رخصة فاقبلوها. فأتوه فقالوا: يا أبا القاسم إن امرأة منا زنت، فما تقول فيها؟ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلّم: «كَيْفَ حُكْمُ اللَّهِ فِي التَّوْرَاةِ فِي الزَّانِي؟» فقالوا: دعنا من التوراة، ولكن ما عندك في ذلك فقال: «ائْتُونِي بِأَعْلَمِكُمْ بِالتَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى». فقال لهم: «بِالَّذِي نَجَّاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَبِالَّذِي فَلَقَ لَكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَاكُمْ وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ إِلاَّ أَخْبَرْتُمُونِي مَا حُكْمُ اللَّهِ فِي التَّوْرَاةِ فِي الزَّانِي"، قالوا: حكمه الرجم. فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلّم فرجمت".

تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ[42]. وكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ[43]. إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا، لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ؛ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ[44]. وكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ. وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[45]. وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ، فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ[46]، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[47]. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[48]. وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ[49]. أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ (وعندهم حكم الله في التوراة)؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ[50]؟ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[51]. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (المنافقون) يُسَارِعُونَ فِيهِمْ، يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ؛ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ (بنصر: فتح مكة) أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ[52]. وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا: أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ! حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ[53].

8- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[54]. إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ[55]. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ[56]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[57]. وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ[58]. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ، وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ[59]. قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً (ثوابا) عِنْدَ اللَّهِ؟ (إنه) مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَ(مَنْ) عَبَدَ الطَّاغُوتَ، أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا (شر مرتبة عند الله) وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ[60]. وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا! و(الحال أنهم) قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ (بقوا كما كانوا: لم يؤمنوا)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ[61]. وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[62]. لَوْلَا (هلا) يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ! لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ[63]. وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ (مقبوضة، غير كريمة)! غُلَّتْ (قبضت) أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا (ما أنزلنا عليك من فضائهم سيزيدهم طغيانا وكفرا)، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ[64]. وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ[65]. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا (طبقوا) التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ (لكثرت الخيرات عندهم)، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ (جماعة لا تغالي في القول والعقيدة)، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ[66]. يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (حول تصرفات اليهود وغيرهم ولا تخش شيئا فالله حافظك من أذى الناس)، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ[67]. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا (تطبقوا) التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا (ما قصصناه عليك من أمرهم سيزيدهم حقدا عليك)، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[68] (فلا تحزن على تكذيبهم لك ولا تخاف). إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى، (كل) مَنْ آمَنَ (منهم) بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[69]. لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ، فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ[70]. وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ (أن لا يكون اختبار من الله لهم)، فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ؛ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ[71].

9- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ...

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ! وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ[72]. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ؛ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[73]. أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ! وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[74]. مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ! انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ[75] (أين يهربون من هذه الحقيقة). قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[76]. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا، وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ[77]. لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ[78]. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[79]. تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ (ينصرون) الَّذِينَ كَفَرُوا! لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ (فجرّ عليهم) أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ[80]. وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ[81]. لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا: الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا! وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا: الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ[82]، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ[83] (6). وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ، وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ[84]. فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ[85]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ[86].

10- كفارة اليمين. وَالْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ... رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ[87]. وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ[88]. لَا

---

6 – قيل: " بعث النجاشيّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم اثنى عشر رجلاً يسألونه ويأتونه بخبره، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم القرآن فبكوا. وكان منهم سبعة رهبان وخمسة قسيسون".

يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ؛ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ. كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[89]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[90]. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ[91]؟. وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[92]. لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا (قبل تحريم الخمر) [7] إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[93].

11- لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ... أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ (صيد البر)، تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ، لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ [8]، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ[94]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ (الإبل والبقر والغنم)، يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ، أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ. عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ؛ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ[95]. أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ (المسافرين)، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[96]. جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ، ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ؛ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[97]. اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[98]. مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ[99]، قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[100].

---

7 - انظر في نهاية شرحنا لهذه السورة استطرادا حول "أسباب النزول: تحريم الخمر نموذجا"

8 - "عن ابن عباس، قوله: أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ قال: هو الضعيف من الصيد وصغيره، يبتلي الله تعالى به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا نالوه بأيديهم، فنهاهم الله أن يقربوه".

12- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآَنُ تُبْدَ لَكُمْ، عَفَا اللَّهُ عَنْهَا؛ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ[101]. قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ[102]. مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ (9)، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ[103]، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ[104]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[105].

13- الشهادة على الوصية حين الوفاة...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ (ليشهد بينكم)، إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ (وأراد أن يوصي)، اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ (أنتم رفاقه في السفر)، أَوْ آَخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ، (إن كنتم في غربة مسافرين) فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ، فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ، لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ، إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآَثِمِينَ[106] (10)، فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآَخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا، إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ[107]. ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

---

9 - قالوا من عادة العرب : "أن الناقة إذا تابعت ثنتي عشرة إناثا ليس فيها ذكر سيبت. فلم يركب ظهرها ولم يجزّ وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف. فهي (السائبة). فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقّ أذنها ثم خلي سبيلها مع أمها في الإبل، فلم يركب ظهرها ولم يجزّ وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها، فهي البحيرة ابنة السائبة. والوصيلة: أن الشاة إذا نتجت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس فيهنّ ذكر جعلت وصيلة، قالوا: وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك لذكورهم دون إناثهم، إلا أن يموت منها شيء فيشتركون في أكله ذكورهم وإناثهم. والحامي: أن الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهنّ ذكر حُمِي ظهره، ولم يركب، ولم يجزّ وبره، ويخلى في إبله يضرب فيها، لا ينتفع به بغير ذلك".

10 - فإذا أنتم أوصيتم إليهما ودفعتم إليهما ما كان معكم من مال فأصابتكم مصيبة الموت. فأدّيا إلى ورثتكم ما ائتمنتموها وادّعوا عليهما خيانة خاناها مما ائتمنا عليه. فإن الحكم فيهما حينئذ أن تحبسوهما، ، فيحلفان بالله من بعد الصلاة إن اتهمتموهما بخيانة فيما ائتمنا عليه من تغيير وصية أوصى إليهما بها، أو تبديلها.

الْفَاسِقِينَ[108]. يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ: مَاذَا أُجِبْتُمْ؟ قَالُوا: لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ[109].

14- معجزات عيسى ... هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ...

(واذكر) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ: تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ[110]، وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ[111]، إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ؟ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[112]. قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ[113]. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا، وَآيَةً مِنْكَ، وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[114]. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ[115] (11).

15- خاتمة: يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ ...

و (اذكر) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ[116]. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[117]. إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[118]. قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ

---

11 – في إنجيل يوحنا: " وَقُبَيْلَ عِيدِ الْفِصْحِ، وَيَسُوعُ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ حَانَتْ لِيَرْحَلَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلَى الآبِ، فَإِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمُ الآنَ أَقْصَى الْمَحَبَّةِ: 2فَفِي أَثْنَاءِ الْعَشَاءِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ وَضَعَ فِي قَلْبِ يَهُوذَا بْنِ سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ أَنْ يَخُونَ يَسُوعَ، 3وَكَانَ يَسُوعُ عَالِماً أَنَّ الآبَ قَدْ جَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدَيْهِ وَأَنَّهُ مِنَ اللهِ خَرَجَ وَإِلَى اللهِ سَيَعُودُ، 4نَهَضَ عَنْ مَائِدَةِ الْعَشَاءِ، وَخَلَعَ رِدَاءَهُ وَأَخَذَ مِنْشَفَةً لَفَّهَا عَلَى وَسَطِهِ، 5ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي وِعَاءٍ لِلْغَسْلِ، وَبَدَأَ يَغْسِلُ أَقْدَامَ التَّلاَمِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي عَلَى وَسَطِهِ".

جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"[119]. لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[120].

- تعليق

قلنا في تقديم هذه السورة، وفي الهامش رقم 3 أنها نزلت في السنة السابعة للهجرة بمناسبة "عمرة القضاء"، أي العمرة التي تأجلت لمدة عام بموجب صلح الحديبية. وكنا قد أشرنا إلى أن النبي عليه السلام كان قد بادر مباشرة - بعد صلح الحديبية الذي سجل اعتراف قريش برئاسته للدولة الجديدة التي كانت تتشكل في المدينة تحت قيادته- بادر إلى مراسلة ملوك ورؤساء الدول في المنطقة (هرقل الروم، كسرى فارس، نجاشي الحبشة، مقوقس مصر، أمراء ورؤساء الإمارات والقبائل العربية) يطلب منهم الإسلام، أي اعتناق عقيدة التوحيد، مع إمكانية بقائهم في مناصبهم السياسية.

وإلى جانب هذه الحملة الدبلوماسية قام الرسول بـ"عمرة القضاء" التي أخلت فيها قريش مكة للمسلمين لأداء الطواف وغيره من المناسك. وإخلاء قريش لمكة كان منصوصا عليه في عقد صلح الحديبية، ولكن تطبيقه كان بمثابة صورة مصغرة لما سيحدث بعد سنة فقط من استسلام قريش برئاسة أبي سفيان وتسليمهم مكة إلى الرسول. هنا كان لابد من إقامة فاصل بين عادات قريش في الحج والعمرة وغيرهما من العادات والأعراف التي كانت سائدة بينهم في المأكل والمشرب الخ، وبين الشعائر الدينية والحلال والحرام في الإسلام، فنزلت هذه السورة من أجل هذا الغرض. كما شرعت لمسائل أخرى تخص العبادات كالوضوء والتيمم وألحت على التزام العدل في المعاملات وعدم الانسياق مع دافع الرغبة في الانتقام أو الأخذ بالثأر ممن أضر بالمسلمين من قبل الخ... وقد خصصت السورة القسم الأول منها لهذه الموضوعات (الفقرات 1-2-3-4).

بعد ذلك طرحت السورة علاقة أهل الكتاب بالتوراة وأنحت باللائمة عليهم لعدم التزامهم بتعاليمها، وذكَرت ببعض ما ورد فيها من أحكام في مجال القِصاص، ثم حددت عقاب السرقة غير مبتعدة عن الأعراف العربي، وتوعدت المرتدين من المنافقين أولياء اليهود، ونصحت أهل الكتاب بعدم الغلو في دينهم، ودعتهم إلى الدخول في الإسلام...

وانتقلت السورة بعد ذلك إلى تشريعات تخص المجتمع الإسلامي فحرمت الخمر والميسر (انظر الاستطراد أدناه) وحرمت صيد البحر في حالة الإحرام

وأباحت صيد البحر. ثم ألحت على الشهادة في الوصية، في حال السفر –وكان السفر يدوم أسابيع وأكثر فكان لا بد من تنظيم العلاقات بين المسافرين خصوصا في حالة الوفاة والوصية بدين أو غيره ...

وأخيرا ختمت السورة بخاتمة تبدو ظاهريا وكأن لا صلة لها بما تقدم، غير أن المتأمل فيها وفي ظروف نزول السورة، ظروف انفراد الرسول وصحبه بمكة التي أخلاها أهلها له لأداء شعائر العمرة، يمكن أن يتبين من قراءة "ما وراء" هذا الحدث التاريخي معنى عميقا ينطوي يرتفع بمقدمة السورة من مستوى "الخاص" الضيق إلى فضاء "العام" الرحب: فضاء الوفاء بالعقود"، ليس –هذه المرة– من "الذين آمنوا" كما في مقدمة السورة بل من جانب "وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ".

لقد أثبتت هذه الخاتمة براءة عيسى ممن اتخذوا منه ومن أمه إلهين... "إذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ[116]. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ: أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"[117].

إن موقف قوم عيسى الذين أشركوا بأن قالوا :"إن الله ثالث ثلاثة"، شبيه بموقف قوم الرسول محمد (ص) "الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (وقالوا) ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى": كلا الطرفين اتخذ وسيطا شريكا لله. وكما قال عيسى جوابا على سؤال ربه: "مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ"، قال الرسول محمد الشيء نفسه عن قومه مرارا وتكرارا. ويأتي موقف عيسى من قومه متسامحا مرجئا أمرهم إلى الله : "إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"[118]، يأتي هذا الموقف ملهما بالموقف الذي سيتخذه محمد عليه السلام، بعد عام فقط من عمرة القضاء، حين استسلم أهل مكة. إنه لم يقتلهم ولم يتخذهم أسرى... بل قال لهم : "اذهبوا فأنتم الطلقاء ... أحرار.

استطراد : أسباب النزول:

تحريم الخمر نموذجا

عبارة "أسباب النزول" مصطلح إسلامي قديم، وقد كان محل اهتمام كبير في جميع العصور الإسلامية، سواء عند المفسرين والمحدِّثين والفقهاء أو عند المؤلفين في "علوم القرآن"، هؤلاء الذين أبرزوا جميعا أهميتها بوصفها إحدى الوسائل الضرورية لفهم القرآن. وعند معظمهم أن "سبب النزول" لا يعني أنه الدافع أو العلة للنزول بل "هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدِّثةً عنه أو مُبَيِّنَة لحكمه". وقد اختلفوا في تقدم أو تأخر الآية عما يعتبر سببا في نزولها، وقد اشترط بعضهم مساوقة النزول لوقوع ما يعتبر سببا له، كأن يكون سؤالا وجه إلى النبي عليه السلام أو حادثا حدث بمحضره فنزل الوحي في شأنه.

وإذا كان بعض المفسرين، خصوصا منهم ذوي الاتجاه الباطني، الصوفي أو الشيعي، قد قللوا من شأن المعرفة بـ"أسباب النزول" لكونها تنتمي إلى التاريخ وليس إلى الفهم القائم على "التدبر" والتعرف على المعنى" بـ "الذوق والكشف" أو من خلال "إرث الإمام" لأسرار التنزيل الخ، وإذا كان آخرون يشكون في جدواها لكثرة ما يعتري الروايات التي ترويها من اختلاف وتعدد، فإن الفقهاء والأصوليين يلحون على ضرورة المعرفة بها لفهم القرآن خصوصا عندما يتعلق الأمر بمجال الأحكام.

وقد خصص الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" فصلا حاول فيه تعداد فوائد "أسباب النزول" (وعنه أخذ السيوطي) فذكر جملة منها مع أمثلة لها من القرآن. منها معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها تخصيص الحكم بسبب النزول عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، ومنها أنه قد يكون اللفظ عاما ويقوم سبب النزول بالتخصيص، ومنها أن بيان سبب النزول طريق قوى في فهم معاني الكتاب العزيز وهو أمر تحصّل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا ...

ويضيف الزركشي: أما السبيل إلى معرفتها فهو "النقل الصحيح" "عمن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها"، ومن هنا طبقوا على

رواية "أسباب النزول" نفس المنهج المطبق في رواية الحديث، فاعتبروا سبب النزول المروي عن الصحابي في مرتبة الحديث المرفوع، والمروي عن التابعي في مرتبة الحديث المرسل. لكن هذا التقييد لم يمنع من تضارب روايات أسباب النزول، كما لم يمنع، لا الحديث ولا غيره من المرويات، من التضخم مع الزمن، ولا من تجنب الأخذ من الإسرائيليات...

ومع ذلك فليس من المعقول التشطيب عن جميع ما تنقله روايات أسباب النزول. ذلك لأن "أسباب النزول" تفرض نفسها علينا من زاويتين:

أ- فمن جهة لم ينزل القرآن جملة واحدة حتى يمكن التعامل معه كنص مكتمل منذ البداية -بقطع النظر عن اعتبار الظرف الذي نزل فيه أو عدم اعتباره- بل لقد استمر تنزيل القرآن منجما، مفرقا، على مدى يزيد عن عشرين سنة:

- كان منه ما أنزل ابتداء كخطاب يشرح العقيدة، أو كقصص أو كنصوص تشريعية، أو أخلاقية الخ. وهذا الصنف لا يتعلق في الغالب بأسباب أو مناسبات خاصة، وبالتالي فهو ليس مما يرجع فيه إلى "أسباب نزول"، على الرغم عن قول بعضهم "إنه ما من آية في القرآن إلا ولها سبب لنزولها". إن عنصر المبالغة في هذه العبارة واضح! ذلك لأن ما هو متداول من "أسباب النزول" قليل جدا بالنسبة لآي الذكر الحكيم.

- وكان منه ما نزل جوابا عن سؤال طرح على النبي عليه السلام أو على المسلمين، أو بمناسبة حال خاصة بالنبي وشؤونه الشخصية، أو بصحابي معين أو بأحوال تتعلق بعامة المسلمين زمن النبوة، أفرادا أو جماعة. وهنا تطرح أسباب النزول نفسها كمرجع -ضروري أحيانا- لفهم المقصود من هذه العبارة أو تلك.

ب- ومن جهة ثانية إن ما توررده الروايات المختلفة بصدد أسباب النزول يعكس أحد شيئين : إما الواقع التاريخي الذي كانت له علاقة فعلا بنزول هذه الآية أو تلك، سواء كان من أسباب نزولها أو لم يكن، وهو في الحالتين معا عنصر في معهود العرب الذي نزل القرآن جملة وتفصيلا حسب أحواله ومقتضياته، وإما "الواقع" الفكري والإيديولوجي الذي حرك "أصحاب" تلك الروايات للتركيز على سبب معين لكونه يعطي للآية دلالة خاصة تخدم ما يريدون تكريسه في وقت من الأوقات كرأي للشريعة. في هذه الحالة تعطي روايات "أسباب النزول" الجواب، لا عن أسئلة طرحت قبل أو حين نزول هذه الآية أو تلك، بل عن أسئلة حاضر "الراوي". والراوي الحقيقي في هذه الحالة قد يكون ذلك الذي ينتهي إليه السند

في الماضي (زمن الرسول والصحابة)، كما قد يكون أحد الرواة الذين تتكون منهم حلقات سلسة السند، ابتداء من الحلقة التي تنتمي إلى "الحاضر"، حاضر جامع أو "واضع" هذا السند. وفي كلتا الحالتين يكون الدافع الإيديولوجي (المذهب الديني، الانتماء السياسي الخ) هو المحرك والموجه. وإلى ذلك لا بد من أن ندخل في حسابنا هنا الجانب الشخصي. فالانتظام في سلسلة الرواة، سواء في مجال الحديث والتفسير أو مجال اللغة والأدب والقصص، مطمح كل من يسعى إلى الشهرة وتخليد الاسم. والسبيل إلى هذا الانتظام هو التقليد، وذلك بإعادة إنتاج نفس "سبب النزول" في قالب آخر ربما "خدمة لقضية"، وربما رغبة في الشهرة. والمسافة الزمنية بين زمن النزول وزمن تدوين روايات أسبابه، مسافة طويلة تسمح بهذا النوع من إعادة إنتاج "نفس السبب" في قالب قصصي آخر.

ومن هنا نرى ضرورة عدم الاقتصار على ما تعطيه روايات "أسباب النزول" مهما كان سندها. فنقد السند هنا لا يكفي في بناء مصداقيتها، بل لابد من التعامل معها بنظرة نقدية. إن المصداقية في هذا المجال تتحدد في نظرنا بثلاثة عناصر :

الأول: عدم تعارض المعنى الذي يعطيه ما يعتبر "سببا" لنزول آية معينة مع المعنى الذي يقبله السياق الذي تندرج تحته تلك الآية. إن "أسباب النزول"، كما هي مدونة في التفاسير أو في الكتب الخاصة بها أو في كتب "علوم القرآن"، تحمل الباحث الناقد على الشك في مصداقية كثير منها، خصوصا عندما تبتعد بالآيات عن سياقها إلى الدرجة التي تحمل على التساؤل عن الهدف من "أسباب النزول": هل هو ربط كل آية بحادثة تبرر سبب نزولها، أم بيان المناسبات التي تشكل فعلا سببا لنزول هذه الآية أو تلك؟ وليس من سبيل للخروج من هذا الإشكال غير اعتبار أولية سياق الآيات وعدم الاعتداء عليه بانتزاع جزء منه والتعامل معه تحت مظلة "أسباب النزول"...

الثاني: التوافق مع ترتيب النزول ومع مسار السيرة النبوية. إن مراعاة "ترتيب نزول السور" قد يساعد كثيرا على التغلب على هذه المسألة، خصوصا وهناك سور معروفة نزلت مرة واحدة، فضلا عن ارتباط مضمون بعض الآيات بحوادث وقعت في أوقات معلومة.

الثالث: التوافق مع معهود العرب، الاجتماعي الاقتصادي والفكر والحضاري.

ونحن نعتقد أن التزامنا بهذه الشروط قد مكننا من فهم موضوعي لكثير من الآيات التي كانت منذ بدء التفسير إلى اليوم موضوعا لإشكالات، أو مجالا للضباب الغفلة والنسيان. ولعل ما قمنا به هنا من ربط سورة المائدة بظروف "عمرة القضاء"، الشيء الذي مكننا من بناء فهم متماسك لفقراتها ومضمونها وإيحاءاتها، قد بين فعلا أن هناك معقولية واضحة ومقبولة في ربط السورة بظروف هذه العمرة، لا نجدها لها سبيلا لو ربطناها بحجة الوداع كما ذهب إلى ذلك المفسرون، اعتمادا على مرويات لا يقبلها لاوضع السورة العام ولا مضمونها ولا إيحاءاتها.

هذا جانب، وهناك جانب آخر نريد أن نعري عنه بممارسة نو من النقد على المرويات التي تتحدث عن مراحل تحريم الخمر. خاصة المرحلة الأخيرة منها التي وردت في هذه السورة (الآية 219).

نبدأ أولا بالإشارة إلى ذكر الخمر في القرآن المكي - والقرآن المكي في جملته قرآن دعوة وليس قرآن تشريع. لقد ورد ذكر الخمر فيه بالاسم في سورة يوسف، حكاية عن فتى كان معه في السجن، قال إنه رأى في المنام أنه يعصر "خمرا"، ففسر له يوسف ذلك الحلم بكونه سيسقى سيده "خمرا"، أي سيخرج من السجن (يوسف 36). كما وردت الإشارة إليها، ولكن دون ذكر اسمها، في سياق تعداد نعم الله على الناس في قوله تعالى: "وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ [ما] تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (النحل 67). والمعنى أن الله أنعم عليكم بثمرات النخيل والعنب : ومن تلك الثمرات ما تتخذون منه ما يسكر بفعل التخمير (كالتمر والعنب)، ومنها ما تأكلونه في حالته الطبيعية رزقا حسنا : تمرا وعنبا. وكان الصحابة آنذاك، يشربون الخمر، إذ كان حكمها ما يزال على الإباحة. أما في القرآن المدني فقد ذكرت الخمر في عدة آيات، منها واحدة تتحدث عن الخمر بوصفها "لذة للشاربين" (محمد 15) (وهي غير مسكرة)، وذلك في إطار تعداد نعم الجنة.

وما يهمنا هنا هي الآيات التي نزلت في تحريم الخمر وهي أربعة حرص المهتمون بـــ "أسباب النزول" على إيراد روايات وقصص عن وقائع ونوازل يقولون إنها جاءت تلك الآيات استجابة لها نوعا من الاستجابة، أي كأسباب نزول. وهذه الآيات كما يلي حسب ترتيب نزولها:

أ- الآية الأولى: تذكر روايات عديدة، تزكيها الآية التي تعنينا هنا، أن النبي عليه السلام لما هاجر إلى المدينة سأله أهلها عن الخمر، هل هي حلال أم حرام،

-وقد سألوه من قبل ومن بعد عن أشياء كثيرة- فنزل قوله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ (القمار)، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا" (البقرة 219). وفي رواية أنهم قالوا : "يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله، فسكت عنهم"، بمعنى : دعنا نستفيد من جانب المنفعة فيها، فتركهم. ولكن لما يتجنوا جانب الإثم فيها، نزلت فيها الآية التالية.

ب- الآية الثانية: في رواية ذكرها أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذتِ الخمرُ منا، وحضرتْ الصلاةُ فقدموني (لِيَؤُمَّ بهم) فقرأت : "قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون"، فأنزل الله: "يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُون ..." (النساء 43)". (السيوطي اللباب، الطبري الخ). "فقالوا : يا رسول الله لا نشربها عند اقتراب وقت الصلاة، فسكت عنهم.

ج- الآية الثالثة: تذكر الروايات عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: "فيَّ نزل تحريم الخمر: صنع رجل من الأنصار طعاما، فدعانا فأتاه ناس، فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر، فتفاخروا : فقالت الأنصار: الأنصار خيرٌ، وقالت قريش: قريش خير. فأهوى رجل بلحي جزور (فك الذبيحة) فضرب على أنفي ففزره (شقه)"، قال: "فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فذكرت ذلك له، فنزلت هذه الآية : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ" (المائدة 90-91).

هناك روايات أخرى عن سبب تحريم الخمر في الآية السابقة، منها أنَّ عليا بن أبي طالب وجد ذات يوم ناقة له قد أُبْقِرت وقُطع سنَمُها وأُخذ من أكبادها. فلما سأل عمَّن فعل بها ذلك قالوا له: حمزة (عمه). فذهب وأخبر الرسول عليه السلام بالحادث وبوجود حمزة في بيت شراب يشرب مع رفاق له. فانطلق الرسول عليه السلام حتى جاء البيت الذي فيه حمزة "فإذا هو ثمل محمرة عيناه، فقال (حمزة): "وهل أنتم إلا عبيد لأبي، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ثمل فنكص على عقبيه القهقرى". "وكانت هذه القصة من الأسباب الموجبة لنزول تحريم الخمر" (البخاري). وفي رواية أخرى أن عبد الله بن عمر قال : "إن هذه الآية التي في القرآن "يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ

رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" هي في التوراة، هكذا: "إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل ويبطل به اللعب (لعب القمار) والزفن (الرقص) والمزامير والكبارات، يعني البرابط (من آلات الملاهي)، والزمارات، يعني الدف، والطنابير والشعر والخمر مرة لمن طعمها، وأقسم ربي بيمينه وعزة حيله لا يشربها عبد بعدما حرمتها عليه إلا عطشته يوم القيامة، ولا يدعها بعد ما حرمتها إلا سقيته إياها من حظيرة القدس". (قلت، الجابري): وقد ورد هذا المعنى – تقريبا – في "سفر إشَعْيَاء").

د- الآية الرابعة: في رواية عن أنس بن مالك، قال: "بَـيْنا أنا أدير الكأس علـى أبـي طلـحة وأبـي عبـيدة بن الـجرّاح ومعاذ بن جبل وسهيـل بن بـيضاء وأبـي دجانة، حتـى مالت رءوسهم من خـلـيط بسر (تمر قبل النضج) وتمر، فسمعنا مناديا ينادي: ألا إن الـخمر قد حرّمت! قال: فما دخـل علـينا داخـل ولا خرج منا خارج حتـى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال. وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا فأصبنا من طيب أمّ سلـيـم ثم خرجنا إلـى الـمسجد، وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقرأ: "يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّـمَا الـخَمْرُ وَالْـمَيْسِرُ والأنْصَابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَـاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِـحُونَ". إلـى قوله: "فَهَلْ أَنْتُـمْ مُنْتَهُونَ".

وتضيف الرواية: "فقال رجل: يا رسول الله، فما منزلة من مات منا وهو يشربها؟ فأنزل الله تعالـى: "لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (المائدة 93). وتذكر المصادر روايات أخرى للسؤال نفسه، بصيغ متقاربة، بوصفه سبب نزول الآية المذكورة. والمبدأ في الإسلام، في مجال الحلال والحرام، هو ما روي عنه عليه السلام من "أن الأصل في الأشياء الإباحة حتى يرد الشرع بخلاف ذلك". فشرب الخمر قبل نزول آية تحريمها كان حلالا. وقد خص الله نبيه الكريم بوضع خاص في هذا الشأن فبشره بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر: "لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (الفتح 2). (انظر مزيدا من التفاصيل والروايات حول تحريم الخمر في كتب التفسير مثل تفسير الطبري وتفسير ابن كثير وكتب الحديث).

هناك رواية أخرى عن عمر بن الخطاب تستغني عن ما ذكر في الروايات الأخيرة، فقد روي عنه أنه قال: اللهم بَيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً فنزل :

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا" (البقرة 219). ولما قرئت عليه هذه الآية، فقال: "اللهم بين لنا من الخمر بياناً شافياً"، (يقصد حكما واضحا جازماء إما بالتحليل وإما بالتحريم)، فنزل قوله تعالى: "يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَقرَبوا الصَلاةَ وأَنتم سُكارى" (النساء 34)، ولما قرئت عليه فقال: "اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً"، فنزلت هذه الآية "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ..." (المائدة 90-91)، فدُعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ القارئ: "فَهَل أَنتُم مُنتَهونَ"؟ قال عمر: انتهينا".

ما يلفت الانتباه في هذه الرواية هو أنها تجعل الروايات التي أوردناها قبل غير ذات موضوع. ومع ذلك فهذه الرواية كسابقاتها تقيم تطابقا زمنيا ومنطقيا بين ما تذكره كـ"أسباب نزول"، وبين الترتيب الذي وردت به الآيات التي تحدثت عن الخمر. ومثل هذا التطابق يثير بعض الشكوك، على الأقل من حيث إن منطق الواقع لا يتماشى دائما مع منطق العقل. أما إقحام ردود فعل الذين طلبوا السماح لهم بمواصلة شربها في المرة الأولى من أجل النفع الذي فيها، ليطلبوا في المرة الثانية السماح لهم بشربها قبل اقتراب موعد الصلوات، وليثيروا في المرة الثالثة منزلة من مات مؤمنا وكان يشربها قبل تحريمها، ثم قيام بعضهم، في رواية أخرى، بربط جميع مراحل تحريم الخمر بردود فعل عمر بن الخطاب... أقول إن ذلك التطابق المزعوم، يشكل اعتداء على بنية الآيات التي كانت ردود الفعل المذكورة سببا في نزولها، حسب زعمهم، فضلا عن تمزيق السياق العام الذي تندرج تحته تلك الآيات.

إن الترتيب الذي وردت عليه تلك الردود لا يستقيم إلا إذا كانت تلك الآيات تنتمي جميعا إلى "لحظة" واحدة. هذا في حين أن سورة البقرة التي تضم الآية الأولى نزلت ما بين السنة الأولى والثانية. وما ذكروه حول سبب نزول تلك الآية من كونها نزلت بعد الهجرة وأن السؤال عن حكم الخمر كان نتيجة ملاحظة تفشي شرب الخمر بالمدينة، يوحي بأن تلك الآية نزلت في أوائل الهجرة، في السنة الثالثة على أكبر تقدير. أما سورة النساء التي تضم الآية الثانية (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فقد نزلت بعد ذلك بسنوات، ما بين الخامسة والسادسة. وأما سورة المائدة فهي من أواخر السور، وهناك من يعتبرها آخر ما نزل. لكن المرجح أنها نزلت كما قلنا في السنة السابعة.

وإذا نحن وضعنا بين قوسين روايات "أسباب النزول" واتجهنا إلى الآيات التي تتعلق بالخمر وسياقاتها فإننا سنلاحظ ما يلي:

1- وردت الآية الأولى ضمن جملة أسئلة طرحت على النبي عليه السلام بصورة متتابعة وفي سياق واحد فجاء الجواب على كل منها في حينه، وبصيغة "قل". قال تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ..."، "وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ قُلِ الْعَفْوَ..."، "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى، قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ..."، "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ..." (البقرة 222)، يلي ذلك حكم الأيمان (القسَم) والطلاق والرضاعة الخ. وهذه الآيات التي وردت متتابعة تنتمي إلى سياق عام واحد موضوعه التشريع في عدة أمور، يبتدئ من قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ..." (آية 168) إلى آيات "يسألونك... قل" والتي تليها. إلى قوله تعالى : " كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (242). وواضح أن معنى آياته هنا: شريعته. وهكذا نرى أن ما ذكر من أسباب لنزول قوله تعالى : "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ"، لا يتوافق مع السياق من حيث أن "الأسباب" لا يكون لها تأثير ولا فائدة إلا إذا عزلنا هذه الآية عن سياقها واعتبرناها مستقلة بنفسها. أما إذا اعتبرنا السياق واكتفينا به فإن المعنى سيكون أوضح، وخال من أي تشويش. والشيء نفسه يمكن قوله بشأن الآية الثانية.

2- ذلك أن جميع الروايات التي اطلعنا عليها والتي تقدم "أسبابا" لنزول قوله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ..." لا تستقيم إلا إذا سلخنا هذا المقطع من جملة الآية التي يقع ضمنها، واعتبرناه مستقلا ومنفصلا عما بعده. ذلك أن نص الآية كاملة هو: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (النساء 43). وواضح أن سياق هذه الآية متصل متلاحم وأنه لا يمكن عزل "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ..." عنه أو فيه، وإلا استحال فهم ما بعدها. إن شرح معنى الآية كاملة يقتضي عبارة واحدة متصلة كقولنا: يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا تقربوا الصلاة وأنتم على جنابة ولا تقربوا المصلى (المسجد) حتى تغتسلوا إلا إذا كنتم مارين به مجرد مرور، وفي حالة ما إذا كان بكم مرض يتضرر بالماء (كالجرح)، أو كنتم على

سفر، أو جاء أحدكم من الغائط، أو جامعتم زوجاتكم، ولم تجدوا الماء لتغتسلوا، فتيمموا حجرا نظيفا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ... ثم صلوا. وواضح أنه لا مكان هنا لروايات أسباب النزول المذكورة.

3- أما الآية الثالثة، وهي قوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (المائدة 90). فهي تقع، هي الأخرى، ضمن سياق تستقل به عن "أسباب النزول" التي رويت في شأنها، وهو سياق تشريعي واحد وطويل يبدأ بقوله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (المائدة 87)، يلي ذلك ما يتعلق بالأيمان (جمع يمين) والكفارة الواجبة فيها، ثم الحكم على الخمر والميسر والأنصاب والأزلام بأنها "رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ" يجب اجتنابه، خصوصا والخمر والميسر يبعثان على الشجار والعداوة والبغضاء ويصرفان عن الصلاة، يلي ذلك "لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا". وهذا استثناء يخص من شربها من المسلمين قبل تحريمها. وهذا النوع من الاستثناء يعم جميع الأحكام التي وردت في السياق العام الذي تندرج تحته آية تحريم الخمر والذي يبدأ من الآية 78 إلى آخر السورة (آية 120)، ويشتمل على عدة أحكام نتبين في كل حكم منها جانبين : الأول التحليل أو التحريم أو ما في معناهما، والثاني استثناء أو استدراك وتوضيح، تماما كما هو الحال في الخمر: تحريمها ثم مباشرة بيان حكم من كان يشربها من المؤمنين ومات قبل التحريم، الشيء الذي لا يدع مجالا للبس ولا يترك زمانا لردود فعل ولا لطرح أسئلة من النوع الذي ذكرته روايات "أسباب النزول". إن هذا السياق الذي حددناه كإطار للآية التي أمرت باجتناب الخمر والميسر والأزلام الخ، والذي قلنا إنه يبدأ بالآية 78، أي بقوله تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" ، وينتهي مع انتهاء السورة، يدل على أن المسلمين، أو بعضهم، كانوا يحرمون على أنفسهم "الطيبات" كالزينة ولذات الأكل والشرب والجماع مما لم يحرمه الله. وهذا يدل على أن آيات تحريم الخمر جزء من كل، وبالتالي فما حكي من روايات كـــ "أسباب لنزولها" لا تستقيم معها.

يبقى بعد ذلك تحديد فائدة روايات أسباب النزول عموما.

ركزنا في نظرتنا النقدية لروايات "أسباب النزول" على إبراز كون تلك الروايات تتعارض، أو على الأقل، لا تحترم بالقدر الكافي، سياق الآيات، كما بينا أنه يمكن الاستغناء عن تلك الروايات أصلا، فهل يمكن ذلك؟

بالنسبة للفقهاء والأصوليين تبدو أسباب النزول ضرورية –على الأقل في نظر معظمهم– في مجال الأحكام، باعتبار أن القرآن نزل منجما مفرقا حسب مقتضى الأحوال الخ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فخطاب الشرع (قرآنا وحديثا) يأتي عادة في مثل هذه الأحوال على صيغة العموم وبالتالي فإن الفائدة الأولى، وربما الأهم، التي يجنيها الفقيه منها أو الأصولي، هي أنها تساعده على بناء نوع من العلاقة بين عموم الخطاب وخصوص السبب.

ذلك أن العلاقة بين العام والخاص، وبعبارة أخرى بين الكلي والجزئي، لا تتحدد فقط بما يمكن أن يُرجع فيه إلى العقل والمنطق، بل قد تحتاج إلى معرفة "الأسباب" أي الوقائع الجزئية التي اقترن بها الخطاب. ذلك لأن المنهج الذي يعتمده الإنسان بكيفية آلية، كيفما كان مستواه الفكري، في عملية الانتقال بفكره من الجزئي إلى الكلي هو القياس، وهو الاستدلال بالمعلوم لديه على المجهول. وهذا المنهج الذي سلكه القرآن في البيان والبرهان، مستعملا ضرب الأمثال والقصص ودعوة الإنسان إلى التفكر والتدبر فيما هو مشاهد لديه لاكتساب معرفة أو عبرة، بما هو وراء ما يشاهده، ويتيقن به عن طريق الحس والخبرة، أقول هذا المنهج هو الذي قامت عليه العلوم العربية الإسلامية، خصوصا في مجال اللغة والفقه والكلام. لقد ترسم هذا المنهج في الفقه خاصة مع قيام علم أصول الفقه، وهو علم منهجي، من أركانه الأساسية مبحث القياس. وسرعان ما تحول "القياس" من مبحث منهجي، إلى أصل من أصول التشريع في الإسلام. وبما أن القياس (قياس شيء على شيء، وفي الفقه قياس ما لم يرد فيه نص أي المستجدات على العموم، على ورد فيه نص) فإن القيام بهذه العملية يحتاج إلى معرفة "النازلة" التي ورد فيه نص لتحديد طبيعتها بالصورة التي تمكن من إبراز معقولة قياس هذا المستجد من "النوازل" أو ذاك، أو عدم معقوليته.

ففي مثال تحريم الخمر طرحت مسألة النبيذ، هل يطبق عليه حكم التحريم أم لا. ذلك لأن "الخمر" في معناه اللغوي هو من عصير العنب، وفي هذا المعنى ورد في القرآن. أما في روايات أسباب النزول التي ذكرت حول تحريم الخمر فقد وصفت الخمر –كما رأينا في بعضها– على أنها مصنوعة من التمر (خليط تمر غير ناضج مع تمر ناضج)، فهل يجوز قياس النبيذ على الخمر مع اختلاف أصل

كل منهما؟ كان هناك من لم يقل بتحريمه (ينسب ذلك إلى أبي حنيفة) لهذا السبب. ولما طرحت الغاية من تحريم الخمر كان من الطبيعي أن تتجه الأنظار إلي قوله تعلى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ" (النساء 43)، الشيء الذي يفهم منه أن السبب في النهي عن شرب الخمر هو أنها تسكر وتفقد الإنسان القدرة على التحكم في ما يقول. ولما طرحت مسألة كون النبيذ لا يسكر منه القدر الذي يسكر من الخمر كان الجواب: لما كان السبب في تحريم الخمر هو أنها تسكر، مع أن القليل منها لا يسكر، استخلص الفقهاء من ذلك قاعدة أصولية اجتهادية تقول "ما يسكر قليله فكثيره حرام"، وقد التمس لها بعضهم سندا من المرويات.

من هذا العرض السريع نلاحظ أن التفكير الفقهي انتقل من روايات "أسباب النزول" كمرجع أول برهن على أنه وحده لا يكفي، إلى مقاصد الشرع، كمرجع ثان مكمل، برهن على أنه أقدر على توفير الحلول للمسائل المستجدة. ذلك لأن أفق المقاصد رحب واسع بينما أفق القياس ضيق لكونه محدودا بحدود النوازل الماضية، لأن القياس أصلا هو "قياس على مثال سبق". وإذا كان الأمر كذلك، وهو بالفعل كذلك، فلماذا لا نعتمد أولا وأخيرا على مقاصد الشرع؟ هذا ما ذهب إليه الشاطبي وفقهاء آخرون.

ومع ذلك فلا أحد ينكر خلو روايات أسباب النزول من الفائدة، ذلك أنه إذا كانت فائدتها قليلة في مجال التشريع (مجال الأحكام)، وفيها ما ذكرنا بصدد مكامن الطعن فيها مثل ضعف السند وسهولة الوضع والزيادة والنقصان والاهتمام بالغريب العجيب وانتزاع آيات أو أجزاء منها من السياق الذي يعطيها معنى والإطار العام الذي تندرج تحته، إضافة إلى ما ذكرناه أعلاه من ضيق مجال تطبيقها وضرورة اللجوء إلى الاستعانة بمقاصد الشرع الخ، أقول : ومع مكامن الطعن تلك وهي خاصة بمجال التشريع، فإن فائدتها في مجال "فهم القرآن"، مجال التفسير بكيفية عامة، لا يمكن نكرانها.

ذلك أن استحضار معهود العرب ضروري في هذا المجال، وفي مجال التشريع كذلك. وروايات أسباب النزول، تزودنا بعناصر كثيرة من هذا المعهود. فهي من هذه الناحية أحق بأن تعتمد في تصور معهود العرب من المصادر الأخرى، كالشعر وأساطير القصاص والموروث الأدبي عامة التي يأتي عنصر التخييل فيها أوسع وأكثر "حرية" منه في روايات "أسباب النزول". إن "أسباب النزول" من هذه الناحية جزء لا يتجزأ من "التاريخ" كما كان يكتب في الثقافة

العربية الإسلامية منذ بداية الكتابة فيه إلى العصر الحديث. وحتى أولئك الذين انتقدوا تساهل المؤرخين في مجال معقولية الأخبار التي يوردونها مثل ابن خلدون، لم يستطيعوا تجاوز مرحلة النقد إلى مرحلة التطبيق في مؤلفاتهم التاريخية.

وكمثال على ذلك نشير إلى الروايات التي أوردناها سابقا بصدد تحريم الخمر. إنها من ناحية التاريخ الاجتماعي مفيدة كثيرا في الاطلاع على بعض مظاهر الوضع الاجتماعي والفكري في محيط النبي عليه السلام، الشيء الذي من شأنه أن يساعد على فهم أفضل للظروف التي كان يتم فيها الانتقال من حال "الجاهلية" التي تتسم بغياب الدولة وسيادة الأعراف إلى حال الإسلام الذي بنى دولة على أساس عقيدة وشريعة. كما أنها مفيدة من حيث أن كثيرا منها يكشف عن مدى ارتباط القرآن بالواقع الإنساني، مما يؤكد ما سبق أن أبرزناه من أهمية المعرفة بأسباب النزول في مجال استحضار معهود العرب لفهم آياته وأحكامه، الشيء الذي قد يمنع من توظيف آيات الذكر الحكيم في شأن من الشؤون، كالإفتاء والتفسير والوعظ الخ، توظيفا يخرج بها عن "أسباب نزولها" ودلالتها ومقاصدها.

113- سورة التوبة

- تقديم

كانت هزيمة الأحزاب في "غزوة الخندق" نقطة تحول عميق في الصراع بين الرسول ومشركي مكة. لقد بدأ هؤلاء يدركون أن مسلسل هذا الصراع سينتهي بانتصار الرسول، عليه السلام، ومن ثمة بدأ بعض رجالهم -وهم تجار- يفكرون في تدشين مسلسل من الاتصال مع الرسول تمهيدا لإيجاد حل يحفظ ما وجههم ويبقي على مصالحهم. لقد أخذوا إذن في مراجعة حساباتهم.

وفي هذا الصدد حكى عمرو بن العاص، وكان يوم الخندق في صفوف قريش، أنه بعد عودته إلى مكة جمع رجالا من قريش وقال لهم : "تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا وإني قد رأيت... أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي... وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا الخبر". فوافقوا وذهبوا إلى النجاشي يحملون الهدايا، غير أن هذا الأخير أقنع عمرو بن العاص بالإسلام -فيما يحكي هذا عن نفسه- فعاد قاصدا رسول الله (ص) في المدينة والتقى في الطريق خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي فسأله إلى أين فأجابه خالد: "والله قد استقام المنسم" (تبين الطريق). لقد قرر هو الآخر الدخول في الإسلام، فذهبا معا إلى النبي (ص) للمدينة وأعلنا إسلامهما.

والواقع أن فشل تحالف "الأحزاب" (قريش وغطفان وبني سليم ...)، الذي كان يضم عشرة آلاف مقاتل، كان انتصارا للمسلمين لا يعدله إلا انتصارهم يوم بدر. لقد تبين لقريش بعد فشل "الأحزاب" أن القضاء على محمد وأصحابه صار من شبه المستحيل. لقد أصبحت لهم اليوم دولة، وقوتهم المادية، رجالا وأموالا، في تزايد مستمر، وسمعتهم وسط القبائل العربية في ارتفاع وانتشار، ونفوذهم خارج المدينة يقوى يوما بعد يوم... وإذن فالتجارة، تجارة قريش إلى الشام، ستختنق بإحكام المسلمين السيطرة على الطرق، وهم جادون في ذلك، وقد سبق للرسول (ص) قبل حصار "الأحزاب" بنحو نصف سنة (السنة الخامسة للهجرة) أن

قاد غزوة على دومة الجندل، على نحو 500 ميل شمال المدينة ليعترض تجمعا لقضاعة وغسان كان يقصد الحجاز، وربما للسيطرة على خطوط المواصلات بين المدينة والشام. وإذن فلم يعد المسلمون يقطعون الطريق على تجارة قريش وحسب، مستفيدين من موقع المدينة، بل إنهم أصبحوا قادرين كذلك على التوغل شمالا والسيطرة على الطرق الأخرى، بما في ذلك تلك التي تمر عبر العراق والتي كان أبو سفيان قد حاول استعمالها، كما أشرنا قبل. وأمام هذه التطورات لم يكن أمام قريش إلا أن تراجع حساباتها، خصوصا وزعيمها أبو سفيان يتقن المزج بين الحسابات التجارية والحسابات السياسية.

أما المسلمون فقد كان طبيعيا أن يشعروا بقوتهم ويعملوا على تكثيف الضغط على قريش بكل الوسائل، بما في ذلك الوسائل السلمية. وكان الوحي قد نزل عقب انتصار المسلمين في بدر يوصيهم باستعمال السلاحين معا : سلاح الحرب وسلاح السلم : "أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل... وإن جنحوا للسلم فاجنح لها... " (الأنفال 60-61). بالفعل جمع النبي (ص) في خطته بين الأمرين في صلح الحديبية الذي عقده مع قريش في السنة الموالية : السنة السادسة للهجرة. فقد خرج قاصدا مكة "يريد زيارة البيت، لا يريد قتالا وساق معه الهدايا: سبعين بدَنة، وكان الناس سبعمائة رجل". وسمعت قريش بالخبر فأخذت تستعد لمنعه من دخول مكة، فلما سمع بذلك قال : "ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم أعلو قاتلوا وبهم قوة" (ابن إسحاق). ولا شك أن هذه كانت "رسالة" إلى قريش، ولا شك أنها قد تلقتها. إن الاتجاه الآن ليس إلى الملأ من قريش فقد انتهى أمرهم أو كاد، بل الاتجاه إلى المستقبل، إلى "سائر العرب". فلماذا لا ينضم إلى الإسلام من بقي من قريش للعمل جميعا على دخول "العرب" في الإسلام، وتحت قيادتهم ؟

لم يكن من المنتظر أن تستجيب قريش لمضمون هذه "الرسالة" بين عشية وضحاها، فالحلول السياسية تمر دوما عبر مراحل ووسائط : بدأت الوساطة أولا. رجال من خزاعة، وخزاعة من اليمن وهم حلفاء تاريخيون لبني هاشم، جاءوا النبي "فكلموه وسألوه ما الذي جاء به إلى الحديبية؟ فاخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته"! وهل كانت قريش تدافع عن شيء آخر غير "حرمة البيت"، من منظورها التجاري طبعا؟ ألا يعني حج المسلمين، ثم العرب جميعا عندما يسلمون، إلى مكة، أن عائدات قريش من الحج والتجارة لن

ينالها مكروه بل ربما تزداد؟ خواطر لا بد أن تكون قد جالت في ذهن أبي سفيان. ولكن الاستسلام بدون مقدمات غير ممكن، إذ لا بد من انقاذ ماء الوجه. وهكذا كان : لقد جاء رجال خزاعة الوسطاء إلى مكة وخاطبوا أهلها قائلين : "يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد. إن محمدا لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا هذا البيت". فكان مما جاء في جواب قريش : "إن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تحدَّثُ بذلك عنا العرب". ومعنى ذلك أنه لا بد من المفاوضة والصلح. فكان صلح الحديبية!

بعد صلح الحديبية مباشرة قام النبي بمبادرة ذات دلالة سياسية، على صعيد "القبيلة" فبعث إلى الحبشة من يخطب له أم حبيبة بنت أبى سفيان، وكانت قد هاجرت إليها مع زوجها الذي توفي عنها هناك. ويبارك القرآن هذه البادرة بقوله تعالى : "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة... " (الممتحنة 60). وهكذا "تزوج رسول الله (ص) أم حبيبة فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان واسترخت شكيمته في العداوة"، وقال عن النبي (ص) عندما علم بالأمر: "ذلك الفحل لا يقدع أنفه" (الزمخشري).

مرت سنتان بين صلح الحديبية وفتح مكة قام النبي خلالهما (في السنة السابعة للهجرة) بـــ "عمرة القضاء"، العمرة التي نص عليها الصلح، فأقام في مكة ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة. وخلال الفترة نفسها جهز النبي (ص) ما لا يقل عن 17 غزوة وسرية. وباستثناء غزوة خيبر فإن جميع هذه الحملات كانت موجهة ضد القبائل البدوية، إما تأديبا لها أو من أجل حملها على الإسلام، أو من أجل ضمان الأمن في الطريق التجارية من المدينة والشام، مما وسع من نفوذ الإسلام.

أما "خيبر" فكانت عبارة عن تجمع سكني محصن لليهود يقع خارج المدينة. وبما أن علاقاتهم مع المسلمين لم تكن مستقرة ولا خالصة فقد رأى النبي (ص) أن ينهي المشكلة معهم، مباشرة بعد عودته من الحديبية. فخرج في السنة السابعة للهجرة إلى حصون خيبر ففتحها واحدا بعد الآخر بعد حصار، فطلب أهلها من الرسول "أن يسيرهم (= ينفيهم) وأن يحقن دماءهم ففعل. وكان رسول الله (ص) قد حاز أموالهم كلها من جميع الحصون. فلما سمع بهم يهود "فدك" قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله (ص) يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ويخلوا له الأموال ففعل. فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله (ص) أن يعاملهم في الأموال (الأرض) على النصف وقالوا : نحن أعلم بها منكم

وأعمر لها (=زرعها ورعاية نخلها)، فصالحهم رسول الله (ص) على النصف، على أنا (نحن المسلمين) إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم. فصالحه أهل "فدك"، على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئا للمسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله (ص)، لأنهم (المسلمون) لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب". "وكانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله (ص) ألف سهم وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم. ثم قسم رسول الله (ص) الكتيبة وهي واد خلّص بين قرابته وبين نسائه وبين رجال المسلمين ونساء أعطاهم منها" لكل منهم عدد معين من الأوساق من "قمح وشعير وتمر وغير ذلك، قسمه على قدر حاجتهم، وكانت الحاجة في بني عبد المطلب أكثر، ولهذا أعطاهم أكثر" (ابن إسحق)..

وحدث في هذه الأثناء (ما بين صلح الحديبية وفتح مكة) أن اعتدت قبيلة بني بكر على قبيلة خزاعة، وكانت الأولى حليفة لقريش والثانية حليفة للمسلمين، وقد تم هذا التحالف على هامش اجتماع الحديبية، فاستنجدت خزاعة بالمسلمين بعد أن أيدت قريش حليفتها بني بكر. وخافت قريش أن يعتبر النبي (ص) ذلك خرقا لمعاهدة الحديبية فيهاجم مكة، فانتدبت أبا سفيان –وقد أصبح الآن صهرا للنبي– ليعتذر له باسم قريش، فجاء المدينة وقصد بيت ابنته أم حبيبة زوجة النبي (ص). ثم اتصل بأبي بكر ثم بعمر وعلي يطلب التدخل لدى الرسول (ص). وأخيرا رجع إلى مكة بينما أمر رسول الله (ص) بالاستعداد للسير إلى مكة. ولما استكمل التجهيز مضى في عشرة آلاف من المسلمين. وعندما بدأ يقترب منها خرج للقائه عمه العباس الذي لم يغادر مكة قط إلا عندما خرج مع قريش إلى بدر، فأُسِر وأفدى نفسه بالمال وعاد إلى تجارته بمكة دون أن يعلن عن إسلامه، خرج العباس إذن ليلتقي برسول الله (ص) وجيشه في الطريق. أما زعيم قريش، أبو سفيان، فقد خرج هو الآخر إلى ضواحي مكة مع رفقة له "يتحسسون الأخبار وإذا به يلتقي بالعباس الذي كان عائدا على بغلة الرسول في اتجاه مكة وكأنه كان معه على موعد. ركب أبو سفيان مع العباس على بغلة رسول الله (ص) قاصدا النبي ليعلن له عن إسلامه. ويتم ذلك بالفعل، ويقول العباس للنبي : "يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحبّب هذا الفخر فاجعل له شيئا. قال : نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن".

ثم أمر الرسول (ص) بتنظيم استعراض لجيوش المسلمين أمام أبي سفيان فأخذت الكتائب تمر أمامه الواحدة بعد الأخرى. وعندما انتهى الاستعراض التفت أبو سفيان إلى العباس وقال له : "والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك

الغداة عظيما"، فرد عليه العباس. "يا أبا سفيان : إنها النبوة". فقال أبو سفيان : "نعم إذن!". ثم قال له العباس أسرع إلى قومك وأخبرهم بما حصل. فأسرع أبو سفيان إلى قومه بمكة "حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة -وكان أبوها قد قتل يوم بدر- فأخذت بشاربه فقالت : "اقتلوا الحمِّيت الدسم الأحمس (= السمين الغليظ)، قُبِّح من طليعة القوم. قال أبو سفيان لقومه : ويلكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك! قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهر آمن. فتفرق الناس إلى دورهم والى المسجد". ودخل النبي وجيشه مكة وكان "يوم النصر". واجتمع أهل مكة حوله وخطب فيهم : "ما ترون أني فاعل بكم"؟ قالوا : "أخ كريم وابن أخ كريم". قال : "اذهبوا فانتم الطلقاء". وأمر النبي بتكسير الأصنام فكسرت. وبما أنه منع استباحة مكة وسبي أموالها، الشيء الذي يحرم جيشه من الغنيمة، فقد عمد إلى اقتراض مبالغ من أصحاب الأموال من تجار مكة ووزعها على الفقراء من جيشه تعويضا لهم عن الغنيمة.

ثم بعث النبي السرايا إلى ما حول مكة تدعو إلى الإسلام. وكانت قبائل هوازن وثقيف تحشدان الحشود غير بعيد من مكة لشن الهجوم عليها بعد أن استسلمت للرسول (ص). وكانت هاتان القبيلتان تنافسان قريشا في التجارة فطمعتا في الحلول محلها. وهكذا خرج النبي بجيشه، بعد أن ضم إليه ألفين من القرشيين "الطلقاء" بمن فيهم أبو سفيان، وعسكر بمكان بين مكة والطائف يقال له حُنين (في السنة الثامنة للهجرة) واشتبك مع حشود هوازن وثقيف، ومالت الكفة لصالح هؤلاء في أول الأمر، ثم عادت لتنتهي المعركة بانتصار المسلمين، فأمر الرسول (ص) بجمع الغنائم، وأرجأ توزيعها إلى حين الانتهاء من تعقب الفارين. كانت الغنائم كثيرة : عدد كبير من النساء والذراري وستة آلاف بعير وما لا يحصى من الغنم. فخير الرسول المنهزمين بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم، فاختاروا الأبناء والنساء فأطلقهم، ووزع الأموال على المهاجرين والمسلمين الجدد دون الأنصار فكان نصيب الواحد أربعة من الإبل وأربعين شاة، ومن كان فارسا أخذ سهم فرسه أيضا. كل ذلك من الأخماس الأربعة المخصصة للمقاتلين[1].

---

1 - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 173

ولا بد من الإشارة هنا إلى بعض جوانب الضعف التي بدأت تظهر في صفوف المسلمين نتيجة هذه التطورات، خصوصا منها كثرة الغنائم ودخول الناس في الإسلام جملة ولم يكن ثمة متسع من الوقت يسمح بالارتفاع بإسلامهم السياسي الحربي إلى مستوى إسلام العقيدة والإيمان. من نقاط الضعف تلك ما يحكى من أنه لما فرغ رسول الله (ص) من رد سبايا حنين إلى أهلها ركب واتبعه الناس يقولون : يا رسول الله أقسم علينا فيئنا، الإبل والغنم، حتى ألجأوه إلى شجرة فاختطفت الشجرة عنه رداءه. فقال : ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعما لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا "[2]. وعندما وزع الرسول (ص) الغنائم وأعطى للمسلمين الجدد "المؤلفة قلوبهم"، كان نصيب "عباس بن مرداس السلمي أباعر، فتسخطها وعاب فيها رسول الله -في أبيات من الشعر- فقال رسول الله (ص) أذهبوا فاقطعوا عني لسانه، فزادوه حتى رضي فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به". ثم أخذ الرسول من الخمس المقرر لله والرسول الخ، هدايا خص بها "أشراف العرب" من المسلمين الجدد فأعطى أبا سفيان مائة بعير (وقيل ثلاثمائة)، وأعطى يزيد ابنه مائة وأعطى لمعاوية ابنه كذلك مائة وهكذا، فبلغ ما وزعه على "المؤلفة قلوبهم" أزيد من ألفي بعير.

ومن ذلك أيضا ما يحكى من أن رجلا من بني تميم يقال له ذو الخويصرة (واسمه حرقوص بن زهير السعدي التميمي (الذي يجعله المؤرخون والمحدثون أول الخوارج؟) وقف على الرسول وهو يعطي الناس فقال : "يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم. فقال الرسول (ص): أجل، فكيف رأيت؟ فقال : لم أرك عدلت. فغضب النبي (ص) ثم قال: ويحك، إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله، ألا أقتله. فقال : لا، دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية" (ابن إسحاق). وفي هذا الإطار يحكى أيضا أنه : "لما أعطى رسول الله (ص) ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار شيء منها، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة (= الكلام السيئ)، حتى قال قائلهم : لقد لقي رسول الله (ص) قومه! فدخل سعد بن عبادة (زعيم الأنصار) على الرسول فقال : يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في

---

2 - نفس المرجع، ج 2، ص 175، والبخاري ، ج4 ص 204. عالم الكتب. بيروت د-ت

أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال : أين أنت من ذلك يا سعد؟ قال يا رسول الله : ما أنا إلا من قومي. قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة"، فجمعهم وخطب فيهم رسول الله (ص) فذكرهم بسابقتهم وفضلهم وقال: "أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (نعيم) من الدنيا فألَّفْتُ بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم... قالوا : رضينا رسول الله قسما وحظا. ثم انصرف رسول الله (ص) وتفرقوا". وعاد الرسول إلى المدينة وسكت الأنصار راضين. ولكن "شيئا ما" في صدورهم سيفصح عن نفسه بمجرد ما يعلن عن وفاة النبي عندما سيجتمعون في سقيفة بني ساعدة لاختيار سعد بن عبادة زعيمهم خليفة للنبي (ص)، فربما فهموا من قول الرسول لهم : ما الأحسن لكم أن ترجعوا بالشياه والبعير أم برسول الله، واختيارهم الرسول ... أقول ربما فهموا من ذلك أن خلافة الرسول بعد وفاته تكون لهم!

تلك مظاهر من الضعف البشري ظهرت بمناسبة غنائم "حنين"، وهو شيء طبيعي تماما في مجتمع لم يمر عليه بعد من الوقت ما يكفي ليمتص سلبيات الحرب، ولكل حرب سلبياتها حتى في حال النصر، ولا ما يكفي ليتحول أولئك الذين أسلموا بالسيف أو بالخوف منه إلى "مؤمنين صادقين" وتحقيق الاندماج الاجتماعي والانسجام في الرؤية بين أعضاء مشروع "الأمة" التي كانت ما تزال في طور التكون : أمة "العقيدة" التي يراد منها أن تتجاوز "القبيلة" و"الغنيمة" وتعلو عليهما. إن أمة "العقيدة" التي تشكلت من "السابقين الأولين" في مكة، ثم من "المهاجرين والأنصار" بعد ذلك في المدينة، قد انتفخت بفعل "الفتح"، فتح مكة خاصة، فصارت تضم إضافة إلى "المنافقين" من أهل يثرب، جموعا غفيرة من المسلمين الجدد، فيهم المنافق والمتردد والمنبهر، هذا فضلا عن "الأعراب" الذين أسلموا ولم يتجاوز إسلامهم مرتبة الولاء السياسي السطحي. كان لا بد إذن من ظهور جوانب الضعف إذ لم يعد الغزو بدافع "العقيدة" وحدها، بل لقد غدا لدى كثير من المسلمين الجدد، إن لم نقل عند جلهم، يخضع لاعتبارات "القبيلة" و"الغنيمة" كما حدث في غزوة "الخندق" وشهدت به سورة "الأحزاب" وشجبته ونددت به، وكما حصل أيضا يوم حنين كما رأينا.

وتأتي غزوة "تبوك" (مدينة قديمة كانت تسمى تابو، وتقع شمال المدينة قريبا من الشام وكانت تحت سيطرة الروم البيزنطيين) لتكون هي الأخرى مناسبة

لظهور جوانب الضعف البشري بصورة أقوى مما حدث من قبل. إن الأمر يتعلق هذه المرة، لا بغزو داخلي، غزو قبيلة أو قبائل أو فتح مدينة أو حصار حصن. بل يتعلق الأمر هذه المرة بمواجهة دولة كبرى، دولة الروم البيزنطيين. ذلك أن فتح مكة لم يكن من الأحداث العادية التي كانت تجري في جزيرة العرب بين القبائل، بل كانت حدثا دوليا: فمكة كما بينا قبل مركز ديني وتجاري دولي، والدعوة المحمدية لم تعد مجرد دعوة بل لقد أصبحت دولة، وإذن فالطرق التجارية الدولية أصبحت مهددة في إحدى محطاتها الرئيسية، فكان من الطبيعي أن يأتي رد فعل الروم الذين تهمهم مكة كمحطة تجارية ضرورية. لقد جهز هرقل جيشا ضم إليه جموعا من القبائل العربية النازلة بالشام وفلسطين يريد اقتحام المدينة والقضاء على الدولة الجديدة في المهد.

ولما علم النبي (ص) بالخبر، ولم يكن قد مضى على رجوع المسلمين من حنين سوى بضة أشهر، قرر أن يأخذ المبادرة فيهاجم الروم قبل أن يهاجموه، فاستثقل الناس ذلك، وكان الوقت وقت صيف وجني الثمار "والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه. أضف إلى ذلك أن العرب كانت تخاف الروم والفرس وتتجنب الاصطدام معهما، خصوصا وذكرى غزوة "مؤتة" كانت ما تزال حية في النفوس: كان النبي قد بعث رسولا إلى هرقل فاعترضه أحد شيوخ القبائل في الشام وقتله، فجهز النبي جيشا من ثلاثة آلاف للثأر له، فكان من سوء حظ المسلمين أن وجدوا هرقل ينتظرهم في جيش كبير فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة وقتل منهم عدد كبير، منهم قادته الثلاثة على التوالي، زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، ولم ينقذ البقية الباقية من المسلمين إلا تدبير حربي قام به خالد بن الوليد مكنهم من الانسحاب إلى الصحراء والرجوع إلى المدينة.

كانت هذه الانتكاسة حية في النفوس عندما أمر الرسول (ص) بالاستعداد لحرب الروم، فكان ذلك مما حمل الكثير منهم على التقاعس والتماس الأعذار للتخلف عن الخروج. ولكن الرسول مضى في تجهيز الجيش وطلب من أصحابه "السابقين الأولين" المساهمة في النفقة عليه، وكانوا قد كسبوا أموالا بالغنائم والتجارة : ساهم أبو بكر بأربعة آلاف درهم، وعمر بن الخطاب بنصف أمواله، وتكفل عثمان بثلث نفقة الجيش كله، ويقال إنه أنفق ألف دينار[3]. ومضى الرسول

---

3 - الواقدي، كتاب المغازي، ج 3، ص 1 99.

(ص) على رأس هذا الجيش الذي عانى كثيرا في تجهيزه حتى سمي بـ "جيش العسرة". ويقال إنه كان يضم ثلاثين ألف مقاتل وعشرة آلاف فرس[4]. ولكنه ما إن أخذ يتقدم نحو تبوك، على مشارف الشام، حتى بدأ بعض رجاله يتملصون وينسحبون تحت تأثير ما كان يروج في صفوفهم من كلام حول صعوبة مواجهة الروم وما تنطوي عليه العملية من خطورة. وعندما وصل النبي إلى تبوك وجد أن هرقل قد غادرها إلى حمص، فجاءه أهل بعض تلك النواحي وصالحوه على الجزية، وبعث خالد بن الوليد في سرية إلى بعض المناطق المجاورة فصالحوه على الجزية أيضا، ثم عاد الرسول (ص) إلى المدينة وكان هذا آخر خروج له للحرب (السنة التاسعة للهجرة).

وتنزل سورة تبوك لتخصص القسم الأكبر منها لذكر ما عاناه الرسول في تجهيز جيش هذه الغزوة وما حصل خلال ذلك وأثناء الرحلة من أنواع السلوك والتصرفات التي تميط اللثام عن بعض جوانب الوضعية التي أصبح عليها واقع مجتمع الدعوة/الدولة الجديد. والحق أن سورة "التوبة" التي نزلت قبل سنة من وفاة الرسول (ص)، وتفيد روايات معتبرة أنها آخر سورة نزلت من القرآن[5]، قد جاءت بمثابة تقرير نقدي، قوي وشديد، عن الوضعية الداخلية في دولة الدعوة. لقد نددت بجوانب الضعف وأوضحت المسؤوليات، ولكن من موقف القوة والشدة لا من موقف اللين والضعف. ولعل مما له دلالة أنها السورة الوحيدة التي لا تبدأ بـ "بسم الله الرحمان الرحيم"، بل دخلت في الموضوع مباشرة. ونظرا لما في عباراتها من قوة وشدة سماها المفسرون بأسماء عديدة. يقول الزمخشري : سورة التوبة "لها عدة أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافزة، المنكلة، المدمدمة، سورة العذاب. ذلك لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي تتبرأ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها، وتثيرها، وتحفر عنها وتفضحهم، وتنكلهم، وتشرد بهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم". ويضيف الزمخشري: "وعن حذيفة رضي الله عنه : إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هي سورة العذاب. والله ما تركت أحدا إلا نالت منه. فإن قلت : هلا صدرت بآية التسمية (=بسم الله الرحمان الرحيم) كما في

---

4 - الواقدي، نفس المرجع، ج 2، ص 102.

5 - السيوطي، الإتقان ، ص 10-87، البخاري، ج 6، ص123، الزمخشري، ج 2، ص 723

سائر السور؟ سئل ابن عيينة رضي الله عنه فقال : اسم الله سلام وأمان فلا يكتب في النبذ... والمحاربة".

هذا وقد اتّفقت الروايات على أنّ النبي عليه السلام لمّا قفل من غزوة تبوك، في رمضان سنة تسع، عقد العزم على أن يحجّ في شهر ذي الحجّة من عامه، ثم أمسك عن الحجّ تلك السنة، وأمّر أبا بكر الصديق على أن يحجّ بالمسلمين، وأمَره أن يخبر المشركين بأن لا يحجّ بعد عامه ذلك مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان –على عادة العرب قبل الإسلام– وبعث معه بأربعين آية من صدر سورة براءة (في مصحفنا 37 آية). ثم أردفه بعلي بن أبي طالب ليقرأها على الناس.

نص السورة

1– مقدمة : بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ...

(هذه) بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[1] (فسخ لما يربط المسلمين بهم من معاهدات) : فَسِيحُوا (أيها المشركون) فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ (لكم أجل أربعة أشهر)، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ[2] (6).

---

6 – الطبري: "اختلف المفسرون فيمن بريء الله ورسوله إليه من العهد الذي كان بينه وبين رسول الله من المشركين فأذن له في السياحة في الأرض أربعة أشهر، فقال بعضهم: صنفان من المشركين: أحدهما: كانت مدة العهد بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلّم أقلّ من أربعة أشهر، وأمهِل بالسياحة أربعة أشهر، والآخر منهما كانت مدة عهده بغير أجل محدود فقصّر به على أربعة أشهر ليرتاد لنفسه، ثم هو (يصبح في حالة) حرب بعد ذلك لله ولرسوله وللمؤمنين، يُقتَل حيثما أدرك ويؤسر إلا أن يتوب". وبعد أن استعرض الطبري مختلف الأقوال في الموضوع، أدلى برأيه فقال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الأجل الذي جعله الله لأهل العهد من المشركين وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله: فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله (ص) لى الله عليه وسلّم ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه، فإن الله جلّ ثناؤه أمر نبيه صلى الله عليه وسلّم بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله: إلا الذين عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ

2- وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَتَخْشَوْنَهُمْ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ...

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، فَإِنْ تُبْتُمْ (أيها المشركون) فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[3]، إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ؛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ[4]. فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[5]. وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ (طلب جوارك وحمايتك) فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ[6]. كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،

عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ إنَّ الله يُحِبُّ المُتَّقِينط. وأضاف : فإن ظنّ ظانّ أن قول الله تعالى ذكره: فإذا انسلَخ= الأَشْهُرُ الحُرُمُ فاقْتُلوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ يدلّ على خلاف ما قلنا في ذلك، إذ كان ذلك ينبيء عن أن الفرض على المؤمنين كان بعد انقضاء الأشهر الحرم قتل كل مشرك، فإن الأمر في ذلك بخلاف ما ظن، وذلك أن الآية التي تتلو ذلك تنبيء عن صحة ما قلنا وفساد ما ظنه من ظنّ أن انسلاخ الأشهر الحرم كان يبيح قتل كل مشرك كان له عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلّم أو لم يكن له منه عهد، وذلك قوله: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إلاّ الّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرامِ فَما اسْتَقامُوا لَكُمْ فاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إنّ اللّهَ يُحِبُّ المُتّقِينَ فهؤلاء مشركون، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلّم والمؤمنين بالاستقامة لهم في عهدهم ما استقاموا لهم بترك نقض صلحهم وترك مظاهرة عدوّهم عليهم. وبعد: ففي الأخبار المتظاهرووجهتّه البلقاء (المملكة الأردنية الهاشمية)، وكان الجيش الثاني بقيادة شرحبيل بن حسنة، ووجهتّه منطقة بصرى.ة عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه حين بعث عليًّا رضي الله عنه ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم أمره فيما أمره أن ينادي به فيهم، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلّم عهد، فعهده إلى مدته أوضح= الدليل على صحة ما قلنا وذلك أن الله لم يأمر نبيه صلى الله عليه وسلّم بنقض عهد قوم كان عاهدهم إلى أجل فاستقاموا على عهده بترك نقضه، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض عهده قبل التأجيل أو من كان له عهد إلى أجل غير محدود، فأما من كان أجل عهده محدودا ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلاً، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان بإتمام عهده إلى غاية أجله مأمورا، بذلك بعث مناديه ينادي به في أهل الموسم من العرب"

فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ (7)، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ[7]؟ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ (إن يتفوق هؤلاء المشركون عليكم) لَا يَرْقُبُوا (لا يراعوا) فِيكُمْ إِلًّا (قرابة) وَلَا ذِمَّةً (عهدا)، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ! وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ[8]. اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[9]. لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ[10]. فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ؛ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[11]. وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ، إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ، لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ[12]. أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ (فأخرجوه)، وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أَتَخْشَوْنَهُمْ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[13]. قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ[14]، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[15]. أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً (أولياء)؛ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[16].

3- مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّه شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ...

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ، وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ[17]. إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ، فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ[18]. أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ (8) لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[19]. الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ[20]. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ

---

7 - يتعلق الأمر بقبائل بني بكر الذين كانوا دخلوا في عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية إلى المدة التي كانت بين رسول الله (ص) وبين قريش، فأمر بإتمام العهد إلى مدته لمن لم يكن نقض عهده منهم.

8 - قيل، المعنيُّ هنا هو عم النبي العباس بن عبد المطلب، وأنه: "حين أُسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاجّ، ونفك العاني قال الله: أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاجّ. إلى قوله: الظَّالِمِينَ. يعني أن ذلك كان في الشرك، ولا أَقْبَلُ ما كان في الشرك".

مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ[21]، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ[22].

4- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا (ممن لم يهاجروا وفضلوا البقاء في مكة) لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[23]. قُلْ (قل لهم يا محمد) إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا (هو سبب تقاعسكم عن الهجرة)، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[24]. لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ: وَيَوْمَ حُنَيْنٍ [(9)] إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ[25]، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ[26]؛ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[27]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا (تتركوهم) يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً (حاجة وفقرا) فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[28].

5- هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ...

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ

---

9 - إشارة إلى معركة حنين (وحنين ماء بين مكة والطائف) التي قاتل فيه الرسول وجنده قبائل هوازن وثقيف. ذكروا أنه خرج يومئذ مع الرسول اثنا عشر ألفا، عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وألفان من الطلقاء، فكان النصر للمسلمين في نهاية المطاف. فلما أخذ الرسول في توزيع الغنائم تألف أناسا من الناس فيهم أبو سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل= بن عمرو والأقرع بن حابس، فقالت الأنصار: حنَ الرجل (أي الرسول) إلى قومه. فبلغ ذلك رسول الله فقال: «يا مَعْشَر الأنْصار، ما هَذا الذي بَلَغَني؟ ألَمْ تَكونوا ضُلاَّلاً فَهداكُمُ اللهُ، وكُنْتُمْ أذِلَّةً فَأعَزَّكُمُ اللهُ وكُنْتُمْ، وكُنْتُمْ ... يا مَعْشَرَ الأنْصارِ أمَا تَرْضَوْنَ أنْ يَنْقَلِبَ النَاسُ بالإبِلِ والشاءِ، وتَنْقَلِبُونَ بِرَسُولِ اللهِ إلى بُيوتِكُمْ؟" فسكتوا ورضوا.

يَدٍ (يعطونها بأيدهم) وَهُمْ صَاغِرُونَ[29] (وذلك هو الصغار) [10]. وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ[30]. اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ[31]. يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ[32]. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ[33]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[34]. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ: هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ[35]. إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ (هي رجب، وذو القعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، وَالمُحَرَّمُ). ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ (لا تخرقوا حرمتها فلا قتال ولا عدوان ولا ظلم)، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً (جميعا) كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً (جميعا من غيرِ تمييزٍ)، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ[36]. إِنَّمَا النَّسِيءُ [11] زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ (ليوافقوا عدد) مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ؛ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ[37].

6- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ ...

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا (اخرجوا غزاة) فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ[12]! أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ

---

10 – قال الطبري: "ومعنى الكلام: حتى يعطوا الخراج عن رقابهم الذي يبذلونه للمسلمين دفعا عنها".

11 – عن ابن عباس: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ قال: فهو شهر المحرّم: كان يحرّم عاما وصفر عاما، وزيد صفرُ آخر في الأشهر الحرم، وكانوا يحرّمون صفرا مرّة ويحلونه مرّة، فعاب الله ذلك، وكانت هوزان وغطفان وبنو سليم تفعله".

12 – أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعد الطائف، وبعد حنين. أمروا بالنفير في الصيف حين خُرِفَت النخل، وطابت الثمار، واشتهوا الظلال، وشقّ عليهم المخرج.

الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ[38]! إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ (الله) عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا؛ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[39]. إِلَّا تَنْصُرُوهُ (محمدا) فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ: إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ، إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، إِذْ يَقُولُ (الرسول) لِصَاحِبِهِ (أبي بكر): لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا؛ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[40]. انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا (شبانا وكبارا) وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[41].

7- أعذار المنافـقـين ...

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ! وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ (المسافة)، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ، يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ! وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[42]. عَفَا اللَّهُ عَنْكَ! لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ (لمن اعتذر منهم في عدم الخروج) حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ[43]؟ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ[44]. إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ[45]. وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً، وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ (خروجهم) فَثَبَّطَهُمْ، وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ[46]. لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا (فسادا وضررا)، وَلَأَوْضَعُوا (لأسرعوا) خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ، وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ[47]. لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ، وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ كَارِهُونَ[48]. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي (اتركني لا تبتليني برؤية نساء الروم وبناتهم)! أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ[49]. إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ، وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ[50]. قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا، هُوَ مَوْلَانَا؛ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[51]. قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ (إما النصر والغنيمة وإما الشهادة والجنة)؟ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا، إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ[52].

8- وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ الخ.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ، إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ[53]. وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ

إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى، وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ[54]. فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ[55]. وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ[56] (يخافونكم) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا (حفرة في الأرض) لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ[57] (مسرعين). وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ (يطعن في توزيعك) فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ[58]. وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ، إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ[59]. إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ (المقيمين في بيوتهم) وَالْمَسَاكِينِ (الذين يسعون ويطلبون الصدقة) وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا (جامعيها) وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ (الذين يُستمالون بالعطاء من المسلمين الجدد) وَفِي الرِّقَابِ (الأرقاء المكاتبون يعطون لاسترجاع حريتهم) وَالْغَارِمِينَ (الذين عليهم ديون بسبب حادثة أفقدتهم كل شيء كالحريق...) وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ (للدفاع عن الإسلام) وَابْنِ السَّبِيلِ (المسافر الذي لم يعد لديه ما يمكنه من متابعة طريقه)، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ (نصيب خصهم الله به)؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[60].

9- الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ...

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ : هُوَ أُذُنٌ (يتأثر بما يقال له)! قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ (خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل منكم ما تقولون)، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ (يصدق به) وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ (يصدقهم، ولا يصدق الكاذبين أمثالكم)، وَ(هو) رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ؛ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّه لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[61]. يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ، إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ[62]. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ (يخالف ويحارب) اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا؟ ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ[63]. يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، قُلِ اسْتَهْزِئُوا؛ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ[64]. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ[65]؟ لَا تَعْتَذِرُوا! قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ[66]. الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ (عن النفقة). نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[67]. وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ

خَالِدِينَ فِيهَا، هِيَ حَسْبُهُمْ، وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ[68]. كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا، فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ (من الكذب وغيره) فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[69]. أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[70].

10- وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ؛ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[71]. وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ؛ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[72]. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[73]. يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا! وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ [(13)]، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا (هموا أن يتخلصوا من النبي فما استطاعوا)، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ [14]، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[74]. وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ: لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ[75]. فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ[76]. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ[77]. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ[78]. الَّذِينَ يَلْمِزُونَ (يتهمون بالرياء) الْمُطَّوِّعِينَ (المتطوعين فوق المطلوب) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ، وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[79]. اسْتَغْفِرْ

---

13 – قيل: إشارة إلى رجل قال : "إن كان ما جاء به محمد حقًا، لنحن أشرّ من حميرنا هذه التي نحن عليها"، فأخبر الرسول بذلك واستدعاه، فأنكر وحلف أنه لم يقل ذلك، فنزلت ....

14 – قيل كان الذي قال كلمة الكفر واسمه الجلاس قد قتل له مولى له، فأمر له الرسول بديته، فاستغنى، فذلك قوله: وما نقموا إلا أنْ أغناهُمُ اللَّهُ ورسولُه مِنْ فضلِه

لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ! إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[80].

11- فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ، وكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا ...

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ (الذين تُركوا في منازلهم ولم يخرجوا مع الرسول) خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ، بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ (حرارة الصيف)! قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ[81]. فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[82]. فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ (رجعت من الغزوة) إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا، وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ؛ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ[83] (القاعدين من المرضى والمعوقين). وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ[84]. وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ[85]. وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ (الأغنياء) مِنْهُمْ وَقَالُوا: ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ[86]. رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ (كالنساء)، وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ[87]. لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[88]. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[89].

12- ليس عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ (المعتذرون) مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[90]. لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ؛ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[91] وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ[92]. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ (مع النساء)، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[93]. يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا! لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ، قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ

وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[94]. سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[95]. يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ[96]. الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا، وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[97]. وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا (غرما وغصبا)، وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ؛ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[98]. وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ، سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[99].

13- وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ، وَمِنْ أَهْلِ المدينة ... كذلك..

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا؛ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[100]. وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا (تدربوا) عَلَى النِّفَاقِ، لَا تَعْلَمُهُمْ! نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ. سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ[101]. وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[102]. خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ، إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ؛ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[103]. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[104]. وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[105]. وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ (متروكون) لِأَمْرِ اللَّهِ: إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[106].

14- وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ،

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا[15] وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى، وَاللَّهُ يَشْهَدُ

---

15 – كان قوم من المنافقين أتوا الرسول وهو يتأهب لغزوة تبوك، فقالوا له : إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية. وطلبوا منه أن يصلي فيه.

إنهُمْ لكاذِبُونَ[107]. لا تقمْ (لا تصلي) فِيهِ أبَدًا. لمَسْجِدٌ أسِّسَ عَلَى التقوَى مِنْ أوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ؛ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ[108]. أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ، أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؟ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[109]. لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ، إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[110].

15- إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ..

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ: يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ. وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[111]. التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ؛ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ[112]. مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ[113] (16). وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ (وعد) وَعَدَهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ (رحيم) حَلِيمٌ[114]. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ؛ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[115]. إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[116].

---

16 – قالوا : "لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عَمِّ قُلْ لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ كَلِمَةً أشْهَدُ لكَ بها عندَ اللَّه. قال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «واللهِ لأستغفرنَّ لكَ ما لمْ أنْهَ عَنْكَ". حدث ذلك عند وفاة أبي طالب الذي كان يحمي النبي من قريش، وكانت وفاته قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين. وفي هذه الآية نوع من العتاب للنبي لكونه قال له : "وَاللَّهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ". والمقصود هنا حث المسلمين بالمدينة على القطيعة مع أقاربهم الكفار.

16- لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ (غزوة تبوك) مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ (من شدة الحر والضيق)، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[117]. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا (والذين قال عنهم قبل : "وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ الآية 106)"، حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ (وفقهم للتوبة) لِيَتُوبُوا؛ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[118]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ[119]. مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ (مجاعة) فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ، وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ[120]. وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً، وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[121]. وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً (ليس من الواجب أن يخرجوا كلهم للحرب)، فَلَوْلَا (الأحسن أن يبقى منهم) نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ: مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ[122]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ[123]. وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ[124]. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا (نفاقا ونتنا) إِلَى رِجْسِهِمْ، وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ[125]. أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ (بالأمراض والأوجاع الخ)، ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ، وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ[126]. وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ (تفضح نفاقهم) نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ (يتساءلون من أخبر الرسول بما قالوا أو فعلوا نفاقا)، ثُمَّ انْصَرَفُوا، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (عن الاهتداء) بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ[127] (لا يعقلون ولا يعتبرون).

17- خاتمة: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ..

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (من بينكم)، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ (صعب عليه ما تعانون من مشاق)، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[128]. فَإِنْ

تَوَلَّوْا (فإن أعرضوا عنك) فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ"[129].

– تعليق

تتألف هذه السورة من قسمين رئيسيين: أولهما: الإعلان عن إلغاء المعاهدات التي أبرمها الرسول من قبل مع مشركي مكة لأسباب تشرحها السورة، ويشغل هذا الموضوع الفقرات الخمس الأولى (إلى الآية 37). أما القسم الثاني وهو باقي السورة (ابتداء من الفقرة السادسة، الآية 38) فيشرح ما عاناه الرسول في تجهيز جيش غزو تبوك، مع فضح مفصل لمواقف المنافقين ومن في معناهم ممن كانوا يلتمسون الأعذار لإعفائهم عن الخروج مع الرسول. وفيما يلي عرض لمضمون هذين القسمين، كلا على حدة.

2/1– في الفقرة الأولى والثانية تعلن السورة التوبة عن نقض وإلغاء ما كان الرسول (ص) قد أبرمه من معاهدات عدم اعتداء مع المشركين، وتمنحهم أربعة أشهر كآخر أجل لإعلان إسلامهم أو وضع أنفسهم في موقع العدو– باستثناء أولئك الذين أبرمت معهم معاهدة لمدة معينة ولم ينقضوها، فهؤلاء يمهلون حتى تنتهي تلك المدة، قيل ومنهم أهل الحديبية. ثم تذكر السورة المسلمين بأن المشركين لم يلقوا السلاح بعد، وأنهم سيواصلون محاربتهم والتآمر ضدهم، مما يجعل المعركة قائمة ويفسح المجال للاختبار والامتحان فيتبين المؤمنون الصادقون من غيرهم.

3– ثم تنتقل السورة في الفقرة الثالثة إلى أولئك الذين –من المسلمين– يشفعون لأنفسهم بكونهم قد عملوا قبل الإسلام على عمارة المسجد الحرام وسقاية الحجاج فتبّن لهم أن عمارة المسجد الحرام في حال الكفر ليست بشيء وأن سقاية الحاج لا يمكن أن تعدل وتساوي الإيمان بالله واليوم الآخر، إن ذلك يعني أن "مآثر" الجاهلية لا اعتبار لها في الإسلام، وبالتالي فمراتب الناس وتراتبهم الاجتماعي يجب أن يتغير ليصبح مبنيا على "السابقة في الإسلام".

4– وهكذا تؤكد السورة أن الذين آمنوا قبل الهجرة وعانوا من اضطهاد قريش، ثم هاجروا تاركين أموالهم وديارهم ثم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، هؤلاء لا يمكن أن يكونوا على درجة سواء مع غيرهم من الذين أسلموا بعد فتح مكة : أولئك "قطعوا" مع الآباء والأبناء والأموال والأزواج، وهؤلاء لم يفعلوا، بل اتخذوا من أولئك أولياء لهم من دون الله، فكيف يستوون؟ وإذا كان تعداد الجيش قد ازداد

بالمسلمين الجدد فإن الكثرة ليست هي التي تأتي بالنصر. فلقد كان النصر حليف المسلمين يوم كانوا قلة من المؤمنين الصادقين، وكادت تلحق بهم الهزيمة في "حنين"، رغم كثرة عددهم.

5- ثم ترد السورة في الفقرة الخامسة على أولئك الذين كانوا يشتكون من كون "القطيعة" مع المشركين وما تقتضيه من منعهم من الحج سيترتب عنها نقصان عائدات الحج عنهم مما يؤدي بهم إلى الفقر، ترد على هؤلاء بتوجيه أنظارهم إلى قتال المشركين من أهل الكتاب (الذين قالوا عزير ابن الله وهم اليهود، أو المسيح ابن الله وهم النصارى) حتى يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون. والجزية في هذه الحالة ستعوض عائدات الحج. وهنا تحذر السورة من أكل أموال الناس بالباطل، ومن كنز الذهب والفضة، ومن الإعراض عن الإنفاق في سبيل الله (لتجهيز الجيوش خاصة). كما تحذر من كسب المال عن طريق التلاعب بالشهور وحرمتها ثم تحدد الأشهر الحرم وتحرم "النسيء"، أي التمديد في هذه الأشهر بتأخيرها أو الزيادة فيها، لتخلص بعد ذلك إلى نوع صريح وعنيف من "المكاشفة" واللوم والعتاب مما يعطينا صورة واضحة عن "الوضعية الداخلية" في دولة الدعوة يومئذ. وقد خصصت لهذا الموضوع بقية السورة (الفقرات 6-14)

- تبدأ الآية الثامنة والثلاثون الحديث عما حصل من تقاعس وتهرب، حين الاستعداد لغزوة تبوك، بلهجة عنيفة فيها تقريع وتوعد: "يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض" الخ، وتخاطب السورة المتثاقلين المتقاعسين فتذكرهم بأن الله نصر نبيه حين كان ثاني اثنين حين الهجرة: "إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها" الخ. ثم تستحثهم على الخروج مع النبي لقتال المشركين والمتربصين بالدولة الجديدة : "انفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله".

- وتنتقل السورة إلى المتقاعسين من أصحاب الأموال الذين تحركهم "الغنيمة" أكثر مما يحركهم شيء آخر فتقول عنهم مخاطبة النبي : "لو كان عرضا قريبا (غنيمة سهلة) وسفرا قاصدا (لا مشقة فيه) لاتبعوك" الخ، ويتوجه الخطاب إلى النبي ويعاتبه على أن أذِن بالقعود لمن استأذنوه مدلين بأعذار واهية: "عفا الله عنك، لِمَ أذنت لهم" الخ، وتشير السورة إلى أحد كبار المتمولين من أهل المدينة، اسمه الجد بن قيس الذي اعتذر للنبي عن الخروج إلى غزو الروم

بدعوى أن الأنصار يعلمون أنه مغرم بالنساء، ولذلك فهو يخاف أن يفتتن إذا رأى نساء "بني الأصفر" أي بنات الروم، فتقول في شأنه : "ومنهم من يقول ائذن لي (بالقعود) ولا تفتني" الخ.

– وتعرض السورة لجماعة كانوا ينتقدون الكيفية التي وزع بها النبي الغنائم. خصوصا على المؤلفة قلوبهم، وقيل هو ذو الخويصرة التميمي الذي سبقت الإشارة إليه، وقيل هم جماعة من المنافقين قال بعضهم : "ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم وهو يزعم أنه يعدل"، يقول تعالى : "ومنهم من يلمزك في الصدقات، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون" الخ، وبهذه المناسبة تنزل الآية التي تحدد هوية المستحقين للصدقات (الزكاة) : "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين رفي سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم" (58 – 60).

– وتفضح السورة سلوك جماعة أخرى كانوا يقولون إن النبي (ص) يسمع لأي كان: "ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن. قل أذن خير لكم، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين (يصدقهم) ورحمة للذين آمنوا منكم". ويروى أنه "بينما رسول الله (ص) يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل، يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه، هيهات هيهات"! فلما وقف النبي لتوبيخهم على ما صدر منهم أنكروا وقالوا إنما كنا "في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر"، فردت السورة عليهم :"لا تعتذروا، قد كفرتم بعد إيمانكم") الخ. ثم تشير إلى تآمر جماعة منهم على أن يدفعوه عن راحلته ليلا إلى الوادي، وبدءوا في تنفيذ المؤامرة، غير أن بعض الصحابة على رأسهم عمار، أنقذوا الموقف".

– وتعرض السورة لطائفة أخرى من أثرياء "الغنيمة" الذين بخلوا عن الإنفاق على جيش تبوك واستهزءوا من الصحابة الذين أنفقوا بسخاء: "الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم، سخر الله منهم ولهم عذاب أليم. استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله. والله لا يهدى القوم الفاسقين".

– وتنتقل السورة إلى الذين اعتذروا عن الخروج إلى تبوك بدعوى شدة الحر، في حين أنهم إنما فعلوا ذلك حرصا على أموالهم وجني ثمارهم: "وقالوا لا

تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون"، وتوصي السورة النبي عليه السلام بعدم التعامل معهم مستقبلا: فإن رجّعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا، ولن تقاتلوا معي عدوا، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين. ولا تصل على أحد منهم مات، أبدا، ولا تقم على قبره. إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون"...

– وهناك طائفة أخرى اعتذرت عن الخروج إلى تبوك وهم "الأعراب"، والمقصود بهم هنا القبائل البدوية القوية مثل قبائل أسد وغطفان، لا القبائل الفقيرة كما سيتبين من السياق : "وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم". أما الضعفاء منهم وهم قبائل مزينة وجهينة وبنو عذرة فلا شيء عليهم : "ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله، ما على المحسنين من سبيل (لمؤاخذتهم)... إنما السبيل (اللوم) على الذين يستأذنونك وهم أغنياء، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف (النساء والصبيان) وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون (...) الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم. ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما (يعتبر ما يعطي من زكاة وصدقات بمثابة إتاوات، وهم أسد وغطفان وتميم) ويتربص بكم الدوائر" (ينتظرون أن يصيبكم مكروه فينقضوا عليكم. وذلك ما حدث فعلا، إذ ما أن شاع، بعد سنة فقط، مرض النبي (ص) حتى ارتدت القبائل المذكورة). (...) "وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق (يمارسونه منذ زمان) لا تعلمهم، نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين (في الدنيا بفضحهم) ثم يردون إلى عذاب عظيم" (يوم القيامة).

– ثم تعرض السورة لطائفة أخرى تخلفوا عن الخروج إلى تبوك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة. ولما عاد النبي (ص) ندموا فأوثقوا أنفسهم في سواري المسجد وحلفوا ألا يحلهم إلا النبي (ص) فحلهم وأخذ ثلث أموالهم وفيهم نزلت الآيات التالية : "وآخرون اعترفوا بذنوبهم (بعدم الخروج) خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم. خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم"...

– وتتحدث السورة عن جماعة أخرى لم يخرجوا مع النبي إلى تبوك، وهم ثلاثة أشخاص تخلفوا كلا ولم يقدموا توبة. "وآخرون مُرْجون لأمر الله (أرجىء اتخاذ القرار في شأنهم)، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم".

ثم قرر النبي في شأنهم أن يهجرهم الناس فبقوا خمسين ليلة لا يكلمهم أحد ثم تابوا فنزلت آية بتوبتهم. انظر لاحقا.

– ثم تنتقل السورة إلى الكشف عن مؤامرة دبرها راهب شارك في القتال مع المشركين يوم أحد وتحدى النبي وقال له : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هاربا إلى الشام وأرسل إلى "المنافقين" أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر وآت بجنود لأخرج محمدا وأصحابه من المدينة. فبنى أصحابه مسجدا بجانب مسجد قباء وقالوا للنبي إننا بنيناه لذي العلة والحاجة والليلة المطرة، وهم إنما أرادوا أن يكون مركزا لتجميع أنصارهم انتظارا لمجيء الروم والانقضاض على المسلمين. فلما عاد النبي (ص) من تبوك وعلم بحقيقة الأمر أمر أصحابه بهدم ذلك المسجد، وإلى هؤلاء ومسجدهم تشير السورة : "والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين،(ينافسون به مسجد قباء) وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل (انتظارا للراهب المذكور) وليحلفُنَّ إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون".

16/15– وبعد فضح تلك الطوائف والجماعات من أصحاب الأموال والأعراب والمنافقين والمتآمرين تنتقل السورة في الفقرتين 16/15 إلى الثناء على المؤمنين الصادقين الذين استجابوا بإخلاص للنبي في دعوته للخروج إلى تبوك، ثم تعود السورة لتعاتب النبي وبعض الصحابة لكونهم أرادوا أن يستغفروا لآبائهم وقد ماتوا على الشرك : "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (وكان بعض الصحابة يحتجون باستغفار إبراهيم لأبيه الذي كان مشركا، ويأتي الجواب : "وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه (مجرد وعد) فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم لاواه رحيم". وتعود السورة إلى ظروف التعبئة من أجل الخروج إلى تبوك وإلى ظروف هذه الغزوة فتشير إلى الثلاثة الذين تخلفوا في المدينة –وكان النبي قد أمر بمقاطعتهم– وتعلن قبول توبتهم. "وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت (بسبب المقاطعة) وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم". ثم تتوجه السورة إلى المؤمنين جميعا وتطلب منهم أن يكونوا مع الصادقين، من المهاجرين والأنصار، وتخاطب أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب لتحثهم على الامتثال للرسول (ص) وعدم التخلف عن الخروج معه

للقتال. ثم تؤكد السورة مجددا ضرورة التعامل بالشدة مع الكفار والخروج لقتالهم الأقرب فالأقرب.

17 – وتأتي خاتمة السورة كالنتيجة والخلاصة لكل ما سبق : "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم (صعب عليه ما تعانونه من مشاق) حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرض العظيم". وروي أن هذا آخر ما نزل من القرآن.

* * *

وبعد، فيقول ابن إسحاق "وكانت براءة تسمى في زمان النبي (ص) وبعده بـ "المبعثرة، لما كشفت من سرائر الناس". والواقع أنه من وراء "سرائر الناس" تلك يلمس الباحث عن قرب حقيقة الوضعية التي سيترك النبي (ص) عليها هذه الدولة الجديدة. لقد خرج الرسول إلى تبوك في رجب من السنة التاسعة وعاد منها إلى المدينة في رمضان من نفس السنة. وبعد شهرين بعث أبا بكر أميرا على الحج، ونزلت سورة براءة. وفي العام التالي حج الرسول "حجة الوداع" وعاد إلى المدينة وتوفي في 12 ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة.

ترى ماذا حدث في هذه الفترة الفاصلة بين غزوة تبوك ووفاة النبي، فترة سنة ونصف؟

كان أبرز حدث في السنة التاسعة بعد عودة النبي من غزوة تبوك هو إسلام ثقيف ومبايعتها للنبي. بعد أن كان قد تركها وشأنها بعد حصارها مدة. وهكذا انضمت ثقيف إلى قريش حليفتها التي استسلمت، وبذلك تأكد انتصار النبي على مكة والطائف. وكان من نتيجة ذلك أن أخذت القبائل العربية الأخرى، التي كانت تراقب الوضع باهتمام، تتوافد على المدينة لتهنئة النبي بالنصر وإعلان دخولها في الإسلام. وقد سميت هذه السنة، السنة التاسعة، بـ "سنة الوفود". وقد تتابعت الوفود في السنة العاشرة حتى أصبحت الجزيرة العربية تدين كلها بالولاء للرسول، وقد عين عليه السلام عماله في المناطق والقبائل : من اليمن جنوبا إلى مشارف الشام شمالا وحدود العراق شرقا. غير أن الشيء الذي يجب أن لا يغرب عن البال هو أن إسلام القبائل، كإسلام الأعراب عموما وإسلام من أطلق عليهم اسم "المنافقين" في المدينة وإسلام من أسلم من قريش يوم استسلام مكة، وهم "الطلقاء" وإسلام ثقيف بعد ذلك، كل ذلك كان في الجملة إسلاما سياسيا أكثر منه إسلاما عقائديا. لقد كان من قبيل ذلك الولاء الذي اعتادت القبائل العربية في الجاهلية أن تمنحه لزعيم القبيلة التي تنتصر في غزواتها و"تدوخ البلاد" و"تملك".

وكان عنوان هذا الولاء هو دفع "الإتاوة" والامتناع عن محالفة والأعداء، وفي الغالب كان هذا الولاء ينتهي بموت الزعيم الذي كان الولاء له. وهذا ما حصل فعلا: فما أن سمعت القبائل بمرض النبي (ص) حتى بدأت ترتد. لقد رأى أهل القبائل كيف أن النبوة قد أدت إلى "ظهور" محمد وقريش على العرب جميعا فقاموا يقلدون هذا النموذج : قبائل تلتف حول كاهن أو ساحر يدعي النبوة ثم تنطلق في الغزو تريد الانقضاض على قريش و"ملكـ" ـها. إنها "الردة" التي ستنتشر كالنار في الهشيم بمجرد مرض الرسول، مرض وفاته.

ومما يلفت النظر في هذا المجال أن القبائل كلها قد ارتدت (خاصة وعامة)، ما عدا قريشا وحليفته ثقيف، وهما القبيلتان اللتان كانتا الخصم اللدود للدعوة المحمدية. لم ترتد هاتان القبيلتان لأن دولة الدعوة المحمدية كانت قد أخذت تتطور في الاتجاه الذي يجعل منها دولة قريش. وقد بينا ذلك من خلال تتبع مواقف أبي سفيان منذ بداية النبوة -حين رد بقوة على أبي جهل زعيم المخزميين المنافسين لبني عبد مناف (بنو هاشم وبنو أمية) حين سخر من أن يكون محمد نبيا- إلى إعلانه استسلام مكة للرسول محمد بن عبد الله، مناديا "من دخل دار ابي سفيان فهو آمن"! وفضلا عن الحصة السمينة التي حصل عليها من الرسول، هو وابناه، يزيد ومعاوية، من غنائم حنين، بوصفهم من المؤلفة قلوبهم، فقد عين معاوية من بين كتاب الوحي وعين أخاه يزيد زمن أبي بكر قائدا لجيش فتح البلقاء بالشام (الأردن حاليا)... وقد كتب المقريزي رسالة فريدة في البحث عن الأسباب التي جعلت دولة الإسلام تؤول إلى بني أمية، ختمها بقوله: "فانظر كيف لم يكن في عمال رسول الله (ص) ولا في عمال أبي بكر وعمر (رض) أحد من بني هاشم. فهذا وشبهه هو الذي حدد أنياب بني أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وفتل أمراسهم" [17].

هذا، ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نقرر في مرويات تنسب إلى النبي عليه السلام أحاديث كلها تشاؤم بالمستقبل وتنبؤ بانهيار البناء الأخلاقي الذي أقامه وبطغيان الانتهازية والصراعات السياسية بعده الخ فإن الشيء المؤكد هو أنه عليه السلام قد فارق الحياة وهو منفعل ومتأثر ومبتهج بالوفود الكثيرة التي جاءته لتهنئه بالنصر، وأنه رأى فيها انتهاء مهمته، وبالتالي قرب أجله. وقد جاء الوحي بما يلمح إلى ذلك، أعني "سورة النصر" التي سننتقل إليها الآن.

---

17 - انظر نص الرسالة في كتابنا : العقل السياسي العربي. الفصل الرابع الفقرة 5

114- سورة النصر

- تقديم

اختلاف طويل عريض حول مناسبة نزول هذه السورة، ومع ذلك يكاد جميع المفسرين والرواة يجمعون على أن المقصود بـ"النصر" و"الفتح" في قوله تعالى في أول هذه السورة : "إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ"، هو فتح مكة (حسب قراءتهم لمعنى "إذا جاء"، إما على أنه يدل على "ماض" والمقصود المستقبل، وإما على أنه يشير إلى حاضر...) أما لوائح ترتيب النزول فبعضها يضع هذه السورة قبل (أو بعد) سورة الحشر، على اعتبار أنها نزلت عند مجيء "أهل اليمن" إلى المدينة لنصرة الرسول، والمقصود "مجيء وفد الأشعريين عام غزوة خيبر" في السنة السابعة. هذا بينما رتبت هذه السورة في آخر اللائحة المعتمدة اليوم كلائحة "رسمية"، الشيء الذي يعني أنها آخر سورة نزلت، ربما باعتبار أنها نزلت "عام الوفود" التي جاءت المدينة من جميع أطراف الجزيرة العربية تهنئ النبي عليه السلام بالنصر النهائي بعد إسلام أهل الطائف حلفاء قريش المستسلمة! لقد كان إعلان إسلامهم تعبيرا عن أن "فتح مكة" قد بات فتحا لا رجعة فيه!

ونحن نرى أن معنى "النصر والفتح" في السورة يحيلان فعلا إلى فتح مكة. ولكن بما أن فتح مكة كان في شهر رمضان سنة ثامنة بينما أن إسلام ثقيف (أهل الطائف) كان في رمضان سنة تاسعة، أي بعد نحو شهر من غزوة تبوك التي نزلت فيها سورة التوبة، والتي تهاطلت بعدها على المدينة، من جميع أنحاء الجزيرة العربية، الوفود المهنئة بالنصر النهائي للدعوة المحمدية، فإنه من المعقول تماما ربط سورة النصر بعام الوفود واعتبارها آخر سورة نزلت، فتكون هي أيضا بمثابة تهنئة قرآنية بإكمال الرسول محمد بن عبد الله، تبليغ رسالته ...

وعن ابن مسعود أن سورة "النصر" تسمى أيضا سورة "التوديع"، لما فيها من الإيماء إلى وداعه (ص)، وهذا تزكيه رواية أخرى عن ابن عباس ورد فيهما أنه لما نزلت: "إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ" دعا رسول الله (ص) فاطمة ابنته وقال لها: "قد نُعِيتُ إليَّ نفسي، فبكت". وإذا صح ما روي عن عبد الله بن عمر من أن رسول الله عاش بعد نزول هذه السورة نحواً من ثلاثة أشهر، فستكون هذه

السورة قد نزلت بُعَيد حجة الوداع. (وكانت حجة الوداع: يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، السنة العاشرة، أي ثلاثة أشهر ونصف قبل وفاته عليه السلام في يوم الاثنين 13 ربيع أول من السنة الحادية عشرة، عن عمر يناهز ثلاثا وستين سنة قمرية، أو واحدا وستين سنة شمسية).

- نص السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ[1]، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا[2]، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا[3].

- تعليق

ثلاث آيات –بالمعنى الاصطلاحي لكلمة "آية" (من القرآن)- تعبر عن ثلاث آيات بالمعنى اللغوي لنفس الكلمة، التي تعني على هذا المستوى: العلامة والدليل والحجة الخ.

- "إذا جاء نصر الله والفتح" : (بعد ثلاث وعشرين سنة من الصراع المرير مع قومك قريش والقبائل العربية الأخرى ...)

- "ورأيت الناس" (أولئك الناس الذين كنت تدعوهم إلى الصراط المستقيم، فقابلوا دعوتك بالسخرية والتكذيب والمحاربة ومحاولات الاغتيال... إذا رأيتهم بأم عينك)، "يدخلون في دين الله أفواجا"، (فتلك علامة على أنك قد بلَّغت رسالتك وأدَّيت مهمَّتك. وإذن،)

— "فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ (توجه أنت إلى ربك بالحمد والشكر له) وَاسْتَغْفِرْهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا" (واطلب منه المغفرة لهذه الأفواج التي أسلمت... إنه كان، وسيبقى دائما، يقبل توبة التائبين).

كانت البداية: "اقرأ (بلغ) باسم بك الذي خلق"... ولما تمت "القراءة" وصار الناس "يدخلون في دين الله أفواجا" ... لم يبق للرسول إلا أن يودع مسبحا بحمد ربه، مستغفرا لجميع من آمن به.

أما ما عدا ذلك، فليس من مهمة الرسول. فالرسول مبلغ من الله للناس، وليس رئيسا على الناس. أما حدث بعده، فهو مثل ما حدث قبله، من صنع الناس.

المصادر.

فيما يلي لائحة بأهم المصادر التي اعتمدنا عليها :

• في التفسير

- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري. دار المعرفة. بيروت 1990.

- أبو عبد الله محمد بن أحمد الأندلسي القرطبي : تفسير القرطبي دار الكتب العلمية بيروت دت.

- أبو عبد الله فخر الدين الرازي : تفسير الرازي (مفاتيح الغيب من القرآن الكريم). دار إحياء التراث العربي. بيروت. دت.

جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف. دار الفكر العربي. بيروت . دت.

- محمد طاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير في تفسير القرآن. دار سحنون. تونس 1997

- الحاكم النيسابوري : تفسير الواحدي

• في السيرة والتاريخ

- ابن هشام : سيرة ابن إسحاق لابن هشام. دار المعرفة. بيروت. دت

- عبد الله الخفاجي : السيرة الحلبية. دار المعرفة. بيروت . دت.

- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، : تاريخ الطبري. 8 مجلدات دار الكتب العلمية. بيروت 2003

- ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير: ليدن 1325 هجرية 1212 ميلادية.

موضوعات في التعاليق والاستطرادات
في الكتاب بأجزائه الثلاثة

نثبت فيما يلي لائحة بعناوين موضوعات التعليقات والاستطرادات التي ختمنا بها بعض السور في أقسام الكتاب الثلاثة:

<u>القسم الأول</u>

1- كلام في السحر. (الفلق).
2 – كلام في الوسواس. (الناس).
3- قصة أصحاب الأخدود. (البروج).
4- الرب، الله، الرحمان. (آخر المرحلة الأولى: قريش)
5- مسألة "رؤية الله" يوم القيامة. (القيامة).
6- حروف فواتح السور. (ق).
7- استطراد: الجنة والنار. (القمر)
8- كلام في الجن والشيطان. (الجن).
9- عباد الله وعباد الرحمان. (الفرقان).
10- التوحيد والأصنام والتصوير. (آخر الكتاب الأول)

القسم الثاني

11- الرؤية والكلام وخلق القرآن. (الشورى).

12- بعث الأرواح لا الأجساد وعذاب القبر(النازعات)،

13- إمكانية الحشر وعذاب القبر (الانفطار)..

14- الخلود وحشر الدواب والتناسخ (الانشقاق).

15- مسألة الروح (الإسراء).

16- مسألة الرؤية (المطففين).

17- الهجرة إلى المدينة (الحج).

القسم الثالث

18- مسألة النسخ في القرآن (البقرة).

19- المحكم والمتشابه (آل عمران).

20- نساء النبي (الأحزاب).

21- حول زواج المتعة (النساء).

22- قصة الإفك. (النور).

23- أخبار عن المنافقين (المنافقين).

24- أسباب النزول: تحريم الخمر نموذجا (المائدة).

فهرس القسم الثالث

السور	الموضوع	الصفحة
	مقدمة القسم الثالث	
ترتيب	استهلال	38-35
النزول		
91	سورة البقرة [1]	110-39
92	سورة القدر	114 -111
93	سورة الأنفال	134-115
94	سورة آل عمران	184-135
95	سورة الأحزاب	204-185
96	سورة الممتحنة	210-205
97	سورة النساء	258-211
98	سورة الحديد	266-259
99	سورة محمد	272-267
100	سورة الطلاق	276-273
101	سورة البينة	280-277
102	سورة الحشر	288-281
103	سورة النور	304-289

1 – وقع قلب في الرقم الترتيبي ا لمسجل جنب سورتي البقرة والقدر. والصحيح ما أثبتناه هنا: (91- سورة البقرة، 92 سورة القدر).

104	سورة المنافقون	316-305
105	سورة المجادلة	322-317
106	سورة الحجرات	328-323
107	سورة التحريم	334-329
108	سورة التغابن	338-335
109	سورة الصف	342-339
110	سورة الجمعة	346-343
111	سورة الفتح	354-347
112	سورة المائدة	380-355
113	سورة التوبة	408-381
114	سورة النصر	412-409
	موضوعات في التعاليق والاستطرادات	413